

الإشاعة لأشراط الساعة

تأليف

العالم العلامة المحقق السيد

محمد بن رسول البرزنجي الحسيني

رحمه الله تعالى

(١٠٤٠هـ - ١١٠٣هـ)

مع تعليقات المحدث العلامة

محمد زكريا الكاندهلوي

رحمه الله تعالى

قابله واعتنى به

حسين محمد علي شكري

دار المنهاج

الإشاعة لأشراط الساعة

تأليف

العالم العلّامة المحقّق السيّد

محمّد بن رسول البرزنجي الحسيني

رحمه الله تعالى

(١٠٤٠ - ١١٠٣هـ)

مع تعليقات المحدّث العلّامة

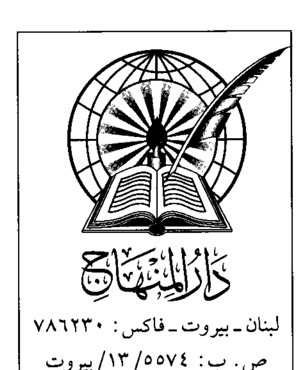
محمّد زكريّا الكاندهلوي

رحمه الله تعالى

قابله واعتنى به

حسين محمّد علي شكري





لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠
ص . ب : ٥٥٧٤/ ١٣/ بيروت

الطبعة الثالثة

منقحة ومصححة ومزيدة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

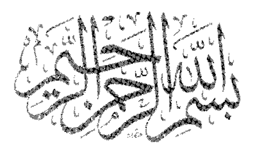
دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

جدة ـ هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ ـ فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ ـ المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَصۡدِيرٌ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ سيد البشر ؛ سيدنا ومولانا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه .

أما بعد :

فقد قال سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الإمام البخاري رحمه الله : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » ، ويشير بإصبعيه فيمدهما .

ولما كان من معاني هـٰذا الحديث : قُرب يوم القيامة فقد جعل الله لها أشراطاً وعلاماتٍ يُعرف منها قُربُ هـٰذا الوقت .

والحكمة في تَقدُّمِ هـٰذه الأشراط ؛ كما ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » (١١/ ٣٥٧) نقلاً عن الإمام الضحاك : إيقاظ الغافلين ، وحثهم على التوبة والاستعداد .

ففي هـٰذه الأشراط عِبرٌ ودروس يلزم كل عاقلٍ النظر فيها وتدبرها ، وأخذ الحيطة في أموره ، والاستعداد ليوم المعاد والحساب .

وقد ألّف كثير من العلماء والحفاظ كتباً وأجزاءً في علامات وأشراط الساعة ، إما إجمالاً بذكر العلامات كلها ، أو تخصيص العلامات الكبرىٰ أو الصغرىٰ ، أو بالتَحدُّثِ عن بعض هـٰذه العلامات والأشراط ؛ مثل المسيح الدجال ، والمهدي عليه السلام .

وهـٰذا المُؤلَّف الذي تشرفت بخدمته وإخراجه في طبعةٍ جديدة مقابلة يُعتبر من تلك الكتب المجملة التي وصلت إلينا ، وهي قليلة ونادرة ، فالمؤلف رحمه الله وضع منهجاً وأسلوباً تفرّد به في تصنيف هـٰذا الكتاب ذكره في مقدمته .

وقد قمت بقراءة الكتاب في طبعته المصورة عن النسخة المطبوعة عام (١٣٢٥هـ) فوجدتها طبعةً سقيمةً ، قد مُلئت بالأخطاء والتصحيفات الكثيرة ، إضافةً إلىٰ وجود سَقطٍ في بعض الصفحات ، ظهر بعد المقابلة بثلاث نسخ خطية لهٰذا الكتاب ، والنسخة المطبوعة المشار إليها .

وعملي في هٰذا الكتاب يتلخص في إجراء مقابلةٍ دقيقةٍ بين هٰذه الطبعة المذكورة وبين أربع نُسخٍ للكتاب ، دون الاهتمام بذكر الفروق بين النسخ ، أو موضع السقط أو الزيادة ، بل كان جُلُّ الاهتمام في إثبات نصٍ كاملٍ للكتاب .

كما أود التنبيه علىٰ أنَّ المُصنِّفَ لم يكن يهتم بذكر نص الأحاديث والآثار بقدر ما يهتم بذكر الشاهد منها ، أو روايتها أقرب ما يكون للمعنىٰ .

وأحمد الله أنني حصلت علىٰ نسخة الشيخ العلاّمة المُحدِّث محمد زكريا الكاندهلوي ثم المدني ، حيث رأيت عليها من الفوائد والتعليقات ما لا يمكن تركها ، فأثبت تلك الفوائد والتعليقات بحاشية الكتاب مع الرمز لها بحرف (ز) ، كما ألحقت بآخر الكتاب ذيلاً لأشراط الساعة ذكره الشيخ رحمه الله في آخر نسخته المطبوعة .

أما النسخ الخطية المعتمدة في مقابلة هٰذه الطبعة فهي :

أ ـ **نسخة مكتبة تشستربتي** : وهي من مصوَّرات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، تحت رقم (٥٣٠٥) ف .

وتقع هٰذه النسخة في (١٢٦) ورقة ، وخطها نسخ معتاد ، وناسخها : محمد إبراهيم بن محمد ياسين ، وتاريخ نسخها (١٧) رجب (١١٠٠هـ) .

وتمتاز هٰذه النسخة بوجود استدراكات علىٰ حاشية النسخة ، كما يوجد بآخرها بلاغ قراءة ومقابلة .

ب ـ **نسخة مكتبة الحرم النبوي الشريف** : وتقع هٰذه النسخة في (٣٨٨) صفحة ، وخطها مغربي ، وناسخها : منصور بن أبي مدين ، وتاريخ نسخها (٢٥) رمضان (١٢٤٨هـ) .

ج ـ **نسخة مكتبة الأحقاف** : وتقع هـٰذه النسخة في (٩٥) ورقة ، وخطها معتاد ، ولـٰكن بها سقط بعض الأوراق من وسطها .

د ـ **نسخة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت** : والمحفوظة تحت الرقم (١٤/ ٢٣٢) وتقع هذه النسخة في (٨١) ورقة ، وخطها معتاد ، وناسخها محمد الأيسر ابن عبد اللطيف الحنبلي ، وتاريخ نسخها (١٢) رجب (١١٥٨هـ) .

والله أسأل أن يجعل ثواب خدمتي لهـٰذا الكتاب في ميزان حسنات والديّ ومشايخي ، وميزان جميع من أحسن إليَّ ، وأن يجزل الثواب والأجر لمن كان سبباً في إخراج هـٰذا الكتاب وجعل خَلفهُ خير خَلف، ويكافئه من جزيل عطاءه، ويعظم له الأجر ، إنه جوادٌ كريم .

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

٢٧/ ١١/ ١٤١٦هـ

المدينة المنورة

وكتبه بالمدينة المنورة

حسين محمّد علي شكري

حامداً لله ومصلياً على النبي

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أجمعين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ أفضل خلقه سيدنا محمدٍ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحابته ومن والاه .

أما بعد :

فإنَّ الله جَلّ شأنه خَلقَ الخَلْق ، وجعل لهم نهاية لا يُستَقدمُ عنها ولا يُستَأخر .

وبكرمه وَمِنّته ـ تعالىٰ شأنه ـ لم يُفْلت الخلق بالنهاية ، ولم يفجأهم فُجاءة ، بل جعل لها علامات وأمارات قريبة ، ومتوسطة ، وبعيدة حتىٰ يَتَهيؤوا لما بعد النهاية ، ويُهَيِّئوا أنفسهم للرحمة أو النِّكاية ؛ فالسعيد من اتعظ بغيره ، وعمل لما بعد الموت ، والشقي من لم يعتبر بغيره ، وَتمنّىٰ على الله الأماني ؛ فإنه لن يَهلِكَ على الله إلاَّ هالك .

فلم يخلُ قرنٌ إلاَّ وأُلِّفَ فيه كتابٌ أو أكثر في هـٰذا القبيل إلىٰ يومنا هـٰذا ، سواء كان كتاباً مستقلاً ، أو أبواباً وَكُتباً في الجَوامع المَدونة الحديثية ؛ كما لا يخفىٰ على المُطّلع .

وأوسع الكتب مادةً ، وأحسنها جمعاً وترتيباً ، وألطفها توفيقاً بين الروايات ، وأصحها تطبيقاً للحديث على الواقعة هو كتاب الإمام ، المحدث ، الفقيه ، الواسع الاطلاع : محمد بن رسول البرزنجي رحمه الله تعالىٰ ، المسمىٰ بـ « الإشاعة لأشراط الساعة » .

أما كونه أوسع مادة فقد جمع كتابه من كُتب الحفاظ المكثرين ؛ كما ذكر هو في المقدمة فقال :

« مأخذ ما نذكره في كتابنا هـٰذا من الأحاديث غالباً كتب الحافظين الإمامين : الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والحافظ جلال الدين السيوطي ؛ كشرح البخاري المسمىٰ : « فتح الباري » للأول .

وكـ« الدُّر المنثور » ، و« الخصائص الكبرىٰ » ، و« جمع الجوامع » ، و« العَرْف الوردي » ، و« الكشف » للثاني .

وكتب الإمام الشريف نور الدين علي السمهودي ، وكتب المحقق علي المتقي ، وقليلاً كتب غيرهم » . إلىٰ آخر ما قال .

وأما كونه أحسنَ ترتيباً وجمعاً فقد أقرَّ به غيره ، وقاله المؤلف بنفسه :

(فانقسمت الأمارات إلىٰ ثلاثة أقسام :

قسمٌ ظهر وانقضىٰ ؛ وهي الأمارات البعيدة .

وقسمٌ ظهر ولم ينقض ، بل لا يزال يتزايد ويتكامل ، حتىٰ إذا بلغ الغاية ظهر .

والقسم الثالث : وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة ، وإنها تتتابع كنظام خرزٍ انقطع سلكها .

فلنذكر كُلّ قسم في باب علىٰ حدته .

وهـٰذا تَرتيبٌ لم أره لغيري ، ولعله أقرب إلى الضبط ، وأنفع للعوام إن شاء الله تعالىٰ) .

وأما كونه ألطف توفيقاً فأقول الكلمة المعروفة : « من لم يذق لم يدر » ؛ فإنه من يطالع كتابه يُدهَش .

طالع مثلاً روايات مُلْك المهدي عليه السلام المتعارضة ، وجمع المؤلف بينها تر العجب . ومثله في الكتاب كثير ، وكثير .

وأما كونه أصح تطبيقاً للحديث على الواقعة فهـٰذا فنٌ صعبٌ يحتاج إلىٰ نظرٍ دقيق ، وبصيرةٍ نافذة ، ولا يجترىءُ عليه كلُّ من هبَّ ودبّ ؛ فإنه يحتاج إلىٰ أن يكون حافظاً لِطُرُقِ الحديث وألفاظه المختلفة ، وفوق ذلك الاستحضار الدقيق لها ، ثم إلىٰ معرفة

الوقائع وتواريخها حتىٰ يطبق الحديث على الواقعات . ومثاله أيضاً في الكتاب كثير وكثير . لا يخفىٰ على القارىء .

كيف لا ؛ ومؤلفه محدِّثٌ ، وَفقيهٌ ، ومؤرخٌ ، ومشاركٌ في أكثر العلوم المتداولة في زمانه ، بل محقِّقٌ فيها ولا نطيل الكلام بذكر ترجمته ؟!

وكان قد اعتنىٰ بكتاب « الإشاعة » شيخنا الإمام المُحدّث الحافظ محمد زكريا الكاندهلوي ثم المهاجر المدني رحمه الله تعالىٰ ، وكانت عنده نسخةٌ من الكتاب مطبوعة قديمة سنة (١٣٢٥هـ) بالقاهرة ، فكان أن جلَّدَها الشيخ رحمه الله تعالىٰ تجليداً ؛ بحيث أدخل بعد كُلِّ ورقة مطبوعة ورقة بيضاء ؛ ليكتب عليها فائدةً تسنح له ، أو لطيفة حديثية تظهر له ، أو تطبيقاً للحديث على الواقعة ، فذكرنا كلام شيخنا رحمه الله تعالىٰ في مواضعه في الحاشية ، وميزناه بحرف : (ز) .

ثم كان الشيخ رحمه الله تعالىٰ أراد أن يكتب ذيلاً علىٰ كتاب « الإشاعة » ، وألحقه في آخر نسخته لـٰكن لم يتمه ، فتتميماً للفائدة ألحقناها في آخر الكتاب ، لـٰكن لما كان كلام الشيخ رحمه الله تعالىٰ إشاراتٍ مستخلصة من الأحاديث المفصلة ، ذكرنا في الحاشية الأحاديث التي أشار إليها الشيخ رحمه الله تعالىٰ .

وعناية شيخنا رحمه الله تعالىٰ بالكتاب ألجأتنا إلى الاعتناء به ؛ فإنه لا يعرف الفضل إلاَّ ذووه .

بل شيخنا رحمه الله تعالىٰ هو الذي أمرنا أن نُرتب ما كُتب على الكتاب من الحواشي في آخر حياته ، ولـٰكن كل شيء مرهون بوقته .

وشيخنا هو الإمام ، المُحدِّث ، الحافظ ، الفقيه ، العابد ، الزاهد ، الورع : محمد زكريا ابن العلامة محمد يحيى الصديقي الكاندهلوي ، ثم المهاجر المدني .

ولد لعشر خلون من شهر رمضان سنة (١٣١٥هـ) ، وأدرك الإمام الكبير الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله تعالىٰ في صباه ، وسعد بحنانه وعطفه ؛ لما كان بينه وبين أبيه من اختصاص .

وأسرة شيخنا معروفةٌ بالعلم والزهد والعبادة ، فَربّاهُ والده تربيةً دقيقةً حسنة ،

فحفظ القرآن الكريم ، ثم الكتب الدينية الابتدائية علىٰ أساتذة الفن في ذلك الوقت ، ثم لما انتقل والده إلىٰ (جامعة مظاهر علوم) بسهارنفور أكمل دراسة الحديث علىٰ أبيه ، وعلىٰ شيخه الإمام خليل أحمد السهارنفوري ؛ صاحب « بذل المجهود في شرح سنن أبي داود » في عشرين مجلداً .

وبعد التخرج بدأ التدريس في نفس الجامعة ، فدرَّس فيها من سنة (١٣٣٥هـ) إلىٰ (١٣٨٨هـ) مختلف الكتب بإتقانٍ وإمعان .

ومن كتب الحديث خصوصاً كان له اشتغالٌ بالتدريس بـ« سنن أبي داود » ، و« صحيح البخاري » أكثر من غيرهما ، فدرَّس « سنن أبي داود » من أوله إلىٰ آخره ثلاثين مرة تقريباً ، و« صحيح البخاري » أكثر من ثلاثين مرةً بشرحٍ مُفصّل .

وَألّفَ تآليف كثيرة بالعربية والأوردية ، أكثر من ستين تأليفاً ، بعضها في خمسة عشر مجلداً .

ورزقت تأليفاته قبولاً حسناً ، وانتشرت في العالم ، فطبع بعضها أكثر من عشر مراتٍ ، بل بعضها بلغت طبعاته أكثر من خمسين مرةً ، وترجمت بعض كتبه إلىٰ أكثر من عشرين لغةً ، وقد ألقى الله محبته في جميع الطوائف المختلفة .

وبالجملة : كان هو رجالاً في رجل واحد .

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالَمَ في واحد

وكانت أوقاته منظمة ؛ لكلّ عملٍ وقتٌ محدَّدٌ لا يجاوزهُ إلىٰ غيره ، وكان لا ينام في الليل والنهار ثلاث ساعات ، بل لا يدع أحداً من خدمه ومرافقيه أن يناموا في الليل والنهار ؛ ولو في أوقات متفرقة أكثر من ثلاث ساعات ، وكان يغضب علىٰ من يرىٰ من مرافقيه ينام كثيراً ، ويقول لهم : (هٰذه الدنيا دار عمل ؛ فاعملوا هنا ، وبعد الموت نِنام) وكثيراً ما كان يتمثل بقول الشاعر :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العُلا سهر الليالي

وهٰذا كان حاله منذ كان عمره عشرين سنة ، إلىٰ أن تُوفّي .

كان لا يعرف الملل ولا الكسل ، ويقضي أوقاته في سبيل العلم والعبادة .

وأما استحضاره لكتب الحديث ، والشروح ، والفقه فحدِّث ولا حرج .

كانت كتب الأحاديث ؛ خصوصاً « صحيح البخاري » والكتب الستة ، بجميع طُرُقِها وألفاظها المختلفة علىٰ طرف لسانه ، وهٰكذا حال الشروح الحديثية والكتب الفقهية ، وهٰذا جربناه كثيراً .

فلما كان في آخر حياته ضعف بصره ، وكان يعتمد علينا في إملاء تأليفاته ، فكان يأمرنا ببحث حديث أو مسألةٍ في كتاب ما ، فإذا لم نجد المسألة في الكتاب كان يقول : (هات الكتاب الفلاني وافتح باب كذا ، واقرأ من صفحة كذا) فنجد المسألة ، أو الحديث .

وهٰكذا كانت حاله في عِبَادة ربه ، وفي قراءة القرآن والذكر حتىٰ جاء أمر ربه ، فلبَّاه بعد العصر من يوم الإثنين من شهر شعبان سنة (١٤٠٢هـ) ، وصُلِّي عليه بعد العشاء ، ودفن بالبقيع بجوار أهل البيت ، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة ولو أطلنا الكلام لاحتجنا إلى مجلد كبير ، ولكن لا يسع هذا المختصر إلاَّ هذا .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم علىٰ حبيبه دائماً وسرمداً .

كتبه : حبيب الله قربان علي

(٢٦/ ١١/ ١٤١٦هـ)

ترجمة المؤلّف (١)

اسمه : هو السيد محمد بن رسول بن عبد السيد بن قلندر الحسيني البرزنجي الشهرزوري المدني .

مولده ونشأته : ولد رحمه الله تعالى بشهرزور ـ قرية من بلاد الكُردِ بالعراق ـ ليلة الجمعة ، ثاني عشر ربيع الأول ، سنة أربعين وألف .

نشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وَجوّدهُ علىٰ والده ، وتخرّج به في بقية العلوم والمعارف .

وقرأ على المُلاّ زيرك ، والعلاّمة المُلاّ شريف الصديقي الكُوراني .

رحلاته : رحل رحمه الله تعالى إلىٰ ماردين ، وحلب ، واليمن ، ودمشق ، ومصر ، وبغداد ، وأخذ عن علماء تلك البلاد ، وانتفع بهم .

ثم قَدِمَ المدينة المنورة ، فلازم فيها خاتمة المحققين العلامة إبراهيم بن حسن الكُوراني ، وكذلك الشيخ أحمد القُشَاشي ، وتصدَّىٰ للتدريس بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

شيوخه : أخذ علومه في بلاده من الملاّ زيرك ، والعلاّمة المُلاّ شريف الصديقي الكُوراني بعد تخرجه علىٰ يد والده .

ثم أخذ بماردين عن الشيخ أحمد السّلاحي .

وبحلب عن أبي الوفاء العُرْضي ، ومحمد الكواكبي .

وبدمشق عن العلامة عبد الباقي الحنبلي ، وعبد القادر الصفوري .

---

(١) مصادر الترجمة : « هدية العارفين » (٢/ ٣٠٢) ، « سلك الدرر » (٤/ ٦٥) ، « معجم المؤلفين » (٩/ ٣٠٨) .

وببغداد عن الشيخ مدلج .

وبمصر عن الشيخ محمد البابلي ، وعلي الشبراملسي ، وسلطان المِزّاحي ، ومحمد العناني ، وأحمد العجمي .

ومن الوافدين علىٰ بلاد الحرمين أخذ عن : الشيخ إسحاق بن جعمان الزبيدي ، وعلي الربيعي ، وعلي العقيبي ، وعيسى الجعفري ، وعبد الملك السجلماسي ، وغيرهم .

مصنفاته وأعماله : كان رحمه الله تعالىٰ من المكثرين في التصنيف ، حيث تربو مصنفاته علىٰ تسعين مؤلفاً ؛ منها :

١ ـ إرشاد الأواه إلىٰ معنىٰ حديث : « من قرأ حرفاً من كتاب الله » .

٢ ـ الإشاعة لأشراط الساعة ، وهو كتابنا هـٰذا .

٣ ـ إضاءة النبراس لإزاحة الوسواس الخناس .

٤ ـ الأعجوبة في أعمال المكتوبة .

٥ ـ أنهار السلسبيل لرياض أنوار التنزيل .

٦ ـ الاهتداء في الجمع بين أحاديث الابتداء .

٧ ـ إيقاظ ذوي الانتباه لفهم الاشتباه الواقع لابن نجيم في الأشباه .

٨ ـ الترجيح والتصحيح لصلاة التسبيح .

٩ ـ تصقيل لوح الإيمان بتنزيه عرش الرحمن .

١٠ ـ رَجْلُ الطاوس في شرح القاموس .

١١ ـ السنا والسنوت في أحكام القنوت .

١٢ ـ رفع الإصر عن معنىٰ كونه صلى الله عليه وسلم أمياً لم ينطق الشعر .

١٣ ـ النوافض للروافض .

١٤ ـ القول السديد في جواب رسم الإمام والتجويد .

١٥ ـ القول المختصر في ترجمة ابن حجر .

١٦ ـ الترغيم والترخيم لمنكر التعظيم والتفخيم .

١٧ ـ خالص التلخيص مختصر تلخيص المفتاح .

١٨ ـ السبيل في إعراب (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

١٩ ـ سَدادُ الدِّين وسِدادُ الدَّين في إثبات النجاة والدرجات للوالدين طبع .

٢٠ ـ الصافي عن الكدر في أحاديث القضاء والقدر .

وغيرها من المؤلفات والتصانيف التي تشير إلىٰ مكانته ، وبروزه في شتى العلوم .

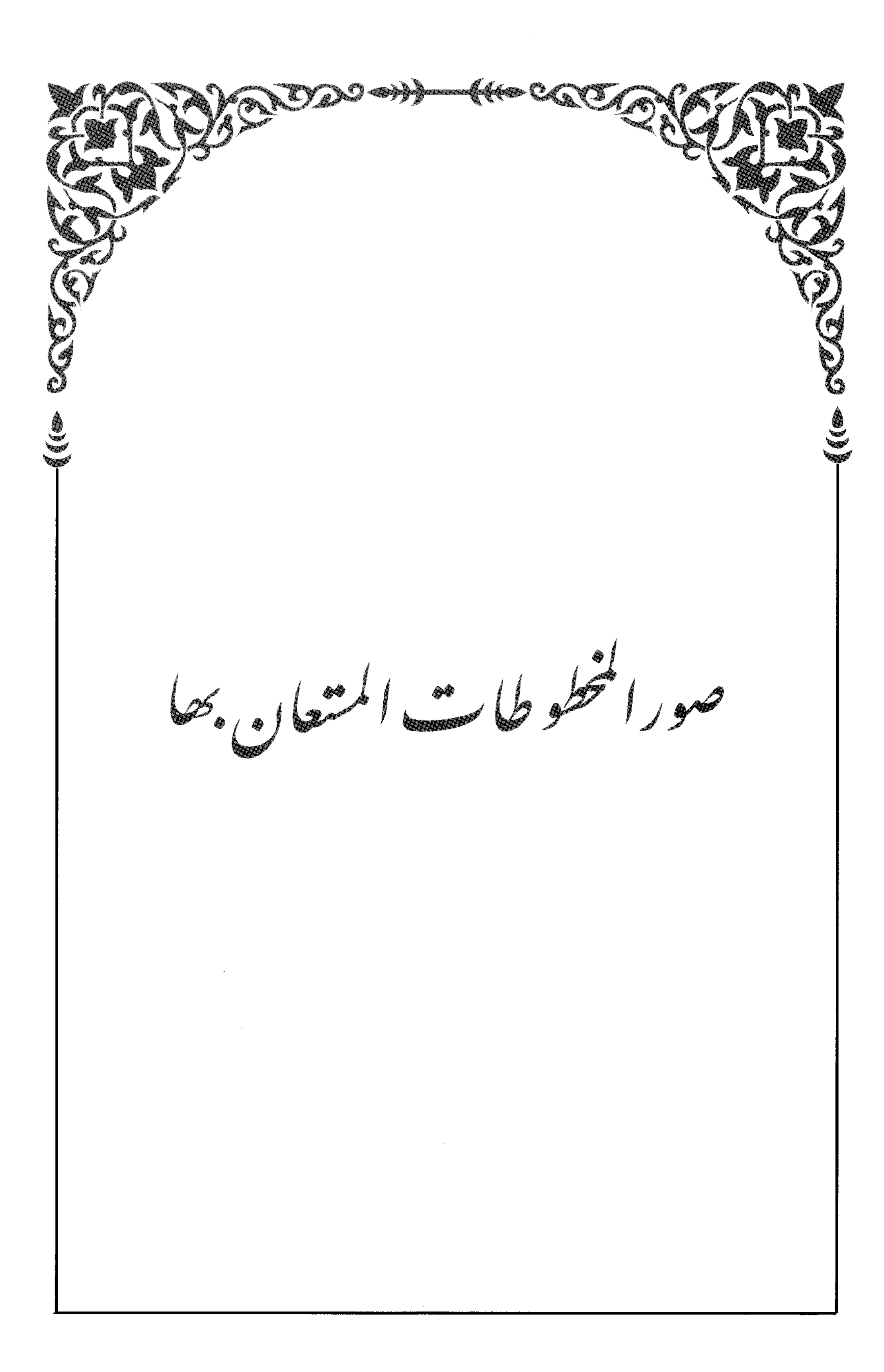
إضافةً إلىٰ توليه منصب إفتاء السادة الشافعية بالمدينة المنورة .

وفاته : توفي رحمه الله تعالىٰ في غرة محرم سنة ثلاث ومئة وألف للهجرة ، بالمدينة المنورة ، وكان له مشهدٌ عظيم ، ودفن ببقيع الغرقد بمقبرة السادة البرزنجيين .

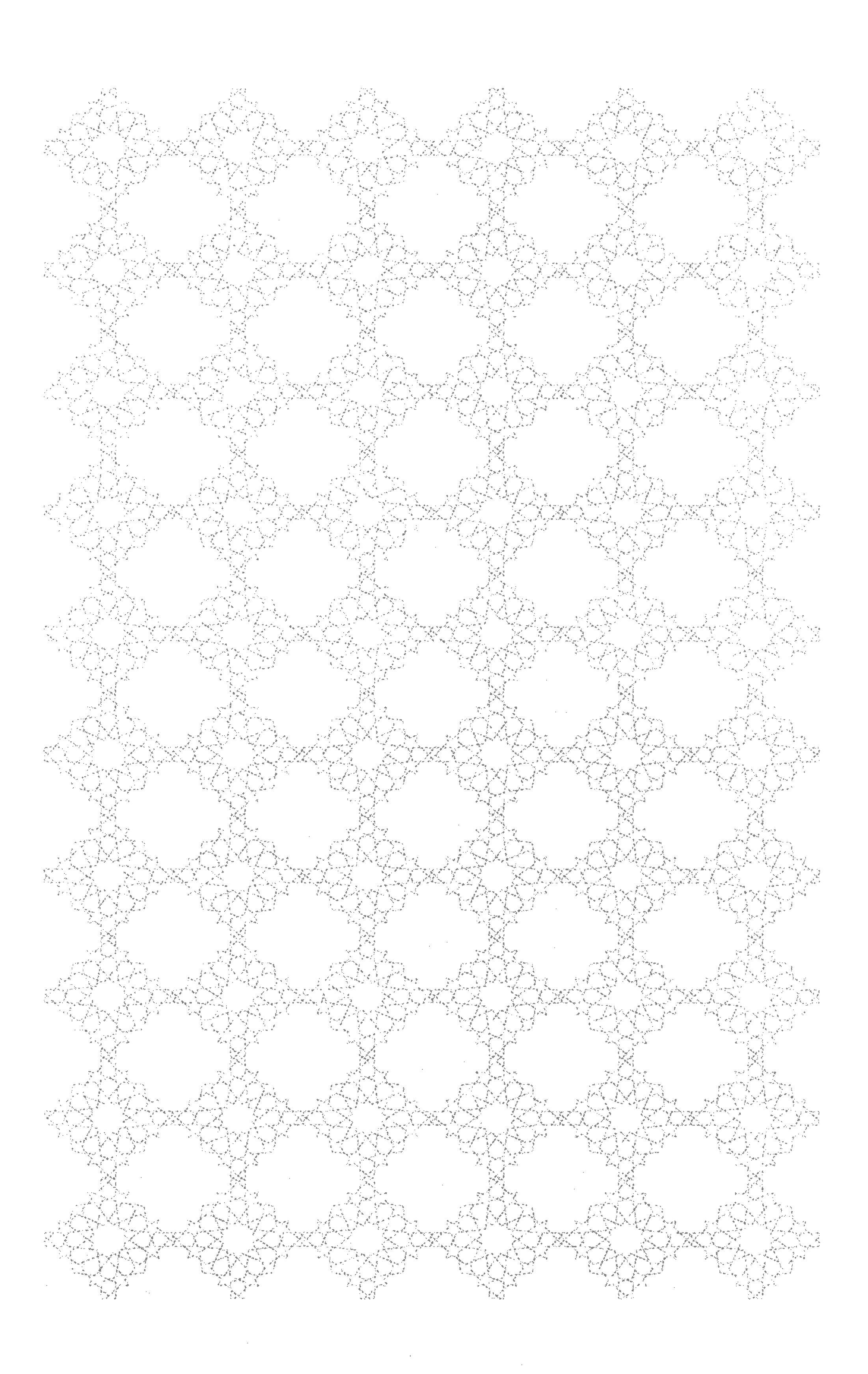
وله رحمه الله تعالى عقبٌ مبارك أكثرهم من العلماء ذوي الفضائل الباهرة ، يتداولون فتوىٰ الشافعية بالمدينة المنورة[1] .

* * *

(١) آخر من تولىٰ منصب إفتاء الشافعية هو : السيد محمد زكي البرزنجي المتوفىٰ سنة (١٣٦٥هـ) رحمه الله تعالىٰ .



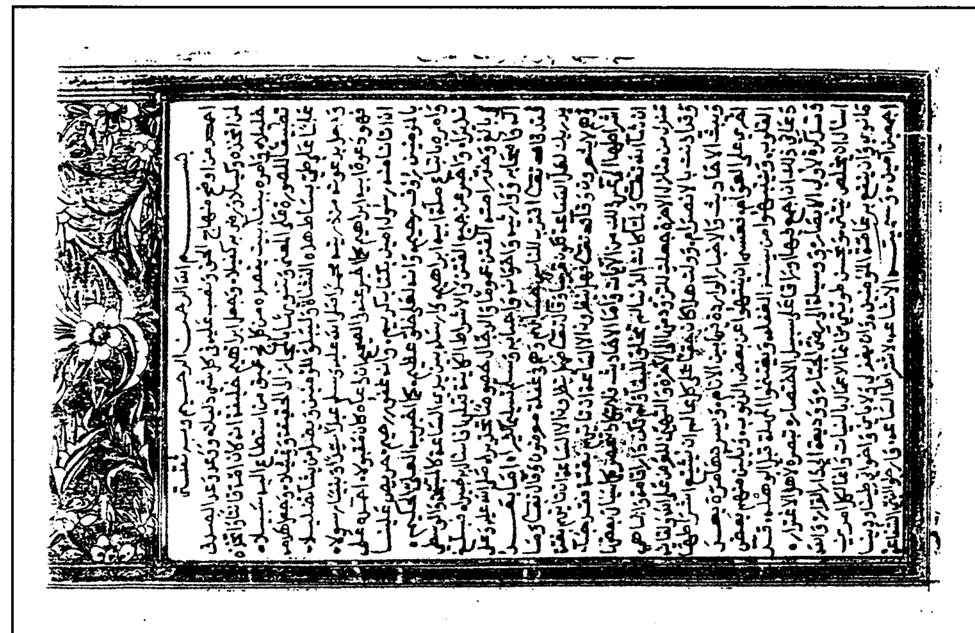
صور المخطوطات المستعان بها



الورقة الأولىٰ من نسخة مكتبة تشستر بتي

الورقة الأولىٰ من نسخة مكتبة الحرم النبوي الشريف

الورقة الأولىٰ من نسخة مكتبة الأحقاف





الورقة الأولىٰ من نسخة مكتبة عارف حكمت



الإشاعة لأشراط الساعة

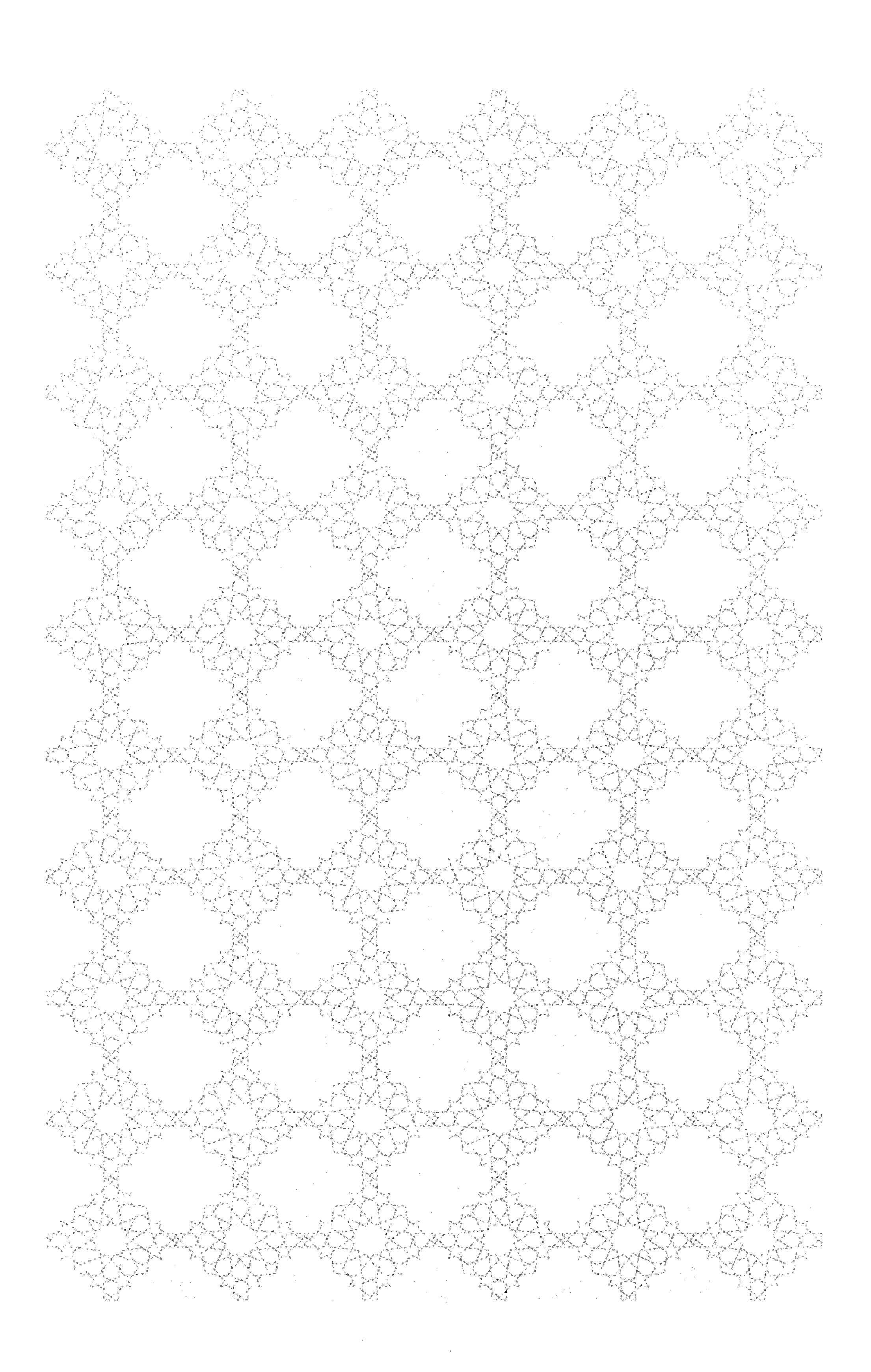
تأليف

العالم العلامة المحقق السيد

محمد بن رسول البرزنجي الحسيني

رحمه الله تعالى

(١٠٤٠ - ١١٠٣هـ)



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

أَحمدُ من أوضح منهاج الحق ونصب عليه في كل شيءٍ دليلاً ، ووعد وعد الصدق لمن اتخذه وكيلاً ورضي به كفيلاً ، وجعل إبراهيم خليفة ؛ إنه كان أمة قانتاً واتخذه خليلاً ، وأمره ببناء بيتٍ يقصده من كُلِّ فجٍّ عميق من استطاع إليه سبيلاً ، تطبيقاً للصورة على المعنىٰ ، وتنويهاً بالمجاز إلى الحقيقة وتمثيلاً ، وجعل هُدَاهُ علماً علىٰ طيِّ بساط هٰذه النشأة ، وليبلو المؤمنين ويضل من يشاء تضليلاً ، وجعل بدعوته من ذريته محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً سيداً ونبياً رسولا ، فهو دعوة أبيه إبراهيم كما أخبر عنه في الصحيح ؛ إنَّ دعاءه كان مقبولاً .

أَحمدهُ علىٰ أن أتانا منه رسولٌ أمينٌ بكتابٍ كريم ، وأنه غفورٌ حليمٌ ، حريصٌ علينا بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ، وإنه لعلىٰ خلقٍ عظيم ؛ كما أخبر به العلي الحكيم ، وأمره باتباع ملة أبيه إبراهيم ، وأرسله بين يدي الساعة كالمُسبِّحة والوسطىٰ نذيراً ، فأخبر عن جميع الفتن والأشراط الكائنة قبلها ، فاسأل به خبيراً ، فَبلّغَ وبَالَغ ، وحذَّر أمته الفتن عموماً والدَّجال خصوصاً تحذيراً .

صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه ووارثيه وإخوانه وأحبابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإني لما رَأيتُ الحافظ جلال الدين أبا الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ذكر في خطبة كتابه الذي ألّفه في بيان حال البرزخ ؛ المسمىٰ « شرح الصدور بشرح حال الموتىٰ في القبور » ما نصه : (وأرجو إن كان في الأجل فُسحة ، أن أضم إليه

كتاباً إن شاء الله تعالىٰ في أشراط الساعة ، وآخر في أحوال البعث والقيامة ، وصفة الجنة والنار ، علىٰ وجه الاستيعاب أيضاً ، حقق الله ذلك بمنه وكرمه) انتهىٰ ، ووجدته قد ألّف في أحوال البعث وما بعده كتاباً وسماه « البدور السافرة في أمور الآخرة » ، ولم أجد له كتاباً في أشراط الساعة ؛ إما لعدم تأليفه ، أو لانعدامه ، أو لغير ذلك أحببتُ أن أُؤلِّفَ في أشراط الساعة كتاباً مستوعباً لها ؛ كما أراد الحافظ السيوطي ، فيكون برزخاً بين كتابيه : « شرح الصدور » ، و« البدور السافرة » ، أو مقدمةً لهما .

وتوكلت في ذلك على الله تعالىٰ ، مستعيناً به **فأقول** :

قد قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ .

إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وأما الأحاديث فلا تَكادُ تَنحصِر ؛ كما سيأتي بعضها إن شاء الله تعالىٰ .

ولما كانت الدنيا لم تُخْلق للبقاء ولم تكن دار إقامة ، وإنما هي منزلٌ من منازل الآخرة ، جُعِلت للتزود منها إلى الآخرة ، والتهيُّء للعرض على الله ولقائه ، وقد آذنت بالانصرام وولَّت لذا كان حقاً علىٰ كل عالم أن يُشِيع أشراطها ، ويبثَ الأحاديث والأخبار الواردة فيها بين الأنام ، ويَسرُدها مرةً بعد أخرىٰ على العوام ، فعسىٰ أن ينتهوا عن بعض الذنوب ، ويلين منهم بعض القلوب ، وينتبهوا من سِنَة الغفلة ، ويغتنموا المُهْلة قبل الوَهلة .

فدعاني ذلك إلىٰ أن أبسط فيها القول بعض البسط ؛ ولو أدىٰ إلى التكرار ، لا كَمَن جمع فيها أوراقاً علىٰ سبيل الاختصار ؛ تبصرةً لأهل الاغترار ، وتَذكرةً لأُولي الأبصار ، ووسيلةً إلىٰ رضى الجبار ، وذريعةً إلىٰ دار القرار .

والله أسأل أن يُخلص نِيتي ، ويُحسن طَويتي ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل

امرىء ما نوىٰ ، وأن ينفع به عامة المؤمنين ، وأن يغفر لي ولآبائي ولإخواني ولأولادي طيناً وديناً أجمعين آمين .

وسميته :

« الإشاعة لأشراط الساعة »

وأرجو من النبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة مع قلة البِضَاعة .

فأقول ، وفي ميدان نعمه أجول :

لا بُدَّ من مقدمة ؛ هي : لَمَّا كان أمر الساعة شديداً ، وهولُها مَزيداً ، وأمدُها بعيداً ؛ فإنَّ الله في ذلك اليوم يَحكُم بين الأولين والآخرين ، ويقضي للمؤمنين على الكافرين ، ويُميز بين المخلصين والمنافقين ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وأنها لا تجيء إلاَّ بغتةً كما قال تعالىٰ ، وقد استأثر بِعِلمها ، ولم يُعْلِمْهَا أحداً من خلقه ، أو عَلّمها النبي صلى الله عليه وسلم ونهاه عن الإخبار بها ؛ تهويلاً لشأنها ، وتعظيماً لأمرها كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها ، وضيرها أكبر من خيرها .

فأكثر النبي صلى الله عليه وسلم من بيان أشراطها وأماراتها ، وما بين يديها من الفتن القريبة والبعيدة ؛ ليكون أَهلُ كلّ قرنٍ علىٰ حذرٍ منها ، متهيئين لها بالأعمال الصالحات ، غير منهمكين في الشهوات واللذات .

فانقسمت الأمارات إلىٰ ثلاثة أقسامٍ :

قسمٍ ظهر وانقضىٰ ؛ وهي الأماراتُ البعيدة .

وقسمٍ ظهر ولم ينقضِ ، بل لا يزال يَتزايدُ ويتكامل ، حتىٰ إذا بلغ الغاية ظهر .

القسم الثالث ؛ وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة ، وإنها تَتتابَعُ كنظام خَرزٍ انقطع سلكها .

فلنذكر كُلّ قسمٍ في باب علىٰ حدته .

وهٰذا ترتيبٌ لم أره لغيري ، ولعله أقرب إلى الضبط ، وأنفع للعوام إن شاء الله تعالىٰ .

تَنبِيه

مَأخذُ ما نذكره في كتابنا هٰذا من الأحاديث غالباً كُتُب الحافظين الإمامين : الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والحافظ جلال الدين السيوطي .

كشرح البخاري المسمىٰ « فتح الباري » للأول .

وكـ« الدر المنثور » ، و« الخصائص الكبرىٰ » ، و« جمع الجوامع » ، و« العَرف الوردي » ، و« الكشف » للثاني .

وكتب الإمام الشريف نور الدين علي السمهودي ؛ كـ« تاريخ المدينة » ، و« جواهر العقدين » .

وكتب المحقق علي المتقي ، وغير ذلك .

فَليُعلم ذلك ؛ لئلا يحتاج إلىٰ إعادة ذكرها كُلّ مرة .

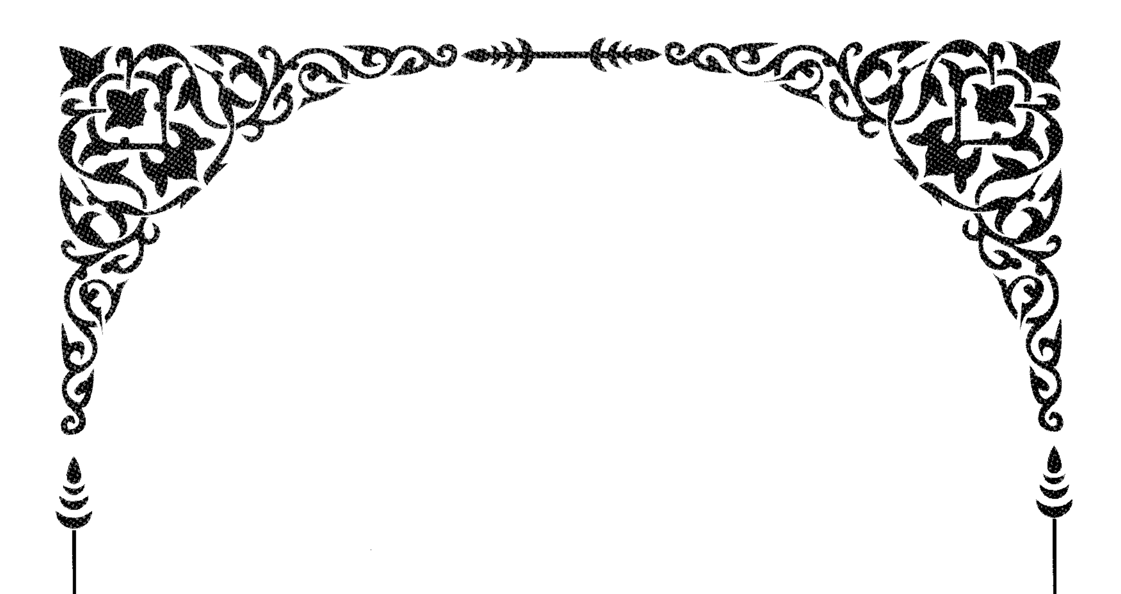
وقليلاً كتب غيرهم ؛ كـ« تخريج المصابيح » للحافظ المناوي ، و« القناعة » للحافظ السخاوي .

وما سوىٰ ذلك فسأصرح بالنقل عنه .

وإنما قَدّمتُ هٰذه المقدمة فراراً من التحلي بحلية السَّرَق ، وتحاشياً من تسويد وجه الوَرَق ، وليمكن الناظر فيه مراجعة المآخذ .

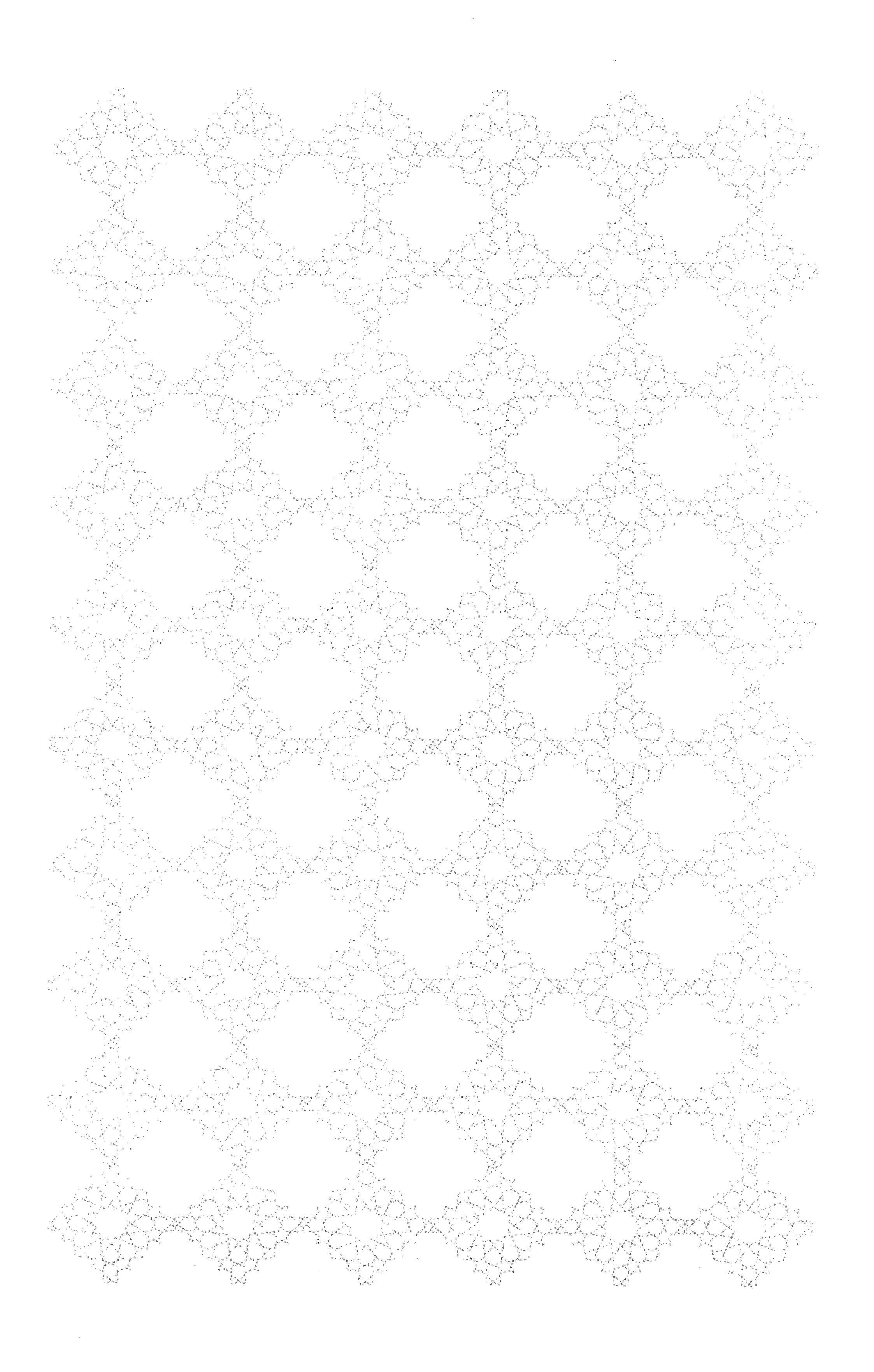
تَنبِيه آخَر

المقصود الأصلي من تأليف هٰذا الكتاب حفظ بعض الأحاديث النبوية على المسلمين رجاء شفاعته صلى الله عليه وسلم ، فلذا ترانا إذا سُقْنا الروايات مَسَاقاً واحداً لفهم العامة نُكِرُّ عليه بسرد أحاديثها وتخريجها ، فقد يَظُن من لا خبرة له أنه تكرار ، وقد نوردها في موضعين ؛ لمناسبتها لكل منهما ، فَليُعْلم ذلك ؛ لئلا يُساءَ بالمؤلف الظن . وبالله التوفيق .



البَابُ الأوّل

في الأَمَارَاتِ البَعِيدَةِ الّتي ظَهَرَتْ وانقَرَضَتْ



البَابُ الأوّل
في الأَمَارَاتِ البَعِيدَةِ الّتي ظَهَرَتْ وَانقَرَضَتْ

وهي كثيرةٌ :

فمنها : موت النبي صلى الله عليه وسلم :

وهو من أَعظم المصائب في الدِّين ، بل أعظمها ، ومن ثَمَّ قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أصيب أحدكم بمصيبة ، فليذكر مصيبته بي ؛ فإنها أعظم المصائب » رواه ابن سعد ، عن عطاء بن أبي رباح .

وعن عائشة رضي الله عنها ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصيب منكم بمصيبة من بعدي ، فليتعزَّ بمصيبته بي عن مصيبته التي تُصيبه ، فإنه لن يُصاب أحدٌ من أمتي من بعدي بمثل مصيبته بي » رواه الطبراني في « الأوسط » .

وعن أم سَلمةَ رضي الله عنها ؛ أنها ذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : «يا لها من مُصيبة! ما أُصبنا بعدها من مُصيبة ؛ إلاَّ هَانت إذا ذكرنا مُصيبتنا به صلى الله عليه وسلم » رواه البيهقي .

وهو أَولُ فَتْحِ باب الاختلاف ؛ حيث قالوا : مِنّا أمير ، ومنكم أمير .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه رفعه قال : « أُعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس . » الحديث .

وَروىٰ الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله بن عمر ؛ سِتٌّ خصال كائنة فيكم : قَبضُ نبيكم » الحديث .

وروىٰ نُعيم ، عن حذيفة رضي الله عنه حديثاً طويلاً ؛ منه : فقال : « هيهات

هيهات ، والذي بعثني بالحق ؛ ليزيدونها يا حذيفة خصالاً سِتاً ، أولهن : موتي » ، قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . » الحديث .

وفي الصحيح : « ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أنكرنا قلوبنا » .

ومنها : قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

ففي « صحيح البخاري » : أنَّ عمر سأل حذيفة رضي الله عنهما عن الفتنة التي تَمُوج كموج البحر ، فقال : يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها ، إنَّ بينك وبينها باباً مُغلقاً . قال : أَيُفتح الباب أو يُكسر ؟ قال : لا ، بل يُكسر . قال : ذاك أحرىٰ أن لا يُغلق . وفيه أنَّ الباب هو عمر رضي الله عنه .

وَروىٰ الطبراني بسندٍ رجاله ثقات : أنَّ أبا ذر لقي عمر رضي الله عنهما ، فأخذ عمر بيده فغمزها ، فقال له أبو ذر : أَرسل يدي يا قُفل الفتنة . الحديث .

وفيه : أنَّ أبا ذر رضي الله عنه قال : لا تصيبكم فتنة ما دام فيكم هـٰذا . وأشار إلىٰ عمر رضي الله عنه .

وَروىٰ البزار من حديث قدامة بن مظعون ، عن أخيه عثمان ؛ أنه قال لعمر رضي الله عنهما : يا غُلق الفتنة . فسأله عن ذلك ـ أي فسأل عمر عثمان بن مظعون رضي الله عنهما عن سبب تسميته بذلك ـ فقال : مَرَرت أنت يوماً ونحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هـٰذا غُلق الفتنة ، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شَديدُ الغَلْق ما عاش » .

وَروىٰ الخطيب في « الرواة عن مالك » : أنَّ عمر رضي الله عنه دخل على امرأته أم كُلثُوم بنت علي رضي الله عنهما فوجدها تبكي ، فقال : ما يُبكيك ، قالت : هـٰذا اليهودي ـ لكعب الأحبار ـ يقول : إنك بابٌ من أبواب جَهنم . فقال عمر رضي الله عنه ما شاء الله . ثم خرج فأرسل إلىٰ كعب ، فجاءه ، فسأله عن قوله ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ والذي نفسي بيده لا يَنسلخُ ذو الحجة حتىٰ تدخل الجنة . فقال : ما هـٰذا ؟ مرةً في الجنة ، ومرةً في النار! فقال : إنا لنَجِدكُ في كتابنا علىٰ بابٍ من

أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها ، فإذا مِتَّ اقتحموا .

وفي « صحيح البخاري » : أنَّ أبا وائل قال : قلنا لحذيفة رضي الله عنه : أَعلِمَ عمرُ مَن الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أنَّ دون غدٍ الليلة ، إني حَدّثته حديثاً ليس بالأغاليط . قال : فهبنا أن نسأله ، وأمرنا مسروقاً فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر » .

وحاصل معنىٰ هٰذه الأحاديث : أنه صلى الله عليه وسلم شَبّه مدة حياة عمر رضي الله عنه بحصنٍ منيع فيه أهل الإسلام ، وشبّه شخص عمر رضي الله عنه بباب ذلك الحصن ، وفهم ذلك عمر رضي الله عنه ، وسأل حذيفةَ: أيموت أم يقتل ؟ فأخبره أنه يقتل ، فقال : ذاك أحرىٰ أن لا يُغلق ، فإنَّ الباب إذا كان موجوداً يمكن غَلقُه بعد الفتح ، بخلاف ما إذا انكسر .

وإنما كان هو الباب دون عثمان رضي الله عنه ؛ لأنَّ وجود الباب يمنع من دخول العدو للحصن ، وإنَّ الفتنة لم تظهر في حياة عمر رضي الله عنه ؛ لأنَّ وجوده كان باباً مانعاً من ظهورها ، وإنما ظهرت في حياة عثمان رضي الله عنه ، وَقُتلَ هو فيها ، فلو كان هو الباب المانع منها لما ظهرت الفتن في حياته ، فاندفع ما استشكله الزركشي من أنَّ الواقع في الوجود يشهد أنَّ الأولىٰ بذلك عثمان رضي الله عنه ؛ لأنَّ قتله هو سبب افتراق الكلمة .

ووجه الاندفاع ظاهرٌ ، وسببه كما رواه ابن سعد ، عن ابن شهاب : أنَّ عمر رضي الله عنه كان لا يأذن لصبي قد احتلم في دخول المدينة ، حتىٰ كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غُلاماً عنده صَنْعاً ، ويستأذنه أن يُدخِلهُ المدينة ، يقول : إنَّ عنده أعمالاً كثيرةً فيها منافع للناس ، حَدادٌ ، نقاش ، نجار . فكتب إليه عمر رضي الله عنه ، فأذن له أن يُرسل به إلى المدينة ، وكان كافراً مجوسياً يُدعىٰ: أبا لؤلؤة ، وكان خبيثاً ، إذا نظر إلى الصبيان الصغار يمسح رؤوسهم ويبكي ، ويقول : إنَّ العرب أكلت كبدي . وكان قد ضرب عليه المغيرة مئة درهم في كل شهر ، وفي رواية : مئة وعشرين درهماً ، وفي رواية : أربعة دراهم كل يوم .

فجاء إلىٰ عمر رضي الله عنه يشتكي إليه شدة الخراج ، فقال له عمر رضي الله عنه : ماذا تُحْسِن من العمل ؟ فذكر له أعمالاً كثيرة ، فقال له عمر رضي الله عنه : ما خراجك بكثير في كَفّةِ عملك . فانصرف ساخطاً يتذمر .

وفي رواية قال : وما تعمل ؟ قال : الأرحاء . وسكت عن سائر أعماله ، قال : في كم تعمل الرَّحَىٰ ؟ فأخبره ، قال : وبكم تبيعها ؟ فأخبره ، فقال : لقد كلفك يسيراً ، انطلق فأعط مولاك ما سألك .

فلما وَلّىٰ قال عمر رضي الله عنه : ألا تجعل لنا رحىً ؟ .

وفي رواية : قال له : ألم أُحَدثْ أنك تقول : لو أشاء لصَنعتُ رحىً تطحن بالريح ؟! فالتفت العبد ساخطاً علىٰ عمر رضي الله عنه ، ومع عمر رهط ، فقال : لأصنعنَّ لك رحىً يَتحدّث الناس بها ، فلما وَلّى العبد ، أقبل عمر رضي الله عنه على الرهط الذي معه ، فقال : أوعدني العبد آنفاً .

وفي رواية : قال : بلىٰ ؛ أجعل لك رَحىً يَتحدّث بها أهل الأمصار . ففزع عمر رضي الله عنه من كلمته ، وعليٌّ كرّم الله وجهه معه ، فقال : ما تراه أراد ؟ قال : أوعدك يا أمير المؤمنين .

قال عمر رضي الله عنه : يكفينا الله ، قد عَلمتُ أنه يريد بكلمته غدراً .

فخرج عمر رضي الله عنه إلى الحج ، فلما صدر اضطجع بالمُحصَّب ، وجعل رداءه تحت رأسه ، فنظر إلى القمر فأعجبه استواؤه وحسنه ، فقال : «اللهم ؛ إنَّ رعيتي قد كثرت وانتشرت ، فاقبضني إليك غير عاجزٍ ولا مضيع » .

فصدر إلى المدينة . ورأىٰ عمر رضي الله عنه في المنام أنَّ ديكاً أحمر نقره نقرتين أو ثلاثاً بين السُرّة والثُّنَّةِ ، فقالت أسماء بنت عُميس أم عبد الله بن جعفر : قولوا له فَليُوص ؛ فإنه يقتله رجلٌ من الأعاجم . وكانت تَعبُر الرؤيا .

وروىٰ أبو يعلىٰ ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي عن أبي رافع قالوا : كان أبو لؤلؤة عبداً للمُغيرة بن شعبة ، وكان يَصنعُ الرحىٰ ، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم ، فلقي أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إِنَّ المغيرة قد

أثقل عليَّ غلتي ، فكلّمه يُخفف عني ، قال : اتق الله وأحسن إلىٰ مولاك ، ومن نية عمر رضي الله عنه أن يَلقىٰ المغيرة فيكلمه فيُخففَ عنه .

وفي رواية : أنه كلّمه في أمره ووصىٰ به خيراً وهو لا يدري ، فغضب العبد ، وقال : وسع الناس كلهم عدله غيري . فأضمر علىٰ قتله ، فاصطنع خنجراً له رأسان ، وشحذه ، وسمَّه ، ثم أتىٰ به إلى الهُرمُزان ، فقال : كيف ترىٰ هـٰذا ؟ قال : أرىٰ أنك لا تَضربُ به أحداً إلاَّ قتلته . فتحيّن أبو لؤلؤة ، فجاء في صلاة الغداة ، فخرج عمر رضي الله عنه بدرته يُوقظ الناس لصلاة الصبح ، وكان عمر رضي الله عنه إذا أُقيمت الصلاة يتكلّم فيقول : أقيموا صفوفكم . فذهب يقول كما كان يقول ، فقام أبو لؤلؤة وراء عمر رضي الله عنه ، فلما كَبَّر طَعنهُ ثلاث طعنات ، طعنة في كتفه ، وأخرىٰ في خاصرته ، وأخرىٰ تحت سُرّته بين الثُّنةِ والسُّرة ، وقد خرقت الصِّفَاق وهي التي قتلته ، وطعن ثلاثة عشر رجلاً ، فهلك منهم سبعةٌ ، وتصايح الناس ، فرمىٰ رجلٌ علىٰ رأسه بِبُرْنُسٍ ، ثم اضطبعه إليه .

وفي رواية : فاشتمل أبو لؤلؤة علىٰ خنجر ذي رأسين ، نِصَابه في وسطه ، فكمن في زاوية البيت في غَلَس السَّحَر ، فلم يزل هنالك حتىٰ خرج عمر رضي الله عنه يُوقظ الناس لصلاة الصبح ، وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك ، فلما دنا عمر رضي الله عنه منه وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السُّرة ، ثم انحاز أيضاً علىٰ أهل المسجد فطعن من يليه ، حتىٰ طعن سوىٰ عمر رضي الله عنه أحد عشر رجلاً ، ثم انتحر بخنجره .

وفي رواية : فلما رأىٰ أنه أُحِيطَ به قتل نفسه ، فقال عمر رضي الله عنه : قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليُصل بالناس ، ثم غَلَب عمر رضي الله عنه النَّزفَ حتىٰ غُشي عليه ، فلم يزل في غشيةٍ واحدةٍ حتىٰ أسفر الصبح ، فلما أسفر أفاق فنظر في وجوه الناس ، فقال : أصلّى الناس ؟ قالوا : نعم . فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلىٰ ، ثم قال : من قتلني ؟ قالوا : أبو لؤلؤة ؛ غُلام المغيرة بن شعبة . فقال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدةٍ سجدها له قط ، ما كانت العرب لتقتلني ، أنا أحبُّ إليها من ذلك . ثم دعا بنبيذ

فشربه ، فخرج من جرحه ، فقال بعضهم : نبيذ . وقال بعضهم : بل دم . فدعا بلبن ، فخرج من جرحه .

فلما عَلِم أنه ميتٌ ، جعل الأمر شورىٰ بين ستة : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم .

وجعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما معهم مشيراً وليس هو منهم ، وَأَجّلهُم ثلاثاً ، وأمر صُهيباً أن يُصلي بالناس ، ثم قال : ادعوا لي علياً ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . فوصاهم ، فلما خرجوا من عنده قال : إن ولوها الأجلح ـ يعني : علياً ـ سلك بهم الطريق الأقوم . فقال له ابن عمر رضي الله عنهما : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحملها حياً وميتاً . رواه ابن سعد ، والحارث ، وأبو نُعيم في « الحلية » ، واللالكائي في « السُّنَّة » .

عن أبي مطر قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : دَخلتُ علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين وجَأهُ أبو لؤلؤة وهو يبكي ، فقلت : ما يُبكيكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أبكاني خبر السماء ، أيُذهب بي إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقلت له : أبشر يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما لا أُحصيه : « سيدا كُهُول أهل الجنة : أبو بكر ، وعمر ، وأنعما » فقال : أشاهد أنت لي يا عليّ بالجنة ؟ قلت : نعم . قال : وأنت يا حسن ؛ فاشهد علىٰ أبيك رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ عمر من أهل الجنة . رواه ابن عساكر .

وعن أبي أوفى بن حكيم قال : لما كان اليوم الذي مات فيه عمر رضي الله عنه قلت : والله لآتين باب عليٍّ بن أبي طالب . فأتيت باب عليٍّ ، فإذا الناس يَرقُبُونه ، فما لبث أن خرج علينا فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه فقال : لله دَرُّ باكية عمر ؛ قالت : واعمراه ؛ قَوّمَ الأود ، وأيّد العمد ، واعمراه ؛ مات نقي الثوب ، بريئاً من العيب ، واعمراه ؛ ذهب بالسُّنّة ، وأبقى الفتنة .

صدقت ؛ أصاب والله ابن الخطاب خيرها ، ونجا من شرها .

وفي « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إني لواقفٌ في قوم

ندعوا الله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وُضع علىٰ سريره ، إذا رجلٌ من خلفي وضع مرفقيه علىٰ منكبي يقول : رحمك الله ، إن كُنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك ؛ لأني كثيراً ما كُنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « كنت وأبو بكر وعمر ، وفعلت وأبو بكر وعمر ، وانطلقت وأبو بكر وعمر » ، وإن كُنت لأرجو أن يجعلك الله معهما . فَالْتَفتُّ فإذا هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي لفظ له : عن ابن أبي مُليكة ؛ أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول : وُضع عمر علىٰ سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يَرُعْني إلاَّ رجلٌ آخذٌ منكبي ، فإذا عليّ بن أبي طالب ، فترحّم علىٰ عمر وقال : ما خَلّفتَ أحداً أَحبُّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله ؛ إن كنت لأَظُن أن يجعلك الله مع صاحبيك ، وحَسبتُ أني كثيراً أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » .

فائـدَة

في شرح « البخاري » للقسطلاني: أنَّ الشمس كُسِفت يوم مات عمر رضي الله عنه ، وأنَّ الأرض أظلمت ، فجعل الصبي يقول لأُمه : يا أماه ؛ أقامت القيامة ؟ فتقول : لا يا بني ، ولـٰكن قُتل عمر .

وأنَّ الجن نَاحَت علىٰ عمر رضي الله عنه قبل أن يموت بثلاث ، فقالت :

أَبَعْـدَ قَتِيـلٍ بِـٱلْمَـدِينَـةِ أَظْلَمَـتْ ... لَـهُ ٱلأَرْضُ تَهْتَـزُّ ٱلعِضَـاهُ بِـأَسْوُقِ
جَـزَى ٱللهُ خَيْـراً مِـنْ إِمَـامٍ وَبَـارَكَـتْ ... يَـدُ ٱللهِ فِـي ذَاكَ ٱلأَدِيـمِ ٱلْمُمَـزَّقِ
فَمَـنْ يَسْـعَ أَوْ يَـرْكَـبْ جَنَـاحَـيْ نَعَـامَـةٍ ... لِيُـدْرِكَ مَـا قَـدَّمْـتَ بِـٱلأَمْـسِ يُسْبَـقِ
قَضَيْـتَ أُمُـوراً ثُـمَّ غَـادَرْتَ بَعْـدَهَـا ... بَـوَائِـقَ فِـي أَكْمَـامِهَـا لَـمْ تُفْتَـقِ
وَمَـا كُنْـتُ أَخْشَـىٰ أَنْ يَكُـونَ مَمَـاتُـهُ ... بِكَفَّـيْ سَبَنْتَـىٰ أَزْرَقِ ٱلْعَيْـنِ مُطْـرِقِ

تَنبـيْه

(العِضَاةُ) ـ بكسر العين المهملة والضاد المعجمة ، جمع عِضَهَة ؛ كعِنَبة ، وعِضَه ؛ كعِنَب . وهو كالعِضَاهة ؛ بالكسر ـ : أعظم الشجر أو الخمط ، أو كل ذات شوكٍ ، أو ما عَظُمَ منها وطال .

و(أسْؤُق) : جمع ساق ، هُمزت واوه لتحتمل الضمة ، كذا في « القاموس » .

يعني : أَبعد قتل عمر رضي الله عنه ؛ تَهتزُّ الأشجار علىٰ سوقها ؟!

و(البوائق) ـ جمع بائقة ـ وهي : الداهية .

و(الأكمام) ـ جمع كِمٍّ ؛ بكسر الكاف ، وقد يضم ـ : غطاء الزهر والورد قبل أن يتفتق .

يعني : تركت دواهي وفتناً مستورة في أغطيتها لم تظهر في حياتك ، وإنما تظهر بعدك . و(أخشىٰ) بمعنىٰ : أظن .

و(الحِمام) ـ بكسر الحاء المهملة ـ : الموت .

يعني : ما كنت أظن أنَّ موته يكون بكَفِّ .

و(سَبنتىٰ) ، و(سَبندىٰ) ـ بالتاء والدال ؛ بوزن فَعنلىٰ ـ : النَّمِر .

و(المُطرق) : المُغْضب .

ولنرجع إلىٰ بقية حديث « البخاري » :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فلما قُبض عمر رضي الله عنه خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ـ يعني : إلىٰ حُجرة عائشة ـ ، فَسلّم عبد الله بن عمر ، وقال : يَستأذنُ عمر بن الخطاب . قالت : أدخلوه . فَأُدخل ، فَوُضِع هنالك مع صاحبيه ، فلما فُرِغ من دفنه اجتمع هـٰؤلاء الرهط ـ يعني : أهل الشورىٰ ـ فقال عبد الرحمن رضي الله عنه : اجعلوا أمركم إلىٰ ثلاثة منكم . فقال الزبير رضي الله عنه : قد جعلت أمري إلىٰ عليّ . وقال طلحة رضي الله عنه : قد جعلت أمري إلىٰ عثمان . وقال سعد رضي الله عنه : قد جعلت أمري إلىٰ عبد الرحمن . فقال عبد الرحمن رضي الله عنه : أيكما تبرأ من هـٰذا

الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه . فأسكت الشيخان ـ يعني : علياً ، وعثمان ـ ، فقال عبد الرحمن رضي الله عنه : أفتجعلونه إليَّ ، والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا : نعم . فأخذ بيد أحدهما ـ يعني : علياً ـ فقال : لك من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقِدَم في الإسلام ما قد علمت ، فالله عليك لئن أَمَّرتُك لتعدلن ، ولئن أَمَّرتُ عثمان لتسمعن ولتطيعن ، قال : نعم . ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان فبايعَه ، فبايع له عَليٌّ ، ثم وَلجَ أهل الدار فبايعوه .

زاد الطبراني في روايته : أنَّ عبد الرحمن دار تلك الليلة كلها على الصحابة ومن وافى المدينة من أشراف الناس ، لا يخلو برجلٍ منهم إلاَّ أمره بعثمان ، فقال : يا علي ؛ إني سألت الناس كلهم ؛ فما رأيتهم يعدلون بعثمان .

تَنبـيْه

عُلِم من هـٰذه الأحاديث أنَّ عمر رضي الله عنه كان أحبَّ الناس إلىٰ عليّ ، وأنَّ علياً كان أحبَّ الناس إلىٰ عمر رضي الله عنهما ؛ كما يدل عليه قوله : إن ولوها الأَجْلَح . الحديث ، وأنه إنما لم يُولّهِ الخلافة مع إخباره بأولويته ؛ مخافة أن يصدر من الخليفة أمرٌ فيكون هو المسؤول عنه ؛ لعلمه أنَّ الفتن تقع بعده ، ولهـٰذا قال : «لا أتحملها حياً وميتاً» . في جواب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : فما يمنعك أن تولّي علياً ؟

وظهر بهـٰذا كَذِبُ الرافضة وافتراؤهم أنَّ علياً واطأ أبا لؤلؤة في قتل عمر رضي الله عنهما ، وأنه إنما قتله عن أَمْرِ علي رضي الله عنه ، وأنَّ عمر رضي الله عنه إنما جعل الخلافة شورىٰ بين ستة ؛ ليصرفها عن علي رضي الله عنه ، وأنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه باطن عثمان رضي الله عنه علىٰ ذلك . إلىٰ غير ذلك من الزُّور والبُهتان ، فقاتلهم الله أَنّىٰ يُؤفَكون ، وقاتلهم الله بما يفترون ، فَإنّا لله وَإنّا إليه راجعون .

ومنها : قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه :

عن الزبير رضي الله عنه أنه قال : قَتَل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح رجُلاً من قريش صَبراً ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « لا يُقتل قُرشي بعد هـٰذا اليوم صبراً إلاَّ

رَجُلٌ قتل عثمان بن عفان فاقتلوه ، فَإلاَّ تَفعلوا تُقتلوا قَتْل الشاء » رواه البزار والطبراني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أنه قال وعثمان رضي الله عنه محصور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون فتنةٌ واختلاف ـ أو اختلافٌ وفتنة ـ قال : قلنا : فما تَأمُرنا يا رسول الله ؟ قال : عليكم بالأمير وأصحابه . وأشار إلىٰ عثمان » رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي .

وعن عائشة رضي الله عنها ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عثمان رضي الله عنه فجعل يُسِر إليه ولون عثمان يتغير ، فلما كان يَومُ الدار قلنا : ألا تقاتل ؟ قال : لا ، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهد إليَّ أمراً فأنا صابر عليه . رواه ابن ماجه ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقي ، وأبو نُعيم .

وعن عبد الله بن حوالة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذات يوم تهجمون علىٰ رجلٍ معتجرٍ ببُردة يبايع الناس من أهل الجنة » ، فهجمت علىٰ عثمان وهو معتجرٌ ببُردة حِبَرةٍ يبايع الناس . رواه الحاكم وصححه .

وعن مُرّة بن كعب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَكر فتنة فَقَرّبها ، فمر به رجلٌ مُقنعٌ بثوب ، فقال : « هـٰذا يومئذ على الهدىٰ » ، فَقُمتُ إليه ؛ فإذا هو عثمان رضي الله عنه .

وعن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : « إنَّ الله مُقمِّصَكَ قميصاً ـ أي : مُوليك الخلافة ـ فإن أرادك المنافقون علىٰ خلعه فلا تخلعه » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عثمان ؛ إنك ستلي الخلافة من بعدي ، وسيريدك المنافقون علىٰ خلعها فلا تخلعها ، وصُم في ذلك اليوم تفطر عندي » رواه ابن عدي ، وابن عساكر .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : أَوّلُ الفتن قتل عثمان ، وآخرها خروج الدجال .

وزاد ابن عساكر في روايته : والذي نفسي بيده ؛ ما من رجل في قلبه مثقال حبة من

قتل عثمان ؛ إلاَّ تبع الدجال إن أدركه ، وإن لم يدركه آمن به في قبره .

وسبب قتله بالاختصار : أنهم انتقدوا عليه بعض الأمور ؛ **منها** : أنه وَلَّىٰ محمد بن أبي بكر مصر ، فلما كان في بعض الطريق ، إذا بغلام عثمان رضي الله عنه علىٰ ناقته متوجهاً نحو مصر ، فأتوا به ، فسألوه عن الخبر ، فلم يُخبرهم ، ففتشوه ، فلقوا معه كتاباً إلى العامل بمصر يأمُرُه فيه بقتله ، فرجع إلى المدينة ، فاجتمع عليه أربعة آلاف من أوباش مصر ، ورئيسهم ابن عُديس ، وابن تميم ، وغيرهما ، وسألوه ـ أي : عثمان رضي الله عنه ـ عن الكتاب والغلام ، فقال : لا علم لي به . فقالوا : إنَّ هـٰذا فِعْلَ مروان . وعرفوا خطه ، وقالوا : فادفعه إلينا . فلم يفعل ، فأرادوه علىٰ أن يعزل نفسه ، فلم يفعل ؛ امتثالاً للحديث المارِّ : « إنَّ الله مُقمِّصك قميصاً . . . » .

وكانوا لما هجموا المدينة ، كان عثمان رضي الله عنه يخرج فيصلي بالناس وهم يُصلون خلفه شهراً ، ثم خرج في آخر جُمعةٍ خرج فيها ، فَحَصَبُوه حتىٰ وقع عن المنبر ولم يقدر أن يُصلي بهم ، فَصلّىٰ بهم يومئذ أبو أُمامةَ سهل بن حُنَيف ، فمنعوه ، وكان يُصلّي ابن عُديس تارة ، وكنانة بن بشر أخرىٰ ، فبقوا علىٰ ذلك عشرة أيام ، وكان طَلحة يُصلي بهم ، وأكثر ما كان يصلي بهم علي رضي الله عنه ، وهو الذي صَلّىٰ بهم العيد ، فحاصروه ؛ قيل : عشرة أيام ، وقيل : أربعين يوماً . ويمكن الجمعُ بأنَّ ثلاثين يوماً كان يخرج للصلاة ، وعشرة شَدّدوا عليه الحصار ومنعوه من الخروج للصلاة ، ومنعوه الماء ، فجاءت الأنصار إلى الباب وقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إن شئت كُنا أنصار الله مرتين ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ؛ كُفُّوا ، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهِد إلي عَهداً وأنا صائرٌ إليه . وجاء علي كرم الله وجهه في جماعةٍ من بني هاشم يُريد نصره .

فقال : كُلّ من لي عهدٌ في ذمته يَكُف عن القتال . فأخذ عليٌّ رضي الله عنه عمامته ورمىٰ بها في صحن داره ، وقال : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ ، ومنعوه الماء العذب ، فأرسل عليٌّ الحسنَ والحسينَ وعبدَ الله بن جعفر رضي الله عنهم في فتيةٍ من بني هاشم بثلاث قِرَبٍ من الماء ، فحالوا دونهم ، فحملوا عليهم حتىٰ جُرِح الحسن أو الحسين بن علي رضي الله عنهم ، وسال الدَمُ علىٰ وجهه ،

وأوصلوه الماء ، فلما رأوا ذلك خافوا بني هاشم ، وتركوا الباب ، ونَقَبُوا البيت من ظهره ، وكان عنده في الدار عَبيدُهُ الكثيرون ، فأرادوا أن يمنعوا عنه ، فقال : من أغمد سيفه فهو حُر . ومنعهم من ذلك .

وكان ممن دخل عليه الدار : محمد بن أبي بكر رضي الله عنه فذكر له بعض مناقبه في الإسلام ، ويقول : أَنشدُكَ الله ألم تعلم كذا ؟ ألم تعلم كذا ؟ وَكُلّ ذلك يقول محمد : نعم .

ثم قال له : لو رأىٰ أبو بكر مكانك هـٰذا مني لساءه ذلك ، فخرج محمد ، ودخل عليه جماعةٌ فقتلوه في أواسط أيام التشريق والمصحف بين يديه ، سنة خمس وثلاثين من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة من العُمْرِ ، وقيل : أكثر ، وقيل : أقل .

ورأىٰ في ليلة يوم قُتل فيه النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له : « يا عثمان ؛ أفطر عندنا » . فأصبح صائماً ، وقتل وهو صائم .

رَوى ابن منيع في « مسنده » من طريق النُعمان بن بشير ، عن نَائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه ؛ قالت : لما حُصِر عثمان رضي الله عنه ظل صائماً ، فلما كان عند الإفطار سألهم الماء العذب ، فمنعوه ، فبات ، فلما كان في السَّحَر قال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع عليَّ من هـٰذا السقف ومعه دلوٌ من ماء ، فقال : « اشرب يا عثمان » ، فشربت حتىٰ رويت ، ثم قال : « ازدد » ، فشربت حتىٰ تملأت .

وَروى الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » ، عن مُهاجر بن حبيب قال : بعث عثمان إلىٰ عبد الله بن سَلاَم وهو مَحصُور ، فقال له : ارفع رأسك ترىٰ هـٰذه الكُوّة ، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف منها هـٰذه الليلة ، فقال : « يا عثمان ؛ أحصروك ؟! » قلت : نعم . فأدلىٰ دلواً فشربت منه ، فإني لأجِدُ بَرْدَهُ علىٰ كبدي ، ثم قال لي : « إن شئت دَعوتُ الله فينصرك عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا » ، فاخترت الفطر عنده ، فقُتل في يومه .

وفي « تنوير الحلك » للسيوطي ، مَعزُواً لابن باطيش في كتاب « مزيل

الشبهات » : عن عبد الله بن سلام : أتيت عثمان رضي الله عنه وهو مَحصُور ، فقال : مرحباً يا أخي ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هٰذه الخوخة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عثمان ؛ أحصروك ؟ » قلت : نعم . قال : « عطشوك ؟ » قلت : نعم . فأدلىٰ لي دلواً فيه ماء ، فشربت حتىٰ رَويتُ ، وحتىٰ أني لأجد بَردَهُ بين ثديي وبين كتفي .

فقال صلى الله عليه وسلم : « إن شئت نُصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا ؟ » فاخترت أن أفطر عنده ، فقتل ذلك اليوم .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سمعت صوتاً يوم قتل عثمان : «أبشر يا بن عفان برَوْحٍ وريحان ، أبشر يا بن عفان بربٍّ غير غَضْبان ، أبشر يا بن عفان بغُفران ورِضوان . فالتفت فلم أر أحداً » رواه أبو نُعيم .

وَروى الطبراني ، وأبو نُعيم : عن سهم بن حُبيش قال : دفنا عثمان رضي الله عنه ليلاً ، فغشينا سوادٌ من خلفنا ، فهبناه حتىٰ كدنا أن نَتفرّقَ عنه ، فنادىٰ مُنادٍ : لا رَوْعَ عليكم ، اثبتوا ؛ فإنَّا قد جئنا لنشهده معكم . فكان ابن حبيش يقول : هم والله الملائكة .

وَروىٰ أبو نُعيم ، عن عروة رضي الله عنه قال : مكث عثمان رضي الله عنه في حَشِّ كوكب مطروحاً ثلاثاً لا يدفنونه ، حتىٰ هتف بهم هاتف : ادفنوه ولا تصلوا عليه ؛ فإنَّ الله عز وجل قد صَلّىٰ عليه .

وكان الذين خرجوا عليه : عبد الرحمن بن عُديس البلوي ، وكنانة بن بشر ـ أحد رؤوس الخوارج ـ ، وآخرون ساروا بأهل مصر ، واجتمع عليهم خَلقٌ من أوباشِ الناس ، وقُتل عبد الرحمن هٰذا وأصحابه بعد عام ، أو عامين بجبل لبنان .

وقد روى البيهقي ، وأبو نُعيم : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج أناسٌ يمرقون من الدِّين كما يَمرُق السهم من الرمية ، يُقتلون في جبل لبنان » ، أورده السيوطي في « الخصائص » .

ورىٰ أبو نُعيم ، عن عثمان بن مُرّة ، عن أمه ؛ قالت : سَمعتُ الجن تَنُوحُ علىٰ

عثمان رضي الله عنه فوق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال ، فكان مما قالوا :

لَيلـــــــــةَ الحصبـــــــــــة إذ يَـــرمُـــون بـــالصَّخْـــر الصِّـــلاب
ثُـــــمّ جـــــاؤوا بُكــــــرةً يَبغُـــون صقــــراً كـــالشِّهـــاب
زَينهـــــم فـــــي الحـــــيِّ والـ مجلـــس فَكَّـــاكُ الـــرِّقـــاب

وكان علي رضي الله عنه حين قُتل في أرضٍ له ، فجاءه الخَبرُ ، فَدُهش من شدة ما سمع ، فجاء ولطم الحسن ، وضرب صدر الحسين رضي الله عنهما ، وسب عبد الله بن جعفر ، وابن الزبير ، وقال : أيقتل عثمان وأنتم أحياء ؟! فاعتذروا بأنهم ما عَلِمُوا .

وصَحّ أنه أشرف من كُوَّةٍ فقال لعلي رضي الله عنه : يا أبا الحسن ؛ ما هـٰذا الذي ركب متني ؟ فقال : اصبر يا أبا عبد الله ، فوالله ما غِبتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كُنا علىٰ أُحُدٍ ، فتحرك الجبل ونحن عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اثبت أُحُد ؛ فإنه ليس عليك إلاَّ نبي ، أو صِدِّيقٌ ، أو شهيد » ، وايم الله لتُقتلن ، ولأقتلن معك ـ أي : بعدك ـ ، وليُقتلن طلحة ، والزبير .

وصح أنه استشهد جماعة من الصحابة منهم : علي ، وطلحة ، والزبير رضي الله عنهم علىٰ أنه اشترى الجنة من النبي صلى الله عليه وسلم مرات ، فشهدوا له ، فقال الخارجون عليه : صدقوا ، ولـٰكنك غَيّرتَ . فقال : ويلكُم ، كيف يُغير من هـٰذا حَاله ؟!

ثم ذكر أنهم سيقولون ذلك في غيره أيضاً ، وكان كذلك ، فإنهم قالوا في علي رضي الله عنه حين خرجت عليه الخوارج ، فاستشهد الصحابةَ في خُصُوصياته ، فشهدوا له ، فقالوا : صدقوا ، ولـٰكنك غَيّرتَ .

ومنها : وقعة الجمل :

رَوى الحاكم عن علي وطلحة رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير : « أتحب علياً ؟! أما إنك سَتخرُجُ عليه وتقاتله ، وأنت له ظالم » .

ورویٰ هو ، وأحمد عن عائشة رضي الله عنها ؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « كيف بإحداكُن إذا نَبحتها كِلابُ حوأب ! » .

وَروى ابن أبي شيبة ، والبزار بسندٍ رجاله ثقات عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والحاكم من حديث قيس بن أبي حازم : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه : « أيتكن صاحبة الجمل الأدبب؟ ؛ تسير ـ أو تخرج ـ حتىٰ تَنْبحها كِلابُ الحوأب ، يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلىٰ كثيرة ، وتنجو بعدما كادت » .

تَنبيهَان

الأول : قال الدَّميري في « حياة الحيوان » : قال ابن دِحية : والعجب من ابن العربي كيف أنكر هٰذا الحديث في كتاب « العواصم والقواصم » له ، وذكر أنه لا يوجد له أصل ، وهو أشهر من فَلَقِ الصبْح .

الثاني : **الأَدْبَب** ؛ بهمزة مفتوحة ، ودال مهملة ساكنة ، وموحدتين ؛ الأولىٰ مفتوحة . قال في « القاموس » : الأَدبُّ : الجمل الكثير الشعر ، وبإظهار التضعيف جاء في الحديث : « صاحبة الجمل الأدبب » . اهـ

قال الطائي في « شرح التسهيل » : «فَكُّ الإدغام علىٰ غير القياس ؛ لمناسبة الحوأب» . اهـ بمعناه

وَرویٰ أحمد ، والطبراني عن أبي رافع ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : « سيكون بينك وبين عائشة أمر » ، قال : فأنا أشقاهما يا رسول الله . فقال : « لا ، ولٰكن إذا كان ذلك ؛ فارددها إلىٰ مأمنها » .

ورویٰ نُعيم بن حماد في « الفتن » بسندٍ صحيح عن طاوس ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه : « أيتكن تَنْبحُها كذا وكذا ؟ » فضحكت عائشة متعجبة ، فقال : « انظري لا تكوني أنت يا حُميراء » .

وعن أُم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها ؛ قالت : ذَكَر النبي صلى الله عليه وسلم خُروج بعض أمهات المؤمنين ، فضحكت عائشة رضي الله عنها ، فقال : « انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت » ، ثم التفت إلىٰ علي رضي الله عنه ، فقال : « إن وليت من أمرها

شيئاً فارفق بها » رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي .

وعن حُذيفة رضي الله عنه أنه قال : « لو حَدّثْتُكم أن بعض أمهات المؤمنين تغزوكم في كتيبة تَضربُكم بالسيف ؛ ما صَدقْتمُوني » . قالوا : سبحان الله! ومن يُصدّق بهٰذا ؟! قال : « أتتكم الحميراء في كتيبة تسوقها أعلاجها » رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي ، وقال : أَخبر بهٰذا حُذيفة ومات قبل مَسِير عائشة رضي الله عنهما .

وسبب ذلك : قال الحافظ ابن حجر في « شرح البخاري » : قد جمع عمر بن شبّة في كتاب « أخبار البصرة » قصة الجمل مطولة ، وها أنا أُلخصها وأقتصر علىٰ ما أورده بسندٍ صحيح ، أو حسن . انتهىٰ

فنذكر حاصله هنا مُختصراً : وهو أنه لما كان الغَدُ من قتل عثمان رضي الله عنه خرج علي رضي الله عنه ومعه سفيان الثقفي فدخل المسجد ، فإذا جماعةٌ علىٰ طلحة ، فخرج أبو جهم بن حُذيفة فقال : يا علي ؛ ألا ترىٰ ؟ فلم يَتكلّم ، ودخل بيته فأتي بثريد فأكل ، ثم قال : يُقتل ابن عمي ويُغلب علىٰ مُلكه ؟! فخرج فأتاه الناس وهو في سوق المدينة فقالوا : ابسُط يَدك نُبايعك . فقال : حتىٰ يتشاور الناس . فقال بعضهم : لئن رجع الناس إلىٰ أمصارهم بقتل عثمان رضي الله عنه ، ولم يقم بعده قائم لم يؤمن الاختلاف وفساد الأمة ، فأخذ الأشتر بيده فبايعوه ، وذهب إلىٰ بيت المال ففتحه ، فلما تسامع الناسُ تركوا طلحة ، فلم يعدلوا به طلحة ولا غيره ، ثم أرسل إلىٰ طلحة والزبير رضي الله عنهما فبايعاه ، ثم إنهما ندما علىٰ خِذلان عثمان رضي الله عنه ، فطلبوا أن يُقتل قَتلةُ عثمان رضي الله عنه ، فلم يُجِبهما ؛ وذلك لأنَّ قاتله كان غير معلوم ، وكان ينتظِرُ أولياء عثمان رضي الله عنه أن يتحاكموا إليه ، ثم استأذناه في العُمرة ، فأخذ عليهما العهود وأذن لهما ، فلقيا عائشة رضي الله عنها ، فاتفقا معها على الطلب بدم عثمان رضي الله عنه ، وكان يعلىٰ بن أمية عامل عثمان رضي الله عنه علىٰ صنعاء ، وكان عظيم الشأن عنده ، وكان مُتمولاً ، فقدم حاجّاً فأعانهما بأربع مئة ألف ، وحمل سبعين رجلاً من قريش ، واشترىٰ لعائشة رضي الله عنها جملاً ـ يقال له : عسكر ـ بثمانين ديناراً .

وكان علي رضي الله عنه يقول : أتدرُونَ بمن ابتليتُ ؟ بأطوع الناس في الناس ؛

عائشة ، وأدهى الناس طلحة ، وأشد الناس الزبير ، وأثرى الناس يعلى بن أمية .

فتوجهوا إلى البصرة ، فنزلوا بعض مياه بني عامر ، فنبحت الكلاب ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أي ماء هٰذا ؟ قالوا : الحَوْأب ـ أي : بفتح المهملة ، وسكون الواو بعدها همزة ، ثم موحدة بوزن: كوكب . قال في « القاموس » : موضعٌ بالبصرة ، وقال الدَّميري : نهرٌ بقرب البصرة ـ قالت : ما أظنني إلاَّ راجعة . فقال لها الزبير : بل تَقْدُمِين ، فيراكِ المسلمون فيصلح الله ذات بينهم .

قالت : ما أظنني إلاَّ راجعة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كيف بإحداكُن إذا نَبَحتها كلابُ الحوأب ؟! » رواه أحمد ، وأبو يعلىٰ ، والبزار ، والحاكم ، والبيهقي ، وأبو نُعيم : عن قيس ، قال : لما بلغت عائشة رضي الله عنها بعض ديار بني عامر ، نبحت عليها الكلاب . فذكره .

فقدموا البصرة فتعجب الناس ، وسألوهم عن مسيرهم ، فذكروا أنهم خرجوا غَضَباً لعثمان رضي الله عنه ، وتوبةً لما صنعوا من خِذلانه ، وقبضوا علىٰ عامل علي رضي الله عنه عليها ؛ ابن الأحنف ، وأقبل عليٌّ رضي الله عنه لما سمع بخروجهم من المدينة ومعه تسع مئة راكب ، فنزل بذي قار ، فبلغه أنَّ أهل البصرة اجتمعوا لطلحة والزبير رضي الله عنهما ، فشق ذلك علىٰ أصحابه ، فقال : والذي لا إلـٰه غيره لتَظْهرُن علىٰ أهل البصرة ، ولتقتلُن طلحة والزبير ، وبعث ابنه الحسن وعماراً رضي الله عنهما إلىٰ أهل الكوفة يَستنفِرهم ، فدخلا المسجد ، وصَعِدا المنبر ، وكان الحسنُ في أعلى المنبر ، وقام عمارٌ أسفل منه ، فَتكلّم عمار رضي الله عنه ، وقال : إنَّ أمير المؤمنين بعثنا إليكم يَستَنفِرُكم ، فإنَّ أُمَّنا قد سارت إلى البصرة ، والله إني أقول لكم هٰذا ، ووالله إنها لزَوجة نَبيكُم في الدنيا والآخرة ، ولٰكن الله ابتلانا ؛ ليعلم إياه نُطيع ، أو إياها .

وقال الحسن رضي الله عنه : إنَّ أمير المؤمنين يقول : إني أُذَكِّرُ الله رجُلاً رعىٰ لله حقاً إلاَّ نفر ، فإن كُنْت مظلوماً أعانني ، وإن كُنْتُ ظالماً أخذ مني ، والله إنَّ طلحة والزبير لأول من بايعني ثم نكثا ، ولم أستأثر بمال ، ولا بدلت حُكماً .

فخرج إليه اثنا عشر ألف رجل ، ولما قدم قام إليه قيس بن سعد بن عبادة ، وابن

الكَوّا ، فقالا : أخبرنا عن مسيرك هٰذا ؛ أوصيةٌ أوصاك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم رأيٌ رأيته ؟ فقال : أما والله لئن كُنت أول من صَدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أكون أَوّل من كَذبَ عليه ، والله لأن يَكُون عَهدٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم إليَّ فلا ، ولٰكن ما مات رسول الله فجأةً ، ولا قُتل قتلاً ، ولقد مَكث في مرضه أياماً وليالي ؛ كُلّ ذلك يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيقول : « مروا أبا بكر فَليصَلِّ بالناس » ، ولقد تركني وهو يرىٰ مكاني ، وما كنت غائباً ، ولو عهد إليَّ شيئاً لقمت به ، حتىٰ إنَّ امرأةً من نسائه عارضت في ذلك ؛ فقالت : إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيق إذا قام مقامك لم يُسْمِع الناس ، فلو أمرت عمر فَلْيصلِّ بالناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنكن صواحب يوسف » .

فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا فإذا رسول الله قد وَلاهُ أمر دِيْننا ، فَوليناَهُ أمر دنيانا ، فبايعته في المسلمين ووفيت بيعته ، ثم بايعت عمر رضي الله عنه ووفيت بيعته ، ثم بايعت عثمان رضي الله عنه ووفيت بيعته ، فعدا الناس عليه فقتلوه وأنا مُعْتزلٌ عنهم ، ثم وَلّوني ، ولولا الخشية على الدِّين ما أجبتهم ، ثم وثب فيها من ليس سابقته كسابقتي ، ولا قرابته كقرابتي ، ولا علمه كعلمي . يعني : معاوية رضي الله عنه .

قالوا : صدقت ، فأخبرنا عن قتالك لهٰذين صاحباك في بدر وحُديبية وأُحُد ، وأخواك في الدِّين والسابقة والهجرة . يعني : طلحة والزبير رضي الله عنهما .

فقال : إنهما بايعاني بالمدينة ، وخلعاني بالبصرة ، ولو أنَّ رجُلاً ممن بايع أبا بكر رضي الله عنه خلعه لقاتلناه ، ولو أنَّ رجُلاً ممن بايع عمر رضي الله عنه خلعه لقاتلناه .

ثم دعاهم ثلاثة أيام ، حتىٰ إذا كان اليوم الثالث ، دخل عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ، فقالوا : قد أكثروا فينا الجراح . وذلك أنَّ قتلة عثمان رضي الله عنه كانوا متفرقين في العسكرَيْن ، فخشوا أن يصطلحوا علىٰ قتلهم ، فأنشبوا الحرب ، فتسابَّ صبيان العسكرين ، ثم تراموا ، ثم تبعهم العبيد ، ثم السفهاء ، فصلىٰ عليٌّ رضي الله عنه ركعتين ، ودعا ربه ، ثم قال : إن ظهرتم على القوم فلا تطلبوا مُدبراً ، ولا تَجهَزُوا علىٰ جريح ، وانظروا ما حضرت به الحرب من

آنية فاقبضوه ، وما كان سوىٰ ذلك فهو لورثتهم .

ونادىٰ على الزبير رضي الله عنه وقال : تعال ولك الأمان . فخلا به ، وقال : أَنشُدك الله ؛ هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وأنت لاوٍ يدي : « لتقاتلنَّهُ وأنت له ظالمٌ ، ثم ليُنصرنَّ عليك » .

قال : لقد ذكرتني شيئاً أنسانيه الدهر ، لا جرم لا أُقاتلك .

فقال له ابنه : ما جِئتَ للقتال إنما جِئتَ للصلح ، فأعتق غلامك وقِف . فأعتق غلامه ووقف .

فلما رَأى الحرب نشبت ، وأيس من الصُّلح خرج عن العسكرين ، فغلب أصحاب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وبلغت القتلىٰ ثلاثة عشر ألفاً ، وقُتل طلحة رضي الله عنه .

رَوى الحاكم عن ثور بن مَجْزَأةَ قال : مررت بطلحة يوم الجمل في آخر رمق ، فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من أصحاب أمير المؤمنين علي . فقال : ابسط يدك أبايعك ، فبسطت يدي ، فبايعني ، وقال : هـٰذه بيعة علي . وفاضت نفسه ، فأتيتُ علياً فأخبرته ، فقال : الله أكبر ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلاَّ وبيعتي في عنقه . ثم جمع الناس وبايعهم .

وانتهىٰ عبد الله بن يزيد بن ورقاء الخزاعي إلىٰ عائشة رضي الله عنها وهي في الهودج ، فقال : يا أم المؤمنين ؛ أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان ، فقلت : ما تأمرينني ؟ فَقُلْتِ : الزم علياً ؟! فسكتت . فقال : اعقروا الجمل . فعقروه ، فنزل محمد بن أبي بكر أخوها ، ورجلٌ آخر ، فاحتملا هودجها ، فوضعاه بين يدي علي رضي الله عنه ، وإنه كالقنفذ من السهام .

فسألها محمد : هل أصابك شيء منها ؟ فقالت : لا . وأمر علي كرم الله وجهه أخاها محمداً وعماراً أن يضربا عليها قبة ، ففعلا ، فجاء إليها عليٌّ رضي الله عنه مُسَلِّماً ، فقال : كيف أنت يا أمُّ ؟ قالت : بخير . قال : يغفر الله لك . وجاء وجوه الناس والأعيان يُسَلِّمُون عليها .

فلما كان الليل دخلت البصرة ومعها أخوها ، ونزلت في دار عبد الله بن خُليد ، وهي أعظم دار بالبصرة ، علىٰ صفية بنت الحارث بن أبي طلحة العبدري ؛ وهي أم طلحة الطلحات ، وأقام علي رضي الله عنه بظاهر البصرة ثلاثاً ، ثم دخلها فبايعه أهلها أجمعون حتى الجرحىٰ ، وعَرض علىٰ أبي بكرة إمارة البصرة ، فامتنع ، وأشار عليه بابن عباس رضي الله عنهما ، فولىٰ عليها ابن عباس ، ثم جاء إلىٰ أم المؤمنين رضي الله عنها فاستأذن عليها ، ودخل وَسلّمَ عليها ، فردت السلام ، ورحبت به ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ بالباب رجلين ينالان من عائشة . فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحدٍ منهما مئة جلدة ، وأن يُجردهما من ثيابهما .

فلما رأت الخروج من البصرة بعث إليها علي رضي الله عنه بكل ما ينبغي من مركب ، وزاد ، ومتاع ، وغير ذلك ، وأذن لمن نجا من الجيش الذي معها أن يرجع إلاَّ أن يُحب المُقَام ، وأرسل معها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وسيَّر معها أخاها محمداً .

فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي رضي الله عنه فوقف على الباب ، وحضر الناس ، وخرجت من الدار في الهودج ، فودعت الناس ، ودعت لهم ، وقالت : يا بَنِيَّ ؛ لا يَعْتِب بعضنا علىٰ بعض ، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلاَّ ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه لمن الأخيار . فقال علي رضي الله عنه : صدقت ، والله ما كان بيني وبينها إلاَّ ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة . وسار معها عليٌّ رضي الله عنه مشياً أميالاً ، وسَرَّح بنيه معها بقية ذلك اليوم .

ذكر هـٰذا الفصل الحافظ عماد الدين بن كثير في « تاريخه » ، وهـٰذا ملخصه .

وفعل ذلك معها ؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتثالاً لقوله المار : « إذا كان ذلك فارددها إلىٰ مأمنها » ، وأداءً لحق الأمومة ، فإنها أُمُّ المؤمنين بنص الكتاب العزيز ، فتلطف بها غاية التلطف ، ولم يُعنفها ، ولم يُوبخها ، بل أكرمها ، وردها ، وقصدت في مسيرها ذلك إلىٰ مكة ، فأقامت بها إلىٰ أن حجت عامها ذاك ، ثم رجعت إلى المدينة .

ولما وَلّى الزبير رضي الله عنه تبعه عمرو بن جُرْمُوز فقتله ، وجاء بسيفه إلىٰ علي رضي الله عنه ، فأخذه ، فنظر إليه ، وقال : أما والله ؛ لَرُبَّ كُربةٍ قد فَرّجها صاحب هـٰذا السيف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذن عليه ابن جُرْمُوز ، فأبطأ عليه الإذن . فقال : أنا قاتل الزبير . فقال : أبقتل ابن صفية يُفتخر ؟! فليتبوأ بالنار ، إنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قاتل ابن صفية في النار » .

وجاء عمر بن طلحة علياً رضي الله عنه فقال : مرحباً يا بن أخي ، إني لم أقبض مالكم لآخذه ، ولـٰكن خِفْتُ عليه من السفهاء .

انطلق فخذ مَالَكَ ، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ .

ثم أَمَّر ابن عباس رضي الله عنهما على البصرة ، ورجع إلى الكوفة .

عن عروة قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : من كان أحب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : علي بن أبي طالب . قلت : ما سبب خروجك عليه ؟ قالت : لِمَ تزوج أبوك أمك ؟ قلت : ذلك من قدر الله . قالت : وكان ذلك من قدر الله .

وذكر لها مرة يوم الجمل ، فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ قالوا : نعم ، قالت : وددت أني جلست كما جلس غيري ، فكان أحب إليَّ من أن أكون وُلّدتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج قوم هلكىٰ لا يفلحون ، قائدهم امرأة ، قائدهم في الجنة » رواه البزار ، والبيهقي .

وعن أبي البختري قال : سئل علي رضي الله عنه عن أهل الجمل : أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا . قيل : أمنافقون هم ؟ قال : إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً . قيل : فما هم ؟ قال : إخواننا بَغوا علينا .

ومنها : وقعة صفين :

وقد صَحّ : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتتل فئتان عظيمتان ، تكون بينهما مَقتلةٌ عَظِيمةٌ ، دعواهما واحدة »[1] .

وعن عطاء بن السائب قال : حدثني غير واحد : أنَّ قاضياً من قُضاة الشام أتىٰ عمر رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيت كأنَّ الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم معهما نصفين . قال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر على الشمس . فقال عمر رضي الله عنه : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ انطلق فوالله لا تَعملُ لي عملاً أبداً .

قال عطاء : فبلغني أنه قُتل مع معاوية رضي الله عنه يوم صِفّين .

وسببها بالاختصار : أنه لما قُتل عثمان رضي الله عنه ، وبويع علي رضي الله عنه أرسل إلىٰ معاوية رضي الله عنه أن يَدْخُل فيما دخل فيه المسلمون ، وينعزل عن العمل ، وكان عاملاً لعمر ، ثم لعثمان رضي الله عنهما على الشام ، وكان يرجو أن يُبقيه علي رضي الله عنه علىٰ عمله ، وقد كان الحسن بن علي ، وابن عباس رضي الله عنهم ، وغيرهما أشاروا عليه بإبقائه على الشام حتىٰ يأخذ له البيعة ، ثم يقول فيه ما شاء ، فقال : هيهات ، لو علمت أنَّ المُدَاهنة تسعني في دين الله ؛ لفعلت ، ولـٰكن الله لم يرض لأهل القرآن بالمُدَاهنة .

فبلغ معاوية رضي الله عنه ، فحلف أنه لا يلي لعلي رضي الله عنه عملاً أبداً ، وكان

---

(١) وكذا حمل الحديث على صفين : القاري (٥/ ١٥٤) « المرقاة » . والأوجه عندي حرب الدول الحادث التي يسمونها الحرب العالمية ، فإن الفئتين كانتا أعظم ما تكون ، ودعواهما كان توريث الأمن في العالم . اهـ (ز) .

تعليق : إنما حمل الشيخ الحديث على الحرب العالمية الثانية ؛ لإطلاق الحديث ، فإنَّ في صِفّين كانت دعوى الفريقين مختلفة ، فأما فئة سيدنا معاوية رضي الله عنه فكانت تطالب بالقصاص من قتلة سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وأما مطلب فئة سيدنا علي رضي الله عنه فكان تثبيت الأمن ، وتوحيد الصف . وكذا فنص الحديث يذكر كون الفئتين عظيمتين ، وهـٰذا يصدق علىٰ ما حدث في الحرب العالمية ؛ فإنَّ الدنيا انقسمت إلىٰ فئتين ؛ كما لا يخفىٰ .

عمرو بن العاص رضي الله عنه علىٰ مصر فعزله أيضاً ، فاجتمع عمرو ومعاوية رضي الله عنهما واتفقا على الخُروج .

وقد رَوىٰ الطبراني عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص جميعاً ، ففرقوا بينهما » ، وكان شداد إذا رآهما جالسين علىٰ فراش ، جلس بينهما .

ولما فرغ علي رضي الله عنه من الجَمل ، ورجع إلى الكوفة أرسل جرير بن عبد الله البجلي إلىٰ معاوية يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فامتنع ، فقال له أبو مسلم الخَولاني : أنت تنازع علياً في الخلافة ، أفَأنت مثله ؟ قال : لا ، وإني لأعلم أنه أفضل ، لـٰكن ألستم تعلمون أنَّ عثمان رضي الله عنه قُتِلَ مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه ، فأتوا علياً فقولوا له : يَدفَع لنا قتلة عثمان . فأجاب أهل الشام .

فأرسل إليه معاوية رضي الله عنه أبا مسلم يطلب بدم عثمان رضي الله عنه وأنه وليه وابن عمه . قال : يدخل في البيعة كما فعل الناس ، ثم يُحاكمهم إليَّ .

فتجهز معاوية رضي الله عنه من الشام ، وعليّ رضي الله عنه من الكوفة ، فالتقيا بصفين ، فتقاتلوا قتالاً شديداً حتىٰ بلغت القتلىٰ ثلاثين ألفاً ، فلما رأىٰ أصحاب معاوية رضي الله عنه منهم العجز قال عمرو لمعاوية رضي الله عنهما : أرسلوا إلىٰ عليّ بالمصحف ، وادعوه إلىٰ كتاب الله ، فإنَّ علياً يجيبكم إلىٰ ذلك ، ففعلوا . فقال علي رضي الله عنه : نعم ، نحن أحق بالإجابة إلىٰ كتاب الله ، فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : يا أمير المؤمنين ؛ ما تنظر من هـٰؤلاء ؟ ألا نمشي عليهم بسيوفنا حتىٰ يحكم الله بيننا . فقال سهل بن حنيف : يا أيها الناس ؛ اتهموا رأيكم . فآل الأمر إلى التحكيم .

فَحكّمَ عليٌّ أبا موسىٰ رضي الله عنهما بعد أن أراد أن يُحكّم ابن عباس رضي الله عنهما فمنعه أهل الكوفة ، وحَكّم معاوية عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، فاتفق الحكمان علىٰ أن يَخْلع كل منهما صاحبه . وكان عمرو رضي الله عنه داهية ، فَقدّم أبا موسىٰ رضي الله عنه فخلع علياً رضي الله عنه ، ثم قام عمرو رضي الله عنه ، فقال : إنَّ أبا موسىٰ خَلع علياً ، وإني نَصبتُ معاوية ، فاختلف الناس ، وأخذ أبو موسىٰ

رضي الله عنه يَسبُّ عمرواً ، ويقول : إنك غَدرت . فرجع عليٌّ إلى الكوفة ، ومعاوية إلى الشام .

ثم تجهز علي رضي الله عنه لقتال أهل الشام مرة بعد أخرىٰ ، فشغله أمر الخوارج ، ثم تجهز في سنة تسع وثلاثين ، فلم يتهيأ ذلك ؛ لافتراق آراء أهل العراق عليه ، ثم وقع الجِدُّ منه في ذلك في سنة أربعين ، وجعل علىٰ مُقَدِّمتهِ قيس بن سعد بن عبادة ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوه على الموت ، فَقُتِلَ علي رضي الله عنه ، وكان ما قدر الله .

وعن عروة عن [أبيه] رويم قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صارعني . فقام إليه معاوية رضي الله عنه فقال : أنا أُصارعك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يُغلب معاوية أبداً » ، فَصَرعَ الأعرابيَّ .

فلما كان يوم صِفّين قال علي كرّم الله وجهه : لو ذَكرتُ هـٰذا الحديث ؛ ما قاتلت معاوية . رواه ابن عساكر .

وعن يزيد بن الأصم قال : سُئل علي رضي الله عنه عن قتلىٰ يوم صِفّين ؟ فقال : قتلانا وقتلاهم في الجنة ، ويَصِيرُ الأمر إليَّ وإلىٰ معاوية .

وعن المسيب بن نجبة قال : أخذ علي رضي الله عنه بيدي يوم صفين ، فوقف علىٰ قتلىٰ أصحاب معاوية رضي الله عنه فقال : يرحمكم الله ، ثم مال إلىٰ قتلىٰ أصحابه فترحم عليهم بمثل ما ترحم علىٰ أصحاب معاوية . فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ استحللت دماءهم ثم تترحم عليهم ؟! قال : إنَّ الله جعل قَتْلنَا إياهم كفارةً لذنوبهم .

وعليٌّ كرّم الله وجهه قال : من كان يريد وجه الله مِنّا ومنهم نجا .

وما أحسن ما أخرج ابن عساكر قال : جاء رجل إلىٰ أبي زُرعة الرازي فقال : إني أُبغض معاوية . قال : لِمَ ؟ ، قال : لأنه قاتل علياً بغير حق . فقال أبو زُرْعة : ربُّ معاوية رَبٌّ رحيم ، وخصمه خصمٌ كريم ، فما دخولك بينهما ؟

ومنها : وقعة النهروان :

عن مِخْنف بن سُلَيم قال : أتينا أبا أيوب رضي الله عنه فقلنا : يا أبا أيوب ؛ قاتلت المشركين بسيفك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جئت تقاتل المسلمين ؟!

فقال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا بقتال ثلاثة : الناكثين ، والقاسطين ، والمارقين ، فقد قاتلت الناكثين ، والقاسطين ، وأنا مقاتلٌ إن شاء الله المارقين . رواه ابن جرير .

وفي رواية أبي صادق عنه : عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقاتل مع عليٍّ الناكثين ؛ فقد قاتلناهم ـ يعني : أهل الجَمل ـ ، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين ؛ فهٰذا وجهنا إليهم ـ يعني : معاوية وأصحابه ـ ، وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين ؛ فلم أرهم بَعْد .

وَروى الزبير بن بكار في « الموفقيات » : عن عليّ رضي الله عنه ؛ أنه أوصىٰ حين ضربه ابن مُلْجم في وصيته : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني بما يكون من اختلاف أمته بعده ، وأمرني بقتال الناكثين ، والمارقين ، والقاسطين ، وأخبرني بهٰذا الذي أصابني ، وأخبرني أنه يملك معاوية وابنه يزيد ، ثم يصير إلىٰ بني مروان يتوارثونها ، وأنَّ هٰذا الأمر صائرٌ إلىٰ بني أُمية ، ثم إلىٰ بني العباس ، وأراني التربة التي يُقْتَلُ بها الحسين رضي الله عنه .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً : « إنه يخرج من ضِئْضِىء هٰذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويَدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم ، لأقتلنهم قتل عاد وثمود » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه نحوه ، وزاد : « هم شر الخَلْق والخَلِيقة » .

وعن علي رضي الله عنه نحوه ، وزاد : « فاقتلوهم ؛ فإنَّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » .

وعن أنس رضي الله عنه نحوه ، وزاد : « طُوبىٰ لمن قتلهم وقتلوه ، يَدْعُونَ إلىٰ كتاب الله وليسوا منه ، من قاتلهم كان أولىٰ بالله منهم ، سيماهم التحليق » .

وعن علي رضي الله عنه أيضاً نحوه ، وزاد : « لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضيَ لهم علىٰ لسان نبيهم ، لاتَّكلوا عن العمل ، وآية ذلك أنَّ فيهم رجلاً له عضد

ليس فيه ذراع ، علىٰ رأس عضده مثل حلمة الثدي ، عليه شَعراتٌ بيض » .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه : تَمرقُ مَارقةٌ عند فُرقةٍ من المسلمين ، فيقتلها أولى الطائفتين بالحق .

أقول : وفي هـٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ أصحاب معاوية رضي الله عنه ما خرجوا عن الإسلام ، بل لم يفسقوا ؛ لأنهم مجتهدون ، وأنهم مخطئون في اجتهادهم ، وأنَّ أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه وأصحابه كانوا أولىٰ بالحق ؛ لأنه الذي قَتلهم ، وقد صرح به في رواية ابن عمرو : « يقتلهم علي بن أبي طالب » .

والأحاديث في الخوارج كثيرةٌ لا تكاد تنحصر .

وسبب وقعتهم بالاختصار : أنهم لما حَكّمُوا الحكمين ، قالت القراء : كفر عليّ ، وكفر معاوية . فاعتزلوا أمير المؤمنين ، ونزلوا بحروراء بضعة عشر ألفاً ، فأرسل إليهم ابن عباس رضي الله عنهما يناشدهم الله : ارجعوا إلىٰ خليفتكم ، فبم نقضتم عليه : أفي قِسمةٍ أو قضاء ؟ قالوا : نخاف أن ندخل في الفتنة . قال : فلا تعجلوا ضلالة العام مخافة فتنة عام قابل .

فرجع بعضهم إلى الطاعة ، وقال بعضهم : نكون علىٰ ناحيتنا ، فإن قَبِلَ القضية ـ يعني : التحكيم ـ قاتلناه علىٰ ما قاتلنا عليه أهل الشام بصِفِّين ، وإن نقضها ؛ قاتلنا معه . فساروا حتىٰ قطعوا النهر ، وافترقت منهم فرقةٌ يقتلون الناس ، فقال أصحابهم : ما علىٰ هـٰذا فارقنا علياً .

فلما بلغ علياً رضي الله عنه صنيعهم ، وكان متجهزاً إلى الشام قام فقال : أتسيرون إلىٰ عدوكم ، أو ترجعون إلىٰ هـٰؤلاء الذين خلفوكم في دياركم ؟ فقالوا : بل نرجع إليهم . فقال : ابسطوا عليهم ، فوالله لا يُقتل منكم عشرة ، ولا ينجو منهم عشرة . فكان كذلك ، فقال : اطلبوا رجلاً صفته كذا وكذا . فطلبوه فلم يجدوه ، ثم طلبوه فوجدوه على النعت الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجلٌ : الحمد لله الذي أبادهم، وأراحنا منهم .

فقال عليّ رضي الله عنه : كلا ، والذي نفسي بيده إنَّ منهم لمن في أصلاب الرجال

لم تحمله النساء بعد ، وليكونن آخرهم لصاصاً حَرّادِين .

وروىٰ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج ناسٌ من المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما قطع قرن نشأ قرن ، حتىٰ يكون آخرهم يخرج مع المسيح الدجال » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : من قَتلهُ الحرورية فهو شهيد .

وعن الحسن قال : لما قَتلَ علي رضي الله عنه الحرورية قالوا : من هٰؤلاء يا أمير المؤمنين ؟ أكفارٌ هم ؟ قال : من الكفر فروا . قيل : فمنافقون ؟ قال : إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ، وهٰؤلاء يذكرون الله كثيراً . قيل : فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنةٌ فعموا فيها وصموا .

ومن بقايا هٰؤلاء القرامطة ، ومنهم : الباطنية ، والإسماعيلية ، وفتنتهم مشهورة أهلكوا العباد ، وأفسدوا البلاد ، وستأتي الإشارة إليهم .

ومنها : نزول أمير المؤمنين الحسن بن عليّ لمعاوية رضي الله عنهما :

روىٰ نُعيم ، عن سفيان [بن الليل] قال : أتيت حسن بن عليّ رضي الله عنه بعد رجوعه إلى المدينة ، فقلت له : يا هَلاّكَ المؤمنين . فكان مما احتج به عَليَّ أن قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تذهب الأيام والليالي حتىٰ يجتمع أمر هٰذه الأمة علىٰ رجل واسع السَّرمِ ، ضخم البلعُوم ، يأكل ولا يشبع » ؛ وهو معاوية ، فعلمت أنَّ أمر الله واقع .

وَروى الديلمي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تذهب الأيام والليالي حتىٰ يملك معاوية » .

تَنبـيـه

قال في « النهاية » : السَّرم : الدُّبر . والضخم : العظيم . ومعناه : الشديد الذي يملك الأرض كلها . انتهىٰ

[قوله صلى الله عليه وسلم : « يأكل ولا يشبع »] أهو علىٰ حقيقته ؟ فإنَّ معاوية

رضي الله عنه دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يُشبع الله بطنه ، فلم يشبع بَعْدُ .

روىٰ مسلم ، والبيهقي واللفظ له ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ادع لي معاوية » . فقلت : إنه يأكل . فقال في الثالثة : « لا أشبع الله بطنه » . فما شبع بطنه أبداً . أورده السيوطي في « الخصائص » .

وقد كان سليمان بن عبد الملك من بني أمية كذلك ، يأكل ولا يشبع ، فيحتمل أن يكون هو المراد في الحديث ، والله أعلم .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : إذا رأيتم الشام قد اجتمع أمره على ابن أبي سفيان فالحقوا بمكة .

وَروى ابن عساكر ، والطبراني عن عائشة رضي الله عنها ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية رضي الله عنه : « إنَّ الله ولاك أمر هـٰذه الأمة ، فانظر ما أنت صانع » . قالت أم حبيبة رضي الله عنها : أو يُعطِي الله أخي يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، وفيها هنات ، وهنات ، وهنات » .

وروىٰ أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا معاوية ؛ إن وليت أمراً فاتق الله واعدل . قال معاوية : فما زلت أظن أني مبتلىً بعملٍ لقول النبي صلى الله عليه وسلم حتى ابتُلِيتُ » .

وسببه : أنه لما رجع علي رضي الله عنه من قتال الخوارج ، وتجهز للشام كما مر قُتِل في سابع عشر شهر رمضان وهو خارج لصلاة الصبح ، قتله أشقى الآخرين ؛ اللعين عبد الرحمن بن مُلْجَم ، ضربه بسيفٍ مسموم علىٰ جبهته فأوصله دماغه ، ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين .

فبويع للحسن رضي الله عنه بالخلافة ، فسار الحسن إلىٰ معاوية رضي الله عنهما بكتائب أمثال الجبال يريد الشام ، وخرج إليه معاوية يريد الكوفة ، وأرسل عبد الله بن عامر ، وعبد الرحمـٰن بن سمرة إلى الحسن رضي الله عنه يطلب الصُّلح .

فقال الحسن : إني أحقن دماء المسلمين وأنزل عن الخلافة لمعاوية ، ولـٰكن إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هـٰذا المال ـ أي : جُبِلْنا على الكرم ، والتوسعة علىٰ

أتباعنا حتىٰ صار لنا عادة ـ فلا نقدر على القلة ، وإنَّ هـٰذه الأمة قد عاثت في دمائها ـ أي : العسكرين الشامي والعراقي ـ وقد قتل بعضهم من بعض ـ فلا يَكُفُّون إلاَّ بالصفح ، وعدم الانتقام .

قالا : فإنه يَعرضُ عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك ، قال : فمن لي بهـٰذا ؟ قالا : نحن لك به .

فكتب إليه معاوية أن اطلب ما شئت ، واشرط ؛ فإني أُوفي لك بذلك . وأرسل إليه ورقاً بياضاً ، وختم في أسفله ، وقال : اكتب فيه ما شئت ، فشرط الحسن أشياء منها : أن يكون له بيت مال الكوفة ، وأن يكون له خراج دار أبجرد ، وأن تكون الخلافة بعد معاوية رضي الله عنه له ولأخيه الحسين .

وفي رواية : تكون للمسلمين يولون من شاؤوا ، وأن لا يَتعرّضَ لأهل العراق ، ولا ينتقم منهم .

فنزل الحسن رضي الله عنه وبايعه ، فقال معاوية رضي الله عنه : تكلم يا حسن .

فقام ، فحمد الله ، وأثنىٰ عليه ، وقال : أيها الناس ؛ إنَّ الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإنَّ معاوية نازعني أمراً أنا أحق به منه ، وإني تركته حقناً لدماء المسلمين ، وطلباً لما عند الله .

فشهد جماعة من الصحابة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الحسن : « إنَّ ابني هـٰذا سيِّدٌ ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين يكون بينهما مقتلةٌ عظيمة » .

وسميت تلك السنة : سنة الجماعة ؛ لاجتماع الناس ، ورفع القتال بينهم .

وعن الحارث قال : لما رجع عليّ رضي الله عنه من صفين علم أنه لا يملك أبداً ، فتكلم بأشياء كان لا يتكلم بها ، وحَدّثَ بأحاديث كان لا يُحدِّث بها .

وقال فيما يقول : أيها الناس ؛ لا تكرهوا إمارة معاوية ، والله لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تنزل عن كواهلها كالحنظل .

ومنها : مُلْكُ بني أمية ؛ يزيد بن معاوية ومن بعده :

المشتمل على الفتن العظام ؛ كقطع الليل المظلم :

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : أَبغضُ الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أمية ، وثقيف ، وبنو حنيفة .

وعن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بلغت بنو أمية أربعين رجلاً اتخذوا عباد الله خَولاً ، ومال الله نِحَلاً ، وكتاب الله دَغَلاً » .

وفي رواية : « ومال الله نِحَلاً ، وكتاب الله نفلاً » .

وفي رواية : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا دين الله دخلاً » . إلخ .

قال في « النهاية » : الخَولُ : حَشَمُ الرجل وأتباعه ، وأحدهم : خِائلٌ ، وقد يكون واحداً ويقع على العبد والأمة . انتهىٰ . وهـٰذا الثاني هو المراد هنا .

وعن ابن الموهب ؛ أنه كان عند معاوية رضي الله عنه فدخل عليه مروان ، فقال له : اقض حاجتي يا أمير المؤمنين ، فوالله إن مؤُنتي لعظيمة ، وإني أبو عشرة ، وعم عشرة ، وأخو عشرة .

فلما أدبر مروان ، وابن عباس جالس مع معاوية على السرير فقال معاوية : يا بن عباس ؛ أما تعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دُوَلاً ، وعباد الله خَولاً ، وكتاب الله دَغلاً ، فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربع مئة رجل كان هلاكهم أسرع من أكل أَوَّلِ تمرة » ، فقال ابن عباس : اللهم ؛ نعم .

وذكر مروان حاجةً له ، فرد مروان عبد الملك إلىٰ معاوية فكلمه فيها ، فلما أدبر عبد الملك قال معاوية : يا بن عباس ؛ أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هـٰذا ؟ فقال : « أبو الجبابرة الأربعة » . فقال ابن عباس : اللهم ؛ نعم . رواه البيهقي .

وعن عليّ كرّم الله وجهه قال : لكل أمة آفة ، وآفة هـٰذه الأمة بنو أمية .

وعن عمران بن جابر الحنفي ـ وكان أحد الوفد ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ويل لبني أمية » (ثلاث مرات) .

وعن محمد بن كعب القُرَظِي قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم وما وَلَدَ ، إلاَّ الصالحين منهم ، وهم قليل .

وعن عمرو بن مرة الجهني قال : استأذن الحكم بن أبي العاصي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف صوته ، فقال : « ائذنوا له ، حية ، أو ولد حية ، لعنة الله عليه وعلىٰ كل من يخرج من صُلبه ، إلاَّ المؤمن منهم ، وقليل ما هم » .

قُلْتُ : وهـٰذا الاستثناء إشارةٌ إلىٰ عمر بن عبد العزيز وأمثاله منهم ، يشرفون في الدنيا ، ويوضعون في الآخرة ، ذوو مكر وخديعة ، يُعظَّمُون في الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق .

وعن زهير بن الأقمر قال : كان الحكم بن أبي العاصي يجلس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقل كلامه إلىٰ قريش ، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يخرج من صلبه إلىٰ يوم القيامة .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ؛ أنه قال وهو على المنبر : وربِّ هـٰذا البيت الحرام والبلد الحرام ؛ إنَّ الحكم بن أبي العاصي وولده ملعونون علىٰ لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وعنه وهو يطوف : وَربِّ هـٰذه البَنِيَّة ؛ لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم وما وَلَد .

وعن أبي يحيى النخعي قال : كنت بين الحسن والحسين ، والحسين ومروان يتشاتمان ، فجعل الحسن يكف الحسين ، فقال مروان : أهل بيت ملعونون . فغضب الحسن رضي الله عنه وقال : أَقُلتَ أهل بيت ملعونون ، فوالله لقد لعنك الله علىٰ لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك .

وفي لفظ : لعن الله أباك علىٰ لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلبه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت

في النوم بني الحكم ينزون علىٰ منبري ؛ كما تنزو القردة » . قال : فما رئي النبي صلى الله عليه وسلم ضاحكاً مستجمعاً حتىٰ تُوفي » رواه أبو يعلىٰ ، والحاكم ، والبيهقي .

وعن ابن المسيب رضي الله عنه قال : رَأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بني أمية علىٰ منبره ، فساءه ذلك ، فَأُوحي إليه : (إنما هي دنيا أُعْطُوهَا) ، فقرَّت عينه . رواه البيهقي .

وعن الحسن بن علي عليهما السلام قال : « إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأىٰ بني أمية يَخْطُبونَ علىٰ منبره رجلاً رجلاً ، فساءه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ، ونزلت : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بنو أمية .

قال القاسم بن الفضل : فَحَسبنا مدة مُلكَ بني أمية ، فإذا هي ألف شهر ، لا تزيد ولا تنقص . رواه الترمذي ، والحاكم ، والبيهقي .

وعن الزُّهري ، وعطاء الخراساني ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال للحكم : « كأني أنظر إلىٰ بَنِيكَ يصعدون منبري وينزلون » . رواه الفاكهي .

وعن جُبير بن مُطعم قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمر الحكم بن أبي العاصي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويلٌ لأمتي مما في صلب هـٰذا » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليَرْعُفَنَّ جبار من جبابرة بني أمية علىٰ منبري هـٰذا » ، فَرعفَ عمرو بن سعيد بن العاصي علىٰ منبر النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ سال الدم علىٰ درج المنبر .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : هَجَّرتُ الرواح إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أبو الحسن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادن . فلم يزل يُدنيه حتى التقم أذنيه ، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يُسَارُّهُ ؛ إذ رفع رأسه كالفزع ، فإذا قَرْعٌ بسِيفَةِ الباب ، فقال لعلي : « اذهب فَقُدْهُ كما تُقَادُ الشاة إلىٰ حالبها » ، فإذا عليٌّ يُدْخِل الحكم بن أبي العاصي آخذاً بأذنه ولها زَنْمَةٌ حتىٰ أوقفه بين يدي النبي

صلى الله عليه وسلم ، فلعنه نبي الله ثلاثاً ، ثم قال : « أجلسه ناحية » ، حتىٰ راح إليه قومٌ من المهاجرين والأنصار ، ثم دعاه فلعنه ، ثم قال : « إنَّ هـٰذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه ، وسيخرج من صلبه فتنٌ يبلغ دخانها السماء » ، فقال نَاسٌ من القوم : هو أقل وأذل أن يكون هـٰذا منه ، قال : « بلىٰ ، وبعضكم يومئذ شيعته » .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم نَفَاهُ إلى الطائف فكان هناك حياته ، ولم يرده أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، فرده عثمان رضي الله عنه في خلافته .

وهـٰذا أحد الأمور التي انتقدوها عليه ، وهم صاروا سبب قتله ، فكانت دولتهم مقتضيةً لمفاسد كثيرة ، ومظالم لا تُعد ولا تُحصىٰ .

فمما وقع في زمن يزيد : قتل الحسن بن عليّ رضي الله عنه :

وسببه : أنَّ يزيد بن معاوية أرسل إلىٰ زوجة الحسن جعدة الكندية أنها تَسُمَّهُ ويتزوجها ، وبذل لها مئة ألف درهم ، ففعلت ، فمرض أربعين يوماً ، وجهد به أخوه الحسين أن يخبره عمن سمَّه ، فأبىٰ ، وقال : الله أشد نقمة ، وأجد كبدي تَقَطَّع ، وإني لعارفٌ من أين دُهِيتُ ـ أي : يشير إلىٰ أنه من قِبَل يزيد ـ ، فبحقي عليك لا تكلمت في ذلك بشيء . ثم قال : أُقسم عليك ألاَّ تريق في أمري مَحْجَمة دم .

ومن كلامه له : إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ، والله ما أرىٰ أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة ، وقد كنت طلبت من عائشة أن أُدفنَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابت ، فإذا مِتُّ فاطلب منها وما أظن القوم ـ يعني : بني أمية ـ إلاَّ سيمنعونك ، فإن فعلوا فلا تراجعهم ، وادفني عند أمي فاطمة بالبقيع .

فمات رضي الله تعالىٰ عنه بعد أربعين يوماً ، والأكثرون أنه سنة خمسين .

فلما مات سأل الحسين عائشة رضي الله عنها فقالت : نعم وكرامة . فمنعهم مروان ـ وكان أميراً بالمدينة من جهة معاوية رضي الله عنه ـ ومن معه من بني أمية ، فَلَبِس الحسين رضي الله عنه ومن معه السلاح ، وقالوا : نقاتل . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : والله لا يمنعه إلاَّ ظالم ، والله إنه لابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال أبو هريرة للحسين رضي الله عنهما : لا تكن أول من ترك وصية أخيك ؛

فقد أوصاك بعدم القتال ، فما زال به حتىٰ رده ، ودفنوه بالبقيع عند أمه .

وأرسلت جعدة إلىٰ يزيد تطلب ما وعدها به ، فأبىٰ ولم يتزوجها .

ومنها : قتل الحسين رضي الله عنه :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك يا معاذَ وأحصِ ، فلما بلغت خمساً ـ يعني : من الخلفاء ـ قال : يزيد ، لا بارك الله في يزيد ، نُعي إليَّ حسين ، وأُتيت بتربته ، وأُخبرت بقاتله ، والذي نفسي بيده لا يُقتل بين ظهراني قوم لا يمنعونه إلاَّ خالف الله بين صدورهم وقلوبهم ، وسلط عليهم شرارهم ، وألبسهم شيعاً » .

قُلْتُ : في هٰذا ذمُّ الذين بايعوه وأخرجوه ، ثم أَسلَمُوه إلى العدو ولم يمنعوه .

« واهاً لفراخ آل محمد من خليفةٍ مُستخلف ، يقتل خلفي وخلف الخلف ، أمسك يا معاذ » . قال : فلما بلغت عشرة وقال : الوليد اسم فرعون ، هادم شرائع الإسلام ، يَبوءُ بدمه رجل من أهل بيته . . . » الحديث .

وقوله : (فلما بلغت عشرة) : يحتمل عشرة مع الخلفاء الراشدين ، وحينئذ فهو الوليد بن عبد الملك ؛ لأنَّ الخلفاء أربعة ، والخامس : معاوية ، والسادس : يزيد ، والسابع : ابنه معاوية ، والثامن : ابن الزبير ، أو مروان ، والتاسع : عبد الملك ، والعاشر : الوليد ابنه .

وإن كان عشرة بعد يزيد فهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ لأنه تولىٰ بعد الوليد هٰذا سليمان أخوه ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد وهشام ابنا عبد الملك ، فهٰؤلاء أربعة ، إذا انضموا إلى الخمسة يكونون تسعة ، والعاشر الوليد بن يزيد .

ويؤيد هٰذا الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم : « يبوء بدمه رجل من أهل بيته » ؛ لأنه قتله ابن عمه يزيد بن الوليد ، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « سَلَّ الله سيفه فلا إغماد له » ؛ لأنهم اختلفوا فَقتلَ بعضهم بعضاً ، فغلب عليهم بنو العباس ، ومن ثَمَّ قال الزهري : إن تولَّى الوليد بن يزيد فهو هو ، وإلاَّ فهو الوليد بن عبد الملك .

وجاء من طُرقٍ صَحّح الحاكم بعضها : أنَّ جبريل ـ وفي رواية : مَلَكَ القَطْر ـ جاء

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنَّ الحسين مقتول ، وأراه من تربة الأرض التي يُقتل فيها ، فأعطاه لأُمّ سلمة وأخبرها أن يوم قتله يتحول دماً ، فكان كذلك . وشم صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال : « رِيحُ كَرْبٍ وبلاء » .

وسببه : أنه لما مات الحسن رضي الله عنه أخذ معاوية رضي الله عنه البيعة ليزيد من أهل الشام ، وجاء حاجّاً ، فأراد أن يأخذها من أهل الحجاز من المهاجرين والأنصار فامتنعوا ، وقالوا : إن كان لك رغبةٌ فيها فهي لك ، وإن سئمتها فردها على المسلمين .

فلما مات معاوية رضي الله عنه ، وبُويع ليزيد بالشام وغيرها أرسل يزيد لعامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة على الحسين رضي الله عنه ، فهرب الحسين إلىٰ مكة خوفاً علىٰ نفسه ، فأرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم ليبايعوه ، فنهاه ابن عباس رضي الله عنهما ، وذكر له غدرهم وقتلهم لأبيه ، وَخِذْلاَنهم لأخيه ، وأمره أن لا يذهب بأهله ، فأبىٰ ، فبكى ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : واحسيناه . وقال له ابن عمر رضي الله عنهما نحو ذلك ، فأبىٰ ، فقبّل بين عينيه ، وقال : أستودعك الله من قتيل . وكذلك نهاه ابن الزبير رضي الله عنهما ، بل لم يبق بمكة أحدٌ إلاَّ حَزن لمسيره .

ولما بلغ أخاه محمد بن الحنفية بكىٰ حتىٰ ملأ طستاً بين يديه، وقَدّمَ أمامه مسلم بن عقيل ، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفاً أو أكثر ، فأرسل إليه يزيد ابن زياد وحرضه علىٰ قتله ، وأخذوا مسلم بن عقيل فقتلوه ، وتفرق المبايعون .

وسار الحسين رضي الله عنه غير عَالمٍ بذلك ، فلقي الفرزدق فسأله ، فقال : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء .

ولما قرب من القادسية تلقاه من أخبره الخبر ، وأمره بالرجوع فهمَّ بالرجوع ، فقالت إخوة مسلم بن عقيل : والله لا تَرجِع حتىٰ نأخذ بثأرنا ، أو نُقتل . فقال : لا خير في الحياة بعدكم .

ثم سار فلقيه أوائل خيل ابن زياد ، فعدل إلىٰ كربلاء ، فجهز إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل ، فلما وصلوا إليه طلبوا منه النزول علىٰ حكم ابن زياد ، والمبايعة ليزيد ، فقال : دعوني أذهب إلىٰ يزيد . فأبى ابن زياد إلاَّ النزول علىٰ حكمه .

فقال : والله لا نَزَلتُ علىٰ حكمه أبداً . فقاتلوه ، وكان أكثر مقاتليه المكاتبين له ، والمبايعين له ، فلعنة الله علىٰ قاتليه مرة ، وعلىٰ خاذليه مئة مرة ؛ حيث جعلوا آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فِداءً لأنفسهم ، قاتلهم الله ما أغدرهم وأخذلهم!!

ومن ثَمَّ قال لهم أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه : والله لو قدرت لبعتكم بأهل الشام ؛ صَرفَ الدرهم بالدينار ، كل عشرة منكم بواحد منهم .

فحارب رضي الله عنه ذلك العدد الكثير ، ومعه من أهله نيف وثمانون ، فثبت في ذلك الموقف ثباتاً باهراً ، ولولا أنهم حالوا بينه وبين الماء ما قدروا عليه .

فلما بلغ القتلىٰ من أهله خمسين نادىٰ : أما ذابٌّ يذُبُّ عن حريم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فخرج يزيد بن الحارث رجاء شفاعة جده صلى الله عليه وسلم ، فقاتل بين يديه حتىٰ قتل ، ثم فني أصحابه ، وبقي بمفرده ، فحمل عليهم حملة عمه حمزة وأبيه عليّ رضي الله عنهما ، وقتل كثيراً من شُجعانهم ، فكثروا عليه حتىٰ حالوا بينه وبين حريمه .

فصاح عليه السلام : كفوا سفهاءكم عن النساء والأطفال . فكفوا .

ثم لم يزل يقاتلهم حتىٰ أثخنوه بالجراح ؛ لأنه طُعِنَ إحدىٰ وثلاثين طعنة ، وضرب أربعاً وثلاثين ضربة .

ومع ذلك غلب عليه العطش فسقط على الأرض ، وحزوا رأسه الشريف يوم الجمعة عاشر محرم عام إحدىٰ وستين .

ولما وضعه قاتله بين يدي اللعين ابن زياد أنشد متبجحاً شعراً :

أوقــر ركــابــي فضــة وذهبــا   أنــي قتلــت ملكــاً مُحجبــا
قتلــت خيــر النــاس أُمّــاً وأبــا   وخيــرهــم إذ ينسبــون نسبــا

فأمر بضرب عنقه ، وقال : إذا علمت أنه كذلك فلم قتلته ؟!

والظاهر : أنه ما قتله إلاَّ لأنه مدحه ، لا لأنه قتله .

ويَدُلّ لذلك أنه جعل الرأس الشريف في طست ، وجعل يضرب ثناياه الشريفة بقضيبٍ ، ويدخله أنفه ، ويتعجب من حسن ثغره .

فبكىٰ أنس رضي الله عنه ، وقال : كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال زيد بن أرقم : ارفع قضيبك ، فوالله لطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبّل ما بين الشفتين . وبكىٰ ، فأغلظ عليه اللعين ابن زياد ، وهدده بالقتل ، فقال : لأُحدّثنّك بما هو أَغيظُ عليك من هـٰذا : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعد حَسناً علىٰ فَخِذه اليمنىٰ ، وحُسيناً هـٰذا علىٰ فَخِذه اليسرىٰ ، ثم وضع يده الكريمة علىٰ يافُوخِهما ، ثم قال : « اللهم ؛ إني استودعتك إياهما وصالحَ المؤمنين » .

فكيف كانت وديعة النبي صلى الله عليه وسلم عندك يا بن زياد ؟!

وقد انتقم الله منه ؛ فقد رَوى الترمذي بسندٍ صحيح ؛ أنَّ رأس ابن زياد لما قتل وضع موضع رأس الحسين ، وإذا حَيّةٌ عَظيمةٌ قد جاءت ، فتفرق الناس عنها ، فتخللت الرؤوس حتىٰ جاءت رأس ابن زياد ، فجعلت تدخل من فمه ، وتخرج من منخريه ، وتدخل من منخريه ، وتخرج من فمه ، فعلت ذلك مرتين ، أو ثلاثاً .

ولما دخل قصر الإمارة بالكوفة أُمر بالرأس فوضع علىٰ تُرْسٍ عن يمينه ، والناس سِمَاطَان ، ثم أُنزلَ ، وَجُهزه مع رؤوس أصحابه ، وسبايا آل الحسين علىٰ أقتاب الجمال موثقين في الحبال ، والنساء مكشفات الوجوه والرؤوس إلىٰ يزيد لعنه الله .

ولما نزل الذين أرسلهم ابن زياد بالرأس أول منزل جعلوا يشربون بالرأس ، فخرجت عليهم يَدٌ من الحائط فكتبت سطراً بدم :

أترجو أمة قتلت حُسيناً ... شفاعة جده يوم الحساب

فهربوا وتركوا الرأس ، ثم عادوا وأخذوه .

ولما قَدِمُوا به علىٰ يزيد أقام الحريم علىٰ درج الجامع ، حيث تقام الأسارىٰ والسبي .

ومما ظهر يوم قتله : أنَّ السماء أمطرت دماً ، وأنَّ أوانيهم مُلئت دماً ، وانكسفت الشمس ، ورؤيت النجوم ، واشتد الظلام حتىٰ ظنَّ الناس أنَّ القيامة قد قامت ، وأنَّ الكواكب ضربت بعضها بعضاً ، وأنه لم يُرفع حَجرٌ إلاَّ رُئِيَ تحته دَمٌ عبيط ، وأنَّ الورس انقلب دماً ، وأنَّ الدنيا أظلمت ثلاثة أيام .

وقتل معه من إخوته ، وبنيه ، وبني أخيه الحسن ، ومن أولاد جعفر ، وعقيل تسعة عشر رجلاً .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : وما كان علىٰ وجه الأرض لهم يومئذ شبيهٌ ، وأنشدوا :

عيــنُ ابكــي بعبــرةٍ وعَــويــل ... وانــدبــي إن نــدبــت آل الــرســول
تسعــة منهــم لصلــب علــيٍّ ... قــد أبيــدوا وتسعــة لعقيــل

ومنها : وقعة الحرة .

روىٰ عمر بن شَبّة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « والذي نفسي بيده ليكونن بالمدينة مَلحمةٌ يقال لها : الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولـٰكن حالقة الدِّين ، فاخرجوا من المدينة ولو علىٰ قدر بَرِيد » .

وَرُوي أيضاً : « ويل للعرب من شر قد اقترب[١] ، علىٰ رأس الستين تصير الأمانة غنيمة ، والصدقة غرامة ، والشهادة بالمعرفة ، والحُكم بالهوىٰ » رواه الحاكم .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه ، يقول : اللهم ؛ لا تدركني سنة ستين ، ولا إمارة الصبيان . يشير إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتي علىٰ أيدي أُغَيلمةٍ من قريش »[٢] ، فإنَّ يزيد فيها تولىٰ .

وعن أيوب بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُقتل في هـٰذه الحرة خِيَارُ أمتي بعد أصحابي » .

وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقتل بحرة زُهرة خِيَار أمتي » .

---

(١) قال القاري (٥/ ١٠٥) : الأظهر المراد منه : ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج ، وقيل : مقتل عثمان رضي الله عنه ، وقيل : صفين ، وقيل : الحرة اهـ

قلت : وهـٰذا الأخير متعين ؛ لما ورد من زيادة قوله : « علىٰ رأس الستين » ، ويؤيد الأول رواية الترمذي : « ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج » والحديث أخرجه الشيخان . اهـ (ز) .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » بطرقٍ وألفاظٍ مختلفةٍ في « علامات النبوة » اهـ (ز) .

وعن أبي عُبيدة : « لا يزال هـٰذا الدِّين قائماً بالقسط حتىٰ يكون أول من يَثْلُمهُ رجلٌ من بني أمية » .

وعن أبي العالية قال : كنا بالشام مع أبي ذر رضي الله عنه ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول رجل يُغَيِّر سنتي ، رجل من بني فلان ـ يعني : بني أمية ـ ، فقال يزيد بن أبي سفيان ؛ أخو معاوية : أنا هو ؟ قال : لا » .

قال : وقد أخرج أبو يعلىٰ ، عن أبي عُبيدة مرفوعاً : « لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتىٰ يكون أول من يَثْلُمهُ رجلٌ من بني أمية يقال له : يزيد » .

وأخرج الرُّوياني عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « أول من يُبدِّل سنتي رجلٌ من بني أمية يقال له : يزيد » .

وسبب هـٰذه الوقعة : أنَّ معاوية رضي الله عنه لما أراد أخذ البيعة ليزيد من أكابر أهل الحجاز ؛ كابن عمر ، وابن عباس ، وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهم أرسل إليهم في ذلك ، فلم يُجيبوه ، فأرسل إلى ابن عمر رضي الله عنهما بمئة ألف درهم فأخذها ، فَدّس إليه رجلاً فقال له : ما يمنعك أن تبايع ؟ فقال له : إنَّ ذاك لذاك ـ يعني : عطاء المال للمبايعة ـ ، إنَّ ديني إذاً عندي لرخيص ، لا أُبايع أميرين أبداً .

وأرسل إلىٰ عبد الرحمن بن أبي بكر ، فأجابه بكلامٍ غليظ .

وأرسل إلىٰ عبد الله بن الزبير ، فأجابه بنحو ذلك ، فظن أنهم لا يرضون بخلافة يزيد ، ولا يبايعونه .

فلما احتضر معاوية رضي الله عنه قال لابنه يزيد : لقد وَطَّأتُ لك البلاد ، ومَهدتُ لك الناس ، ولست أخاف عليك إلاَّ أهل الحجاز ، فإن رابك منهم أمرٌ فوجه إليهم مسلم بن عقبة ؛ فإني قد جربته ، ورأيت نصيحته .

فلما مات وصار أمر الحسين رضي الله عنه إلىٰ ما ذكر أظهر ابن الزبير رضي الله عنهما الخلاف علىٰ يزيد ، والتجأ إلىٰ مكة ، وقام أهل المدينة ، فشاركوا ابن الزبير في الخلاف ، وخلعوا يزيد بعد أن بايعوه ، وحاصروا بني أمية الذين كانوا بالمدينة ، فأرسل مروان : إنَّا حُصرنا ، ومُنعنا الماء العذب ، فواغوثاه .

فَوجّه إليهم يزيد مسلم بن عقبة المِرّي في اثني عشر ألفاً ، وقيل : عشرين ألفاً ، وقال : ادعهم ثلاثاً ، فإن رجعوا ، وإلاَّ فقاتلهم ، فإذا ظهرت فأبحها للجيش ثلاثاً ، وأجهز علىٰ جريحهم ، واتبع منهزمهم ، فتوجه إليهم ، فوصل في ذي الحجة سنة ثلاث وستين ، فحاربوه .

وكان الأمير على الأنصار : عبد الله بن حنظلة ؛ غسيل الملائكة ، وعلىٰ قريش : عبد الله بن مُطيع ، وعلىٰ غيرهم من القبائل : مَعْقِل بن سنان الأشجعي ، وكانوا اتخذوا خندقاً .

فلما رآهم أهل الشام خافوهم ، وكرهوا قتالهم ، فأدخل بنو حارثة قوماً من الشاميين من جانبة الخندق ، فلما سمعوا التكبير في جوف المدينة خافوا علىٰ أهلهم ، فتركوا القتال ، ودخلوا المدينة ، فكانت الهزيمة .

وأباح مُسلِمٌ المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ، ووقعوا على النساء ، وقاتل عبد الله بن مُطيع حتىٰ قُتِلَ هو وبنون له سبعة ، وبُعِثَ برأسه إلىٰ يزيد ، وَقُتلَ من وجوه الناس أكثر من سبع مئة من قريش ، ومن أخلاط الناس من الموالي والعبيد والصبيان والنساء أكثر من عشرة آلاف ، وسبوا الذرية ، واستباحوا الفروج ، وأحبلوا أكثر من ألف امرأة من الزنا ، وسمي أولادهن أولاد الحَرّة ، وربطوا الخيل بسواري المسجد الشريف ، وجالت الخيل فيه ، وراثت ، وبالت بين القبر الشريف والمنبر ، وتعطل المسجد الشريف ثلاثة أيام ؛ لم يُصل فيه .

وكان ابن المسيب رضي الله عنه في المسجد تلك الأيام يَسْمَعُ من القبر الشريف الأذان والإقامة ، وكانوا يضحكون منه ويقولون : انظروا إلىٰ هـٰذا الشيخ المجنون يُصلي .

وذلك أنهم جاؤوا به ليبايع يزيد علىٰ أنه عَبْدُ قِنٌّ ليزيد في طاعة الله ومعصيته كما بايع الناس ، فقال : بل علىٰ كتاب الله ، وسنَّة نبيه ، وسيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . فأمر بقتله ، فقال بعض الناس : دعوه فإنه مجنون . فتركوه .

وكل من أبىٰ أن يبايع علىٰ أنه عَبْدٌ ليزيد في طاعة الله ومعصيته أُمِر بقتله ، ودخلت

طائفة بيت أبي سعيد الخُدري ، فأخذوا ما فيه من المتاع ، ودخلت طائفةٌ أخرىٰ فلم يجدوا شيئاً ، فأضجعوه ، ومعطوا لحيته خصلة خصلة .

ولم يَتعرّض لعلي بن الحسين زين العابدين ؛ لأنَّ يزيد وصاه به ، وقال : إنه لم يدخل في شيءٍ من أمرهم .

وَسَمَّوا مُسلماً : هـٰذا مُسرفاً ؛ لإسرافه في القتل والفساد .

ثم توجَّهَ إلى ابن الزبير ؛ فإنه قال له يزيد : إذا فرغت من أمر المدينة فتوجه إلىٰ مكة ، وكان مريضاً ، فمات في الطريق .

وكان من غاية جهله وضلاله يقول : اللهم ؛ إني لم أعمل بعد شهادة أن لا إلـٰه إلاَّ الله عملاً أرجىٰ لي من قتل أهل المدينة ، ولئن دخلت النار بعدها إني لشقي .

ثم نادىٰ حُصين بن نُمير ، وقال له : أمير المؤمنين ـ يعني : يزيد ـ ولاك بعدي ، فأسرع السير ولا تؤخر ابن الزبير . وأمره أن يَنْصِب المجانيق علىٰ مكة ، وقال : إن يعوذوا بالبيت فارمه .

فذهب وحاصر مكة أربعاً وستين يوماً ، وجرىٰ فيها قتال شديد ، وَرمى البيت بالمجانيق ، وأخذ رجلٌ قبساً في رأس رمح فطارت به الريح فأحرق البيت ، فجاءهم نَعْيُ يزيد .

وكان بين الحرة وموته ثلاثة أشهر ، وقيل دونه .

واجترأ أهل مكة والمدينة علىٰ أهل الشام ، فذلوا حتىٰ كان لا ينفرد منهم رجلٌ إلاَّ أُخذ بلجام دابته فنكس عنها ، فقال لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتىٰ تحملونا معكم إلى الشام . ففعلوا ، ومضىٰ ذلك الجيش حتىٰ دخل الشام ، فبويع لابن الزبير بالحجاز ، وبايع أهل الآفاق كلها لمعاوية بن يزيد ، وكان رجلاً صالحاً فيه دين وعقل ، فأقام فيها أربعين يوماً ، وقيل : أقام فيها خمسة أشهر وأياماً وخلع نفسه .

وذكر غير واحدٍ أنَّ معاوية بن يزيد لما نزع نفسه صَعِد المنبر وجلس طويلاً ، ثم حمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ، ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن ما يُذْكَر به ، ثم قال : أيها الناس ؛ لست أنا بالراغب في الائتمار

عليكم ؛ لعظيم ما أكرهه منكم ، وإني أعلم أنكم تكرهوننا أيضاً ؛ لأنّا بُلينا بكم ، وبُليتُم بِنا ، ألا إنَّ جدي معاوية نازع في هـٰذا الأمر من كان أولىٰ به منه ومن غيره ؛ لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعظيم فضله وسابقته ، أعظم المهاجرين قدراً ، وأشجعهم قلباً ، وأكثرهم عِلماً ، وأولهم إيماناً ، أشرفهم منزلة ، وأقدمهم صحبة ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره ، وأخوه ، زَوَّجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، وجعله لها بعلاً باختياره لها ، وجعلها له زوجةً باختيارها له ، أبو سبطيه سيدا شباب أهل الجنة ، وأفضلا هـٰذه الأمة ، تربية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وابنا فاطمة البتول رضي الله عنها ، من الشجرة الطاهرة الزكية ، فركب جدي منه ما تعلمون ، وركبتم ما لا تجهلون ، حتى انتظمت لجدي الأمور ، فلما جاء القدر المحتوم ، واخترمته أيدي المنون بقي مُرتَهناً بعمله ، فريداً في قبره ، ووجد ما قدمت يداه ، ورأىٰ ما ركبه واعتداه ، ثم انتقلت الخلافة إلىٰ يزيد ، فتقلد أمركم لهوىً كان أبوه فيه ، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه علىٰ نفسه غير خَلِيقٍ بالخلافة علىٰ أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فركب هواه ، واستحسن خَطَأَهُ ، وأقدم علىٰ ما أقدم من جراءته على الله ، وبغيه علىٰ من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَقَلَّتْ مُدته ، وانقطع خبره ، وضاجع عمله ، وصار حليف حفرته ، ورهين خطيئته ، وبقيت أوزاره وتبعاته ، وحَصّل ما قَدّم ، وندم حيث لا ينفعه الندم ، وشغلنا الحُزْنُ له عن الحُزنِ عليه . فليت شعري ماذا قال ؟ وماذا قيل له ؟ هل عُوقِب بإساءته وجوزي بعمله ؟ وذلك ظني .

ثم اختنقته العبرة ؛ فبكىٰ طويلاً ، وعلا نحيبه ، ثم قال : وصرت أنا ثالث القوم ، والساخط عَليَّ أكثر من الراضي ، وما كنت لأتحمل آثامكم ، ولا يراني الله جلت قدرته مُتقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم ، شأنكم وأمركم فخذوه ، ومن رضيتم به عليكم فولوه ، وخَلعتُ بيعتي من أعناقكم ، والسلام .

فقال له مروان بن الحكم ـ وكان تحت المنبر ـ : أَسُنّةٌ عمرية يا أبا ليلىٰ ؟ فقال : ابعد عني ، أعن ديني تخدعني ؟! ، فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم فأتجرع مرارتها ، ائتني برجالٍ مثل رجال عمر علىٰ أنه ما كان حين جعلها شورىٰ ، وصرفها عمن

لا يشك في عدالته ظلوماً ، والله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً . ولئن كانت شرّاً فحسبه منها ما أصابه .

ثم نزل ، فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكي ، فقالت له أمه : ليتك كنت حَيْضَةً ، ولم أسمع بخبرك . فقال : وددت والله ذلك . ثم قال : ويلي إن لم يرحمني ربي .

ثم إنَّ بني أمية قالوا لِمُعَلِّمِهِ عمرو المقصوص : أنت عَلّمته هٰذا ، ولقنته إياه ، وصددته عن الخلافة ، وزينت له حُبّ عليٍّ وأولاده ، وحملته علىٰ ما وسمنا به من الظلم ، وحَسّنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق ، وقال ما قال . فقال : والله ما فعلته ، ولٰكنه مجبولٌ ومطبوعٌ علىٰ حُبِّ عليٍّ . فلم يقبلوا منه ذلك ، وأخذوه ودفنوه حيّاً حتىٰ مات .

وتوفي معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه بأربعين يوماً ، وقيل : تسعين ليلة ، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة ، وقيل : إحدىٰ وعشرين سنة ، وقيل : ثماني عشرة سنة ، وقيل : عشرين سنة .

ويقال : إنه لما احتضر قيل له : أما تستخلف ؟ فأبىٰ ، وقال : ما أصبت من حلاوتها شيئاً فلم أتحمل مرارتها . ولم يُعْقِب ، رحمه الله رحمة الأبرار ، ورحم به .

وكان قتل الحسين رضي الله عنه ، ووقعة الحرة ، وقتل ابن الزبير رضي الله عنه ، ورمي الكعبة بالمنجنيق ، واستحلال الحرم ، من الشنائع التي وقعت في زمن يزيد .

قال ابن حجر في « شرح الهمزية » : ولا عجب ؛ فإنَّ يزيد بلغ من قبائح الفسق والإخلال بالتقوىٰ مبلغاً لا يستكثر عليه صدور تلك القبائح منه .

بل قال الإمام أحمد بن حنبل بكفره ، وناهيك به ورعاً وعِلماً يقضيان بأنه لم يقل ذلك إلاَّ لقضايا وقعت منه صريحة في ذلك ، ثبتت عنده ، وإن لم تثبت عند غيره ؛ كالغزالي .

وبالغ ابن العربي المالكي فقال : لم يقتل يزيد الحسين رضي الله عنه إلاَّ بسيف جده ؛ أي لأنَّ البيعة سبقت ليزيد ، وهو باغٍ عليه ؛ لأنَّ كثيرين قدموا عليها مختارين

علىٰ أنَّ أباه قد استخلفه ، ومع الاستخلاف لا يشترط ذلك ، ولا شك أنَّ أباه قد صار خليفةً حقاً بنزول الحسن رضي الله عنه له ، واجتماع الناس عليه .

وَيُرَدُّ بأنَّ هـٰذا إنما هو بعد استقرار الأحكام وانعقاد الإجماع علىٰ تحريم الخروج على الإمام الجائر ، أما قبل ذلك فكان الأمر منوطاً بالاجتهاد ، واجتهاد الحسين رضي الله تعالىٰ عنه اقتضىٰ جواز بل وجوب الخروج علىٰ يزيد ؛ لجوره وقبائحه التي تصمُّ عنها الآذان ، ويزيد لم تنعقد بيعته عند الحسين رضي الله عنه وغيره ممن لم يبايعوه ، والمبايعون له مكرهون على البيعة .

وغاية أمر يزيد إن لم يكن كافراً ؛ أنه جائرٌ فاسقٌ متغلب ، وحرمة الخروج على الجائر محلها بعد استقرار الأمور ، وانقضاء تلك الأعصار . انتهىٰ

قُلْتُ : وأيضاً فإنَّ يزيد كان فاسقاً جاهلاً ، وشرط الاستخلاف ابتداءً العلم بالأحكام والعدالة ، وقولهم : إنَّ الإمام الأعظم لا ينعزل بالفسق ، إنما هو دواماً لا ابتداء ؛ فإنه يمنع من البيعة .

وأما تَغلبُ يزيد فإنما حصل بعد قتل الحسين رضي الله عنه ، بل وبعد الحَرّة ، حيث قُتِلَ أكثر من يستحق الخلافة .

علىٰ أنَّ أهل مكة لم يبايعوه ، وأصروا مع ابن الزبير رضي الله عنهما على القتال زمنه وزمن أبيه معاوية .

ثم بعد موت معاوية بن يزيد بايع أهل الآفاق كلها لابن الزبير ، وانتظم له مُلك الحجاز ، واليمن ، ومصر ، والعراق ، والمشرق كله ، وجميع بلاد الشام ، حتىٰ دمشق ، لم يَتخلّف عن بيعته إلاَّ بنو أمية ومن يهوىٰ هواهم ، وكانوا بفلسطين .

حتىٰ إنَّ مروان همَّ بالرحلة إلىٰ مكة ليبايعه ، فمنعه بنو أمية وبايعوه بالخلافة ، وخرج بمن أطاعه إلىٰ دمشق وقاتل الضحاك بن قيس المبايع لابن الزبير ، فاقتتلوا بمرج راهط ، فَقُتِل الضحاك ، وغَلَبَ مروان على الشام ، ثم توجه إلىٰ مصر فحاصر عامل ابن الزبير بها حتىٰ غلب عليها في ربيع الآخر سنة خمس وستين ، ومات في تلك السنة ، فكانت مدته ستة أشهر .

وعهد إلى ابنه عبد الملك فقام مقامه ، وكَمُلَ له مُلك الشام ، ومصر ، والمغرب ، ولابن الزبير ملك اليمن ، والحجاز ، والعراق ، والمشرق . إلاَّ أنَّ المختار بن أبي عبيد غلب على الكوفة ، وكان يدعو إلى المهدي من أهل البيت ، ويقول : إنه محمد ابن الحنفية ، فأقام علىٰ ذلك نحو السنتين ، ثم سار إليه مصعب بن الزبير أمير البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير ، فحاصره حتىٰ قُتل في شهر رمضان في سنة سبع وستين .

وانتظم أمر العراق كله لابن الزبير ، فدام ذلك إلىٰ سنة إحدىٰ وسبعين ، فسار عبد الملك إلىٰ مصعب بن الزبير ، وقاتله حتىٰ قتله في جمادىٰ منها ، وملك العراق كله ، ولم يبق مع ابن الزبير إلاَّ الحجاز واليمن فقط .

فجهز إليه عبد الملك الشقي الحجاج بن يوسف الثقفي ، فحاصره في سنة اثنتين وسبعين إلىٰ أن قُتل عبد الله بن الزبير في جمادى الأولىٰ سنة ثلاث وسبعين ، وكان مجموع مدة ابن الزبير تسع سنين وشيء .

ثم اجتمع الناس علىٰ عبد الملك بن مروان ، ثم بعده على ابنه الوليد ، ثم ابنه الآخر سليمان ، ثم عمر بن عبد العزيز ، ثم ابنه الآخر يزيد ، ثم ابنه الآخر هشام .

فهٰؤلاء كلهم أولاد عبد الملك إلاَّ عمر ؛ فإنه ابن أخيه عبد العزيز .

ثم بعد هشام تولّى ابن أخيه الوليد بن يزيد ، فقام عليه ابن عمه يزيد بن الوليد فقتله ، وقام عليه مروان الحمار بن محمد بن مروان .

ولما مات ولي أخوه إبراهيم ، فغلبه مروان ، واختل أمرهم حتىٰ غلب على المُلْكِ بنو العباس وقتلوهم أشد قِتلة .

فللّه الأمر من قَبلُ ومن بَعْد .

ومنها : خراب المدينة بعد الحرة :

أخرج ابن شَبّة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : لَيخرُجَنَّ أهل المدينة من المدينة أَعْمَرَ ما كانت ، نصفاً زَهواً ونصفاً رُطباً ، قيل : من يُخْرِجهم ؟ قال : أمراء السوء .

وروىٰ أحمد برجال الصحيح ؛ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم صَعِد أُحُداً ، فأقبل

على المدينة ، فقال : « ويل أُمّها ، قريةٌ يدعها أهلها كأينع ما تكون » .

وَروى ابن شبة عن شريح بن عبيد ؛ أنه قرأ كتاباً لكعب : ليغشين أهل المدينة أمرٌ يُفْزِعهم حتىٰ يتركوها وهي مُذَلَلةٌ ، وتبول السنانير علىٰ قطائف الخز ما يروعها شيء ، وحتىٰ تخرق الثعالب في أسواقها ما يروعها شيء .

وفي « الموطأ » : « لتتركنّ المدينة علىٰ أحسن ما كانت ، حتىٰ يدخل الكلب أو الذئب فيقذي ـ أي : يبول ـ علىٰ بعض سواري المسجد » .

ورواه ابن شَبّة ، ولفظه : « فيقذي علىٰ سواري المسجد والمنبر » .

قال القاضي عياض : إنَّ هـٰذا جرىٰ في العصر الأول ، وإنها تركت أحسن ما كانت من حيث الدين والدنيا ، أما الدين : فلكثرة العلماء بها ، وأما الدنيا : فلعمارتها واتساع حال أهلها .

وذكر الإخباريون : أنه رحل عنها أكثر أهلها ، وبقيت ثمارها للعوافي ، وخلت مدة ثم تراجعوا .

قال : وقد حكىٰ قومٌ كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به صلى الله عليه وسلم من تقذية الكلاب علىٰ سواري مسجدها . انتهىٰ

وقال النووي : الظاهر المختار أن الترك لها يكون آخر الزمان .

قال السيد السمهودي في « تاريخها » : إنه ورد ما يقضي أن الترك لها يكون مُتعدداً ؛ فقد روى ابن شبة : « ليخرجن أهل المدينة منها ثم ليعودون إليها ، ثم ليخرجن منها ثم لا يعودون إليها » .

وروي أيضاً عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً : « يخرج أهل المدينة منها ، ثم يعودون إليها فيعمرونها ، ثم تمتلىء وتبنىٰ ، ثم يخرجون منها ولا يعودون إليها أبداً » .

قال : فالظاهر أن ما ذكره القاضي عياض هو الترك الأول ، وسببه كائنة الحرة ؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « يخرجهم أمراء السوء » ، وأنه بقي الترك الذي يكون آخر الزمان . انتهىٰ ملخصاً .

قُلْتُ : ويؤيد ما ذكره ما في رواية شريح السابقة : « ليغشين أهل المدينة أمرٌ يفزعهم حتىٰ يتركوها » ، فإن خروجهم عنها آخر الزمان يكون للهجرة إلىٰ بيت المقدس ؛ طلباً للجهاد لا للفزع .

نعم ؛ يمكن أن يقال : إن ذلك يقع في زمن السفياني أيضاً ، وهو من أمراء السوء ، وهو في آخر الزمان . لـٰكن إذا ثبت التعدد سهل الأمر بأن يقال : يخرجون منها ثلاث مرات ، وإنما ذُكِرَ في الحديث مرتين إيجازاً واختصاراً .

وبالجملة : فقد وقع ذلك في زمن يزيد ، وهو من جملة قبائحه الشنيعة ، ولا بد من وقوعها مرة أخرىٰ في آخر الزمان ؛ كما صرحت به الأحاديث الصحيحة ، وسيأتي إن شاء الله هـٰذا الترك الثاني في القسم الثالث ، وبالله التوفيق .

ومن الفتن التي وقعت في زمن بني مروان : قتل ابن الزبير ، وهدم الكعبة ، وتولية الحجاج ؛ فإنه قتل مئة ألف وعشرين ألفاً وأربعة آلاف نفس حرام صبراً ، غير ما قتله في المحاربات ، وأهان جماعةً من الصحابة ، وختمهم في رقابهم إهانةً ، منهم : أنس رضي الله عنه ؛ خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، ودسَّ على ابن عمر رضي الله عنهما من ضربه بحربة مسمومة فقتله . . . إلىٰ غير ذلك من القبائح ، ولا شك أنه سيئةٌ من سيئات عبد الملك ؛ فإنه كان أميراً له على العراق وعلى الحجاز .

وعن حبيب بن أبي ثابت قال : قال علي رضي الله عنه لرجل : لا متَّ حتىٰ تدرك فتىٰ ثقيف . قيل : ما فتىٰ ثقيف ؟ قال : ليُقالن له يوم القيامة : اكفنا زاويةً من زوايا جهنم ؛ رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلاَّ ارتكبها ، حتىٰ لو لم تبق إلاَّ معصيةٌ واحدة وكان بينه وبينها بابٌ مغلق لكسره حتىٰ يرتكبها ، يَقتُلُ بمن أطاعه من عصاه . رواه البيهقي في « الدلائل » .

ومنها : قتل زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ، وصلبه ، وحرقه بالنار ، وقتل ولده يحيىٰ في زمانهم ، وشربهم للخمر ، وصلاتهم بالناس سكارىٰ ، وتقديمهم الجواري في المحراب ، وغير ذلك من أنواع القبائح :

بل نقل السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : أن الوليد بن يزيد عزم على الحج ؛ لأجل

أن يشرب فوق ظهر الكعبة ، فَقُتِلَ قبل أن يبلغ مراده .

عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم : ألم يكن فيما تقرأ : (قاتلوا في الله في آخر مرة كما قاتلتم أول مرة) ؟ قال : متىٰ ذاك ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو مخزوم الوزراء » ، رواه الخطيب .

وقد مر لعنهم علىٰ لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم .

هٰذا وطريق السلامة والورع السكوت عنهم ، والاشتغال بعيوب النفس وبذكر الله تعالىٰ ؛ فإن الاشتغال بهم بابٌ عظيمٌ من أبواب الشيطان ، ولقد أحسن من قال :

لَعَمْـــرُكَ إنَّ فِـــي ذَنْبِـــي لَشُغْـــلاً بِنَفْسِـــي عَـــنْ ذُنُـــوبِ بَنِـــي أُمَيَّـــه
عَلَـــىٰ رَبِّـــي حِسَـــابُهُـــمُ تَنَـــاهَـــىٰ إِلَيْـــهِ عِلْـــمُ ذَلِـــكَ لاَ إِلَيَّـــه
وَلَيْـــسَ بِضَـــائِـــرِي مَـــا قَـــدْ أَتَـــوْهُ إِذَا مَـــا ٱللهُ يَغْفِـــرُ مَـــا لَـــدَيَّـــه

ومنها : دولة بني العباس :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا أقبلت رايات ولد العباس من عقبات خراسان جاؤوا بنعي الإسلام ، فمن سار تحت لوائهم لم تنله شفاعتي يوم القيامة » رواه أبو نُعيم في « الحلية » .

وعن أبي أمامة قال [: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم] : « ستخرج راياتٌ من المشرق لبني العباس ، أولها مثبور ، وآخرها مثبور ، لا تنصروهم ، لا ينصرهم الله ، من مشىٰ تحت راية من راياتهم أدخله الله تعالى النار يوم القيامة . ألا إنهم شرار خلق الله ، وأتباعهم شرار خلق الله ، يزعمون أنهم مني وما هم مني » . رواه الطبراني .

وعن ثوبان ، وعن مكحول مرسلاً ، وعن علي رضي الله عنه موصولاً : « ما لي ولبني العباس ؟! شيعوا أمتي ، وسفكوا دماءها ، وألبسوها ثياب السواد ، ألبسهم الله ثياب النار » رواه الطبراني .

لٰكن قد رَوى السهروردي وغيره بسندٍ جيد : أن جبريل عليه السلام نزل لابساً

السواد ، فقال : يا محمد ؛ هـٰذه ثياب بني عمك العباس ، فدعا لهم صلى الله عليه وسلم .

وقال : اللهم ؛ اغفر للعباس وولده .

فتُحمل الأحاديث الأُول إن صحت علىٰ شرارهم ، وهـٰذا وأمثاله علىٰ خيارهم ، علىٰ أن هـٰذا أصح وله شواهد .

ومن الفتن التي وقعت في زمنهم :

ـ قتال أهل المدينة .

ـ وقتل محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط .

ـ وقتل أخيه إبراهيم بن عبد الله .

ـ وقتل جماعةٍ كثيرةٍ من العلويين .

ـ وحبس الإمام جعفر الصادق في زمن المنصور .

ـ وموت الإمام موسى الكاظم في الحبس في زمن الرشيد .

ـ وإدخال الفلسفة في الإسلام .

ـ ونصرة الاعتزال في زمن المأمون .

ـ وقتل كثير من العلماء .

ـ وتكليفهم القول بخلق القرآن .

ـ وضرب الإمام أحمد بن حنبل في زمنه وزمن المعتصم والواثق وغيرهم .

ولم تتفق الكلمة في زمنهم ، ولم تَصْفُ لهم الخلافة ، فكان أول من رجع عن الاعتزال منهم ، ونصر السُنّة : المتوكل ؛ فإنه رأىٰ في المنام كأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ تَلٍّ وحوله خلقٌ كثير ، وهو ينادي بأعلىٰ صوته : « ألا إن محمد بن إدريس الشافعي ترك فيكم عِلماً نَفيساً فاتبعوه تهتدوا » ، فانتقل إلىٰ مذهب الشافعي ، وعين من بيت المال اثني عشر ألفاً لنشر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم لا زالوا في التناقص إلىٰ أن بقي لهم من الخلافة مُجرد الاسم ، وغلب آل سلجوق علىٰ معظم البلاد ، فكان آخرهم بالعراق المستعصم الذي قتله التتار ، ثم انتقلوا إلىٰ مصر .

وكان زمانهم مشحوناً بالعلماء في كل فنٍّ ؛ من التفسير ، والحديث ، والنحو ، واللغة ، والقراءات ، والفقه ، والكلام ، والتاريخ ، وغير ذلك ، حتىٰ أن زمان الرشيد كان يسمىٰ : عروس الدهر .

ومنها : فتنة الفاطمية :

واستيلاؤهم على المغرب ومصر نحواً من ثلاث مئة سنة ، وإظهارهم الرفض ، ونصرهم مذهب الباطنية ، وإلحادهم في الدين .

وكان استيلاؤهم علىٰ جزيرة الفسطاط سنة ثمان وثلاث مئة ، وكان انتزاعها منهم علىٰ يد صلاح الدين يوسف بن أيوب الملك الناصر ، في سنة أربع وستين وأربع مئة ، فرحم الله روحه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

ومن فتن هـٰؤلاء : أنَّ الحاكم منهم بنىٰ داراً وفرشها ، وأجلس الفقهاء والمحدثين فيها ، ثم بعد ثلاث سنين هدمها ، وقتل الفقهاء والمحدثين .

وأنَّ الظاهر بن الحاكم جمع ألفين وست مئة وستين جارية مزينات بحليهن في قصرٍ ، وأمر ببناء أبوابه إلىٰ أن مِتن كُلُّهن ، وبعد ستة أشهر أضرم عليهن النار ، فأحرقهن بثيابهن وحليهن ، فلا رحمه الله ، ولا رحم من خلفه . ذكر ذلك السيوطي في « حُسْنِ المحاضرة » .

قال ابن أبي حَجلَة في « السكردان » : إن الحاكم قتل من العلماء ما لا يُحصىٰ ، وأمر بِسَبِّ الصحابة ، وأمر بكتب ذلك علىٰ أبواب المساجد والشوارع ، ثم محاه بعد مدة ، وهدم قمامةً ، وبنىٰ مكانها مسجداً ، ثم أعادها كما كانت .

وبنى المدارس ، وجعل فيها العلماء والمشايخ ، ثم قتلهم وهدمها ، ونهىٰ عن أكل الملوخية والجرجير ، وعلل تحريمها بكون معاوية رضي الله عنه يميل إلى الملوخية ، وعائشة رضي الله عنها إلى الجرجير .

ونهىٰ عن بيع الرطب ، ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه ، وكان مقدار النفقة علىٰ إحراقه خمس مئة دينار .

ونهىٰ عن بيع العنب ، وقلب خمسة آلاف ألف جرة من جرار العسل في البحر ، وكسر جراره .

وأمر النصارىٰ واليهود بالدخول في الإسلام كُرهاً ، ثم أمرهم بالعود إلىٰ أديانهم ، فارتد منهم في سبعة أيام ستة آلاف ، وخرب كنائسهم ثم أعادها .

وادعى الربوبية ، وكتب : باسم الحاكم الرحمن الرحيم .

واجتمع له كثير من الجهال ، وبذل لهم المال ، ونادوه باسم الإلـٰه ، فكانوا إذا رأوه قالوا : يا واحد ، يا أحد ، يا محيي ، يا مميت .

وصَنَّف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه : أن روح آدم انتقل إلىٰ عليٍّ ، ثم إليه ، وقُرِىءَ هـٰذا الكتاب بجامع القاهرة ، وَسُيِّر هـٰذا المُصَنِّفُ إلىٰ جبال الشام ، فنزل بوادي التيم ، وناحية بانياس ، واستمال الناس ، وأعطاهم المال ، وأباح لهم الخمر والزنا ، ودعاهم إلىٰ معتقد الحاكم ، فَأضلّ منهم خلقاً كثيراً .

وفي وادي التيم إلىٰ يومنا هـٰذا قرىً كثيرة يعتقدون رجوع الحاكم ، وأنه يعود ويمهد الأرض . هـٰذا كلامه مُلخصاً .

واستمروا بها ظالمين إلىٰ أن أبادهم الله علىٰ أيدي السلاطين الأكراد الأيوبية ، وتولىٰ هـٰؤلاء أيضاً قريباً من مئتي سنة ؛ من سنة أربع وستين وأربع مئة إلىٰ سنة ثمان وأربعين وست مئة ، آخرهم الملك المعظم تورانشاه قتله أتباعهم الأتراك ، وتولىٰ أولـٰئك أيضاً ؛ من هـٰذه السنة إلىٰ سنة ثمان وسبعين وسبع مئة ، ثم استولىٰ على الأمر أتباعهم الجراكسة إلىٰ سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ، ثم غلبهم ملوك بني عُثمان إلىٰ يومنا هـٰذا .

فالملك والأرض لله يُورِثُها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين .

ومنها : فتنة القرامطة :

وإهانتهم الدين ، واستحلالهم الحُرُمْ ، وستأتي الإشارة إليهم فيما بعد[1] .

ومنها : قتال الترك وفتنتهم ؛ وهم التتار :

فقد رَوى الستة إلاَّ النسائي : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر [2] ، وحتىٰ تقاتلوا الترك ؛ صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ؛ كأن وجوههم المجان المطرقة » .

وفي رواية للبخاري : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا خوز وكرمان ؛ قوماً من الأعاجم ، حمر الوجوه » .

وفي لفظ له : « عراض الوجوه ، فطس الأنوف ، صغار الأعين ، وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر » .

تَنبِيْه

قوله : (نعالهم الشعر) علىٰ ظاهره .

قال البيهقي : وقد وقع ذلك ؛ فإن قوماً من الخوارج قد خرجوا بناحية الري وكانت نعالهم الشعر ، وقوتلوا . ذكره السيوطي في « الخصائص الكبرىٰ » .

قيل : ويحتمل أن يكون من جلود مشعرة غير مدبوغة ، ويحتمل أن المراد : وفور شعرهم حتىٰ يطؤوها بأقدامهم .

قال المناوي في « تخريج المصابيح » : وحمر الوجوه : بيض الوجوه مشربة بحمرة ، وذلف الأُنوف بالذال المعجمة في رواية الجمهور .

---

(١) انظر الصفحة (١١٥) .

(٢) قال الحافظ (٦/ ٦٦) : الأحاديث تدل علىٰ أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك ، وقد وقع للإسماعيلي قال : بلغني أن أصحاب بَابك كانت نعالهم الشعر ، وكانوا من الزنادقة ؛ استباحوا المحرمات ، وقامت لهم الشوكة في أيام المأمون ، وغلبوا علىٰ كثير من بلاد العجم كطبرستان والري إلىٰ أن قُتِلَ بَابك في أيام المعتصم ، وكان خروجه سنة مئتين وواحد ، وقتله سنة مئتين وعشرين هجرية . اهـ مختصراً (ز) .

قال صاحب « المشارق » : وهو الصواب .

ويروىٰ بالمهملة ؛ وهو بضم الدال ، وسكون اللام : جمع أدلف ؛ كأحمر وَحُمر : معناه : فُطْسُ الأنُوف ؛ كما في الرواية الأخرىٰ ؛ أي : قصارها مع انبطاح ، وقيل : غلظ أرنبة الأنف . قاله النووي .

والمَجانّ ؛ بفتح الميم ، وتشديد النون : جمع مِجَنٍّ ؛ بكسر الميم ؛ وهو التُّرس .

والمُطْرقة ؛ بضم الميم ، وسكون الطاء ، وحكي : فتح الطاء ، وتشديد الراء .

قال النووي : الأول هو المشهور في الرواية وكتب اللغة ، ومعناه : أنَّ وجوههم عريضة ؛ كما في الرواية الأخرىٰ ، ووجناتهم ناتئةٌ كالتُّرس المطرقة .

وخوز : ضبطه في « النهاية » بالخاء والزاي المعجمتين ؛ مُضافاً إلىٰ كرمان .

قال : وهو جبل معروف ، وهو من بلاد الأهواز من عراق العجم ، بحيث قيل : إنه صِنْفٌ منهم .

وكرمان : صقعٌ معروف في العجم .

قال السخاوي : وهي بلدة معمورة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند .

قال في « النهاية » : ويروىٰ بالراء المهملة ؛ وهو من أرض فارس .

وصوبه الدارقطني قال : وروي خوزاً[1] ، وكرمان ، وقيل : إذا أضيف فبالراء ، وإذا عطف فبالزاي المعجمة .

وورد : « اتركوا التُّرك ما تركوكم ؛ فإنَّ أوّل من يَسلُبُ أمتي مُلْكَهم بنو قنطوراء . . . » الحديث .

زاد في رواية : « فإنهم أصحاب بأسٍ شديد ، وغنائمهم قليلة » .

---

(١) وبسط القاري (٥/١٥٦) في ضبطهما ، ثم حكىٰ عن الشارح : المراد صنفان من الترك ؛ سماهما باسم أبويهما ، ولا نحمله علىٰ أهل خوزستان وكرمان ؛ لأنهم لم يوجدوا على النعت المذكور في الحديث ، بل وجد عليه الترك . اهـ (ز) .

قال النووي : هٰذه الأحاديث كلها معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد عُرِفَ هٰؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاتلهم المسلمون مرات .

قال السخاوي[1] في « القناعة » : ومن المرات التي قاتل فيها المسلمون الترك في دولة بني أمية ، وكان ما بينهم وبين المسلمين مسدوداً ، إلىٰ أن فُتِحَ ذلك شيئاً بعد شيء ، وكثر السبي منهم ؛ لما فيهم من الشدة والبأس ، حتىٰ كان أكثر عسكر المعتصم منهم ، ثم غلبت الأتراك على المُلْك ، فقتلوا ابنه المتوكل ، ثم أولاده ؛ واحداً بعد واحد ، إلىٰ أن خالط المملكة الديلم .

ثم كانت الملوك السامانية من الترك أيضاً ، فملكوا بلاد العجم ، ثم غلب علىٰ تلك المماليك آل سُبُكتُكِين ، ثم آل سلجوق ، وامتدت مملكتهم إلى العراق ، والشام ، والروم .

وكان بقايا أتباعهم بالشام ، وهم آل زِنْكي ، وأتباع هٰؤلاء ؛ وهم بيت أيوب ، واستكثر هٰؤلاء أيضاً من الترك فغلبوهم بالديار المصرية ، والشامية ، والحجازية ، وخرج علىٰ آل سلجوق في المئة الخامسة الغُزْ ، فخربوا البلاد ، وفتكوا في العباد .

ثم جاءت الطامة الكبرىٰ بالتتار بعد الست مئة ، فكان خروج جنكيز خان ، واستعرت الدنيا بهم ناراً ، لا سيما المشرق بأسره ، حتىٰ لم يبق بلدٌ منه حتىٰ دخله شرهم ، ثم كان خراب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم علىٰ أيديهم ، وهو آخر الخلفاء العباسية ببغداد ؛ الذي رثاه مصلح الدين السعدي الشيرازي بالقصيدة الفارسية التي مطلعها :

آسمان راحق بُوَدُ گرون بگريد برزمين   برزوال ملك مستعصم أمير المؤمنين

ومعناه : حُقَّ للسماء أن تبكي على الأرض ؛ لزوال ملك المستعصم أمير المؤمنين في سنة ست وخمسين وست مئة .

قال التاج السبكي في « طبقاته » : لم يكن منذ خلق الله الدنيا فتنةٌ أكبر من فتنةِ

(١) ذكره الحافظ في « الفتح » (٦/٣٩٧) (ز) .

التتار ؛ فإنهم خربوا المساجد ، وحرقوا المصاحف والكتب ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء ، وبقروا بطونهن ، فأخرجوا أولادهن وقتلوهم .

قال السخاوي : ثم لم تزل بقاياهم يخرجون إلىٰ أن كان آخرهم الأمير تيمور الأعرج ، فطرق الديار الشامية ، وعاث فيها ، وحرق دمشق حتىٰ جعلها خاوية علىٰ عروشها ، ودخل الروم والهند وما بين ذلك ، وطالت مدته إلىٰ أن مات ، وتفرق بنوه في البلاد .

وظهر بجميع ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أول من يَسْلُبُ أمتي مُلكها بنو قنطوراء » .

قال في « القناعة » : وقنطوراء ؛ بالمد والقصر ، قيل : كانت جارية لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فولدت له أولاداً ، فانتشر منهم الترك ، حكاه ابن الأثير واستبعده ، وجزم به المجد في « القاموس » . انتهىٰ

ومصداق ما رَوى الخطيب عن عليّ رضي الله عنه : تكون مدينة بين الفرات ودجلة ، يكون فيها ملك بني العباس ؛ وهي الزوراء ، تكون فيها حرب مفظعة ، تسبىٰ فيها النساء ، وتُذبح فيها الرجال ؛ كما تذبح الغنم .

قال : وإسناده شديد الضعف .

قال الحافظ السيوطي في « الجامع الكبير » : وقعت هٰذه الحرب بعد موت الخطيب بأكثر من مئتي سنة ، وذلك مما يقوي الحديث .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كأني بالترك وقد أتتكم علىٰ براذين مخرمة الآذان ، حتىٰ تربطها بشط الفرات .

وفي حديث آخر : يُلْحِقُونَ أهل الشام بمنابت الشِّيح ؛ كأني أنظر إليهم وقد ربطوا خيولهم بسواري المسجد .

فائِـدَة

قال السخاوي في « القناعة » : أسند الحاكم صاحب « الصحيح » في « مستدركه » إلىٰ محمد بن يحيىٰ أبي بكر الصولي النحوي قال : أول من مدح الترك من شعراء

العرب علي بن عباس الرومي ؛ حيث يقول :

إِذَا ثَبَتُـــوا فَسَـــدٌّ مِـــنْ حَـــدِيـــدٍ   تَخَـــالُ عُيـــونَنَـــا فِيهَـــا بِحَـــارَا
وَإِنْ بَـــــرَزُوا فَنِيـــــرَانٌ تَلَظَّــــىٰ   عَلَــى ٱلأَعْــدَاءِ يضـــرمها اسْتِعَـــارا

ومنها[1] : نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرىٰ ؛ كما أخبر به صلى الله عليه وسلم :

روى البخاري ، والحاكم في « المستدرك » : عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ » .

وروى ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والحاكم وصححه : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليت شعري متىٰ تخرج نارٌ من جبل وراق تضيء لها أعناق البخت ببصرىٰ كضوء النهار ؟! » .

وروى الطبراني بسنده عن عاصم بن عدي الأنصاري قال : سألَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثان ما قَدِمَ ـ أي : أول ما قدم المدينة ـ قال : « أين حَبْسُ سيل ؟ » قلنا : لا ندري . فمر بي رجل من بني سليم ، فقلت : من أين جئت ؟ قال : مِنْ حَبْس سيل . فدعوت بنعلي ، فانحدرت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ سألتنا عن حَبْس سيل ، فقلنا : لا علم لنا به ، وإنه مر بي هـٰذا الرجل ، فسألته ، فزعم أنه من أهله . فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم « فقال : أين أهلك ؟ » فقال : بحبس سيل . فقال : « أخرج أهلك ؛ فإنه يوشك أن تخرج منها نارٌ تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ » .

وروىٰ هو ، وأبو يعلىٰ ، والإمام أحمد من رواية رافع بن بشر السُّلمي ، عن أبيه ـ

---

(١) ذكره السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٣٢٤) ، وحكي عن الذهبي : تواترت الأخبار بذلك ، قال : وحكىٰ غير واحد ممن رأىٰ ببصرىٰ أعناق الإبل بها . . . إلخ .

وأيضاً ذكره الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٦٣) . وجعل القاضي عياض هـٰذه النار أيضاً حاشرة ، فرد عليه النووي (٢ : ٣٩٣) وقال : قد مضىٰ . وبسط الكلام علىٰ هـٰذه النار في مبدأ « وفاء الوفا » و« خلاصته » اهـ (ز) .

قال الحافظ الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح ، غير رافع ، وهو ثقة ـ قال : « يُوشِكُ نار تخرج من حبس سيل ، تسير سير بطيئة الإبل ، تسير النهار ، وتقيم الليل . . . » الحديث .

وفي « مسند الفردوس » : عن عمر رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يسيل وادٍ من أودية الحجاز بالنار ، تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ » .

قال نور الدين السيد علي السمهودي في « تاريخ المدينة » : وقد ظهرت هـٰذه النار بالمدينة ، واشتهرت اشتهاراً بلغ حد التواتر ، وتقدمها زلازل مهولة ، وأشفق أهل المدينة منها غاية الإشفاق ، والتجؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة ، وآخر جمادى الأولىٰ ، سنة أربع وخمسين وست مئة ؛ أي : فيكون قبل قتل المستعصم وخراب بغداد بسنتين .

قال : لـٰكنها كانت خفيفة ، واشتدت يوم الثلاثاء ، وظهرت ظُهوراً عظيماً ، ثم لما كان ليلة الأربعاء ؛ ثالث الشهر ، أو رابعه في الثلث الأخير منها حدثت زلزلةٌ عَظِيمةٌ انزعجت القلوب لهيبتها ، واستمرت بقية الليل إلىٰ يوم الجمعة ، ولها دَويٌّ أعظم من الرعد ، فَتمُوجُ الأرض ، وتُحَرِّكُ الجُدُرات ، حتىٰ وقع في يَومٍ وَاحدٍ دون ليلته ثمان عشرة حركة ، فسكنت ضحىٰ يوم الجمعة ، ولما كان نصف النهار ظهرت تلك النار ، فثار من محل ظُهورها دُخَانٌ متراكم غشي الأفق سواده .

فلما تراكمت الظلمات ، وأقبل الليل سطع شُعَاعُ النار ، وظهر بقريظة بطرف الحرة ترىٰ في صفة البلد العظيم ، عليها سُورٌ محيط ، عليه شراريف وأبراج ومنائر ، وترىٰ رجال يقودونها لا تمر علىٰ جبلٍ إلا دكته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق ، له دويٌّ كدوي الرعد ، يأخذ الصخور من بين يديه ، وينتهي إلىٰ محط الركب العراقي ، واجتمع من ذلك رَدْمٌ صار كالجبل العظيم ، وانتهت النار إلىٰ قرب المدينة ، ومع ذلك ، فكان يأتي المدينة نَسِيمٌ بَارِدٌ ، وشوهد لهـٰذه النار غليانٌ ؛ كغليان البحر .

وقال بعض أصحابنا : رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رُؤيَت من مكة ، ومن جبال بصرىٰ .

وقال القاضي سنان : وطلعت إلى الأمير ـ أي : أمير المدينة ـ وكان عز الدين منيف ، وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، فارجع إلى الله تعالىٰ .

قال : فأعتق كل مماليكه ، ورد على الناس مظالمهم ، وأبطل المكس ، ثم هبط الأمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبات في المسجد ليلة السبت ، ومعه جميع أهل المدينة ، حتى النساء والصغار ، وحتىٰ أهل النخيل ، وباتوا يَتَضرعُون ويبكون ، وأحاطوا بالحجرة الشريفة ، كاشفين رؤوسهم ، مقرين بذنوبهم ، مستجيرين بنبيهم ، فصرف الله عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، فسارت من مخرجها وسارت ببحر عظيم من النار ، وأخذت في وادي أُحْيليين ، وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم ؛ كأنها عندهم ، واستمرت مدة ثلاثة أشهر .

قال المطري : وكانت تُذِيبُ الحجر ، ولا تَحرقُ الشجر .

وذكر القسطلاني : أن هـٰذه النار لم تزل مارةً علىٰ سبيلها حتى اتصلت بالحرة ووادي الشظاة ، وهي تسحق ما والاها ، وتُذِيبُ ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصىٰ ؛ من قوة الحر ، وأن طرفها الشرقي آخذ بين الجبال ، فحالت دونها فوقفت ، وأن طرفها الغربي ـ وهو الذي يلي الحرم ـ اتصل بجبل يقال له : وعيرة ؛ علىٰ قرب من شرقي جبل أُحُد ، ومضت في الشظاة التي في طرفه وادي حمزة ، ثم استمرت حتى استقرت تجاه حرم النبي صلى الله عليه وسلم ، فَطُفِئت .

قال : وأخبرني من أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخماً من حجارة الحرة كان بعضه خارجاً عن حد الحرم ، فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلىٰ ما دخل منه في الحرم طفئت ، وخمدت .

قال : وهـٰذا أولىٰ بالاعتماد من كلام المطري أنها كانت تحرق الحجر دون الشجر ، وأن رجُلاً مد إليها نبلاً فأحرقت النصل ولم تحرق الخشب . فإن المطري لم يُدرك هـٰذه النار .

وقال المؤرخون : واستمرت هـٰذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال ، وتسير سيراً ذريعاً في وادٍ يكون مقداره أربعة فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه

قامتان ونصف ، وهي تجري علىٰ وجه الأرض ، والصخر يَذُوبُ حتىٰ يبقىٰ مثل الآنك ، فإذا خمد اسود بعد أن كان أحمر .

ولم يزل يجتمع من هـٰذه النار الحجارة المذابة في آخر الوادي عند منتهى الحرة حتىٰ قطعت في وسط وادي الشظاة إلىٰ جهة جبل وعيرة ، فسدت الوادي المذكور بسدٍّ عَظيمٍ من الحجر المسبوك ولا كسدِّ ذي القرنين ؛ يُعْجَزُ عن وصفه ، ولا مسلك لإنسان فيه ولا دابة .

وقال العماد بن كثير : أخبرني القاضي صدر الدين الحنفي قال : أخبرني والدي صفي الدين ؛ مدرس مدرسة بُصرىٰ ، أنه أخبره غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بلدة بُصرىٰ : أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضوء تلك النار مصداق قوله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان إقبال هـٰذه النار من جهة شرق المدينة في جهة طريق السوارقية ، وهناك حَبْسُ سيل ؛ فإنه بين حرة بني سُلَيم ، والسوارقية .

وبعد انطفاء النار في هـٰذه السنة احترق مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وزادت دجلة زيادةً عظيمةً ، فغرق أكثر بغداد ، وتهدمت دار الوزير ، وكان ذلك إنذاراً لهم .

وفي السنة التي تلي هـٰذه السنة وقعت الطَّامةُ الكبرىٰ(١) ؛ وهي أخذ التتار لبغداد ، وقتل الخليفة المستعصم ، وبذل السيف ببغداد نَيفاً وثلاثين يوماً ، وأُخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب ، وشوهد بالمدرسة النظامية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللَّبِنْ ، وخلت بغداد من أهلها ، واستولىٰ عليها الحريق ، واحترقت دار الخلافة ، وعم الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية وتربة الرِّصَافة مدفن ولاة الخلافة . ورُئِيَ علىٰ بعض حيطانها مكتوباً شعر :

إنْ تُـرِدْ عِبْـرَةً فَهـٰـذِي بَنُـو ٱلْعَبَّـ ـاسِ دَارَتْ عَلَيْهِـمُ ٱلـدَّائِـرَاتُ
أُسْتُبِيـحَ ٱلْحَـرِيـمُ إِذْ قُتِـلَ ٱلأَحْـ ـيَـاءُ مِنْهُـمْ وَأُحْـرِقَ ٱلأَمْـوَاتُ

---

(١) ذكر السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص ٣٢٤) فتنة التتار في سنة (٦٥٥هـ) . (ز) .

وقال بعضهم شعرًا :

سُبْحَـانَ مَـنْ أَصْبَحَـتْ مَشِيئَتُـهُ جَـارِيَـةً فِـي ٱلْـوَرَىٰ بِمِقْـدَارِ
فِـي سَنَـةٍ أَغْـرَقَ ٱلْعِـرَاقَ وَقَـدْ أَحْـرَقَ أَرْضَ ٱلْحِجَـازِ بِـٱلنَّـارِ

ثم كثر الموت والفناء ببغداد ، وطُوي بِسَاطُ الخلافة منها ، فللّه الأمر من قبل ومن بعد ، يعز من يشاء ويذل من يشاء . هـٰذا ملخص « تاريخ السمهودي » .

وهـٰذه النار غير النار التي تَخْرُج آخر الزمان تحشر الناس إلىٰ محشرهم ، تبيت معهم وتقيل ، وستأتي في القسم الثالث إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : ظهور الرفض ، واستبداد الرافضة بالملك ، وإظهار الطعن واللعن علىٰ جَنابِ الصحابة الكرام :

وهـٰذا أعظم الفتن ، وأشد المِحَن ، وموت السُّنن .

فقد روى الدارقطني عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي الحجاف داود بن أبي عوف ، عن محمد بن عمرو بن الحسين ، عن زينب ـ يعني : بنت عليّ بن أبي طالب ـ ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلي : « يا أبا الحسن ؛ أما إنك وشيعَتك في الجنة ، وإن قوماً يزعمون أنهم يحبونك يُصَغِّرُون الإسلام ، ثم يرفضونه ويلفظونه ، يمرقون منه كما يَمْرقُ السهم من الرمية ، لهم نُبَزُ ، يقال لهم : الرافضة ، فإن أدركتهم فقاتلهم ؛ فإنهم مشركون » .

وأخرجه من طريق أبي الحجاف ، عن أبي جعفر الباقر ، عن فاطمة الصغرىٰ ، عن فاطمة الكبرىٰ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، به .

ثم قال الدراقطني : ولهـٰذا الحديث عندنا طُرقٌ كثيرة كتبناها في « مسند فاطمة رضي الله عنها » ، وتقصيناها هناك .

ثم أخرج عن أم سلمة رضي الله عنها نحوه ، وزادت في آخره : « قالوا : يا رسول الله ؛ ما العلامة فيهم ؟ قال : لا يشهدون جُمعة ولا جماعة ، ويطعنون على السلف الأول » .

وروى الطبراني ، وأبو نُعيم في « الحلية » ، والخطيب البغدادي ، وابن الجوزي ـ وفي سنده محمد بن جحادة ؛ ثقة غالٍ في التشيع ، روىٰ له الشيخان ـ ، ورواه ابن أبي عاصم في « السُّنّة » ، وابن شاهين ، وابن بشران ، والحاكم في « الكنىٰ » ، وخيثمة بن سليمان الطرابلسي في « فضائل الصحابة » ، واللالكائيُّ في « السُّنّة » ؛ كلهم عن علي كرم الله وجهه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت وشيعتك في الجنة ، وسيأتي قوم لهم نَبَزٌ ـ أي : لقب ـ يقال لهم : الرافضة ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإنهم مشركون » .

زاد ابن أبي عاصم ، وابن شاهين في روايتهما : « قلت : يا رسول الله ؛ ما العلامة فيهم ؟ قال : يُقَرِّظُونك ـ أي : يمدحونك ـ بما ليس فيك ، ويطعنون علىٰ أصحابي ويشتمونهم » .

وفي رواية ابن بشران ، والحاكم : « ينتحلون حُبّكَ ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم » .

وفي رواية خيثمة ، واللالكائي به : قال علي رضي الله عنه : سيكون بعدنا قوم ينتحلون مودتنا تكون علينا مارقة ، وآية ذلك أنهم يَسُبون أبا بكر وعمر .

وفي لفظ اللالكائي : لهم نبز ، يسمون: الرافضة ، يعرفون به ، ينتحلون شيعتنا وليسوا من شيعتنا ، وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر .

وروىٰ أحمد ، وأبو يعلىٰ ، والطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة ، يرفضون الإسلام ، فإذا رأيتموهم فاقتلوهم ؛ فإنهم مشركون » .

ولفظ الطبراني بإسنادٍ حَسنٍ عنه : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمتي قوم ينتحلون حُبَّ أهل البيت ، لهم نبز يسمون الرافضة ، فاقتلوهم فإنهم مشركون » .

وأخرج أيضاً من طُرقٍ من طريق أهل البيت ، عن علي رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « يظهر في أمتي آخر الزمان قوم يسمون الرافضة ، يرفضون الإسلام » .

وروىٰ خشيش ، وابن أبي عاصم ، والأصبهاني ، عنه كرم الله وجهه قال : يهلك فينا أهل البيت فريقان : مُحبٌّ مُفرط ، وباهِتٌ مُفترٍ .

وفي لفظ : يهلك فِيَّ رجلان مُحبٌّ مُفرط ؛ يقرظني بما ليس فيّ ، ومُبغضٌ مُفرط ؛ يحمله شنآني علىٰ أن يبهتني . ورواه أحمد في « مسنده » بهـٰذا اللفظ .

وفي رواية : يحبني قَومٌ حتىٰ يدخلهم حبي النار ، ويبغضني قوم حتىٰ يدخلهم بغضي النار . وفي رواية : اللهم ؛ العَن كل مبغض لنا ، وكل محب لنا غالٍ .

وفي لفظ : يقتل في آخر الزمان كل من علىٰ رأي عليّ وحسن .

وفي لفظ : كل من علىٰ رأي حسن وأبي حسن ، وذلك إذا أفرطوا فيَّ ؛ كما أفرطت النصارىٰ في عيسى ابن مريم ، فانثالوا علىٰ ولدي فأطاعوهم طلباً للدنيا .

وأخرج محمد بن سوقة ، عنه كرّم الله وجهه قال : تفترق هـٰذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة ، شرها من ينتحل حُبنا ويفارق أمرنا .

وصح أن من أشراط الساعة : أن يلعن آخر هـٰذه الأمة أولها .

ومن فتن هـٰذه الطائفة : أنهم قتلوا العلماء بأكثر البلاد ، بل ونبشوا قبورهم ، واستهانوا بكثير من مشاهد هـٰذه الأمة ، حين استولوا علىٰ بغداد ، ولار ، وشيراز ، وغيرها .

وناهيك أن شيراز كان دار العلم والسُّنّة ، والآن صار معدن الرفض ، وحصر هـٰؤلاء العبادة والدين في السبِّ ، وضموا إلى الصحابة السلف الصالح وأئمة المذاهب ؛ فلم يتركوا أحداً من أهل السُّنّة والجماعة حياً وميتاً إلا وسبوه على المنابر والمنائر ، ويدعون أنهم شِيعةُ عليّ رضي الله عنه ، وينتحلون حُبَّ أهل البيت ، وليسوا من ذلك في شيء ؛ فإن من علامة المُحِب الاقتداء بمن يُحبه ، وأدنىٰ صفاته كرّم الله وجهه : الزهد في الدنيا ، وعدم شق عصا الإسلام .

وعن موسىٰ بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وكان فاضلاً ، عن أبيه ، عن جده قال : إنما شيعتنا من أطاع الله تعالىٰ وعمل مثل أعمالنا .

وقد ورد غير ما حديث في مدح شيعته ، وأنهم يدخلون الجنة معه ، منها ما مر .

ومنها : ما رواه الإمام علي بن موسى الرضا ، عن آبائه ، عن علي رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أنت وشيعتك تردون عليَّ الحوض رواء مرويين مبيضة وجوهكم ، وإن عدوكم يردون عليّ الحوض ظماء مقمحين » أخرجه الطبراني في « الكبير » بسندٍ ضعيف .

وما رواه الحافظ جمال الدين الزرندي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هو أنت وشيعتك ؛ تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ، ويأتي عدوك غِضَاباً مقمحين ، فقال : ومن عدوي ؟ قال : من تبرأ منك ولعنك » .

فقد بيّن صلى الله عليه وسلم عدوه ، وأن من لم يفعل ذلك فهو من شيعته لا من عدوه ، وقد بيّن عليٌّ كرم الله وجهه صِفات شيعته وعلاماتهم حتىٰ لا يلتبس بهم مُدَّعٍ .

فقد روى الدينوري ، وابن عساكر عن المدائني ، قال : نظر علي بن أبي طالب إلىٰ قوم ببابه ، فقال لقنبر : يا قنبر من هٰؤلاء ؟ قال : هٰؤلاء شيعتك . قال : وما لي لا أرىٰ فيهم سيما الشيعة ؟ قال : وما سيما الشيعة ؟ قال : خُمصُ البطون من الطوىٰ ، يُبسُ الشفاه من الظمأ ، عُمشُ العُيون من البكاءِ .

وقد صح عنه كرّم الله وجهه ، قوله : لا يجتمع حبي وبُغْضُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قلب مؤمن .

وروىٰ صاحب « المطالب العالية » : عن نوف البكالي ، أن أمير المؤمنين علياً كرّم الله وجهه خرج يَؤُمُّ المسجد وقد أقبل إليه جندب بن نصير ، والربيع بن خثيم ، وابن أخيه همام بن عباد بن خثيم ، وكان من أصحاب البرانس المتعبدين ، فأفضىٰ عليّ وهم معه إلىٰ نَفَرٍ ، فأسرعوا إليه قياماً وسلموا عليه ، فرد التحية ، ثم قال : من القوم ؟ فقالوا : أناسٌ من شيعتك يا أمير المؤمنين . فقال لهم خيراً ، ثم قال : يا هٰؤلاء ؛ ما لي لا أرىٰ فيكم سمة شيعتنا ، وحلية أحبتنا ؟! فأمسك القوم حَياءً ، فأقبل عليه جُنْدُب والربيع ، فقالا له : ما سمة شيعتكم يا أمير المؤمنين ؟ فسكت ،

فقال همام ـ وكان عَابداً مُجتهداً ـ : أسألك بالذي أكرمكم أهل البيت ، وخصكم وحباكم لما أنبأتنا بصفة شيعتكم . قال : فسأنبئكم جميعاً . ووضع يده علىٰ مَنْكِب همام وقال : شيعتنا هم العارفون بالله ، العاملون بأمر الله ، أهل الفضائل ، الناطقون بالصواب ، مأكولهم القوت ، وملبوسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، نجعوا الله بطاعته ، وخضعوا إليه بعبادته ، مضوا غاضين أبصارهم عما حرّم الله عليهم ، موقفين أسماعهم على العلم بدينهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت منهم في الرخاء ؛ رضاءً عن الله بالقضاء ، فلولا الآجال التي كتب الله تعالىٰ لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ؛ شوقاً إلىٰ لقاء الله تعالىٰ والثواب ، وخوفاً من أليم العقاب ، عَظُمَ الخالق في أنفسهم ، وصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن رآها ، فهم علىٰ أَرائِكِهَا متكئون ، وهم والنار كمن رآها ، فهم فيها يعذبون ، صبروا أياماً قليلة ، فأعقبهم راحةً طويلة ، أرادتهم الدنيا فلم يُرِيدُوها ، وطلبتهم فأعجزوها .

أما الليل : فصافُّون أقدامهم ، تالون لأجزاء القرآن ترتيلاً ، يعظون أنفسهم بأمثاله ، ويستشفون لدائهم بدوائه تارة ، وتارة مفترشون جباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، تجري دموعهم علىٰ خدودهم ، يمجدون جباراً عظيماً ، ويَجْأرُون إليه في فكاك رقابهم . هـٰذا ليلهم .

فأما نهارهم : فحكماء علماء ، بررةٌ أتقياء ، براهم خوف بارئهم ؛ فهم تحسبهم مرضىٰ أو قد خولطوا وما هم بذلك ، بل خامرهم من عظمة ربهم وشدة سلطانه ما طاشت له قلوبهم ، وذهلت منه عقولهم ، فإذا استفاقوا من ذلك بادروا إلى الله تعالىٰ بالأعمال الزكية ، لا يرضون له بالقليل ، ولا يستكثرون له الجزيل ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ، ترىٰ لأحدهم قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وحرصاً علىٰ علم ، وفهماً في فقه ، وعلماً في حلم ، وكيساً في قصد ، وقصداً في غناء ، وتَجمُّلاً في فاقة ، وصبراً في شدة ، وخُشوعاً في عبادة ، ورحمة لمجهود ، وإعطاءً في حق ، ورفقاً في كسب ، وطلباً في حلال ، ونشاطاً في هدىً ، واعتصاماً في شهوة ، لا يضرُّه ما جهله ، ولا يدع إحصاء ما عمله ، يستبطىء نفسه في العمل ، وهو من صالح عمله علىٰ وَجل ، يُصبح وشُغله الذِّكرُ ، ويمسي

وهمه الشُّكْرُ ، يَبيتُ حَذِراً من سِنَة الغفلة ، ويصبح فرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، رغبته فيما يبقىٰ ، وزهادته فيما يفنىٰ ، وقد قرن العلم بالعمل ، والحلم بالعلم ، دائماً نشاطه ، بعيداً كسله ، قريباً أمله ، قليلاً زلله ، متوقعاً أجله ، خاشعاً قلبه ، ذاكراً ربه ، قانعة نفسه ، مُحرزاً دينه ، كَاظِماً غيظه ، آمناً منه جاره ، سهلاً أمره ، معدوماً كبره ، بيِّناً صبره ، كثيراً ذكره ، لا يعمل شيئاً من الخير رياءً ، ولا يتركه حياءً .

أولـٰئك شيعتنا وأحبتنا ، ومنا ومعنا ، ألا ما أشوقنا إليهم! .

فصاح همام صيحةً فوقع مغشياً عليه ، فحركوه فإذا هو قد فارق الدنيا ، فغُسِل وصَلىٰ عليه أمير المؤمنين ومن معه رحمه الله .

فهـٰؤلاء هم شيعته ، لا من لا يَعْلَمُ من دينه إلا حلق اللحية أو قصها ، وتعمير القدرة بالتنباك ومصها ، وسبَّ الشيخين وبغضهما ، ورفع النَّصِير المُنَجّم وخفضهما ، والطعن على الصحابة والصدر الأول ، والتمسك بأكاذيب ما عليها معول ، ونسبة أُم المؤمنين الصديقة عائشة رضي الله عنها المبرأة في بِضْعِ عشرة آية من القرآن إلى الفاحشة .

ولنِعْمَ ما قال زين العابدين علي بن الحسين السجاد رضي الله عنه لجماعة نالوا من الصحابة عنده : هل أنتم من المهاجرين ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا. . . ﴾ الآية ؟ ، قالوا : لا .

قال : هل أنتم من ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ . . . ﴾ الآية ؟ ، قالوا : لا . قال : فأنا أشهد بين يدي الله يوم القيامة أنكم لستم من الذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَـٰنِ ﴾ ، فمن أنتم ؟!

نسأل الله العفو والعافية في الدارين ، ونعُوذ به من الخذلان والمكر والاستدراج ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

ومنها : خروج[1] دَجّالين كَذّابين كلهم يَدّعي أنه رسول الله ؛ كما أخبر به صلى الله عليه وسلم :

فقد روىٰ أبو داود ، والترمذي ، وصححه ابن حِبّان ، وهو طرفٌ من حديث أخرجه مسلم عن ثوبان ؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » .

وفي رواية البخاري : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتتل فئتان عظيمتان ، دعواهما واحدة ، وحتىٰ يبعث دجالون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله » .

ولأحمد ، وأبي يعلىٰ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « وبين يدي الساعة ثلاثون دجالاً كذاباً » .

وفي حديث علي رضي الله عنه عند أحمد نحوه ، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الطبراني نحوه .

وفي حديث سمرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج ثلاثون كذاباً ، آخرهم الأعور الدجال » أخرجه أحمد ، والطبراني ، وأصله عند الترمذي وصححه .

وفي حديث ابن الزبير رضي الله عنهما : « إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً ؛ منهم الأسود العَنَسي صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة » يعني : مُسَيلمة .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « وثلاثون كذاباً أو أكثر ، قلت : ما آيتهم ؟ قال : يأتونكم بسُنّة لم تكونوا عليها ، يغيرون سُنتكم ، فإذا رأيتموهم فاجتنبوهم » .

---

(١) قال الحافظ (٦/ ٤٠٢) : ليس المراد من ادعى النبوة مطلقاً ؛ فإنهم لا يحصون كثرة ؛ لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء ، وإنما المراد من قامت له شوكة ، وبدت له شبهة . اهـ
قلت : وسيأتي ذكر بعضهم (ص٢٢٧) .
وذكر صاحب رسالة : « شهادة آسماني في الرد على القادياني » بعضهم ؛ منهم : طريف أبو صبيح ، وولده صالح بن طريف ، وعبيد الله صاحب إفريقيا ، والسيد محمد الجونفوري ، وذكر تراجم بعض هٰؤلاء مفصلاً في رسالته الأخرى المسماة : « معيار المسيح » ، ورسالته الأخرىٰ المسمّاة : « فيصل آسماني » الجزء الثاني . (ز) .

وفي رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند الطبراني : « لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج سبعون كذاباً » .

ونحوه عند أبي يعلىٰ من حديث أنس رضي الله عنه .

قال الحافظ ابن حجر : وسندهما ضعيف .

وهو إن ثبت ؛ محمولٌ على المبالغة لا على التحديد .

وأما التحديد : ففيما أخرجه أحمد عن حذيفة رضي الله عنه بسندٍ جيد : « سيكون في أمتي كذابون دجالون سبعة وعشرون ، منهم أربع نسوة ، وأنا خاتم النبيين ؛ لا نبي بعدي » . وهـٰذا يَدُل علىٰ أن رواية الثلاثين بالجزم علىٰ طريق جبر الكسر ، ويُؤيده حديث البخاري المار قريب من ثلاثين .

قال : ويحتمل أن يكون ما ذكره من الثلاثين أو نحوها يدَّعون النبوة ، ومن زاد عليهم كما في رواية (أو أكثر) ، ورواية (سبعون) يكون كذاباً فقط ، لـٰكن يدعون إلى الضلال ؛ كغُلاة الرافضة والباطنية ، والحلولية وسائر الفرق الدعاة إلىٰ ما يُعلَمُ بالضرورة أنه خلاف ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال : ويُؤيده أن في حديث علي رضي الله عنه عند أحمد : فقال علي لعبد الله بن الكَوّاء : وإنك لمنهم .

وابن الكواء لم يدع النبوة ، وإنما كان يَغْلُو في الرفض . انتهىٰ

قُلْتُ : ويؤيده أيضاً ما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما المار : « قلت : وما آيتهم ؟ قال : يأتونكم بسُنّة لم تكونوا عليها . . . » إلخ .

وقد كان منهم الأسود العنسي صاحب صنعاء ، ومُسيلمة الكذاب صاحب اليمامة ؛ كما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، وقد مر آنفاً في حديث ابن الزبير .

وكان من خبرهما ؛ كما ذكره البقاعي في « اللامعة المنيرة » : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من حَجّة الوداع حصل له مرضٌ عوفي منه ، ثم مَرِض عن قريب مرض الموت ، فطارت الأخبار في ذلك المرض الأول بأنه صلى الله عليه وسلم قد اشتكىٰ ، فادعى الكذابان ما ادعيا ، وفعلا من الشر ما فعلاه . فبلغ النبي صلى الله عليه

وسلم خبرهما وهو مَريضٌ بعد ما حزّب بعث أسامة رضي الله عنه .

فخرج صلى الله عليه وسلم عَاصباً رأسه ، فقال : « إني رأيتُ في يَديّ سوارين من ذهب ، فكرهتهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما ؛ صاحب اليمن ، وصاحب اليمامة » .

فارتد الأسود العنسي في مذحج ، وكان صاحب شعبذة يظهر بها عجائب ، وله شيطانان يخبرانه بغالب أسرار الناس ، يقال لأحدهما : سحيق ، وللآخر شفيق ، وله مَنْطِقٌ حُلوٌ ، فغلب على اليمن في ناحية صنعاء ، وهرب منها أمراؤه صلى الله عليه وسلم . وكان يقال له : ذو الخمار ؛ لأنه لا يزال مُتَبرقعاً مُعتماً ، وقيل : ذو الحمار بالمهملة ؛ لأنه كان له حِمارٌ مُعلَّم ، يقال له : اسجد لربك فيسجد ، ويقال له : ابرك فيبرك .

ولما سمع أهل نجران خبر الأسود أرسلوا إليه فدعوه إلىٰ بلادهم ، فجاءهم ، فتبعوه وارتدوا عن الإسلام ، ثم أخذ منهم ست مئة وسار بهم إلىٰ صنعاء فغلب عليها ، ونزل غمدان واستنزل الأبناء .

وأما مُسيلمة الكذاب فخرج في بني حنيفة ، ونازعه قومه ، فقال : إني أُشرِكتُ في الأمر ، وجعل يَسجَعُ لهم بما يضاهي القرآن بزعمه ، فاستخفهم بذلك .

فلما مالوا إليه أسقط عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، ونحو ذلك ، وكثر أتباعه .

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء في أمر الأسود ، وكانوا قد ثبتوا على الإسلام ، فقتله فيروز الديلمي غِيلةً بمواطأة زوجته المرزبانة ، وكان قد قهرها علىٰ نكاحها ، وكانت من الخَيِّرات ، ومن عظماء أهل فارس ، ونادوا بالأذان عند الصباح ، فقالوا : نشهد أن الأسود كذاب ، وشنوها غارة ، فتراجع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفرق أصحابه ، فقتلوا منهم خَلقاً ، وَجاءَ النبي صلى الله عليه وسلم خَبرُ السماء بذلك ، فأخبر الناس به قبل موته بيوم أو بليلة ، وقيل بخمسة أيام .

ثم وصل الكتاب بذلك بعد موته صلى الله عليه وسلم بعشرة أيام ، وكانت مُدة الأسود أربعة أشهر .

وأما مُسيلمة فغزاه خالد بأمر أبي بكر رضي الله عنهما ، وقتل منهم خَلقاً كثيراً ، وصالح بقيتهم علىٰ ربع الخيل والسلاح ، وقُتِلَ من الصحابة رضي الله عنهم خَلقٌ كثير من قُراءِ القرآن ، وكان ذلك سبب جمع أبي بكر رضي الله عنه القرآن في المصحف .

وكذا ابن الصياد إن قُلنا إنه ليس الدجال الكبير ؛ كما هو ظاهر حديث الجساسة التي رآها تميم الداري ، وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ، وسيأتي تحقيقه .

وخرج في زمن أبي بكر رضي الله عنه طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد بناحية خيبر ، وآزرهم غطفان ، وادعى النبوة ، ثم تاب ورجع إلى الإسلام . كذا قال في « فتح الباري » .

لـٰكن عند ابن عساكر من طُرق أنه خرج في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم ضِرار بن الأزور ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، ثم جاءهم موت النبي صلى الله عليه وسلم ، فَارفَضّ الناس إلىٰ طليحة ، واستطار أمره ، فلم يقدروا عليه حتىٰ غزاه خالد بأمر أبي بكر رضي الله عنهما ، فهزمه خالد ، فهرب منه إلى الشام إلىٰ ملوك غسان ، ثم رجع إلى الإسلام وحسن إسلامه ، فعلىٰ هـٰذا نسبة خروجه إلىٰ زمان أبي بكر رضي الله عنه ؛ لاستطارة أمره فيه .

وتنبأت أيضاً سجاح بنت سويد بن يربوع في فرسان تغلب ، واتفقت تميم كُلها علىٰ نصرها ، وفيهم رؤساء الناس ؛ كالأحنف بن قيس ، وحارثة بن بدر ونظرائهما ، وفيها يقول عطارد بن حاجب :

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَىٰ نَطِيفُ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ ٱلنَّاسِ ذُكْرَانَا

فركبت علىٰ ذياب ، وقتلت فيهم قتلاً ذريعاً ، ثم قصدت اليمامة ، فلما سمع مُسيلمة ضاق ذرعاً وتحصن ، فأحاطت جيوشها به ، فاستشار وجوه قومه ، فقالوا : الرأي أن تُسلم الأمر إليها وتنجو بنفسك . فقال : سأنظر في أمري .

ثم أرسل إليها يقول : أما بعد فإنه أُنزِلَ عليك وَحيٌّ وعليَّ وَحيٌّ ، فهلم نتدارس ما أُنزلَ علينا ، فمن غلب صاحبه اتبعه الآخر . فأجابته إلىٰ ما طلب ، فضرب لها قُبة

من أدمٍ ، وأمر بالعود المندلي فأحرق ، وقال : كثروا لها الطيب ؛ فإن المرأة إذا شمت الطيبَ تذكرت الباه ، فانتهت إلى القبة ، وسألته عما أنزل عليه ، فقال : ألم تر إلىٰ ربك كيف فعل بالحبلىٰ ، أخرج منها نسمة تسعىٰ ، من بين صفاق وحشىٰ ، وأمات وأحيىٰ ، وإلى الله المنتهىٰ .

قالت : ثم ماذا ؟ قال : ألم تر أن الله خلقنا أفواجاً ، وجعل النساء لنا أزواجاً ، نُولج فيهن إيلاجاً ، ونخرج منهن إذا شئنا إخراجاً . فضحكت ، فأنشأ يقول :

أَلاَ قُومِي إِلَى ٱلْمِخْدَعْ فَقَدْ هُيِّىءْ لَكِ ٱلْمَضْجَعْ
فَإِنْ شِئْتِ فَرَشْنَاكِ وَإِنْ شِئْتِ عَلَىٰ أَرْبَعْ
وَإِنْ شِئْتِ بِثُلْثَيْهِ وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ

قالت : بل به أجمع ، قال : كذلك أُمرت . وواقعها .

فلما قام عنها قالت : إن مثلي لا تُنْكح هـٰكذا ؛ فإنه وصمةٌ علىٰ قومي ، ولـٰكني مُسلمةٌ إليك النبوة ، فإذا سلمتها إليك فاخطبني إلىٰ أوليائي ، ففعلت ، واتبعته ، فتزوجها ، وسألوه عن المهر ، قال : قد وضعتُ عنكم صلاة العصر .

قال الرُّشَاطي : فبنو تميم إلى الآن بالرملة لا يصلون صلاة العصر ، ويقولون : مَهْرُ كريمة لنا لا نرده .

وفي ذلك قول الشاعر :

إِنَّ سَجَاحِ لاَقَتِ ٱلْكَذَّابَا بِنِيَّةٍ فَحَلَّتِ ٱلْكِتَابَا
وَجَعَلَتْ كُتبهَا قِرَابَا أَوْقَبَ فِيهِ أَيْرَهُ إِيْقَابَا

ثم رجعت إلى الإسلام في زمن معاوية رضي الله عنه ، وحسن إسلامها .

وخرج المختار في زمن ابن الزبير وعبد الملك ؛ فإنه كان يدعي أنه يُوحىٰ إليه ، ويكتب في مكاتيبه: « من المختار رسول الله » . وحكاياته ، ووقائعه ، وفتنته كثيرة شهيرة .

عن عدي بن خالد ؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أحذركم الدجالين الثلاثة » . قيل يا رسول الله ؛ قد أخبرتنا عن الدجال الأعور ، وعن أكذب الكذابين ، فمن

الثالث ؟ قال : « رجلٌ من قوم أولهم مثبور ، وآخرهم مثبور ، عليهم اللعنة دائبة في فتنة يقال لها : الجارفة ، وهو الدجال الأكلس ، يأكل عباد الله بآل محمد ، وهو أبعد الناس من سنته » رواه ابن خزيمة ، والحاكم ، والطبراني .

وعن أسماء رضي الله عنها : « يخرج من ثقيف ثلاثة : الذيال ، والكذاب ، والمبير » رواه نُعيم بن حماد .

وفي رواية : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » .

قالوا : الكذاب هو مختار بن أبي عبيد ، والمُبِير هو الحجاج بن يوسف الثقفيان .

وخرج المتنبي الشاعر المشهور ، ثم تاب .

وخرج جماعة في زمن بني العباس منهم في أيام المعتمد : قائد فتنة الزنج بهبود لعنه الله ، الذي أفسد في العراق ، وأهان آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وستأتي الإشارة إلىٰ أحواله في أواخر هـٰذا الباب .

كان يدعي أنه أُرسل إلى الخلق فرد الرسالة ، وأنه مُطلعٌ على المغيبات .

وفي خلافة المكتفي : خرج يحيىٰ بن زكرويه القَرمَطي ، ثم بعده أخوه الحسين ، وأظهر شامةً في وجهه ، وزعم أنها آيته ، وجاء ابن عمه عيسىٰ بن مهرويه ، وزعم أن لقبه المدثر ، وأنه المعني في السورة ، ولَقّب غُلاماً له : المطوّق بالنور ، فظهر على الشام ، وعاث وأفسد ، ودعا له الناس على المنابر ، ثم قُتِلَ إلىٰ لعنة الله تعالىٰ .

وخرج في خلافة المقتدر : أبو طاهر القَرمَطي الذي قلع الحجر الأسود .

وكان يقول :

أَنَا بِٱللهِ وَبِٱللهِ أَنَا ... يَخْلُقُ ٱلْخَلْقَ وَأَفْنِيهِمْ أَنَا

وستأتي الإشارة إلىٰ فتنته .

وفي خلافة الراضي : ظهر محمد بن علي الشلمغاني ؛ المعروف بابن أبي العراق ، وقد شاع عنه أنه يدعي الإلـٰهية ، وأنه يحيي الموتىٰ ، فقتل وصلب ، وقتل معه جماعة من أصحابه .

وظهر في خلافة المطيع : قومٌ من التناسخية ، فيهم شابٌّ يَزعُمُ أن روح علي رضي الله عنه انتقلت إليه ، وامرأته تزعم أن روح فاطمة رضي الله عنها انتقلت إليها ، وآخر يدعي أنه جبريل عليه السلام ، فضربوا ، فتعزوا بالانتماء إلىٰ أهل البيت ، فأمر معز الدولة بإطلاقهم .

وفي خلافة المستظهر في سنة تسع وتسعين وأربع مئة : ظهر رَجلٌ بنواحي نهاوند ، وادعى النبوة وتبعه خلق ، فَأُخِذَ وقُتِل .

وخرج جماعة آخرون بالمغرب وغيرها ، في الرجال والنساء .

فمنهم : رَجلٌ تسمى بـ(لا) ، وحَرَّفَ الحديث المشهور : « لا نبي بعدي » ، فجعله إخباراً منه صلى الله عليه وسلم بأن (لا) ؛ أي : صاحب هـٰذا الاسم نبي بعدي ، ويقول : إنّ « لا » في الحديث مبتدأ ، ونبي خبره .

ومنهم : الفزاري الساحر الذي بمالقة ، وأُخرج بسببه أبو جعفر بن الزبير إلىٰ غرناطة ، ثم اتفق قدوم الفزاري رسولاً من أميرها إلىٰ غرناطة ، فسعىٰ أبو جعفر المذكور في قتله ، فقتلوه .

ومنهم امرأة ادعت النبوة ، فذكروا لها الحديث ، فقالت : إنما قال : « لا نبي » ، ولم يقل : لا نبية . . . إلىٰ غير ذلك .

والحاصل أن عددهم سبعة وعشرين قد تم أو كاد يتم ، وأما مُطلق الكذابين فلا حصر لهم .

ومن هـٰذا القسم من يدعي أنه مهدي ، وهـٰؤلاء أيضاً كثيرون .

وبعد تأليف الكتاب بأشهر خرج أيضاً بنواحي عقراء ، خرج رجل اسمه عبد الله وكان سمّى ابناً له محمّداً ولقبه مهديّاً ، فادعىٰ أنَّ ابنه المهدي المنتظر ، فاتبعه أجلاف الأكراد وعوامَّهم ، فاستولىٰ على بعض القلاع ، ثم ركب عليه عامل الموصل ، فقتل منهم جماعةً ، وهربَ ابنهُ إلىٰ بعض النواحي ، وحُبِسَ هو ، فادعىٰ أنَّ ابنه قد غاب ، وأنه الغيبة الأولىٰ ، فأثبت للمهديّ غيبتان كما في بعض الروايات ، ثم إنهم أخذوا ابنه أيضاً وأرسلوا بهما إلى استانبول .

ومنهم من ادعىٰ أنه صحابي رأى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كالمعمر المشهور : رتن الهندي .

ولا شك أن ما أخبر به الصادق لصادق ، وأن الدين لواقع .

ومنها : فتح بيت المقدس :

عن عوف بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « اعدد بين يدي الساعة سِتّاً : موتي ، وفتح بيت المقدس. . . » .

وقد فُتح مرتين : مرةً في زمن عمر رضي الله عنه ؛ ومرة في زمن الأكراد الأيوبية ، فتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملك الناصر ، وكان من أعظم فتوح الإسلام ، ثم بعد موته رده بعض أولاده إلى النصارىٰ ، ثم استرده حفيده داود الملك الناصر .

وأنشد في ذلك بعض الشعراء يُهنيه :

ٱلْمَسْجِدُ ٱلأَقْصَىٰ لَهُ عَادَةٌ سَارَتْ فَصَارَتْ مَثَلاً سَائِرَا
إِذَا غَدَا بِٱلْكُفْرِ مُسْتَوْطِناً أَنْ يَبْعَثَ ٱللهُ لَهُ نَاصِرَا
فَنَاصِرٌ طَهَّرَهُ أَوَّلاً وَنَاصِرٌ طَهَّرَهُ آخِرَا

ومنها : فتح المدائن :

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لا تقوم الساعة حتىٰ يُفتح القصر الأبيض الذي في المدائن ، ولا تقوم الساعة حتىٰ تسير الظَّعِينَةُ من الحجاز إلى العراق آمنة لا تخاف شيئاً » .

قال عدي : فقد رأيتهما جميعاً ، وكان وقوعهما في زمن عمر رضي الله عنه .

ومنها : هلاك العرب :

أعني : زوال ملكهم .

عن طلحة بن مالك قال : « من اقتراب الساعة هلاك العرب » رواه الترمذي ، وقد زال ملك العرب بزوال المُلْكِ عن بني العباس ، وقد مرَّ .

ومنها : كثرة المال[1] وفيضه :

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكثر المال فيكم ، فيفيض حتىٰ يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته ، وحتىٰ يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب ـ أي : لا حاجة ـ لي فيه » .

وهٰذا وقع في زمن عثمان رضي الله عنه ، كثرت الفتوح حتى اقتسموا أموال الفرس والروم ، ووقع في زمان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أن الرجل يعرض ماله للصدقة فلا يجد من يقبل صدقته . وسيقع في آخر الزمان في زمن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وسيأتي في القسم الثالث .

ومنها : أن تَزُول الجبال عن أماكنها :

روى الطبراني عن سَمُرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ تزول الجبال عن أماكنها » .

ونقل السيوطي في « تاريخ الخلفاء » أن في سنة اثنتين وأربعين بعد المئتين في خلافة المتوكل سار جبل باليمن عليه مزارع لأهله حتىٰ أتىٰ مزارع آخرين ، وفي سنة ثلاث مئة في خلافة المقتدر ساخ جبل بدينور في الأرض ، وخرج من تحته ماءٌ كثير أغرق القرىٰ .

ومنها : فقد الصحابة رضوان الله عليهم :

عن علي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتىٰ يُلْتَمسَ الرجل من أصحابي كما تلتمس الضالة فلا توجد » رواه أحمد .

ومنها : وقوع ثلاث خسوفات :

عن أم سلمة رضي الله عنها : « سيكون بعدي خَسفٌ بالمشرق ، وخَسفٌ بالمغرب ، وخسف في جزيرة العرب » ، قيل : أتخسف الأرض وفيهم الصالحون ؟!

---

(١) قال الحافظ (١٣/ ٦٦) : يحتمل أن يكون ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز ، أو ما سيقع في زمن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وهٰكذا في (ص ١٨٠) (ز) .

قال : « نعم ؛ إذا أكثر أهلها الخبث » رواه الطبراني .

وعن حذيفة بن أَسِيد رضي الله عنه قال : اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « إنها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات . . . » ، فذكر منها ثلاثة خسوف : خسفاً بالمشرق ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفاً بجزيرة العرب . رواه الستة إلا البخاري .

وقد وقعت الخسوفات الثلاثة : فوقع في خلافة سليمان بن عبد الملك أنه ورد كتاب ابن هبيرة فيه : أن ببخارىٰ وقت السّحَرِ سمع قعقعةٌ عظيمةٌ من السماء ، ودويٌّ كالرعد القاصف ، أسقطت منه الحوامل ، فنظروا فإذا قد انفرج من السماء فرجةٌ عظيمةٌ ، ونزل أشخاصٌ عِظامٌ ؛ رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض ، وقائلٌ يقول : يا أهل الأرض ؛ اعتبروا بأهل السماء ، هـٰذا صفوائيل المَلَكُ عصى الله فَعُذِّب ، فلما طلع النهار أتى الناس إلىٰ ذلك الموضع فوجدوا خسفاً عظيماً لا يُدرك له قرار ، يصعد منه دخانٌ أسود .

أُثبتَ ذلك على قاضي بُخارىٰ بأربعين عدلاً ، كذا في « السكردان » وفيه شيء ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ، لـٰكن تجوزه قصة هاروت وماروت ، والله قادر علىٰ كل شيء .

وفي سنة ثمان ومئتين خُسِفَ بثلاث عشرة قرية بالمغرب .

وفي سنة أربع وثلاثين وثمان مئة في شعبان وقعت زلزلة بغرناطة ، وخسف بعدة أماكن ، وانهدم بعض القلعة . ذكر ذلك في « إنباء الغمر » .

وفي خلافة المطيع في سنة ست وأربعين وثلاث مئة وقع بالري ونواحيها زلازل عظيمة ، وخسفٌ ببلد طالقان ، ولم يفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين نفساً ، وخُسِفَ بمئة وخمسين قرية من قرى الري ، واتصل الأمر إلىٰ حُلْوَان ، فخسف بأكثرها ، وقذفت الأرض عظام الموتىٰ ، وتفجرت فيها المياه ، وتقطع بالري جبل ، وعلقت قرية بين السماء والأرض بمن فيها نصف نهار ، ثم خُسف بها ، وانخرقت الأرض خُروقاً عظيمة ، وخرج منها مياه مُنْتِنة ، ودخانٌ عظيم . كذا نقله السيوطي عن ابن الجوزي .

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مئة خُسفت قرية من أعمال بُصرىٰ .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة : خُسف بلد بحيرة ، وصار مكان البلد ماء أسود .

وخُسف في زماننا بعدة قرىٰ من ناحية أذربيجان وخراسان وغيرهما من ديار العجم .

ولا تكاد تنحصر الخسوفات .

ومنها : كثرة الزلازل وكثرة القتل والرجف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه [قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم] : « لا تقوم الساعة حتىٰ يُقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ؛ وهو القتل » رواه البخاري ، وابن ماجه .

وعند ابن عساكر عن عروة بن رويم ، عن [جابر] الأنصاري ، عنه صلى الله عليه وسلم : « يكون في أمتي رَجفةٌ يهلك فيها عشرة آلاف ، عشرون ألفاً ، ثلاثون ألفاً ، يجعلها الله موعظة للمتقين ، ورحمةً للمؤمنين ، وعذاباً على الكافرين » .

وقد وقع في أول خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومئتين زلزلة مَهُولةٌ بدمشق ، سقطت منها دورٌ ، وهلك تحتها خلقٌ ، وامتدت إلىٰ أنطاكية فهدمتها ، وإلى الجزيرة فأحرقتها ، وإلى الموصل ، فيقال : هلك من أهلها خمسون ألفاً .

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين : زُلْزلت الأرض زلزلة عظيمة بتونس وأعمالها ، وخراسان ، ونيسابور ، وطبرستان ، وأصبهان ، وتقطعت جبال ، وتشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل في الشّق ، وكان بين الزلزلتين عشر سنين .

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين : عَمّت الزلازل الدنيا ، فأخربت المدن والقلاع والقناطر ، وسقط من أنطاكية جبل في البحر .

وفي خلافة المعتضد سنة مئتين وثمانين : وقعت في الدَّيبل زلزلة عظيمة هدمت عامة البلد ، فكان عدة من أخرج من تحت الردم مئة ألف وخمسين ألفاً .

وفي سنة أربع مئة وستين : وقع بالرَّملة زلزلة هائلة ، خَرّبتها حتىٰ طلع الماء من رؤوس الآبار ، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفاً ، وبَعُد البحر عن ساحله مسيرة يوم ، فنزل الناس إلىٰ أرضه يلتقطون ؛ فرجع الماء عليهم فأهلكهم .

وفي سنة أربع وأربعين وخمس مئة : وقعت زلزلة عظيمة ، وماجت بغداد نحو عشر مرات ، وتقطع بِحُلْوان منها جبل .

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مئة : جاءت زلزلة كبرىٰ بمصر ، والشام ، والجزيرة ، فأخربت أماكن كثيرة ، وقلاعاً متعددة .

وفي سنة اثنتين وخمس مئة : وقعت زلازل عظيمة بالشام ، وحلب ، وشيراز ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وهلك خَلْقٌ كثير حتىٰ إنَّ مُعلماً بحماة قام من المكتب ، ثم عاد فوجد المكتب قد وقع على الصبيان فماتوا كلهم ، ولم يأت أحدٌ يسأل عن ولده ؛ لأنَّ أهلهم ماتوا أيضاً ، وهلك كل من في شيراز إلاَّ امرأة وخادماً واحداً ، وانشق تَلٌّ في حران فظهر فيه بيوتٌ ، وعمائر ، ونواويس ، وانشق في اللاذقية موضعٌ فظهر فيه صنم قائمٌ في الماء .

وخربت صيدا ، وبيروت ، وطرابلس ، وعكار ، وصور ، وجميع بلاد الفرنج ، وانفرق البحر إلىٰ قبرص وقذف بالمراكب إلىٰ ساحله ، وتعدىٰ إلىٰ ناحية الشرق ، ومات خَلقٌ كثير .

قال صاحب « المرآة » مات في هـٰذه السنة نحو ألف ألف ومئة ألف إنسان . كذا في « السُّكْردان » .

وفي سنة اثنتين وستين وست مئة : زُلزلت مصر زلزلة عظيمة ، وقد مرت الزلزلة الواقعة بالمدينة قبل خروج النار بها .

ووقعت في سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة بحيرة زلزلةٌ عظيمة عشرة فراسخ في مثلها ، فأهلكت خلائق كثيرة .

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة : وقع بأزرنكان زلزلةٌ عظيمة ، وهلك بسببها عالمٌ كثير ، والله يفعل ما يشاء .

وفي سنة ألف وقعت ببلدة لاَر زلزلةٌ عظيمة ، انهدمت منها البيوت كلها واندكت ، بحيث لا يكادون يعرفون محل بيوتهم .

وكانت قبلها بأيام زلازل صغار في كل يوم ، فخرجوا منها ، فمن خرج منها نجا ، ومن لا هلك .

ووقعت بعد تأليف هـٰذا الكتاب بنحو ستة أشهر زلزلةٌ هائلة ما نجىٰ منها إلاَّ القليل ، فألحقناها بهـٰذا المحل .

فهـٰذه هي الزلازل العظام والرجفات التي اعتني بنقلها في كتب التواريخ ، وأما الزلازل الصغار فلا تكاد تنحصر ، وبالله التوفيق .

ومنها : المسخ والقذف :

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « يكون في أمتي خسف ، ومسخ ، وقذف » رواه أحمد ، ومسلم ، والحاكم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « بين يدي الساعة مسخٌ ، وخسفٌ ، وقذفٌ » رواه ابن ماجه .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه : « ليبيتن أقوام من أمتي علىٰ أكل ، ولهو ، ولعب ، ثم ليصبحن قردة وخنازير » رواه الطبراني .

وعن عائشة رضي الله عنها : « يكون في آخر هـٰذه الأمة خسفٌ ، ومسخٌ ، وقذف » ، قيل : يا رسول الله ؛ أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » رواه الترمذي .

وعن عبد الرحمن بن صحار ، عن أبيه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يُخسف بقبائل حتىٰ يقال : من بقي من بني فلان ؟ » رواه أحمد ، والبغوي ، وابن قانع ، والطبراني ، والحاكم ، وغيرهم .

وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما : « يكون في هـٰذه الأمة خَسفٌ ، ومَسخٌ ، وقذف » رواه الترمذي ، وابن ماجه .

أما الخَسفُ فقد مَرّ .

وأما المَسخُ[1] : فقد وقع لأشخاص .

فقد صح الخبر عن غير واحد أن في زمن فاطمية مصر كانوا يجتمعون بالمدينة يوم عاشوراء في قبة العباس رضي الله عنه وُيسُبُّون الشيخين والصحابة رضي الله عنهم ، فجاء رجل فقال : من يطعمني في محبة أبي بكر رضي الله عنه ؟ فخرج إليه شيخٌ وأشار إليه أن اتبعني ، فأخذه إلىٰ بيته ، وقطع لسانه ، ووضعه في يده ، وقال : هـٰذه لمحبة أبي بكر . فذهب الرجل إلى المسجد وسلم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بقلبه ، ورجع ولسانه في يده ، فقعد حزيناً عند باب المسجد وغلبه النوم ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال لأبي بكر : « إنَّ هـٰذا قطعوا لسانه في محبتك ، فرد عليه لسانه » . قال : فأخرج لسانه من يده ، ووضعه في محله ، فانتبه فإذا لسانه كما كان قبل القطع وأحسن ، فلم يخبر أحداً بذلك ، ورجع إلىٰ بلاده .

فلما كان العام القابل ، رجع إلى المدينة ، ودخل القبة يوم عاشوراء وطلب شيئاً بمحبة أبي بكر رضي الله عنه ، فخرج إليه شابٌّ وقال : اتبعني . فتبعه ، فأدخله الدار التي قطع فيها لسانه ، فأكرمه الشاب ، فقال الرجل : إني تعجبت من هـٰذا البيت ، لقيت فيه العام الماضي مُصيبةً ومَهانةً ، وهـٰذه السنة لقيت ما أرىٰ من الإكرام .

فقال الشاب : كيف القصة ؟ فأخبره بالقصة ، فأكب علىٰ يديه ورجليه ، وقال : ذلك أبي وقد مسخه الله قرداً ، وكشف عن ستارة فأراه قرداً مربوطاً ، فأحسن إليه ، وتاب عن مذهبه وقال : اكتم عليَّ أمر والدي .

---

(١) وأورد السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٥٩) حديثاً أخرجه أبو الشيخ ، وابن مردويه مرفوعاً : « صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هـٰذه الأمة قردة وخنازير » . وورد في « أبي داود » من حديث أنس في ذكر البصرة : « يكون بها خسفٌ ، ومسخ ، يبيتون ويصبحون قردة وخنازير » .

وذكر الشاه عبد العزيز في تفسير سورة البقرة (ص٢٢٣) ثلاث عشرة صورة للمسخ ، أعاذنا الله منها . (ز) .

ذكر هـٰذه القصة السيد السمهودي ، وابن حجر في « الزواجر » ، و« الصواعق » ، والقسطلاني في « المواهب اللدنية » ، وغيرهم .

وذكر في « الزواجر » أنه كان بحلب رَجلٌ سَبّابٌ للشيخين ، فلما مات ، اتفق شباب علىٰ أن ينبشوا قبره ، فلما نبشوه ، رأوه قد مسخ خنزيراً ، فأخرجوه ، ثم أحرقوه بالنار .

ويقال : قَلّ رافضيٌّ إلا ويُمسخُ في قبره خنزيراً ، والله أعلم .

وذكر السيوطي في « تاريخ الخلفاء » أنَّ في سنة اثنتين وثمانين وسبع مئة في خلافة المتوكل سادس الخلفاء العباسيين الذين كانوا بمصر ، ورد كتابٌ من حلب يتضمن أن إماماً قام يُصلِّي ، وأن شخصاً عَبَثَ به في صلاته ، فلم يقطع الإمام الصلاة حتىٰ فرغ ، وحين سلم انقلب وجه العابث وجه خنزير ، وهرب إلىٰ غابة هنالك . وكتب بذلك محضراً .

وأما القذف : فقد نقل السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : أنَّ في سنة خمس وثمانين ومئتين : مُطرت قريةٌ بالبصرة حجارة سوداء وبيضاء ، ووقع بَردٌ ، ووزن البَردَةُ مئة وخمسون درهماً .

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين : رُجِمت قرية السويداء بالحجارة ، وَوُزِنَ حَجرٌ من الحجارة فكان عشرة أرطال .

وفي سنة ثمان وسبعين وأربع مئة في خلافة المقتدي : جاءت رِيحٌ سوداء ببغداد ، واشتد الرعد والبرق ، وسقط رملٌ وترابٌ كالمطر .

وأخبرني ثِقةٌ أنَّ في سنة نيف وستين بعد الألف : مُطرت حجارةٌ سوداء كثيرة عريضةٌ ؛ قدر بيض الدجاج وأكبر ، في الصيف والسماء مُصحيةٌ ، ببلاد الأكراد بين هيزان وكفرا ، وكان يُسمع لها حِسٌّ من مسافة يوم .

وفي وسط شهر ربيع الأول سنة إحدىٰ وأربعين وسبع مئة : ورد كتاب إلىٰ مصر من حماة يُخْبر فيه أنه وقع في هـٰذه الأيام ببارين ؛ من عمل حماة بَرَدٌ علىٰ صور حيوانات مختلفة ، منها : سِباعٌ ، وحَيّاتٌ ، وعَقاربٌ ، وطُيورٌ ، ومَعزٌ ، وبلشون ، ورجالٌ

في أوساطهم حوايص ، وإن ذلك ثبت بمحضرٍ شرعي عند قاضي الناحية ، ثم نقل ثبوته إلىٰ قاضي حماة . كذا في « السكردان » ، والله يفعل ما يشاء .

ومنها : الريح الحمراء ـ أي : الشديدة ـ والأمور العظام :

عن علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة[1] رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اتُّخِذ الفيء دُولاً ، والأمانة مَغْنماً ، والزكاة مَغْرماً ، وتُعُلِّم لغير الدِّين ، وأطاع الرجل امرأته وَعقَّ أمه ، وأدنىٰ صديقه وأقصىٰ أباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وَأُكرِمَ الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمور ، ولعن آخر هـٰذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك رِيحاً حمراء ، وزلزلة ، وخَسفاً ، ومَسخاً ، وقذفاً ، وآيات تتابع ؛ كنظام بالٍ قُطعَ سلكه فتتابع » رواه الترمذي .

وعن عبد الله بن حوالة[2] رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل ، والبلابل ، والأمور العظام ، والساعة يومئذ أقرب من يدي هـٰذه إلىٰ رأسك » رواه أبو داود ، والحاكم .

وهـٰذا إن أُريد بالخلافة النازلة إلى الأرض المقدسة مُلْكُ بني أمية ، فقد وقع من الأمور العظام ما سنذكر بعضها .

وإن أُريد خلافة المهدي فالمراد بها الآيات القريبة إلى الساعة ؛ كالدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وغير ذلك .

أما الريح : ففي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين في أول خلافة المتوكل هبت بالعراق رِيحٌ شَديدةُ السموم ولم يُعهد مثلها ، أحرقت زرع الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، وقتلت المسافرين ، ودامت خمسين يوماً ، واتصلت بهمذان ، فأحرقت الزرع والمواشي ، واتصلت بالموصل وسنجار ، ومنعت الناس من المعاش في الأسواق ،

---

(١) ذكرهما صاحب « المشكاة » (ص٤٦٢) مع الاختلاف فيهما في بعض الكلمات ، وكذا الترمذي (٤٨/٢) وسيأتي (ص ١٦٣) (ز) .

(٢) كذا في « المشكاة » (ص٤٦٢) . (ز) .

ومن المشي في الطرقات ، وأهلكت خَلقاً عَظيماً .

وفي سنة ثمانين ومئتين في شوال في خلافة المعتضد أصبحت الدنيا مُظلمةً إلى العصر ، فهبت رِيحٌ سوداء ، فدامت إلىٰ ثلث الليل ، وأعقبها زلزلة عظيمة أذهبت عامة بلد الدِّيبل .

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين في خلافته : هبت رِيحٌ صفراء بالبصرة ، ثم صارت خضراء ، ثم صارت سوداء ، وامتدت في الأمصار .

وفي خلافة المقتدر : جاءت رِيحٌ سوداء ببغداد ، واشتد الرعد والبرق حتىٰ ظُنَّ أنها القيامة .

وفي خلافة المستظهر : هبت بمصر رِيحٌ سوداءُ مُظلمةٌ أخذت الأنفاس حتىٰ لا يبصر الرجل يده ، ونزل على الناس رمل ، وأيقنوا بالهلاك ، ثم انجلىٰ قليلاً ، وعاد إلى الصفرة .

وفي سنة أربع وعشرين وخمس مئة : طلعت سَحابةٌ علىٰ بلد الموصل ، فأمطرت ناراً ، وأحرقت ما نزلت عليه ، وظهر بالعراق عقارب طيارة ، فقتلت خَلقاً عَظيماً . ذكره ابن أبي حجلة .

وفي سنة ست وتسعين وخمس مئة : هبت رِيحٌ سوداء مُظلمة بمكة عمت الدنيا ، ووقع على الناس رمل أحمر ، ووقع من الركن اليماني قطعة .

وفي سنة ست وعشرين وثمان مئة في ولاية الأشرف برسباي : هبت بمصر رِيحٌ بَرِقةٌ تحمل تُراباً أصفر إلى الحمرة ، وذلك قبل غروب الشمس ، فاحمر الشفق جداً بحيث صار من لا يدري يَظُنُّ أن بجواره حَريقاً ، وصارت البيوت كلها ملأىٰ تُراباً ناعماً جداً يدخل الأنوف والأمتعة ، ثم لما تكامل غيبوبة الشفق اسود الأفق ، وعصفت الريح وكانت معلقة ، فلو وصلت الأرض لكان أمراً مَهُولاً ، وكثر ضجيج الناس في الأسواق والبيوت بالذكر والدعاء والاستغفار إلىٰ أن لطف الله بإدرار المطر ، ولم تَهُب هـٰذه الريح مُنذ ثلاثين سنة قبلها ، وانتشرت حتىٰ غطت الأهرام ، والجيزة ، والبحر ، واشتدت حتىٰ ظنوا أنها تُدَمِّرُ كل شيء ، فدامت تلك الليلة ويومها إلى العصر ، وكانت

سبباً في هيف الزرع ، وغلاء السعر . ذكره الحافظ ابن حجر في « إنباء الغمر » .

وأما الأمور العظام : فوقع القحط الشديد مرات .

منها : ما وقع في زمن الظاهر العُبيدي بمصر [مِن] الغلاء الذي لم يقع مثله منذ زمن يوسف عليه السلام ، ودام سبع سنين حتىٰ أكل الناس بعضهم بعضاً ، وقيل : بيع فيه رغيف بخمسين ديناراً .

وفي زمن المستنصر العُبيدي : وقع بمصر أيضاً القحط سنين متوالية حتىٰ أكل الناس بعضهم بعضاً ، وبلغ الإردبُّ : من الحنطة مئة دينار ، والإردبُّ : أربعون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلم وشيء ، وبيع الكلب بخمسة دنانير ، والهرة بثلاثة دنانير .

وفي سنة خمس وأربعين في خلافة المقتفي العباسي : جاء مطر باليمن كله دم ، وصارت الأرض مرشوشة بالدم ، وبقي أثره في ثياب الناس .

وفي سنة ثمان وخمسين وأربع مئة : ظهر كوكب ؛ كأنه دارة القمر ليلة التمام ، بشعاع عظيم وهال الناس ذلك ، وأقام عشر ليال ، ثم تناقص ضوءه وغاب .

وفي سنة ستين وأربع مئة في خلافة القائم : غرق بالرملة خلقٌ كثير .

وفي سنة ست وستين وأربع مئة في خلافة القائم كان الغَرقُ العظيم ببغداد ، وزادت دجلة ثلاثين ذراعاً ، ولم يقع مثل ذلك قط ، وهلكت الأموال والأنفس والدواب ، وركب الناس في السفن ، وأقيمت الجمعة في التيار علىٰ ظهر الماء مرتين ، وصارت بغداد كلها مَلَقة ، وانهدم مئة ألف دار .

وفي سنة أربع وثمانين وأربع مئة في خلافة المقتدي : غلب الإفرنج علىٰ جميع جزيرة صقلية ، وأسروا وسبوا ذراري المسلمين .

وفي سنة اثنتين وخمسين وست مئة في خلافة المستعصم : ظهرت نارٌ في أرض عدن[1] ، وكان يطير شررها في الليل إلى البحر ، ويصعد منها دُخان عَظيمٌ في النهار .

---

(١) ذكره السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٣٢٣) في سنة ٦٥٢هـ (ز) .

وفي أيام المعتمد في سنة ست وستين ومئتين دخلت الزنج البصرة وأعمالها ، وخربوها ، وبذلوا السيف وسبوا ؛ وهم من الخوارج الذين قتلهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وأعقب ذلك الوباء العظيم ، فمات خَلقٌ كثير لا يحصون ، ثم أعقبه هدات وزلازل ، فمات تحت الردم ألوفٌ من الناس ، واستمر القتال مع الزنج إلىٰ سنة سبعين .

قال الصولي : إنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمس مئة آدمي ، وقتل في يوم واحدٍ بالبصرة ثلاث مئة ألف ، وكان له منبرٌ في بلده يَصعَدُ عليه يسب عثمان ، وعلياً ، ومعاوية ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة رضي الله عنهم ، وكان ينادىٰ على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة ، وكان عند الواحد منهم العشر من العلويات يستخدمهن ويطؤهن ، فقُتل اللعين رئيس الزنج سنة سبعين ، وكان اسمه بهبود ، وكان يدعي أنه أُرسِلَ إلى الخلق فرد الرسالة ، وأنه مطلعٌ على المغيبات ، وقع في زمنه غلاء مُفرطٌ بالحجاز والعراق ، وبلغ كَرُّ الحنطة ببغداد مئة وخمسين ديناراً ، والكَرُّ : ستة أحمال الحمير والبغال ، أو اثنا عشر وسقاً .

وفي أيامه انبثق في نهر عيسىٰ بثقٌ ، فجاء الماء إلى الكرخ فهدم سبعة آلاف دار .

وفي زمنه ظهرت القرامطة[1] بالكوفة ، وهم نوعٌ من الملاحدة ، وهم الباطنية يَدّعُونَ أنه لا غسل من الجنابة ، وأن الخمر حلال ، وأن الصوم في السنة يومان ، ويزيدون في أذانهم : (محمدٌ ابن الحنفية رسول الله) وأن الحج والقِبلَة إلىٰ بيت المقدس ، وأشياء أخر .

وفي سنة ست وتسعين وخمس مئة كان بمصر الغلاء المُفرط بحيث أكلوا الجيف والآدميين ، وفشا أكل بني آدم واشتهر ، وتعدوا إلىٰ حفر القبور وأكل الموتىٰ ، وكثر الموت من الجوع ؛ بحيث كان الماشي لا يقع قدمه أو بصره إلاَّ علىٰ ميتٍ أو قريبٍ من

---

(١) ذكره السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٢٥٥) في زمان المعتمد ، وذكر صاحب « الخميس » (٢/٣٤٣) مختصراً ، وذكرها في « شرح المواقف » (٨/٣٨٨) في فِرَقِ الشيعة ، وفي حاشية « الفوائد البهية » (ص١٣) . (ز) .

الموت ، وهلك أهل القرىٰ قاطبة ، بحيث إن المسافر يمر بالقرية فلا يرىٰ فيها نافخ نار ، وتجد البيوت مُفتحةً وأهلها موتىٰ ، وصارت الطرق مزرعةً للموتىٰ ، ومأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وبيعت الأحرار والأولاد بالدراهم اليسيرة ، واستمر ذلك سنتين .

قال أبو شامة في « الذيل » : إنَّ العادل الكبير في هـٰذه السنة كَفَّنَ من ماله في مدة يسيرة نحواً من مئتي ألف وعشرين ألف ميت ، وقيل : ثلاث مئة ألف من الغرباء ، وَأُكِلَتْ الكلاب والميتات في مصر ، وأكل من الصغار والأطفال خَلقٌ كثير ، حتىٰ إن الوالد يشوي ولده ويأكله ، وكَثُر في الناس هـٰذا حتىٰ صار لا ينكر عليهم ، ثم صاروا يحتالون بعضهم علىٰ بعض ، ويأكلون من يقدرون عليه ، وإذا غلب القوي على الضعيف ذبحه وأكله ، وفُقِدَ كثيرٌ من الأطباء يدعونهم إلى المرضىٰ فيذبحونهم ويأكلونهم . انتهىٰ

وفي سنة ثمان عشرة وسبع مئة حصل بديار بكر ، والموصل ، وإربل ، وماردين ، والجزيرة ، وميافارقين ، وغيرها الغلاء العظيم ، وخربت البلاد ، وبيع الأولاد ، وكثر الموت في الناس ، حتىٰ إنه مات من جزيرة ابن عمر خمسة عشر ألفاً بالجوع ، وبيع من الأولاد نحو ثلاثة آلاف صبي ، وكان يُباع الصبي بنحو عشرة دراهم أو أكثر ، ويشتريهم التتار .

ومات أكثر أهل ميافارقين بحيث لم يبق من أسواقها غير ست حوانيت ، والموصل كان الغلاء بها أكثر من ماردين ، وبيع بها الأولاد بحيث خلت الدور من أهلها ، وأكلوا الجيف والميتات ، وباع رجلٌ ولده باثني عشر درهماً .

وقال : قد أنفقت في ختانه خمسين ديناراً ، وكان المشترون يَتحرّجُون من شراء أولاد المسلمين ، فكانت المرأة والصبية تجعل نفسها نصرانية وتقر بالنصرانية ؛ ليرغب فيها ، وأهل إربل أكلوا النبات ، ثم قشور الشجر ، ثم الجيف ، وجاءهم الموت الذريع ، وجلا الباقي ، ومات كثيرٌ منهم بالثلج . ذكر ذلك البِرْزَالي في « ذيل الروضتين » ، وذكرت ملخصه .

اللهم ؛ إنا نعوذ بك من الجوع ؛ فإنه بئس الضجيع .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئتين في خلافة المتوكل : سمع أهل أخلاط صَيحةً عظيمةً من جو السماء ، فمات منها خلقٌ كثير .

وفي سنة اثنتين وأربعين : وقع بجبلٍ طائر أبيض دون الرَّخمة في رمضان ، فصاح : معاشر الناس ؛ اتّقوا الله ، الله ، الله . فصاح أربعين صوتاً ، ثم طار وجاء من الغد ، ففعل كذلك ، وَكُتبَ البريد بذلك ، وشهد خمس مئة إنسان سمعوه . . . إلىٰ غير ذلك من الأمور العظام التي وقعت .

ومنها : انقطاع طريق الحج ، ورفع الحجر الأسود من الكعبة :

عن أبي سعيد رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يحج البيت » رواه الحاكم وصححه ، والبزار ، وأبو يعلىٰ ، وابن حبان .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : « لا تقوم الساعة حتىٰ يرفع الركن » رواه السِّجزي .

وهٰذان كلاهما قد وقعا .

أما انقطاع طريق الحج : ففي سنة عشرين وثلاث مئة انقطع الحج من بغداد إلىٰ سنة سبع وعشرين بسبب فتنة القرامطة .

وفي سنة تسع وأربعين وثلاث مئة : رجع حجيج مصر في مكة ، فنزلوا وادياً ، فجاءهم السيل ، فأخذهم كلهم فألقاهم في البحر عن آخرهم .

وفي سنة خمس وخمسين : قطعت بنو سُلَيم الطريق على الحجيج من أهل مصر ، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها ، وعليها من الأمتعة ما لا يُقَومُ كثرة ، وبقي الحجاج في البوادي فهلك أكثرهم .

وفي سنة ثلاث وستين : خرج بنو هلال وطائفةٌ من العرب على الحجاج ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعطلوا علىٰ من بقي منهم الحج في هٰذا العام ، ولم يحصل لأحدٍ حج في هٰذه السنة سوىٰ أهل درب العراق وحدهم .

وفي سنة أربع وثمانين وثلاث مئة : رجع الحاج العراقي من الطريق ؛ اعترضهم

الأصفر الأعرابي ، ومنعهم الجواز إلاَّ بالباج ، فعادوا ولم يحجوا ، ولا حج أيضاً أهل الشام ولا اليمن ، إنما حَجَّ أهل مصر فقط .

وانقطع في زمن بني عثمان من طريق الشام سنين في زمن الشيخ علوان الحموي .

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة : انفرد المصريون بالحج ، ولم يحج أحدٌ من بغداد وبلاد الشرق ؛ لَعَبَثِ الأعراب بالفساد ، وكذا في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة .

وفي سنة سبع وتسعين : انفرد المصريون بالحج ، ولم يحج أهل العراق ؛ لفساد الطريق بالأعراب .

وفي سنة سبع وأربع مئة : انفرد المصريون أيضاً ، ولم يحج أحدٌ سواهم ، وكذا في سنة ثمان وأربع مئة .

وفي سبع عشرة وأربع مئة : انفرد المصريون أيضاً بالحج ، ولم يحج غيرهم .

وفي سنة ثمان عشرة وأربع مئة : لم يحج أحدٌ لا من المشرق ولا من مصر وغيرها ، إلا طائفةٌ من خراسان حجوا من البحر .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة : تعطل الحج من الأقاليم بأسرها ، ومن السنة التي بعدها إلىٰ سنة أربعين وأربع مئة لم يحج أحدٌ غير أهل مصر . ذكر هـٰذا كله السيوطي في « حسن المحاضرة » .

وذكر الحافظ ابن حجر في « إنباء الغمر » : أن في السنة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة بعد الثمان مئة ، لم يحج أحدٌ من طريق الشام ، وذلك بعد أن طرق تيمور الشام ، وعاث فيها .

أما رفع الحجر : ففي خلافة المقتدر ، وذلك أن المقتدر سير الحجَّاج مع منصور الديلي إلىٰ مكة سالمين ، فوافاهم يوم التروية عدو الله أبو طاهر القرمطي ، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً ، وطرح القتلىٰ في بئر زمزم ، وضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره ، ثم اقتلعه ، وأقام بها أحد عشر يوماً ، ثم رحلوا وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة ، ودُفِعَ لهم فيه خمسون ألف دينار ، فأبوا رَدَّهُ حتىٰ أُعيد في خلافة المطيع .

وقيل : إنهم لما أخذوه هلك تحته أربعون جملاً من مكة إلىٰ هَجَرْ ، فلما أُعيد حمل علىٰ قعود هزيل فسمن .

قال محمد بن الربيع بن سليمان : كنت بمكة سنة القرامطة ، فصعد رجلٌ لقلع الميزاب وأنا أراه ، فَعِيلَ صبري ، وقلت : ربي ما أَحْلَمكَ ! ! فسقط الرجل علىٰ دماغه فمات .

وصعد القرمطي المنبر وهو يقول :

أَنَا بِٱللهِ وَبِٱللهِ أَنَا   يَخْلُقُ ٱلْخَلْقَ وَأَفْنِيهِمْ أَنَا

ولم يفلح أبو طاهر القرمطي بعد ذلك ؛ تقطع جسده بالجدري .

وقال محمد بن نافع الخزاعي : تأملت الحجر وهو مقلوع ، فإذا السواد في رأسه فقط ، وسائره أبيض ، وطوله قدر عَظْمِ الذراع .

وأما هدم البيت كله ، وانقطاع الحج بالكلية فإنما يكون في آخر الزمان والعياذ بالله .

وكذلك رفع القرآن ، وسيأتي في القسم الثالث إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : رضخ رؤوس أقوامٍ بكواكب من السماء :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لا تقوم الساعة حتىٰ تُرضَخَ رؤوس أقوام بكواكب من السماء باستحلالهم عمل قوم لوط » رواه الديلمي .

وفي سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة : انقض كوكبٌ عظيم ، سُمِعَ لانقضاضه صوتٌ هائل ، واهتزت الدور والأماكن ، فاستغاث الناس ، وأعلنوا بالدعاء ، وظنوا أنه من أمارات القيامة .

وفي سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين : ماجت النجوم في السماء ، وتناثرت الكواكب كالجراد أكثر الليل ، وكان أمراً مُزعجاً لم يُعْهد مثله .

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة في خلافة الراضي في ذي القعدة : انقضّت النجوم سائر الليل انقضاضاً عَظيماً ما رُئي مثله ، وقد وقع بعد ذلك كثيراً أن النجوم والشهب انقضّت وقتلت ناساً .

ومنها : ظهور كوكب له ذنب :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا سلمان ؛ إذا كان حج الملوك تَنزُّهاً ، والأغنياء للتجارة ، والمساكين للمسألة ، والقراء رياءً وسمعة فعند ذلك يظهر نجم له ذنب » رواه ابن مردويه .

وهٰذا الكوكب قد ظهر[1] مرات ، آخرها في سنة خمس وسبعين وألف في شهر جمادى الآخرة ، بقي شهراً أو أكثر ، وكان يسير سيراً أسرع من القمر .

فائِـدَة

جاء من بلاد النصارىٰ إلىٰ بلاد بني عثمان في سنة سبع وسبعين وألف في شهر جمادى الأولىٰ وأنا إذ ذاك بأدرنة كتابٌ منقوشٌ فيه صورة حيوان ، طوله عشرون ذراعاً ، وسمكه خمسة أذرع ، جسده جسد السمكة ، له أربع قوائم ، في يديه خمس أصابع كأصابع الأسد ، وفي رجليه حافرٌ مثل حافر الفرس ، ورأسه رأس الثور ، له أربعة قرون ، اثنان بين عينيه أسودان ، واثنان أصغران بين أذنيه الآخرين واغربَ كلُّ اثنين إلى جهة الآخرين ، وعلىٰ فكه الأسفل أربعة كذلك ، وله ذنب السمكة ، وعلىٰ كفله متصلاً مخلوقٌ نصف إنسان عريان له أربع أيدي ، في كل واحدة خمس أصابع ، وله ذؤابتان سوداوان ، ولحيةٌ ، وثديان كثديي المرأة .

ومضمون الكتاب : أنَّ هٰذا الحيوان صار في جبال الإفرنج حين ظهر هٰذا النجم في سنة خمس وسبعين ، وأنه ظهر علىٰ جسده مثل النجم المذكور ، وهلك بِنَفَسِهِ خلقٌ كثير من دواب الأرض ، وأنهم رموه بالمجانيق فلم تؤثر فيه ، وأهلك منهم اثنين وثلاثين ألف آدمي ، ثم بَعُدَ مُدةً عنه ذلك الكوكب الذي ندي عليه ، فرموه بالمنجنيق فقتلوه ، وكتبوا بذلك إلى البلدان ، والله علىٰ كل شيء قدير .

---

(١) وقد ظهر بعد ذلك أيضاً مرات ، وقد ظهر في هٰذا الشهر المحرم سنة (١٣٦٨هـ) منذ أيام ، يظهر كل يوم في آخر الليل ، وتكلم المجدد السرهندي رحمه الله في « مكاتيبه » (٢/١١٨) في المكتوب الثامن والستين كلاماً مبسوطاً (ز) .

ومنها : كثرة الموت :

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعدد بين يدي الساعة ستاً : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مُوْتانا كَقُعاص الغنم. . . » الحديث . رواه البخاري ، وابن ماجه ، والحاكم في « المستدرك » .

و(المُوتان) ؛ بضم الميم ، وإسكان الواو ، علىٰ وزن بُطلان : الموت الكثير الوقوع . قاله في « النهاية » .

و(قُعاص الغنم) ؛ بضم القاف ، وبالعين والصاد المهملتين ، بينهما ألف : داءٌ يأخذ الغنم فلا تلبث أن تموت ، ومنه : ضربه فأقعصه ؛ أي : مات مكانه .

وهـٰذا وقع في زمن عمر رضي الله عنه في طاعون عمواس ، وبعد ذلك في طاعون الجارف ، وفي الطواعين والوباءات الواقعة في أقطار الأرض .

ذكر الحافظ السيوطي في كتاب « ما رواه الواعون في أخبار الطاعون » ما لفظه : سرد الطواعين الواقعة في الإسلام .

قال ابن أبي حجلة في تأليفه في « الطاعون » :

أول طَاعونٍ وقع في الإسلام علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم سنة ست من الهجرة بالمدائن ، **ويُعْرفُ بطاعون شيرويه** فيما حكاه المدائني ، ولم أعلم كم مات فيه فأحكيه .

قُلْتُ : ولم يمت فيه أحدٌ من المسلمين .

وقد أخرج ابن عساكر في « تاريخ دمشق » من طريق حماد بن زيد ، عن أيوب قال : قال محمد : لم يكن طاعون أشد من ثلاثة طواعين : طاعون ازدجرد ، وطاعون عمواس ، وطاعون الجارف .

وقال المدائني : كانت الطواعين العظام المشهورة في الإسلام خمسة : طاعون شيرويه بالمدائن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم طاعون عمواس ، ثم طاعون الجارف ، ثم طاعون الفتيات ، ثم طاعون الأشراف . انتهىٰ

الثاني : **طاعون عَمواس** ؛ بفتح العين المهملة ، وسكون الميم ، وقد تحرك ، وتخفيف الواو وآخره سين مهملة : اسم موضع بالشام .

وكان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة سبع عشرة ، وقيل : ثمان عشرة ، ومات فيه من جيش المسلمين خمسة وعشرون ألفاً ، وقيل : ثلاثون ألفاً ، وقيل : سُمِّي طاعون عَمواس ؛ لأنه لم يقع في شيء من المواضع سوىٰ ما وقع فيه ، حكاه الحافظ عبد الغني المقدسي .

وذكر سيف بن عمر ، عن شيوخه قالوا : لما كان طاعون عَمواس وقع مرتين لم ير مثلهما ، وطال مكثه ، وذلك أنه وقع بالشام في المحرم وصفر ثم ارتفع ، ثم عاد ، وفني فيه خلقٌ كثير من الناس حتىٰ طمع العدو ، وتخوفت قلوب المسلمين لذلك .

قال سيف : وأصاب أهل البصرة أيضاً تلك السنة طاعون ، فمات بشرٌ كثير ، وجمٌّ غفير .

في « مرآة الزمان » : لما كان سنة ثمان عشرة أصاب جماعة من المسلمين بالشام الشراب ، فجلدهم أبو عبيدة بأمر عمر رضي الله عنه ، وقال رضي الله عنه عند ذلك : ليحدثن في هـٰذا العام حادث . فوقع الطاعون .

وقال هشام : إنما حدث الطاعون بالشام ؛ لأجل هـٰؤلاء الذين شربوا الخمر .

وممن مات في طاعون عَمواس من مشاهير الصحابة : أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وشرحبيل بن حسنة ، والفضل بن العباس ؛ وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو مالك الأشعري ، ويزيد بن أبي سفيان ؛ أخو معاوية ، والحارث بن هشام ؛ أخو أبي جهل ـ وأبو جندل الذي جاء يوم الحديبية يَرسُفُ في قيوده ، وسهيل بن عمرو الذي قام بمكة يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم فَثَبّتَ الناس ، وهو والد أبي جندل .

ومما قيل في طاعون عَمواس من الشعر : قول امرىء القيس ؛ حشيش الكندي ، أورده أبو حذيفة البخاري في كتاب « المبتدأ » ، وابن عساكر في « تاريخه » .

رُبَّ حرفٍ مِثْلَ ٱلْهِلاَلِ وَبَيْضَا ء حصان بالجزع من عمواس

قَـدْ لَقُـوا ٱللهَ غَيْـرَ بَـاغٍ عَلَيْهِـمْ ثُـمَّ أَضْحَـوْا فِـي غَيْـرِ دَارِ ٱلتَّنَـاسِـي
فَصبـرنـا لَهُـمْ كَمَـا عَلِـم ٱللهُ وَكُنَّـا فِـي ٱلْمَـوْتِ أَهْـلَ تَـآسِـي

وقال سيف عن شيوخه : خرج الحارث بن هشام في سبعين من أهله إلىٰ مرتفع الشام فلم يرجع منها إلا أربعة ، فقال المهاجر بن خالد في ذلك :

مَـنْ يَسْكُـنِ ٱلشَّـامَ يُقَـدِّسْ بِـهِ وَٱلشَّـأم إِنْ لَـمْ يَـأْتِنَـا كَـارِبُ
أَفْنَـىٰ بَنِـي ريطـة فُـرْسَـانُهُـمْ عِشْـرُونَ لَـمْ يُقْصَـصْ لَهُـمْ شَـارِبُ
وَمِـنْ بَنِـي أَعْمَـامِهِـمْ مِثْلُهُـمْ لِمِثْـلِ هَـٰذَا يَعْجَـبُ ٱلْعَـاجِـبُ
طَعْنَـاً وَطَـاعُـونـاً مَنَـايَـاهُـم ذَلِـكَ مَـا خَـطَّ لَنَـا ٱلْكَـاتِـبُ

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير : عَمواس : بُليدةٌ صَغِيرةٌ بين القدس والرملة ، كان الطاعون أول ما نجم بها ، ثم انتشر بالشام منها فَنُسب إليها .

وقال البيهقي في « دلائل النبوة » : باب ما جاء في إِخْبارِ النبي صلى الله عليه وسلم بالطاعون الذي وقع بالشام في أصحابه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثم أخرج عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في خِبَاءٍ من أَدَمٍ ، فقال : « يا عوف ؛ احفظ خِلالاً سِتّاً بين يدي الساعة : إحداهن موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مُوتان يظهر فيكم ، يستشهد الله به ذراريكم وأنفسكم ، ويزكي به أعمالكم ، ثم استفاضة المال بينكم » . . . الحديث .

وأخرج الحاكم عن عوف بن مالك ؛ أنه قال في طاعون عَمواس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اعدد سِتّاً بين يدي الساعة » . قال : فقد وقع منهن ثلاث . يعني : موته ، وفتح بيت المقدس ، والطاعون . قال : وبقي ثلاث . فقال معاذ : إن لها أمداً .

ثم وقع الطاعون بالكوفة سنة تسع وأربعين ، فخرج المغيرة بن شعبة منها فارّاً . فلما ارتفع الطاعون رجع إليها فأصابه الطاعون ، فمات في سنة خمسين . ذكره ابن كثير في « تاريخه » .

ثم وقع في سنة ثلاث وخمسين ، ومات فيها زياد . ذكره في « مرآة الزمان » .

وقال ابن كثير : في سنة ثلاث وخمسين في رمضان توفي زياد بن أبي سفيان ، ـ ويقال له : زياد ابن أبيه ، وزياد بن سُمّية ؛ وهي : أمه ـ مطعوناً .

وكان سبب ذلك : أنه كتب إلىٰ معاوية رضي الله عنه يقول له : إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة . وهو يُعَرِّضُ له أن يستنيبه علىٰ بلاد الحجاز أيضاً ، فلما بلغ أهل الحجاز جاؤوا إلىٰ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فشكوا إليه ذلك ، وخافوا أن يلي عليهم زياد فَيَعسِفهم كما عَسَفَ أهل العراق ، فقام ابن عمر رضي الله عنهما فاستقبل القبلة ، فدعا علىٰ زياد والناس يُؤمِنون ، فَطُعِنَ زياد بالعراق في يده .

فضاق ذرعاً بذلك ؛ واستشار شُريحاً القاضي في قطع يده ، فقال له شريح : إني لا أرىٰ لك ذلك ؛ فإنه إن لم يكن في الأجل فُسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفاً من لقائه ، وإن كان لك أجلٌ بقيت في الناس أجذم فيعير وَلَدُكَ بذلك ، فصرفه عن ذلك .

وَيُقال : إن زياداً جعل يقول : أنام أنا والطاعون في فراشٍ واحد ؟!!

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن عبد الرحمـٰن بن السائب الأنصاري قال : جمع زياد أهل الكوفة ، فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ؛ ليحرضهم على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال عبد الرحمن : فإني لمع نَفَرٍ من أصحابي من الأنصار والناس في أمرٍ عظيم ، فَهُوِّمْتُ تَهْويمة ، فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق مثل عنق البعير ، أهدب أهدل ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلىٰ صاحب هـٰذا القصر . فاستيقظت فزعاً ، فقلت لأصحابي : هل رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : لا . فأخبرتهم . وخرج علينا خَارجٌ من القصر فقال : إن الأمير يقول لكم : انصرفوا عني ؛ فإني عنكم مشغول . وإذا الطاعون قد أصابه .

ثم وقع بالبصرة **طاعون الجارف** :

وسُمِّي بذلك ؛ لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض فيأخذ معظمها ، واخْتُلِفَ في سنته . فقيل : وقع في سنة أربع وستين ، وجزم به ابن الجوزي في « المنتظم » ، وقيل : كان في شوال سنة تسع وستين .

قال ابن كثير : وهـٰذا هو المشهور الذي ذكره شيخنا الذهبي وغيره ، وقيل : سنة سبعين ، وقيل : سنة ست وسبعين ، وقيل : سنة ثمانين .

قال ابن كثير : حكاه ابن جرير عن الواقدي ، ومات فيه لأنس بن مالك رضي الله عنه ثلاثة وثمانون ولداً ، ولأبي بكرة رضي الله عنه أربعون ولداً .

قال ابن كثير : كان ثلاثة أيام ، مات في أول يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفاً ، وفي اليوم الثاني منه واحدٌ وسبعون ألفاً ، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفاً . وأصبح الناس في اليوم الرابع موتىٰ إلا القليل من آحاد الناس ، حتىٰ ذُكِر أن أُم الأمير بها ماتت ، فلم يجد من يحملها .

وقال صاحب « المرآة » : مات فيه أهل الشام إلا اليسير .

وقال الحافظ أبو نُعيم الأصفهاني : حدثنا عبيد الله ، حدثنا أحمد بن عصام ، حدثني معدي ، عن رجل يُكنىٰ أبا الفضل وكان قد أدرك زمن الطاعون ، قال : كُنا نطوف في القبائل وندفن الموتىٰ ، فلما كثروا لم نقدر على الدفن ، فكنا ندخل الدار وقد مات أهلها فَنسد بابها .

فدخلنا داراً نُفَتشها فلم نجد فيها أحداً حيّاً ، فسددناها ، فلما مضت الطواعين كُنا نَطوفُ فَننزعُ تلك السُّدَد عن الأبواب ، ففتحنا سُدةَ الباب التي كنا قد فتشناها ، فإذا نحن بغلام في وسط الدار طَريٌ دهين ، كأنما أُخِذ ساعتئذ من حِجر أمه .

قال : فنحن وقوفٌ على الغلام نتعجب منه ، فدخلت كلبةٌ من شق الحائط ، فجعلت تلوذُ بالغلام ، والغلام يحبو إليها حتىٰ مص من لبنها .

قال معدي : وأنا رأيت ذلك الغلام في مسجد البصرة قد قبض علىٰ لحيته .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب « الاعتبار » : حدثني يحيىٰ بن عبد الله الخثعمي ، عن محمد بن سلام الجُمحي قال : زعم يحيىٰ أنه لما وقع الطاعون الجارف بالبصرة ، وذهب الناس فيه ، وعجزوا عن موتاهم ، وكانت السباع تدخل البيوت فتصيب من الموتىٰ ، وذلك سنة سبعين أيام مُصعب ، وكان يموت في اليوم سبعون ألفاً فبقيت جاريةٌ من بني عجل ومات أهلها جميعاً ، فَسَمِعت عواء الذئب فقالت :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلذِّئْبُ ٱلْمُنَادِي بِسَحْرَةٍ هَلُمَّ أُنَبِّئْكَ ٱلَّذِي قَدْ بَدَا لِيَا
بَدَا لِي أَنِّي قَدْ يَتُمْتُ وَأَنَّنِي بَقِيَّةُ قَوْمٍ أَوْرَثُونِي ٱلْمَبَاكِيَا
وَلاَ ضَيْرَ أَنِّي سَوْفَ أَتْبَعُ مَنْ مَضَىٰ وَيَتْبَعُنِي مِنْ بَعْدِي مَنْ كَانَ تَالِيَا

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني الفضل بن جعفر ، حدثنا أحمد بن محمد البجلي ، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي قال : نزل بنا حَيٌّ من العرب فأصابهم الطاعون ، فماتوا وبقيت جويرية مريضة ، فلما أفاقت جعلت تسأل عن أبيها وأمها وأختها ، فيقال : مات ، ماتت ، ماتت . فرفعت يدها وقالت :

وَلَوْلاَ ٱلأَسَىٰ مَا عِشْتُ فِي النَّاسِ سَاعَةً وَلَٰكِنْ مَتَىٰ نَادَيْتُ جَاوَبَنِي مِثْلِي

قال الحافظ ابن حجر : وكان بمصر سنة ست وستين طاعون ، ثم في سنة وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين ، وقيل : سنة اثنتين ، وقيل : سنة أربع ، وقيل : سنة ست ، وكان بالشام طاعون سنة تسع وسبعين ، ذكره ابن جرير وغيره .

ثم وقع بالبصرة **طاعون الفتيات** سنة سبع وثمانين .

وسمي بذلك ؛ لكثرة من مات فيها من النساء الشَّوابِ والعذارىٰ .

قال ابن أبي الدنيا في « الاعتبار » : حدثني محمد بن علي بن عثام الكلابي قال : سمعت حامد بن عمر بن حفص البكراوي قال : حدثني أبو بحر البكراوي ، عن أمه ؛ قالت : خرجنا هاربين من طاعون الفتيات ، فنزلنا قريباً من سنام ، قالت : وجاء رجلٌ من العرب معه بنون له عشرة ، فنزل قريباً منا ، فلم يمض إلا أيام حتىٰ مات بنوه أجمعون ، وكان يجلس بين قبورهم فيقول :

بِنَفْسِي فِتْيَةٌ هَلَكُوا جَمِيعاً بِرَابِيَةٍ مُجَاوِرَةٍ سَنَامَا
أَقُولُ إِذَا ذَكَرْتُ ٱلْعَهْدَ مِنْهُمْ بِنَفْسِي تِلْكَ أَصْدَاءٌ وَهَامَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعاً وَلَمْ أَرَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْعَامِ عَامَا

قالت : وكان يُبْكِي من سمعه .

ثم **طاعون الأشراف** : وقع والحجاج بواسط حتىٰ قيل فيه : لا يكون الطاعون والحجاج في بلد واحد . سُمي بذلك ؛ لكثرة من مات فيها من أشراف الناس .

ثم وقع بالشام طاعون ، مات فيه ولي العهد أيوب بن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

أخرج ابن أبي الدنيا في « الاعتبار »من طريق عبد الله بن المبارك ، عن أبي كنانة ، قال : أخبرني يزيد بن المهلب قال : حملت حملين مِسكاً من خُراسان إلىٰ سليمان بن عبد الملك ، فانتهيت إلىٰ باب ابنه أيوب ؛ وهو ولي العهد ، فدخلت عليه ؛ فإذا دارٌ مجصصةٌ حيطانها وسقوفها خضر ، وإذا وصِيف ووصائف عليهم حُلل خُضر وحليٌّ من الزمرد ، فوضعت الحملين بين يدي أيوب وهو قاعدٌ علىٰ سريره ، فانتهب المسك من بين يديه ، ثم عُدت بعد أحد عشر يوماً ، فإذا أيوب وجميع من معه في داره قد ماتوا بعد إصابتهم بالطاعون .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن حاتم بن عطارد قال : حدثني أبو الأبطال قال : بُعثت إلىٰ سليمان بن عبد الملك ومعي ستة أحمال مسك ، فمررت بدار أيوب بن سليمان فَأُدْخِلْتُ عليه ، فمررت بدارٍ بيضاء ، وما فيها من الثياب والنجد بياض ، ثم أُدْخِلْتُ منها إلىٰ دار أخرىٰ صفراء ، وما فيها كذلك ، ثم أدخلت منها إلىٰ دار حمراء ، وما فيها كذلك ، ثم أدخلت منها إلىٰ دارٍ خضراء ، وما فيها كذلك ، فإذا أنا بأيوب علىٰ سرير ، ولحقني من كان في تلك الدور ، فانتهبوا ما معي من المسك ، ثم مررت بدار أيوب بعد سبعة عشر يوماً ، فإذا الدار بَلاقع . فقلت : ما هـٰذا ؟ قالوا : طاعون أصابهم .

قال ابن أبي الدنيا : كان أيوب ولي عهد أبيه من بعده ، قد رشحه للخلافة ، فأصابه الطاعون ، فمات في حياة أبيه ، وكانت وفاته في سنة ثمان وتسعين .

وقال الحافظ ابن حجر : وقع بالشام **طاعون عدي بن أرطاة** سنة مئة .

قُلْتُ : وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز .

وأخرج ابن سعد ، عن أرطاة بن المنذر ، قال : كان عند عمر بن عبد العزيز نَفَرٌ يسألونه أن يَتحفّظَ في طعامه ، ويسألونه أن يكون له حَرسٌ إذا صلىٰ ؛ لئلا يثور ثائرٌ فيقتله، ويسألونه أن يتنحىٰ عن الطاعون، ويخبرونه أنَّ الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك.

قال لهم عمر : فأين هم ؟ فلما أكثروا عليه قال : اللهم ؛ إن كُنتَ تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة ، فلا تُؤمِّن خَوفي .

وأخرج محمد بن خلف المعروف بوكيع في كتاب « الغُرَر من الأخبار » عن أبي الزناد قال : قال عبد الله بن حسن بن حسن : كنت عند عمر بن عبد العزيز فوقع طاعون بالشام ، فقال : ارحل ؛ فإنك لن تَغْنَم أهلك مثل نفسك ، فقضىٰ حوائجي ، وأتبعني إياها .

قال الحافظ ابن حجر : ثم وقع أيضاً بالشام في سنة سبع ومئة ، ثم سنة خمس عشرة ، وكذا في « تاريخ » ابن كثير .

وفي « المرآة » : وقع في سنة ست عشرة طاعون شديد بالشام والعراق ، وكان أعظم ذلك في واسط . ذكره ابن كثير أيضاً .

ثم وقع بالبصرة **طاعون غُراب** ؛ وهو رجل مات فيه سنة سبع وعشرين ومئة .

ثم وقع بالبصرة **طاعون مسلم بن قتيبة** في رجب وشعبان ورمضان سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة ، ثم خَفّ في شوال ، وبلغ في كل يوم ألف جنازة .

قال ابن سعد : وتوفي فيه إسحاق بن سويد العدوي ، وفرقد بن يعقوب السَّبخي ، وأيوب السَّختياني .

قال ابن سعد : وأخبرنا علي بن عبد الله ؛ حدثنا سفيان قال : سمعت داود بن أبي هند يقول : أصابني الطاعون فَأُغمي عَليَّ ، فكأن اثنين أتياني فغمز أحدهما عكوة لساني ، وغمز الآخر أخمص قَدميّ ، فقال : أي شيء تجد ؟ . قال : تسبيحاً وتكبيراً ، وشيئاً من خطوة إلى المسجد ، وشيئاً من قراءة القرآن . قال : ولم أكن أخذت القرآن يومئذ . قال : فكنت أذهب في الحاجة فأقول : لو ذكرتُ الله حتىٰ آتي حاجتي . قال : فعوفيت ، فأقبلت على القرآن فَتعلّمتهُ .

هـٰذا كله في الدولة الأموية ، بل نقل بعض المؤرخين أن الطواعين في زمن بني أمية كانت لا تنقطع بالشام ، حتىٰ كان خلفاء بني أمية إذا جاء زمن الطاعون يخرجون إلى الصحراء ، ومن ثم اتخذ هشام بن عبد الملك الرُّصافة منزلاً .

ثم خَفَّ ذلك في الدولة العباسية ، فيقال : إن بعض أمرائهم خطب بالشام ، فقال : احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ وُلِّينَا عليكم ، فقام بعض من له جراءةٌ ، فقال : الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون ، فقتله .

وأخرج ذلك ابن عساكر في « تاريخه » ، وَسمّى الذي قال : جَعوَنة بن الحارث .

وأخرج ابن عساكر عن الأصمعي قال : لقي المنصور أعرابياً بالشام ، فقال : احمد الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت ، قال : إن الله لم يجمع علينا حَشفاً وَسُوء كَيل ؛ ولايتكم والطاعون .

ثم كان في سنة أربع وثلاثين بالري ، ثم في سنة ست وأربعين ببغداد ، ثم في سنة إحدىٰ وعشرين ومئتين بالبصرة .

قُلْتُ : كذا ذكره الحافظ ابن حجر والمؤرخون قبله ، فكان بين هـٰذين الطاعونين خمس وسبعون سنة ، وفي هـٰذه المدة كان مولد الإمام الشافعي رضي الله عنه ووفاته ، فلم يقع في حياته طاعون .

وبذلك يُعْرف أن قوله السابق : (لم أر للوباء أنفع من البنفسج) لم يُرِد به الطاعون ؛ لأنَّ الوباء غير الطاعون ، كما تَقدّم الفرق بينهما ، ويحتمل أنه أراد الطاعون ، والمراد : الذي نَصَل صاحبه وقام واحتاج إلىٰ علاجه ، فَيدّهِنُ به كما يستعمل الناس الآن في علاجه الدهان بزبد اللبن البقري ودهن اللوز .

وظن طائفةٌ من الناس أنَّ مراد الإمام : أنَّ الادهان بدُهن البنفسج يمنع الطاعون من أصله ، وليس كما ظنوه ، والله أعلم .

ثم في سنة تسع وأربعين ومئتين بالعراق .

ثم في سنة ثمان ومئتين بأذربيجان وبرذعة ، فمات لمحمد بن أبي الساج ثمانون ولداً . ذكره صاحب « المرآة » .

ثم في سنة تسع وتسعين ومئتين بأرض فارس .

ثم في سنة إحدىٰ وثلاث مئة ببغداد .

ثم في سنة أربع وعشرين وثلاث مئة بأصبهان .

ثم في سنة ست وأربعين وثلاث مئة بالعراق ، وكثر فيه موت الفَجأة ، حتىٰ إن القاضي لبس ثيابه ليخرج إلى الحُكْم ، فمات وهو يلبس إحدىٰ خفيه .

تَـذْنيبٌ

رأيت في كتاب « نِشْوار المحاضرة » للتنوخي أن موت الفجأة وقع للناس في كل حال ، منهم من مات وهو يُصلي ، ومنهم من مات وهو يأكل ، ومنهم من مات وهو يمشي ، ومنهم من مات بالجامع ، ومنهم من مات في الحمام .

وفي جميع الأحوال إلاَّ حالة واحدة وهي الخطبة ، فلم يُنقل قط أن خطيباً مات فجأة علىٰ منبر .

ثم وقع في سنة أربع مئة بالبصرة .

ثم وقع في سنة ثلاث وعشرين وأربع مئة طاعونٌ عظيمٌ ببلاد الهند والعجم ، وبلاد الجبل وامتد إلىٰ بغداد ، وَفَنِيَ الناس ، ولم يشاهدوا مثله ، ومات بالموصل في هٰذه السنة أربعة آلاف صبي بالجدري .

ثم وقع بشيراز سنة خمس وعشرين وأربع مئة ، ووصل إلى البصرة وبغداد .

ثم في سنة تسع وثلاثين وأربع مئة بالموصل والجزيرة وبغداد ، بحيث صَلّى الجمعة بالبصرة أربع مئة نفس ، وكانوا أكثر من أربع مئة ألف .

ثم وقع سنة ثمان وأربعين بمصر والشام وبغداد .

ثم وقع بالعجم سنة تسع وأربعين .

ثم وقع بمصر سنة خمس وخمسين وأربع مئة ، ودام فيها عشرة أشهر .

ثم بدمشق سنة تسع وستين ، وكان أهلها نحو خمس مئة ألف ، فلم يبق منهم سوىٰ ثلاثة آلاف وخمس مئة .

ثم وقع في سنة ثمان وسبعين وأربع مئة بالعراق .

ثم في سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة بالحجاز واليمن .

ثم في سنة خمس وسبعين وخمس مئة ببغداد .

ثم في سنة تسع وأربعين وسبع مئة لم يُعهد نظيره في الدنيا ؛ فإنه طَبّق الأرض شرقاً وغرباً ، ودخل البلاد كلها حتىٰ دخل مكة المشرفة ، ووقع في الحيوانات أيضاً ، وعمل فيه ابن الوردي مقامةً مشهورة .

وقلت في ذلك :

فِــي عَــامِ تِسْعَــةٍ وَأَرْبَعِينَـا … مِــنْ بَعْــدِ سَبْــعِ مِئَــةٍ سِنِينَـا
قَــدْ دَهَــمَ ٱلْخَــلائِــقَ الطَّــاعُــوْنُ … وَمَــا أَرَادَ رَبُّنَــا يَكُــونُ
طَبَّــقَ ٱلأَرْضَ مَشْــرِقــاً وَمَغْــرِبــاً … أَوْسَــعَ طَعْنــاً فِــي ٱلْــوَرَىٰ وَمَضْــرِبَـا
أَهَــلَّ نِصْــفَ ٱلنَّــاسِ بَــلْ وَأَكْثَــرَا … وَأَدْخَــلَ ٱلْفَنَــاءَ فِــي أُمِّ ٱلْقُــرَىٰ
فِــيْ ٱلْحَيَــوَانِ قَــدْ بَــدَا تَــأْثِيــرُهُ … لَــمْ يُــرَ فِــي ٱلــدُّنْيَــا أَخُــو نَظِيــرُهُ
فِيــهِ مَقَــامَــةٌ عَــنِ ٱبْــنِ ٱلْــوَرْدِي … خُــذْ هَـٰـذِهِ عَــنِ ٱلسِّيُــوطِــي ٱلْفَــرْدِ
نَــاظِمُــهُ مُحَمَّــدُ ٱلْبَــرْزَنْجِــي … يَــرْجُــو ٱلنَّجَــاةَ وَٱلإِلَـٰـهُ ٱلْمُنْجِــي

وقال ابن أبي حَجَلة : مات فيه علىٰ جهة التقريب نصف العالم أو أكثر ، وبلغ الموت في القاهرة كل يوم زيادةً علىٰ عشرين ألفاً .

ثم وقع في سنة أربع وستين وسبع مئة بالقاهرة ودمشق .

ثم في سنة إحدىٰ وسبعين بدمشق .

ثم في سنة إحدىٰ وثمانين بالقاهرة .

ثم في سنة إحدىٰ وتسعين .

ثم في سنة ثلاث عشرة وثمان مئة .

ثم في سنة تسع عشرة .

ثم في سنة إحدىٰ وعشرين .

ثم في التي تليها .

ثم في سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة ، وهو أوسع هـٰذه الطواعين كلها .

ولم يقع بمصر بعد الطاعون العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبع مئة نظير هـٰذا .

ثم وقع في سنة إحدىٰ وأربعين بمصر ، وكان خفيفاً وأكثر ما بلغ في اليوم ألف نفس .

ثم وقع في سنة تسع وأربعين في ذي الحجة ، ودام إلىٰ ربيع الأول سنة خمسين .

ثم في سنة ثلاث وخمسين ، وبلغ في كل يوم خمسة آلاف .

ثم في سنة أربع وستين بمصر والشام .

ثم في سنة ثلاث وسبعين بهما .

ثم في سنة إحدىٰ وثمانين وثمان مئة .

ثم بالروم سنة ست وتسعين وثمان مئة ، ودخل حلب في افتتاح سنة سبع وتسعين .

ثم وصل إلىٰ مصر في شهر ربيع الآخر منها ، أحسن الله ختامها في خير .

هـٰذا كلام الحافظ السيوطي رحمه الله .

وقد وقع بعده أيضاً طواعين كثيرة يطول ذكرها .

ومنها : استباحة مكة :

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه حين خرج إلى الكوفة فنصحوه في الخروج قال : إن أبي حدثني أنه تُستحل حرمتها ، ولأن أُقتل خارجها بشبر أحب إلي من أن أُقتل داخلها . . . الحديث .

وهـٰذه وقعت في زمن يزيد كما مر ، وفي زمن عبد الملك حين أرسل الحجاج ، وقتل ابن الزبير رضي الله عنه ، وهدم البيت ، وفي زمن أبي طاهر القَرمطي كما مر أيضاً .

ووقع بعد ذلك مرات قُتِلُوا بها جماعة من الأشراف من بني حسن ، وسيقع قبيل خروج المهدي .

وآخر من يَستبيحُها ذو السَّويقتين من الحبشة ؛ فإنه يبيحها ويهدم البيت حجراً حجراً .

وهٰذان سيأتيان في الباب الثالث إن شاء الله تعالىٰ .

ومن راجع التواريخ ؛ كتاريخ مصر ، والشام ، وبغداد ، وغيرها ، ولا سيما تاريخ بغداد لابن الجوزي المسمىٰ بـ« المنتظم » وجد من ذلك شيئاً كثيراً لا يُعد ولا يُحصىٰ ، فلنكتف من هٰذا القسم بهٰذا المقدار ؛ فإنما المقصود التنبيه علىٰ وقوعه لا التحذير منه ؛ فإنه قد فات ، وإنما الحذر مما يأتي ، وبالله التوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

خَاتِــمَة

الفتن الواقعة بين الصحابة رضوان الله عليهم ، الحَقُّ في كلها مع أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ، وأنه المُصيب[1] دائماً وغيره المُخطىءُ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « عَليٌّ مع القرآن والقرآن معه » ، وقوله : « عَليٌّ يدور مع الحق حيث دار » ، وقوله : « يا عَلي ؛ تُقَاتِل علىٰ تأويل القرآن كما قَاتلتُ أنا علىٰ تنزيله » .

وقوله للزبير رضي الله عنه : « تُقَاتله وأنت له ظالم » ، وقوله : « ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما » ، وقوله : « عمار تقتله الفئة الباغية » .

وعمار كان معه ، وقتل في صفين ؛ قتله أصحاب معاوية رضي الله عنه .

ولقول حذيفة رضي الله عنه حين قال : سيكون قتال بين المسلمين . فسئل مع من نكون ؟ فقال : انظروا إلى الفئة التي تدعو إلىٰ أمر عليّ ، فكونوا معها ، فإنها على الحق .

وغير ذلك من الأحاديث .

---

(١) جزم ابن عابدين (٣/ ٣٣٨) بأنه كان مصيباً وغيره كان مخطئاً . (ز) .

وحينئذ **فنقول** : أما طلحة ، والزبير ، وعائشة رضي الله عنهم فهم مُجتهدون قطعاً ؛ لأنهم لم يطمعوا في الخلافة ، ولم يكونوا جَاهلين بفضل أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وعلمه وقرابته وسابقته ، وإنما حملهم علىٰ ذلك طلب دم عثمان رضي الله عنه لِمَا أَدّىٰ إليه اجتهادهم من وجوب قتلهم على الإمام ، وكان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ينتظر مُحاكمة الورثة إليه ، وإقامة البينة على القاتل .

وقد كان طلحة والزبير رضي الله عنهما من أهل بدر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه : « وما يُدريك لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟! » .

وقال لغلام حاطب حين شكاه إليه : يا رسول الله ؛ إن حاطباً يدخل النار ، قال : « كذبت ، لا يدخل النار ؛ إنه شهد بدراً والحديبية » ، ولأنهما من العشرة المبشرين بالجنة ، وبشارته صلى الله عليه وسلم حق ، ولأنهما رجعا عن الخروج وتابا .

أما الزبير رضي الله عنه : فحين ذَكّره عَليٌّ رضي الله عنه بالحديث ترك القتال ، وخرج من العسكرين .

وأما طلحة رضي الله عنه : فبعدما جُرح وأُثْخِنَ ، مرَّ به رَجلٌ من أصحاب عليٍّ رضي الله عنه فسأله : ممن أنت ؟ قال : من أصحاب عليٍّ . قال : مُدَّ يدك أبايعك عن عليٍّ . فلما سمع علي رضي الله عنه ذلك قال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أبى الله أن يَدخُل طلحة الجنة إلاَّ وبيعتي في عنقه . كما تقدم .

وقال : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ . وَأكرم ابن طلحة ، وَردّ عليه جميع ماله .

وأما عائشة رضي الله عنها : فإنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ؛ كما ثبت في « الصحيح » ، ولأنها أرادت الرجوع من الطريق حين سمعت كلاب حوأب نبحتها ، وتذكرت الحديث .

فقالوا : بل تَقدّمين ، لعل الله أن يُصلح بك ذات بين المسلمين ، فما قصدت إلاَّ الصُّلح لا الفساد . وإنما قَتلةُ عثمان رضي الله عنه أنشبوا الحرب خِيفةً علىٰ أنفسهم ،

ولأنها أُمُّ المؤمنين وَحَبيبةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلهم مأجورون ، إلا أن علياً له أجران ؛ أجر الاجتهاد ، وأجر الإصابة ، وغيره له أجر الاجتهاد فقط .

وأما معاوية رضي الله عنه : فهو وإن كان باغياً لم يدخل في البيعة ، بل كان طالباً للمُلك ، وإنما جعل طلب الدم وسيلة إلىٰ طاعة أهل الشام له ، وقد ظهر له بغيه بقتل عمار بن ياسر(١) رضي الله عنه ، فأخبروه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمار : « إنما تقتلك الفئة الباغية »(٢) ، ولأنه لما تَولّىٰ بعد نزول الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لم يَقتُل(٣) أحداً بدم عثمان رضي الله عنه ولا طالبه ، ولم يكن له سابقة ولا هجرة على الأصح ، فإنه من مُسلِمَةُ الفتح .

وقد قال عمر رضي الله عنه : إن هٰذا الأمر في أهل بدر والمهاجرين الأولين ما بقي منهم أحد ، وليس لطَليقٍ ولا لمُسلمة الفتح فيه نصيب .

لٰكنه لكونه صِهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتباً للوحي ، وله صحبة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا » ، وقال : « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي . . . » الحديث ينبغي الإمساكُ عن ذكره إلا بخير ، علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم قد أخبره بأنه يتَولّىٰ وقال : « يا معاوية ؛ إذا وُليتَ فأحسن » ، ودعا له فقال : « اللهم ؛ اجعله هادياً مهدياً ، واهد به » .

وقال أمير المؤمنين عَليٌّ رضي الله عنه : لا تكرهوا إمرة معاوية ، والله لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تنزل عن كواهلها كالحنظل .

وأما الحَرُورية : فلا حاجة إلى الاعتذار عنهم بعدما قال صلى الله عليه وسلم : « يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرمية » ، ونحوه من الأحاديث .

---

(١) لٰكن بعد ثبوت أنه قتله شيعته ، وقيل : قتلته الخوارج ؛ كما في العيني (٢/ ٣٩٣) . (ز) .

(٢) لٰكن للمخالف أن طلحة رضي الله عنه كان ممن قتله جماعة علي رضي الله عنه ، وكان ممن قضىٰ نحبه ؛ كما في الترمذي (٢/ ١٦٩) ، وبسطه في « الكوكب » (ج٢) ، والسيوطي في « الدر » (٥/ ١٩١) (ز) .

(٣) ذكر الحافظ في « تهذيبه » في ترجمة محمد بن أبي بكر : أنه قتله وجماعة كبيرة غيره في دم عثمان رضي الله عنه (ز) .

وأما يزيد[1] ، وبنو الحكم : فهم ملعونون علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذا قال أحمد ابن حنبل حين سأله ابنه عن لعن يزيد : كيف لا يُلعن من لعنه الله في كتابه ، فقال : قد قرأت كتاب الله ، فلم أر فيه لعن يزيد . فقال : إن الله يقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۞ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ ، وأي فساد وقطيعة رحم أَشدُّ مما فعله يزيد يا بني ؟!! .

نعم ؛ عمر بن عبد العزيز من الأئمة الراشدين ، والخلفاء المهتدين ، ويجب استثناؤه من بني أمية ؛ كما استثناه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إلا الصالحون منهم ، وَقليلٌ مَا هُمْ » ، بخلاف بقية بني أمية كما مر .

وكذلك من بعدهم ؛ من بني العباس ؛ وغيرهم ، فأكثرهم أو عامتهم ظَلَمةٌ فَسقةٌ ، وأحسن من فيهم المتوكل ؛ وهو كان في النَّصْب بحيث هدم قبر الحسين رضي الله عنه ، وجعله مزرعة ، ومنع الناس زيارته ، وقال في ذلك بعض الشعراء شعراً :

تَاللهِ إِنْ كَانَتْ أُمَيَّةُ قَدْ أَتَتْ قَتْلَ ٱبْنِ بِنْتِ نَبِيِّهَا مَظْلُومَا
فَلَقَدْ أَتَاهُ بَنُو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ هَـٰذَا لَعَمْرُكَ قَبْرُهُ مَهْدُومَا
أَسِفُوا عَلَىٰ أَنْ لاَ يَكُونُوا شَارَكُوا فِي قَتْلِهِ فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وَحكى ابن خلكان في ترجمة ابن السِّكِّيت : أنه كان جالساً يوماً مع المتوكل ، وكان يُؤَدِّبُ أولاده ، فجاء ولداه ؛ المعتز ، والمؤيد ، فقال : يا يعقوب ؛ أيما أحب إليك : ابناي هـٰذان ، أم الحسن والحسين ؟ فقال : والله إن قَنبر خادم علي بن أبي طالب خَيرٌ منك ومن ابنيك . فقال المتوكل للأتراك : سُلُّوا لسانه من قفاه . ففعلوا ، فمات ليلة الإثنين لخمس خلون من شهر رجب سنة أربع وأربعين ومئتين ، ثم أرسل المتوكل لولده عشرة آلاف درهم وقال : هـٰذا دية والدك . انتهىٰ

---

(١) أنكر الغزالي رحمه الله في « الإحياء » (٣/١٠٨) جواز لعنه . انظر : « شرح الإحياء » (٧/٤٨٨) ، و« حياة الحيوان » (٢/١٨٦) ، و« تهذيب التهذيب » (ج١٢) ، و« الشامي » (٢/٥٨٧) ، و« الفتاوى الرشيدية » (١/٣/٢٦) ، و« فتاوىٰ عبد الحي اللكنوي » (١/٣٦) و« شرح العقائد » (ص١١٧) . وتقدم أيضاً في « الإشاعة » (ص٦١) (ز) .

وهـٰذا إن صَحَّ فهو الغاية في التعصُّب ، ولعله لا يصح .

نعم ؛ كان المهتدي منهم زاهداً يتأسَّىٰ بعمر بن عبد العزيز في هديه ، لـٰكنه قُتِل بعد سَنةٍ ، ولم تَطُل مُدته .

هـٰذا ، وأما ما توسع فيه الرافضة من سَبِّ السلف الصالح حتى الصحابة الكرام ، سيما الشيخين فخروج من طريق العقل والنقل ، وضلال مُبين ، وإلحادٌ في الدِّين ، وتَجهيلٌ لجميع المسلمين حتىٰ علي رضي الله عنه أمير المؤمنين .

كلا ثم كلا ، بل هم خير أُمةٍ أُخرجت للناس بشهادة القرآن ، وشُهداء الله على الأمم يوم الحشر والميزان ، وهم أهل بَدرٍ وأُحُدٍ وبيعة الرضوان ، اختارهم الله لصُحبة نبيه صلى الله عليه وسلم من بين الأكوان ، لم تكن فيهم شائبة نفسانية ، ولا مَيلٌ إلى الباطل والعدوان .

وقد صح عن علي رضي الله عنه أنه قال : أبو بكر خَيرٌ من مؤمن آل فرعون ؛ إنه كان يَكتمُ إيمانه ، وأبو بكر كان يُظهر إيمانه ، ويدفع عن النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : أتقتلون رجُلاً أن يقول ربي الله .

وقال حين سأله ابنه محمد ابن الحنفية : مَنْ خير الناس ؟

قال : أبو بكر . قال : ثُمّ مَنْ ؟ قال : عمر . قال : ثُمّ أنت يا أبت ؟ قال : إنما أبوك رَجلٌ من المسلمين .

وقال : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصَلَّىٰ أبو بكر ، وَثلّث عمر ، ثم غشيتنا فِتنٌ ، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

وقوله : (صَلّىٰ أبو بكر) ؛ معناه : أنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإمامة أو في الفضل ؛ من قولهم : فرسٌ مُصَلٍّ : إذا كان ثانياً في ميدان السبق .

ويُؤيده حديث : « كنت أنا وأبو بكر كفرسي رِهان ، سبقته فآمن بي ، ولو سبقني لآمنت به » ، لـٰكن فيه مقال ، بل قيل بوضعه ، والله أعلم .

والأحاديث الواردة في فضلهما ، بل وفضل عثمان رضي الله عنهم وعن عليّ كرّم الله وجهه وأبرار أهل بيته ؛ تنوف عن مئتين ، فرحم الله امرأً عرف قدره ، وعرف

لهم حقهم ، فأحبهم بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهلك مع الهالكين ، والعياذ بالله تعالىٰ .

فائـدة

قد تُفهم الإشارةُ إلىٰ مدح الخلفاء الراشدين وأهل الشورىٰ ، وذم من بعدهم والباغين عليهم من الآيات التي في سورة الشورىٰ بعد قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ .

فقوله : ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إشارةٌ إلى الصديق رضي الله عنه .

أما إيمانه : فيشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : « لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم إيمان أبي بكر » .

وأما توكله : فيشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ، أبو بكر منهم » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يكوون ولا يكتوون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون » .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلىٰ عمر رضي الله عنه .

أما تركه للفواحش : فيشهد له حديث : « ما سَلكتَ فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجك » .

وأما مغفرته عند الغضب : فيدل له حديث عيينة بن حصن لما دخل عليه ، فقال : هيه يا بن الخطاب ؛ فوالله إنك لا تعطينا الجزل ، ولا تقسم فينا بالعدل . فغضب عمر رضي الله عنه حتىٰ همّ أن يُوقع به .

فقال ابن أخيه حُرُّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله تعالىٰ يقول : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ، وهـٰذا من الجاهلين . فوالله ما تعداها عمر حين سمعها ، وكان وَقافاً عند كتاب الله رضي الله عنه .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إشارةٌ إلىٰ أصحاب الشورىٰ ، ومنهم عثمان وعليّ رضي الله عنهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ عثمان وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالىٰ عنهما ، ونحوهما .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ عليّ كرّم الله وجهه ، وأن ما فعله من انتصاره علىٰ أهل البغي مما يُثَابُ ويُمدح عليه .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ إشارةٌ إلىٰ عفوه وكرمه . ومن ثَمّ نادىٰ يوم الجمل : أن لا يُتبع منهزمهم ، ولا يُجهز علىٰ جريحهم ، ولا تؤخذ أموالهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ إشارةٌ إلىٰ نُزولِ الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة ، وعفوه عن إساءة معاوية رضي الله عنه وأهل الشام ، وإصلاحه بين المسلمين ، وحقنه دماءهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ : إشارةٌ إلىٰ من ظلَم المذكورين وقتلَهم ، أو بغىٰ عليهم ؛ كقاتِل عمر وقتلَة عثمان وقاتِل علي رضي الله عنهم ، والخارجين عليه ؛ كالحرورية .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ إشارةٌ إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما وقيامه علىٰ يزيد ، وقتاله علىٰ حقه إلىٰ أن قتل هو وأهل بيته .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إشارةٌ إلىٰ يزيد ومن بعده من بني أمية وغيرهم ، والله أعلم برموز كتابه ، وأسرار خطابه .

تنبيه

ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الآيات بعد المئتين » ، وهـٰذا يحتمل بعد المئتين من الهجرة ، ويحتمل بعد المئتين بعد الألف .

ويُؤيد الأول : أن جميع أو أكثر الآيات المذكورة ؛ من الزلازل ، والرياح ، والرجفات ، ومطر الدم ، والحجارة ، وفتن الاعتزال ، والقرامطة ، والزنج ، وصياح الطير ، والصيحة من السماء ، والغرق ، والنار ، وغير ذلك مما مر مُفصلاً إنما وقعت

بعد المئتين في أواخر خلافة المأمون ، إلىٰ أن كَثُر في زمن المتوكل جداً ، وتوالىٰ .

ويَدُل له أيضاً حديث : « خياركم بعد المئتين كل خفيف الحاذ » ، وما رُوي مع ضَعفٍ : « لا يولد بعد المئتين مولود لله فيه حاجة » .

وعلىٰ هـٰذا ، فلا يتقيد ظُهور الآيات القريبة من الساعة بما بعد المئتين بعد الألف ، ولو سُلّم أن المراد هو الاحتمال الثاني ، وأنه المئتان بعد الألف فلا يلزم تأخر المهدي إلىٰ ذلك الوقت ؛ لجواز أن يخص الآيات ببعضها ؛ كالدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وهدم الكعبة ، ونحوها .

وعلىٰ كل تقدير : فظهور المهدي علىٰ رأس هـٰذه المئة محتمل احتمالاً قوياً ظاهراً ، وإن تأخر عنها فلا يتأخر عن المئة الثانية قطعاً[1] .

ونسأل الله تعالىٰ أن يُميتنا على الإيمان غير مفتونين ولا مُبدّلين .

وكل واحدةٍ من هـٰذه الفتن تحتمل مُجلداً ، بل تفصيلها يحتمل مجلدات ، وإنما اختصرنا وأشرنا إليها إشارةً ؛ لأنها غير مقصودة حيث مضت ، والمقصود ما نحن بصدده ، ولئلا يَمَل السامعون ، ولأن الوقت لا يَسعُ غير ذلك ؛ فإن الموسم قريب ، ولأن تفصيلها يُورث قسوة القلب والضَغائِن وما لا ينبغي ، والمهم ذكر ما يلين القلوب ويحزنها ويزجرها عن الغفلة .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد ، وآله وصحبه أجمعين .

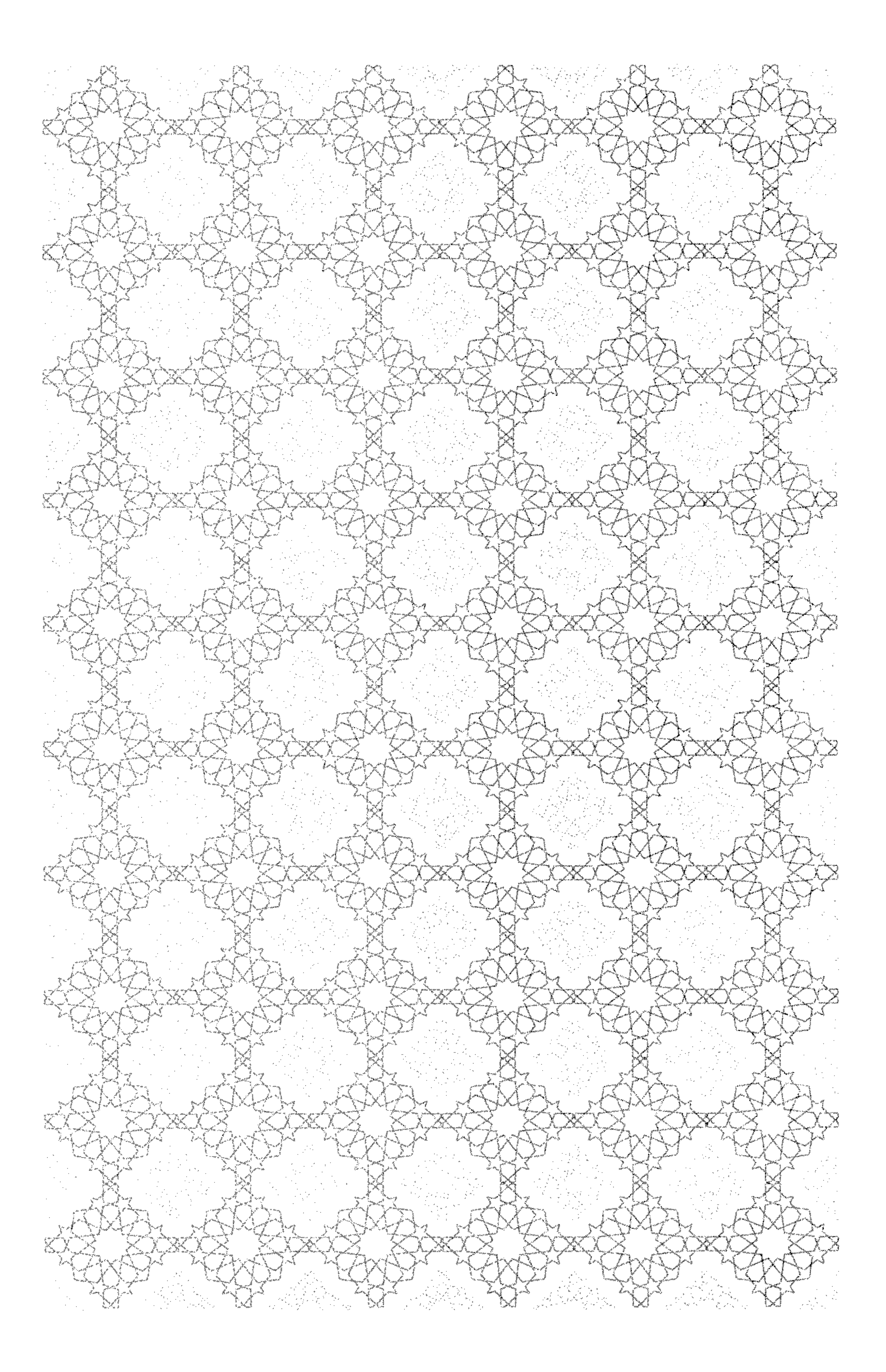
* * *

(١) سيأتي التعليق علىٰ هـٰذه المسألة لاحقاً في حاشية (ص ٣٤٤) .



البَابُ الثّاني

في الأَمَارَاتِ المتوَسّطةِ الّتي ظَهَرَتْ وَلَمْ تَنقَضِ



الباب الثاني
في الأمارات المتوسطة التي ظهرت ولم تنقض

بل تتزايد إلىٰ أن تتكامل وتتصل بالقسم الثالث ، ولنسرد أحاديثها اختصاراً .

فمنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكون أسعد الناس بالدنيا لُكع بن لُكع » رواه أحمد ، والترمذي ، والضياء عن حذيفة رضي الله عنه ، وابن مردويه عن علي كرّم الله وجهه .

اللُّكع : العبد ، أو الأحمق ، أو اللئيم ؛ أي : حتىٰ يكون اللئام أو الحمقاء أو العبيد رؤساء الناس .

ومنها : « يأتي على الناس زمانٌ الصابر علىٰ دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه ، كناية عن : عدم المُسَاعِد والمُعَاوِن على الدِّين .

ومنها : « يكون في آخر الزمان عُبادٌ جُهال ، وقراء فسقةٌ » رواه أبو نُعيم ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتباهى الناس في المساجد » رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حِبّان ، عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « من أشراط الساعة : الفُحش ، والتفحش ، وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين ، وائتمان الخائن » رواه الطبراني عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « من اقتراب الساعة : انتفاخ الأهلة ، وأن يُرى الهلال قَبَلاً ـ بفتحتين ؛ أي : ساعة ما يطلع ـ فيقال : لليلتين » رواه الطبراني عن ابن مسعود ، وأنس رضي الله عنهما .

ومنها : « أن تتخذ المساجد طرقاً ، وأن يظهر موت الفجأة » رواه الطبراني عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « من اقتراب الساعة : كثرة القَطر ـ أي : المطر ـ ، وقلة النبات ، وكثرة القراء ـ أي : العباد ـ ، وقلة الفقهاء ، وكثرة الأمراء ، وقلة الأمناء » رواه الطبراني عن عبد الرحمن بن عمرو الأنصاري .

ومنها : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقىٰ حُثَالةٌ كحثالة الشعير أو التمر » رواه أحمد ، والبخاري ، عن مرداس الأسلمي .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكون الزهد رِوايةٌ ، والورع تصنعاً » رواه أبو نعيم في « الحلية » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة وأشراطها أن يكون الولد غيظاً ، وأن يكون المطر قيظاً ، وأن يفيض الأشرار فيضاً » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

أي : يكون الولد غيظ أبيه وأمه ؛ أي : يعمل ما يغيظهما بعقوقه لهما ، ولا يكون طوعهما ، ويكون المطر في الصيف ؛ فلا يُنبت شيئاً .

وهـٰذا قريبٌ مما مر أنَّ من أشراطها : كثرة القطر ، وقلة النبات .

و(فيض الأشرار) : كثرتهم ؛ أي : يكثر الشرار كثرةً .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن يُصدّق الكاذب ، وأن يُكذّب الصادق » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه[1] .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن يؤتمن الخائن ، وأن يُخَوّن الأمين ، وأن يتواصل الأطباق ـ أي : الأباعد والأجانب ـ ، وتقطع الأرحام » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة وأشراطها : أن يَسُود كل قبيلة مُنافقوها ، وكل سُوقٍ فُجارها » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

---

(١) ذكره في « مجمع الزوائد » (٧ : ٣٢٣) مفصلاً (ز) .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن يكون المُؤمن في القبيلة أذل من النقد » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(النقد) : صِغار الغنم .

ومنها : « أن! من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن تزخرف المحاريب وأن تخرب القلوب » رواه الطبراني عنه .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن يكتفي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء » رواه الطبراني عنه .

وهو كناية عن : كثرة اللواط في الرجال ، وكثرة السِّحَاق في النساء .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن تكثف المساجد ، وأن تعلو المنابر » رواه الطبراني عنه .

و(المنابر) : يجوز أن يكون بالموحدة جمع مِنْبَر ، وأن يكون بالمثناة جمع مِنَارة ، وكلاهما واقع .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة وأشراطها : أن يُعمر خَرابُ الدنيا ، ويُخرب عِمرانها » رواه الطبراني عنه ، وابن عساكر عن محمد بن عطية السعدي .

أي : يُخرب البلدُ العامر ويبنىٰ بمحلٍّ آخر ، كما نقل مصر إلى القاهرة ، وكما نقل الكوفة إلىٰ نجف .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة ، وأشراطها : أن تظهر المعازف ، وتشرب الخمور » رواه الطبراني عنه .

المعازف ؛ بالعين المهملة ، والزاي المعجمة : جمع عزف .

قال في « النهاية » : وهي الدفوف وغيرها مما يضرب ، وقيل : كل لعب عزف .

ومنها : « أنَّ من أعلام الساعة وأشراطها : أن تكثر الشُّرط ، والهمازون ، والغمازون ، واللمازون ، وأن يكثر أولاد الزنا » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

و(الشُّرط) ؛ بضم المعجمة ، وفتح المهملة : هم أعوان السلطان .

قال السخاوي : وهم الآن أعوان الظلمة ، ويُطلق غالباً علىٰ أقبح جماعة الوالي ونحوه ، وربما توسع في إطلاقه علىٰ ظلمة الحُكام . انتهىٰ

و(الهمز) : الغيبة والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم ، وهمز يهمز فهو هَمّازٌ وَهُمَزة ؛ للمبالغة ، ومثله : اللَّمزُ ، فهو لَمازٌ ولُمَزة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

وقيل : اللَّمزُ : هو العيب في الوجه ، والهمز : العيب بالغيبة .

ومنها : « أنَّ بين يدي الساعة : تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتىٰ تُعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وفشو القلم ، وظهور الشهادة بالزور ، وكتمان شهادة الحق » رواه أحمد ، والبخاري ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

و(فشو القلم) كنايةٌ عن كثرة الكَتَبةِ وقلة العلماء ؛ يعني : يكتفون بتعلم الخط ؛ ليخالطوا الحكام .

ومنها : « إذا استحلّت هـٰذه الأمة الخمر بالنبيذ ـ أي : يشربونها ، ويسمونها النبيذ ، والنبيذ في المعنىٰ هو الخمر ؛ لأنها : كل مُسكر مائع ـ والربا بالبيع ـ أي : يتحيلون بإظهار الربا في صورة البيع ـ والسُّحت بالهدية ـ أي : يأكلون الرشوة والحرام الصرف ، ويسمونها : هدية ـ واتجروا بالزكاة ـ أي : يُعطون الزكاة لأجرائهم ، أو يتعاوضون بالزكاة ، فيعطي هـٰذا لهـٰذا ، وبالعكس ـ » .

ومنها : « إذا استغنىٰ النساء بالنساء ، والرجال بالرجال فبشرهم بريحٍ حمراء تخرج من قبل المشرق ، فيَمسخ بعضهم ، ويَخسف ببعض ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « إذا اتخذ الفيء دُولاً » رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قال في « الفائق » : الدُّول ؛ بضم الدال وفتحها : ما يدول الإنسان ـ أي : يدور ـ من الحظ .

وقال في « النهاية » : هو الدُّول ؛ بضم الدال وفتح الواو : جمع دُولة بالضم ، وهو ما يتداول من المال ، فيكون لقوم دون قوم .

ومعناه : إذا اختص الأغنياء وأصحاب المناصب بأموال الفيء ، ومنعوا عنها مُستحقيها .

ومنها : « أن تتخذ الأمانة مَغْنماً ، والزكاة مَغْرماً ، ويُتعلم لغير الدِّين » رواه الترمذي عنه .

ومعناه : أن يذهب المؤتمنون بأمانات الناس وودائعهم ويتخذونها مغانم كأنها غنيمة وقعت في أيديهم ، ويَعُد الناس الزكاة غرامة ؛ أي : يَشُق عليهم أداؤها كما يشق عليهم الغرامات .

ويتعلمون لغير الدين ؛ أي : يحملهم على التعلم غير الدين ؛ من طلب المقاصد الدنية الردية ، والمناصب الدنيوية .

ومنها : « إذا أطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه ، وأدنىٰ صديقه وأقصىٰ أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد » رواه الترمذي عنه .

ومعناه : يُقرب صديقه ويُكرمه ، ويُبعد أباه ويؤذيه ، ويكثُر اللغط في المساجد بحديث الدنيا ؛ كأنهم جالسون في ناديهم ، لا في مسجدهم .

ومنها : « إذا ساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وَأُكرِمَ الرجل مخافة شره » رواه الترمذي عنه .

يعني : يكون فاسق القوم كبيرهم وسيدهم ، و(الزعيم) من يتكفل بأمر القوم ويقوم به .

و(الرُّذّل) : الرديء من كل شيء ؛ أي : يقوم بأمرهم أردَؤُهم .

ومنها : « إذا ظهرت القِينَات ـ أي : المغنيات ـ والمعازف ، وشُربت الخمور ، ولعن آخر هـٰذه الأمة أولها » رواه الترمذي عنه .

وقد ظهر لعن آخر هَـٰذه الأمة أولها في الرافضة قبَّحهم الله تعالىٰ .

ومنها : « إذا اقترب الزمان كثُر لُبس الطيالسة ، وكثرت التجارة ، وكثر المال ، وعُظِّم رب المال لماله ، وكثرت الشُّرط ، وكانت إمارة الصبيان ، وكثرت النساء ، وجار السلطان ، وطففت المكيال والميزان » رواه الطبراني ، والحاكم ، عن أبي ذر رضي الله عنه .

والتطفيف : هو نقص الكيل والوزن والذرع ، وهو من الكبائر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ؛ أي : اشتروا منهم ﴿ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ ؛ أي : باعوهم ﴿ يُخْسِرُونَ﴾ .

ومنها : « أن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل ، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب ، فيتفرقون ، فيقول الرجل منهم : سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث » رواه مُسلم في مقدمة « صحيحه » عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : « أن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً » رواه مسلم عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

ومنها : « إذا اقترب الزمان يُربّي الرجل جرواً ـ أي : ولد الكلب ـ خيرٌ له من أن يربي ولداً له ، ولا يوقر كبير ، ولا يرحم صغير ، ويكثر أولاد الزنا حتىٰ أن الرجل ليغشى المرأة ـ أي : يزني بها ـ علىٰ قارعة الطريق ، يلبسون جلود الضأن علىٰ قلوب الذئاب ، أمثلهم في ذلك الزمان المُدَاهِن » رواه الطبراني ، والحاكم ، عن أبي ذر رضي الله عنه .

ومعنىٰ : « يلبسون جلود الضأن » . . . إلىٰ آخره : أنهم يُلَينون القول ، ويحسنون الفعل رياءً ، وقلوبهم كالذئاب .

ومنها : « إذا كانت الفاحشة في كباركم ، والمُلك في صغاركم ، والعلم في رُذَّالِكم ، والمُدَاهنة في خياركم » رواه أحمد ، وابن ماجه ، عن أنس رضي الله عنه .

ومنها : « إذا تقارب الزمان ينقي الموت خيار أمتي ؛ كما ينقي أحدكم الرطب من الطبق » رواه الرامهرمزي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « إذا تطاول الناس في البنيان ـ وفي رواية : « إذا رأيت الحُفاة العُراة العالة رِعَاء الشاء يتطاولون في البنيان ، فانتظروا الساعة » رواه الشيخان عن عمر رضي الله عنه .

وذلك حيث كَثُرت أموالهم ، وامتدت وجاهتهم ، ولم يكن لهم دأبٌ ولا همةٌ سوى البناء ؛ لأنهم لا يشتغلون بالعبادة ولا بالعلم ولا بالجهاد .

ومنها : « إذا وُسِّدَ الأمر ـ وفي رواية : « أسند الأمرُ » ـ إلىٰ غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ولله در القائل :

أَيَـا دَهْـرُ أَعْمَلْـتَ فِينَـا أَذَاكَـا ... وَوَلَّيْتَنَـا بَعْـدَ وَجْـهٍ قَفَـاكَـا
قَلَبْـتَ ٱلشِّـرَارَ عَلَيْنَـا رُؤُوسـاً ... وَأَجْلَسْـتَ سَفلتنَـا مُسْتَـوَاكَـا
فَيَـا دَهْـرُ إِنْ كُنْـتَ عَـادَيْتَنَـا ... فَهَـا قَـدْ صَنَعْـتَ بِنَـا مَـا كَفَـاكَـا

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ : « أن يتدافع أهل المسجد لا يَجدُون إماماً يصلي بهم » رواه أحمد ، وأبو داود ، عن سُلامة بنت الحران .

ومنها : « لا تذهب الدنيا حتىٰ يمر الرجل على القبر ، فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هـٰذا القبر . وليس به الدِّين ؛ ما به إلاَّ البلاء » رواه مسلم ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتلوا إمامكم[1] ، وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم » .

وهـٰذا قد وقع كثيراً ، ولا يزالُ يقع من قتل الملوك ، وهم إن لم يكونوا أئمة ، لـٰكنهم نواب عنهم ، فقتلهم بمنزلة الأئمة .

ومنها : « أن من أشراط الساعة أن يُلتمس العلم عند الأصاغر » رواه الطبراني عن أبي أمية الجُمحي .

---

(١) وحمله صاحب « إزالة الخفاء » علىٰ شهادة عثمان رضي الله عنه (ز) .

ومعناه : أن الأكابر من أولاد المهاجرين والأنصار بل ومن قريش يشتغلون بطلب الدنيا والجاه ، ويبقى الأصاغر من الموالي وأخلاط الناس هم الذين يتعلمون ، فيطلب منهم الفتاوىٰ في الواقعات .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يقتل الرجل أخاه لا يدري فيم قتله » رواه الحاكم في « تاريخه » عن أبي موسىٰ رضي الله عنه .

ومنها : ـ من أشراط الساعة ـ : « أن يَملُكَ من ليس أهلاً أن يُمَلَّك ، ويُرفع الوضيع ويُتَّضعَ الرفيع » رواه نُعيم بن حماد عن كثير بن مرة مُرسلاً .

ومنها ـ من اقتراب الساعة ـ : إذا كثر خُطباء منابركم ، وركن عُلماؤكم إلىٰ وُلاتِكُم ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال ، فأفتوهم بما يشتهون » رواه الديلمي عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها ـ من اقتراب الساعة ـ : إذا تَعلَّم عُلماؤكم ليَجلبوا به دنانيركم ودراهمكم ، واتخذتم القرآن تجارة » رواه الديلمي عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومعناه : يقرؤون القرآن بالأجرة ، لا يقرؤون لله .

ومنها : « لا تزال الأمة علىٰ شريعة حسنة ما لم تظهر فيهم ثلاث : ما لم يقبض منهم العلم ، ويكثر فيهم ولد الحِنْث ، ويظهر فيهم السَّقارُون » . قالوا : وما السَّقارُون ؟ قال : « نَشءٌ يكونون في آخر الزمان ؛ تكون تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التَّلاعُنُ » رواه أحمد والطبراني ، والحاكم ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه .

قُلْتُ : وهـٰذا كثير في الفلاحين ، والبقالين ، والسَّفلةُ ، فيبدأ أحدهم بشتم صاحبه عند التلاقي قبل السلام ، بل ويمضي كل منهما ولا يعرفون السلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يعمد الرجل إلى النبطية فيتزوجها علىٰ معيشة ، ويترك بنت عمه لا ينظر إليها » رواه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه .

ومعناه : يتزوج الدَّنِية الأصل ؛ لغناها ، ويترك بنت عمه الأصيلة ؛ لفقرها .

ومنها : « أن من أمارتها : أن تُقطع الأرحام ، ويُؤخذ المال بغير حقه ، وتُسفَكَ

الدماء ، ويشتكي ذو القرابة قرابته لا يعود عليه بشيء ، ويطوف السائل لا يوضع في يده شيء » رواه ابن أبي شيبة عن عبد الله رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يُجعل كتاب الله عاراً ، ويكون الإسلام غريباً ، وحتىٰ تبدو الشحناء بين الناس ، وحتىٰ يُقبض العلم ، وَيهرِم الزمان ، وينقص عمر البشر ، وتنقص السنون والثمرات ، ويؤمن التُّهماء ، ويتهم الأُمَناء ، ويصدَّق الكاذب ، ويكذَّب الصادق ، ويكثر الهرج ـ وهو : القتل ـ وحتىٰ تبنى الغرف ـ أي القصور ـ فتطاول ، وحتىٰ تحزن ذوات الأولاد ـ أي : لعقوق أولادهن ـ وتفرح العواقر ، ويظهر البغي والحسد والشح ، وَيهلِكَ الناس ، ويكثر الكذب ، ويقل الصدق ، وحتىٰ تختلف الأمور بين الناس ، ويُتبع الهوىٰ ، ويُقضىٰ بالظن ، ويكثر المطر ، ويقل الثمر ، ويغيض العلم غيضاً ـ أي : ينقص ـ ويفيض الجهل فيضاً ـ أي : يكثر ـ ، ويكون الولد غيظاً ، والشتاء قيظاً ـ سبق تفسيرهما ـ ، وحتىٰ يُجهر بالفحشاء ، وتُزوى الأرض زياً ، وتقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي ، فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يَرَحْ رائحة الجنة » رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني ، وأبو نصر السجزي ، وابن عساكر ، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه ، وسنده جيد .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج قومٌ يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها » رواه أحمد ، والخرائطي ، وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

ومعناه : يمدحون الناس ويظهرون محبتهم نِفاقاً ويطرونهم ، ويمدحون أنفسهم حتىٰ يتوسلوا إلىٰ أخذ الأموال منهم .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتسافد الناس تسافد البهائم في الطرق » رواه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ توجد المرأة نهاراً تنكح ـ أي : تجامع وسط الطريق ـ لا يُنكر ذلك أحدٌ ، فيكون أمثلهم يومئذ الذي يقول : لو نحيتها عن الطريق قليلاً . فذلك فيهم مثل أبي بكر وعمر فيكم » رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ تتناكر القلوب ، وتختلف الأقاويل ، ويختلف

الأخوان من الأب والأم في الدِّين » رواه الديلمي عن حذيفة رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتغايروا على الغلام كما يتغاير على المرأة » رواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يُعِزَّ الله فيه ثلاثاً : درهماً من حلال ، وعلماً مستفاداً ، وأخاً في الله عز وجل » رواه الديلمي عن حذيفة رضي الله عنه .

يعني : تقل فيه هـٰذه الثلاثة حتىٰ لا تكاد تُوجد .

ومنها : « إذا رأيت الصدقة كُتِمت وغُلت ، واستؤجر على الغزو ، وأخرب العامر ، وَأُعمر الخراب ، ورأيت الرجل يتمرس بأمانته ـ وفي رواية : بدينه ـ كما يتمرس البعير بالشجر فإنك والساعة كهاتين » رواه عبد الرزاق ، والطبراني ، عن عبد الله بن زينب الجندي .

قال في « النهاية » : يُتمرس ؛ أي : يتلعب ، ويعبث بدينه ؛ كما يعبث البعير بالشجر .

ومنها : « أن من أشراط الساعة : حيف الأئمة ، وتصديقٌ بالنجوم ، وتكذيبٌ بالقدر » رواه البزار عن عليّ كرّم الله وجهه مرفوعاً ، وسنده حسن .

ومنها : « لا يذهب الناس حتىٰ يقولوا : القرآن مخلوق . وليس بخالق ولا مخلوق ولـٰكنه كلام الله ؛ منه بدأ ، وإليه يعود » رواه اللالكائي ، والأصبهاني ، عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها : « إذا اجتمع عشرون رجلاً أو أكثر أو أقل فلم يكن فيهم من يُهاب في الله فقد حضر الأمر » رواه البيهقي ، وابن عساكر ، عن عبد الله بن بشر الصحابي رضي الله عنه .

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ : أن يمر الرجل في المسجد فلا يركع ركعتين » رواه ابن أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : «تكون في آخر هـٰذه الأمة عند اقتراب الساعة أشياء ؛ فمنها : نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها ، وذلك مما حرّم الله ورسوله ، ويَمقُتُ الله عليه ورسوله » .

ومنها : « نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرّم الله ورسوله ، ويَمقُتُ الله عليه ورسوله » .

ومنها : « نكاح المرأة المرأة وذلك مما حرّم الله ورسوله ، ويَمقُتُ الله عليه ورسوله ، وليس لهـٰؤلاء صلاة ما أقاموا علىٰ ذلك حتىٰ يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً » رواه الدارقطني ، والبيهقي ، وابن النجار ، عن أَبي قَالٍ الصحابي رضي الله عنه .

ومنها : « ليأتين على الناس زمان يكون فيه استشارة الإماء ، وسلطان النساء ، وإمارة السفهاء » رواه ابن المنادي عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكون السلام على المعرفة ، وحتىٰ تُتَّخذ المساجد طُرقاً فلا يُسجد لله فيها ، وحتىٰ يَبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين ، وحتىٰ يَبلُغ التاجر بين الأفقين فلا يجد ربحاً » رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وهو كناية عن عدم الرغبة في الصلاة ، وعدم توقير الصغير الكبير ، وعدم البركة في التجارة ؛ لغلبة الكذب والغش على التجار .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتحول شرار أهل الشام إلى العراق ، وخيار أهل العراق إلى الشام » رواه ابن أبي شيبة عن أبي أمامة رضي الله عنه .

ومنها : « يأتي على الناس زمانٌ لا يَسلَم لذي دين دينه إلاَّ من فَرّ من شاهق إلىٰ شاهق ، أو من حجر إلىٰ حجر ؛ كالثعلب يفر بأشباله ، وذلك في آخر الزمان إذا لم تنل المعيشة إلاَّ بمعصية الله ، فإذا كان كذلك حلت الغربة ، يكون في ذلك الزمان هلاك الرجل علىٰ يد أبويه إن كان له أبوان ، وإلاَّ فعلىٰ يد زوجته وولده ، وإلاَّ فعلىٰ يد الأقارب والجيران يُعيرونَهُ بضيق المعيشة ، ويكلفونه ما لا يطيق حتىٰ يورد نفسه الموارد التي يَهلكُ فيها » رواه أبو نُعيم ، والبيهقي ، والخليلي ، والرافعي عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : « يأتي على الناس زمان يقعد الرجل إلىٰ قومٍ ، فما يمنعه أن يقوم إلاَّ مخافة أن يقعوا فيه » رواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « سيصيب أمتي في آخر الزمان بلاءٌ شَديدٌ لا ينجو منه إلاَّ رجلٌ عرف

دين الله فجاهد عليه بلسانه وبقلبه ، فذلك الذي سبقت له السوابق ، ورجلٌ عرف دين الله فَصدّق به » رواه أبو نصر السجزي ، وأبو نُعيم ، عن عمر رضي الله عنه .

ومنها : « يأتي على الناس زمانٌ يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم ، فلا تجالسوهم ؛ فليس لله فيهم حاجة » رواه البيهقي عن الحسن مُرسلاً .

ومنها : « يأتي على الناس زمانٌ يستخفي المؤمن فيهم ؛ كما يستخفي المنافق فيكم » رواه ابن السُّني عن جابر رضي الله عنه .

ومنها : « يأتي على الناس زمان هَمُّهم بُطونهم ، وشرههم متاعهم ، وقِبلتُهم نساؤهم ، ودِينُهم دراهمهم ودنانيرهم ، أولـٰئك شر الخلق ؛ لا خلاق لهم عند الله » رواه السُّلمي عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها : « يأتي على الناس زمان عَضُوضٌ ، يعض الموسر علىٰ ما في يده » رواه أحمد عن علي رضي الله عنه .

ومنها : «يأتي على الناس زمان يُقتل فيه العلماء كما تُقتل الكلاب ، فياليت العلماء في ذلك الزمان تحامقوا » رواه الديلمي ، وابن عساكر ، عن عليّ كرّم الله وجهه[1] .

ومنها : « يأتي على العلماء زمان الموت أحب إلىٰ أحدهم من الذهب الأحمر » رواه أبو نُعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه[2] .

ومنها : « لا تَذهبُ الأيام والليالي حتىٰ يَخْلقَ القرآن في صدور أقوامٍ من هـٰذه الأمة كما تَخْلقُ الثياب ، ويكون ما سواه أعجب لهم ، يكون أمرهم طمعاً كله لا يخالطه خوف ، إن قَصّر في حق الله تعالىٰ منّته نفسه الأماني ، وإن تجاوز إلىٰ ما نهى الله عنه قال : أرجو أن يتجاوز الله عني . يلبسون جُلود الضأن علىٰ قلوب الذئاب ، أفضلهم في نفسه المُدَاهن الذي لا يأمر بالحق ولا ينهىٰ عن المنكر » رواه أبو نُعيم عن معقل بن يسار رضي الله عنه .

---

(١) وفي « منتخب كنز العمال » (٥/ ٤٠٧) برواية الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما . (ز) .

(٢) ورواه الحاكم (٤/ ٥١٨) وقال : صحيح علىٰ شرطهما ، وأقره عليه الذهبي . وفي « منتخب الكنز » (٥/ ٤٠٧) برواية أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه (ز) .

ومنها : « يأتي على الناس زمان لا يُتَّبع فيه العالم ، ولا يُستحيىٰ فيه من الحليم ، ولا يُوقر فيه الكبير ، ولا يرحم فيه الصغير ، يقتل بعضهم بعضاً على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم ، وألسنتهم ألسنة العرب ، لا يعرفون مَعروفاً ، ولا ينكرون مُنكراً ، يمشي الصالح فيهم مُستخفياً ، أولـٰئك شرار خَلقِ الله لا ينظر الله إليهم يوم القيامة » رواه الديلمي عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها : « يَجيءُ يوم القيامة المُصحف ، والمسجد ، والعترة . فيقول المصحف : يا رب ؛ خرقوني ومزقوني . ويقول المسجد : يا رب ؛ خربوني ، وعطلوني ، وضيعوني . وتقول العترة : يا رب ؛ طردونا ، وقتلونا ، وشردونا ، وأجثو بركبتي للخصومة .

فيقول الله تبارك وتعالىٰ : ذلك إليَّ ، وأنا أولىٰ بذلك » رواه الديلمي عن جابر رضي الله عنه ، وأحمد ، والطبراني ، عن أبي أمامة رضي الله عنه .

وكأنه إشارةٌ إلىٰ ما وقع في زمن بني أمية ومن بعدهم ؛ من قتل أهل البيت ، وتعطيل مسجده صلى الله عليه وسلم ، وربط الخيل فيه في زمن يزيد ، وتمزيق المصحف في زمن الوليد ، أو يكون تمزيق المصحف كنايةً عن عدم العمل به .

ومنها : « يوشك أن لا تجدوا بيوتاً تكنُّكم ؛ تهلكها الرواجف ، ولا دواب تبلغوا عليها في أسفاركم ؛ تهلكها الصواعق » رواه أبو نُعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : « إذا زخرفتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ؛ فالدمار عليكم » رواه الحكيم عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

ومنها ـ من اقتراب الساعة ـ : أن يُصلي خمسون نفساً لا يقبل لأحدهم صلاة » رواه أبو الشيخ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومعناه : أنهم لا يأتون بشروطها وأركانها ؛ فلا تَصِحُّ لأحدهم صلاة ، فلا تُقبل منهم .

ومنها : « أنَّ الساعة لا تقوم حتىٰ لا يُقسم مِيرَاثٌ ، ولا يُفْرحَ بغنيمة » رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ: تقارب الأسواق . قلت : ما تقارب الأسواق ؟ قال : « أن يشكو الناس بعضهم إلىٰ بعض قلة الإصابة ـ أي : الربح ـ ، ويكثر ولد البغي ، وتفشو الغيبة ، ويُعظَّم رب المال ـ أي : يكرم من جهة ماله ـ ، وترتفع الأصوات في المساجد ، ويظهر أهل المنكر ، ويظهر البناء » رواه ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ : سوء الجوار ، وقطيعة الأرحام ، وأن يُعطل السيف من الجهاد ، وأن تجتلب الدنيا بالدين » رواه ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ : أن يظهر الفحش والتفحش ، وسوء الخلق ، وسوء الجوار » رواه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا تحمل النخلة إلاَّ تمرة » رواه ابن أبي شيبة عن رجاء بن حيوة .

كِنايةٌ عن قلة الثمار والبركات .

ومنها ـ من أشراط الساعة ـ : موت البدار » رواه ابن أبي شيبة عن مجاهد .

وفي رواية عن الشعبي : « من اقتراب الساعة : موت الفجاءة » .

ومنها : « سيكون في آخر هـٰذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتىٰ يأتون أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، علىٰ رؤوسهن كأسنمة البُخت العجاف ، اِلعنوهن فإنهن ملعونات ، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمتهم ؛ كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم » .

قال ابن عمرو رضي الله عنهما : قلت لأبي : وما المياثر ؟ قال : سروج عظام . رواه أحمد ، والحاكم ، عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

ولهـٰذا الحديث شواهدُ وطُرق

منها : عند مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه : « صِنْفَانِ من أمتي من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات

مُميلات مَائِلات ، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة ، لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

قال النووي في « رياض الصالحين » : أي : يُكْبِرنَ رؤوسهن ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوهما . انتهىٰ

وقد فصلنا الكلام في هٰذه المسألة في رسالةٍ مستقلة سميناها : « أجوبة الخمس عن الأسئلة الخمس » .

ومنها : « يخرج في هٰذه الأمة في آخر الزمان رجال معهم أسياط كأنها أذناب البقر ، يغدون في سخط الله ، ويروحون في غضبه » رواه أحمد ، والحاكم وصححه ، عن أبي أمامة رضي الله عنه .

ومنها : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، ثم أخذ بحلقة باب الكعبة ، فقال : « يا أيها الناس ؛ ألا أخبركم بأشراط الساعة ؟ » ، فقام إليه سلمان فقال : أخبرنا فداك أبي وأمي يا رسول الله . قال : « من أشراط الساعة : إضاعة الصلاة ، والميل مع الهوىٰ ، وتعظيم رب المال » .

فقال سلمان : ويكون هٰذا يا رسول الله ؟!

قال : « نعم ، والذي نَفْسُ مُحمدٍ بيده ، فعند ذلك يا سلمان تكون الزكاة مَغرماً ، والفيءُ مَغنماً ، ويصدَّق الكاذب ، ويكذَّب الصادق ، ويُؤتمن الخائن ، ويُخوَّن الأمين ، ويتكلم الرُّوَيبضة » .

قالوا : وما الرُّوَيبضة ؟

قال : « يتكلم في الناس من لم يكن يتكلم ، وينكر الحق تسعة أعشارهم ، ويذهب الإسلام فلا يبقىٰ إلاَّ اسمه ، ويذهب القرآن فلا يبقىٰ إلاَّ رسمه ، وتُحلى المصاحف بالذهب ، ويتسمن ذكور أمتي ، وتكون المشورة للإماء ، ويَخطبُ على المنابر الصبيان ، وتكون المخاطبة للنساء . فعند ذلك تُزخرف المساجد كما تُزخرف الكنائس والبِيعُ ، وتطول المنابر ، وتكثر الصفوف مع قلوب متباغضة ، وألسن مختلفة ، وأهواء جمة » .

قال سلمان : ويكون ذلك يا رسول الله ؟!

قال : « نعم ، والذي نَفْسُ مُحمدٍ بيده ، عند ذلك يا سلمان يكون المؤمن فيهم أذل من الأَمة ، يذوب قلبه في جوفه ؛ كما يذوب الملح في الماء مما يرىٰ من المنكر فلا يستطيع أن يُغيره ، ويكتفي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، ويُغار على الغلمان ؛ كما يُغار على الجارية البكر . فعند ذلك يا سلمان تكون أمراء فسقة ، ووزراء فجرة ، وأمناء خونة ، يضيعون الصلاة ، ويتبعون الشهوات ، فإن أدركتموهم فصلّوا صلاتكم لوقتها . عند ذلك يا سلمان يجيء سَبيٌ من المشرق ، وسَبيٌ من المغرب ، جثاؤهم ـ أي : أجسادهم ـ جثاء الناس ، وقلوبهم قلوب الشياطين ، لا يرحمون صغيراً ، ولا يوقرون كبيراً . عند ذلك يا سلمان يحج الناس إلىٰ هٰذا البيت الحرام ، ويحج ملوكهم لهواً وتَنَزُّهاً ، وأغنياؤهم للتجارة ، ومساكينهم للمسألة ، وقراؤهم رياءً وسمعة » .

قال : ويكون ذلك يا رسول الله ؟!

قال : « نعم ، والذي نَفْسي بيده ، عند ذلك يا سلمان يَفشُو الكذب ، ويظهر الكوكب له الذنب ، وتشارك المرأة زوجها في التجارة ، وتتقارب الأسواق » .

قال : وما تقاربها ؟ قال : « كسادها ، وقلة أرباحها . عند ذلك يا سلمان ، يبعث الله ريحاً فيها حَيّاتٌ صُفرٌ ، فتلتقط رؤوس العلماء لِمَا رأوا المنكر فلم يغيروه» .

قال : ويكون ذلك يا رسول الله ؟!

قال : « نعم ، والذي نفس محمدٍ بيده » ، رواه ابن مردويه عنه .

قوله في الحديث : «وتكثر الصفوف » . . . إلخ ؛ معناه : أنهم لا يتمون الصفوف الأول فالأول ، بل يَصطفُّ كل ثلاثة في صف ، وأربعة في صف ، وهٰكذا فتكثر الصُّفوفُ .

ويؤيده قوله : « مع قلوب متباغضة » ؛ لأن ذلك يُورث تخالف القلوب وتباغضها ؛ كما أشار إليه حديث : « أقيموا صفوفكم ـ أي : أتموها ـ ولا تختلفوا فيخالف الله بين قلوبكم » .

وقد جاء عنه روايةٌ أخرىٰ أبسط منه .

قال القاضي أبو الفرج المعافىٰ في المجلس الحادي والستين من كتابه « الجليس والأنيس » ما لفظه :

حدثنا محمد بن الحسن بن علي بن سعيد أبو الحسن الترمذي ، في صفر سنة سبع عشرة وثلاث مئة ، أملاه من أصل كتابه ، قال : حدثنا أبو سعيد محمد بن الحسن بن ميسرة ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أبي شعيب الخواتيمي ، قال : حدثنا إبراهيم بن مخلد ، عن سليمان الخشاب ، مولى لبني شيبة ، قال : أخبرني ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس(١) رضي الله عنهما قال : لما حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع أخذ بحلقتي باب الكعبة ، ثم أقبل بوجهه على الناس فقال : « يا أيها الناس » . قالوا : لبيك يا رسول الله ، يَفْدِيكَ آباؤنا وأمهاتنا . ثم بكىٰ حتىٰ علا انتحابه ، فقال : « يا أيها الناس ؛ إني أخبركم بأشراط القيامة : إنَّ من أشراط القيامة : إماتة الصلوات ، واتباع الشهوات ، والميل مع الهوىٰ ، وتعظيم رب المال » .

قال : فوثب سلمان فقال : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : إي والذي نفسي بيده . إنَّ المؤمن ليمشي بينهم يومئذ بالمخافة » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده . عندها يَذُوبُ قلب المؤمن ؛ كما يَذُوبُ الملح في الماء مما يرىٰ ولا يستطيع أن يُغَيّر » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده . عندها يكون المطر قَيظاً والولد غَيظاً ، ويفيض اللئام فيضاً ، ويغيض الكرام غيضاً » .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » (٦/ ٥٣) . وحديث : « وإن ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشد » برواية علي رضي الله عنه في « جمع الفوائد » (٢/ ١٥١) في (الفتن) ، وبرواية أبي هريرة رضي الله عنه في « الخصائص الكبرىٰ » (٢/ ١٠٥) ، وفي « مجمع الزوائد » (٧/ ٢٨٠) ، وبرواية أبي أمامة رضي الله عنه في « إحياء العلوم » (٢/ ٢٧١) . (ز) .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، للمؤمن يومئذ أذل من الأَمَة ، فعندها يكون المُنكر معروفاً والمعروف مُنكراً ، ويُؤتمَن الخائن ويُخوَّن الأمين ، ويُصدق الكذاب ويُكذب الصادق » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يكون أمراء جورة ، ووزراء فسقة ، وأُمَناءُ خونة ، وإمارة النساء ، ومشاورة الإماء ، وصعود الصبيان المنابر » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده يا سلمان ، عندها يليهم أقوامٌ إن تكلموا قتلوهم ، وإن سكتوا استباحوهم ، ويستأثرون بفيئهم ، وليطؤون حريمهم ، ويجار في حكمهم ، ويليهم أقوام جُثَاهم جُثَا الناس ـ قال القاضي أبو الفرج : هو هـٰكذا في الكتاب ، والصواب : « جثثهم جثة الناس » ـ وقلوبهم قلوب الشياطين ، لا يوقرون كبيراً ، ولا يرحمون صغيراً » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده يا سلمان ، عندها تُزخرف المساجد كما تُزخرف الكنائس والبِّيع ، وتحلى المصاحف ، ويطيلون المنابر ، ويكثر العقوق ، قلوبهم متباغضة ، وأهواؤهم جمة ، وألسنتهم مختلفة » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يأتي سبيٌ من المشرق والمغرب يلون أمتي ، فويل للضعفاء ، وويل لهم من الله تعالىٰ » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إِنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يكون الكذب ظَرفاً ، والزكاة مغرماً ، وتظهر الرُّشَا ، ويكثر الربا ، ويتعاملون بالعِينَةِ ، ويتخذون المساجد طُرقاً » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده يا سلمان ، عندها تُتَّخذُ جلود النمور صِفَافاً ، يتحلىٰ ذكور أمتي بالذهب ، ويلبسون الحرير ، ويتهاونون بالدماء ، وتظهر الخمور والقِيَنات والمعازف ، وتشارك المرأة زوجها في التجارة » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده يا سلمان ، عندها يَطْلُعُ كوكب له الذنب ، ويكثر السيجان ، ويتكلم الرُّوَيبضة » .

قال سلمان : وما الرُّوَيبضة ؟ قال : « يَتكلّم في العامة من لم يكن يتكلم . وَيُحتقر الرجل للسمنة ، وَيُتغنّىٰ بكتاب الله عز وجل ، وَيُتّخذ القرآن مزامير ، ويُباع الحكم ، ويكثر الشُّرُط » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يحج أمراء الناس لهواً وتَنَزُّهاً ، وأوساط الناس للتجارة ، وفقراء الناس للمسألة ، وَقُراء الناس للرياء والسمعة » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ إنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يُغار على الغلام ؛ كما يُغار على الجارية البكر ، ويُخطَبُ الغلام ؛ كما تُخطَبُ المرأة ، ويُهيأ كما تُهيأ المرأة ، ويتشبه النساء بالرجال ، ويتشبه الرجال بالنساء ، ويكتفي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وتركب ذوات الفروج السروج ، فعليهن من أمتي لعنة الله » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يظهر قراء عبادتهم التلاوم بينهم ، أولـٰئك يسمون في ملكوت السماء الأنجاس الأرجاس » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها تتشبب المشيخة » .

قال : قلت : وما شَببُ المشيخة ؟

قال ـ أَحسبهُ ذهب من كتابي « أنَّ الحمرة »[1] ؛ هـٰذا الحرف وحده ـ : « أنَّ الحُمرة خضاب الإسلام ، والصفرة خضاب الإيمان ، والسواد خضاب الشيطان » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يُوضع الدِّين وتُرفع الدنيا ، ويُشيد البناء وتعطل الحدود ، ويميتون سُنتي ، فعندها يا سلمان لا ترىٰ إلاَّ ذامّاً ، ولا ينصرهم الله » .

قال : بأبي أنت وأمي ، وهم يومئذ مسلمون كيف لا ينصرون ؟!

قال : « يا سلمان ؛ إنَّ نصرة الله : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأرىٰ قوماً يذمون الله تعالىٰ ، ومذمتهم إياه أن يشكوه ، وذلك عند تقارب الأسواق » .

قال : وما تقارب الأسواق ؟

قال : « عند كسادها ؛ كُلٌّ يقول : ما أبيع ، ولا أشتري ، ولا أربح . ولا رازق إلاَّ الله تعالىٰ » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها يجفو الرجل والديه ، ويبر صديقه ، ويتحالفون بغير الله تعالىٰ ، ويحلف الرجل من غير أن يستحلف ، ويتحالفون بالطلاق يا سلمان ، لا يَحلِفُ بها إلاَّ فاسق ، ويفشو الموت ؛ موت الفجأة ، وَيُحَدِّثُ الرجل سَوطه » .

قال سلمان : بأبي أنت وأمي ؛ وإنَّ هـٰذا لكائن ؟!

قال : « إي والذي نفسي بيده ، عندها تخرج الدابة ، وتَطْلُعُ الشمس من مغربها ، ويخرج الدجال ، وريح حمراء ، ويكون خَسفٌ ، ومَسخٌ ، وقَذفٌ ، ويأجوج ومأجوج ، وهدم الكعبة ، وتمور الأرض ، وإذا ذكر الرجل رُئِيَ » .

---

(١) لعل الذي ذهب من كتابه هو قوله : يختضبون بالسواد .

ومنها : عن عليّ كرّم الله وجهه : أنَّ عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، فقال : « ذلك عند حَيفِ الأئمة ، وتكذيب بالقدر ، وإيمان بالنجوم ، وقوم يتخذون الأمانة مَغْنماً ، والزكاة مَغْرماً ، والفاحشة زيارة » .

فسألته عن : «الفاحشة زيارة» ؟ فقال : « الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً ، ويأتيه بالمرأة فيقول : اصنع ما كنت تصنع ، فيتزاورون علىٰ ذلك. قال : فعند ذلك هلكت أمتي يا بن الخطاب » رواه ابن أبي الدنيا ، والبزار ، عنه .

ومنها : عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة : إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، واستخفوا بالدماء ، واستعلوا بالبناء ، وباعوا الدِّين بالدنيا ، وتقطعت الأرحام ، ويكون الحكم ضَعفاً ، والكذب صِدقاً ، والحرير لِباساً ، وظهر الجور ، وكثر الطلاق ، وموت الفجأة ، وائتمن الخائن ، وَخُوّنَ الأمين ، وصدق الكاذب ، وَكُذِّب الصادق ، وكثر القذف ، وكان المطر قَيظاً ، والولد غَيظاً ، وفاض اللئام فيضاً ، وغاض الكرام غيضاً ، وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة ، والأمناء خونة ، والعرفاء ظلمة ، والقراء فسقة ، إذا لبسوا مُسُوكَ الضأن ، قلوبهم أنتن من الجيفة وأَمَرُّ من الصَّبِر ، يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تهاوك اليهود الظلمة ، وتظهر الصفراء - يعني : الدنانير - ، وتطلب البيضاء ، وتكثر الخطباء ، ويقل الأمر بالمعروف ، وحُلّيت المصاحف ، وصورت المساجد ، وَطُوّلت المنابر ، وَخُربت القلوب ، وَشُربت الخمور ، وَعُطلّت الحدود ، وولدت الأمة ربتها ، وترى الحُفاة العُراة قد صاروا مُلوكاً ، وشاركت المرأة زوجها في التجارة ، وتشبّه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وحُلِفَ بغير الله ، وشهد المرء من غير أن يُستشهد ، وَسُلّم للمعرفة ، وَتُفُقِّهَ لغير دين الله ، وطلب الدنيا بعمل الآخرة ، واتخذ المغنم دُولاً ، والأمانة مَغْنَماً ، والزكاة مَغْرماً ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وَعقّ الرجل أباه ، وجفا أمه ، وبر صديقه ، وأطاع امرأته ، وعلت أصوات الفسقة في المساجد ، واتخذت القينات والمعازف ، وشربت الخمور في الطرق ، واتخذ الظلم فخراً ، وبيع الحكم ، وكثرت الشُّرَط ، واتخذ القرآن مزامير ، وجلود

السباع صِفَافاً ، ولعن آخر هٰذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وخَسفاً ، ومَسخاً ، وقَذفاً ، وآيات » ، أخرجه أبو نُعيم في « الحلية » عنه .

ومنها : « إذا ظهر القول ، وخُزِن العمل ، وائتلفت الألْسُن ، واختلفت القلوب ، وقطع كُلّ ذي رَحِم رحمه فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم ، وأعمىٰ أبصارهم » رواه أحمد ، وعَبْد بن حُميد ، وابن أبي حاتم ، عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً . والحسن بن سفيان ، والطبراني ، وابن عساكر ، والديلمي ، عنه مرفوعاً .

ومنها : « إذا الناس أظهروا العلم ، وضَيّعوا العمل ، وتحابوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك ، فأصمّهم وأعمىٰ أبصارهم » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « العِلم » عن الحسن رحمه الله .

ولنختم هٰذا القسم بحديثٍ عن أمير المؤمنين علي[1] كرّم الله وجهه جامعٍ لأكثر ما ذُكِرَ ، وزيادة تبرُّكاً .

قال : قال صلى الله عليه وسلم : « مِنْ اقتراب الساعة : إذا رأيتم الناس أضاعوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، واستحلوا الكبائر ، وأكلوا الربا ، وأكلوا الرشا ، وشيدوا البناء ، واتبعوا الهوىٰ ، وباعوا الدين بالدنيا ، واتخذوا القرآن مزامير[2] ، واتخذوا جلود السباع صِفافاً ، والمساجد طُرقاً ، والحرير لِباساً ، وأكثروا الجور ، وفشا الزنا ، وتهاونوا بالطلاق ، وائتمن الخائن ، وَخُوّن الأمين ، وصار المطر قَيظاً ، والولد غيظاً ، وأمراء فَجرة ، ووزراء كَذبة ، وأمناء خَونة ، وعُرفاء ظَلمة ، وقَلّتِ العلماء ، وكَثُر القراء ، وَقلّتِ الفُقهاء ، وحُليت المصاحف ، وزُخرِفت المساجد ، وطولت المنابر ، وفسدت القلوب ، واتخذوا القينات ، واستُحِلت المعازف ، وشُربت الخمور ، وعطلت الحدود ، ونقصت الشهور ، ونقضت المواثيق ، وشاركت المرأة زوجها في التجارة ، وركب النساء البَراذِين ، وَتَشبّهت النساء بالرجال والرجال بالنساء ، وَحُلفَ بغير الله ، وشهد الرجل من غير أن يُستشهد ، وكانت الزكاة مَغْرماً

---

(١) رواه الترمذي مختصراً ، وعنه صاحب « المشكاة » ، وقد تقدم (ص١١١) . (ز) .

(٢) سيأتي معناه (ص١٦٦) ، وورد هٰذا اللفظ ـ في هٰذا الكتاب ـ برواية ابن عباس ، وحذيفة ، وعلي رضي الله عنهم وسؤال سلمان . وفي « مجمع الزوائد » (٧/ ٣٢٣) برواية عوف (ز) .

والأمانة مَغْنماً ، وأطاع الرجل امرأته وَعقَّ أُمه ، وقرب صديقه وأقصىٰ أباه ، وصارت الإمارات مواريث ، وَسبَّ آخر هـٰذه الأمة أولها ، وأُكْرِمَ الرّجُل اتقاء شره ، وكَثُرت الشُّرط ، وَصَعِدت الجهال المنابر ، ولبس الرجال التيجان ، وضيقت الطرقات ، وشُيد البناء ، واستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وَكَثُرت خطباء منابركم ، وركن علماؤكم إلىٰ وُلاتِكُم ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال ، وأفتوهم بما يشتهون ، وتَعلّم علماؤكم العلم ؛ ليجلبوا به دنانيركم ودراهمكم ، واتخذتم القرآن تجارة ، وضيعتم حق الله في أموالكم ، وصارت أموالكم عند شراركم ، وقطعتم أرحامكم ، وشربتم الخمور في ناديكم ، ولعبتم بالميسر ، وضربتم بالكَبَرْ والمعزفة والمزامير ، ومنعتم محاويجكم زكاتكم ورأيتموها مَغْرماً ، وَقُتِلَ البريء ليغيظ العامة ، واختلفت أهواؤكم ، وصار العطاء في العبيد والسقاط ، وَطُفِفت المكاييل والموازين ، وَوَليت أموركم السفهاء » رواه أبو الشيخ ، وعويس ، والديلمي ؛ كلهم عن عليّ كرّم الله وجهه .

ولنشرع في شرح ألفاظه ؛ ليتم به النفع :

قوله : (أضاعوا الصلاة)؛ أي : تركوها ، أو أخلوا بشيءٍ من أركانها وواجباتها .

ولا ينافي هـٰذا ما ورد أنَّ : « أول ما يُرفع من الأمة الأمانة ، وآخر ما يُرفع الصلاة » ؛ لأن المراد بقاء صورة الصلاة ، وهنا إضاعتها بالإخلال بخشوعها ، أو شروطها .

وقوله : (أضاعوا الأمانة) : قال في « النهاية » : الأمانة تقع على الطاعة ، والعبادة والوديعة والثقة والأمانة . انتهىٰ

والكل جائزٌ هنا ، أما في قوله الآتي : (الأمانة مَغْنماً) فالمراد بها الوديعة .

قوله : (وشيدوا البناء) ؛ أي : طولوها من الشيد ، بمعنى الرفع ، أو جصصوها وعملوها بالشيد ؛ وهو كل ما طليت به الحائط من جصٍّ وغيره .

وقوله : (واتبعوا الهوىٰ) ؛ أي : ما تهواه أنفسهم من العقائد الفاسدة ، والآراء الباطلة المخالفة للأحاديث الصحيحة .

قوله : (باعوا الدِّين بالدنيا) ؛ أي : رضوا بنقص دينهم مع سلامة دنياهم ، وآثروا سلامة الدنيا علىٰ سلامة الدِّين .

قوله : (اتخذوا القرآن مزامير) ؛ أي : يَتَغنّونَ به من غير تَدبرٍ في مواعظه وأحكامه .

قوله : (اتخذوا جلود السباع صفافاً) : جمع صُفّة ، وهي للسُّرجِ بمنزلة المَيثَرة من الرَّحل ؛ وهو شيء يُفْرَشُ في السرج ويُجلس عليه . ومنه الحديث : « نُهي عن صُفُفِ النمور » .

قوله : (المساجد طُرقاً) ؛ أي : يمرون بالمسجد بغير الصلاة ، ولا يصلون فيه ركعتين .

قوله : (تهاونوا بالطلاق) ؛ أي : يحلفون بالطلاق كثيراً لا يبالون بوقوعه .

قوله : (صار المطر قَيظاً) : مر تفسيره .

قوله : (اتخذوا القِينَات) : جمع قِينَة ، وهي الأَمَةُ المُغنية .

و(المعازف) : آلات اللهو ؛ كالطنبور ، والبربط ، والرباب ، وغيرها .

قوله : (عُطّلت الحدود) : كأن لا يُرجم الزاني ، ولا يُقطع السارق ، ولا يُحدُّ القاذف .

قوله : (نقصت الشهور) ؛ بالصاد المهملة ؛ أي : تكون الشهور أكثرها ناقصة .

قوله : (وَنُقِضت المواثيق) ؛ بالضاد المعجمة : المواثيق : جمع ميثاق ، وهو العهد .

قوله : (ركب النساء البراذين) : جمع بِرذَونْ ؛ بكسر الموحدة ، وسكون الراء ، وفتح الذال المعجمة ، آخره نون : الدابة . والمؤنث برذونة ، وجمعه براذين ، ويقال لصاحبه : المُبَرِذن .

والمعنىٰ : أنهن يركبن الدواب ؛ كما في رواية : « يركبن السرج تشبهاً بالرجال » .

قوله : (حُلِفَ بغير الله) ؛ كأن يقول : ورأس السلطان . أو : وحياة سيدي ، أو والدي ، أو : الأمانة . أو غير ذلك من الطلاق أو العتق ، أو نحو ذلك .

وقد أتىٰ زمان لا يصدقون إلا إن حلف بغير الله ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (كانت الزكاة مَغْرماً). . . إلىٰ قوله : (أقصىٰ أباه) : مر تفسيرها .

قوله : (صارت الإمارات مواريث) ؛ أي : لا يراعون في الإمارة الدِّين والرُّشدَ والتدبير والعلم ، وغير ذلك من صِفَاتِ الكمال ، بل يقولون : هـٰذا ولد الأمير أو أخوه ، فهو أحق بالإمارة .

وأول من أحدث هـٰذا بنو أمية ؛ فَوَلّوا أبناءهم ، ولم يفعل أَحَدٌ من الخلفاء الراشدين هـٰذا ؛ فلم يولوا أولادهم ولا قرابتهم .

قوله : (وَسبّ آخر هـٰذه الأمة أولها) : إشارةٌ إلىٰ ما اشتهر من الرفض ، وَسبِّ عامة الصحابة والتابعين والسلف الصالح ، حتىٰ أن الرجل منهم ليَسبُّ أباه وجدَّه الذي مات على السُّنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (وَأُكرِمَ الرجل اتقاء شره) ؛ أي : يخافُ إن لم يُكرمه؛ أن يَناله شره وليس به من الدين شيء .

قوله : (كثرت الشُّرط) ؛ أي : أعوان الظلمة .

قوله : (واستغنى الرجال بالرجال). . . إلخ : مر تفسيره .

قوله : (وصعدت الجهال المنابر) : معناه واضح .

وفي رواية : (الجهلاء) بدل : الجهال ، ومعناه : السِّمان ؛ أي : الذين ليس عندهم خوف الآخرة ؛ فإنَّ الخوف يُذيب الشحم .

ولذا قال الشافعي رضي الله عنه : «ما رأيت سميناً أفلح قَطُّ» .

قوله : (ولبس الرجال التيجان) ؛ أي : رجعوا إلىٰ عادة المجوس والفُرْس من لبس التاج ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « العمائم تيجان العرب » ؛ أي : أن العرب لا يلبسون التاج ، وإنما يلبسون العمائم بدلها .

قوله : (وُضُيّقت الطرقات) ؛ أي : يبنون في الطريق الشارع الدَّكَك ، ويجلسون فيها ، ويتحدثون بالباطل ، ويضيقون الطرقات على المارة .

قوله : (وكثرت خطباء منابركم) ؛ أي : إنهم لا يخطبون لله ولا للاستحقاق ، وإنما يشترون وظيفة الخطابة ، فيكثر الراغبون في ذلك ، ولقد رأينا للمسجد الواحد أكثر من عشرين خطيباً .

قوله : (ركن علماؤكم)... إلخ ؛ أي : يميل العلماء إلى الملوك فَيُفْتُونَ بمقتضىٰ هواهم ولو خالف الشرع ، ويتوصلون بذلك إلىٰ دنياهم ، فيحلون لهم الحرام من المعازف ، وأكل الحرام ، والكِبر ، والغُرور ، والمُكُوس ، ويحرّمون عليهم الحلال من التواضع ، والتقلل ، وإقامة الحدود ، ونحوها .

قوله : (وتعلم علماؤكم)... إلخ ؛ أي : لا يتعلمون لوجه الله ولدينهم ، وإنما قصدهم في التعلم تحصيل الدنيا .

ومن علامة ذلك: أنَّ أكثر رغبتهم في الفلسفيات والحكميات ، فتراهم جاهلين بالسُّنة وشرائع الأحكام ويعدون أنفسهم من عُلماء الإسلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (اتخذتم القرآن تجارة) ؛ أي : إن أعطوا أُجرة على القراءة قرؤوا ، وإلا لم يقرؤوا .

قوله : (ضيعتم حق الله في أموالكم) ؛ أي : من الزكاة ، وغير ذلك من الحقوق المالية ، إما بعدم إخراجها ، أو بالإخلال ببعض شروطها من الاستحقاق وقدر الواجب ، وغير ذلك .

قوله : (وشربتم الخمور في ناديكم) ؛ أي : في مجالسكم العامة غير مختفين ، بل مجاهرين بشربها .

وليس هٰذا تكراراً مع قوله السابق : (وشربت الخمور) ؛ لأن ذلك هو الشراب ، لا بقيد المجاهرة ، بخلاف هٰذا .

وكذا يُقال في حديث حذيفة المار : « وشربت الخمور في الطرق » .

قوله : (ولعبتم بالميسر وضربتم بالكبر)... إلخ .

قال في « النهاية » : الميسر هو القمار ، ومنه الحديث : « الشطرنج ميسر العجم » ، شبه اللعب به بالميسر ؛ وهو القمار بالقِدَاح ، وكل شيء فيه قمار فهو من الميسر ، حتىٰ لعب الصبيان بالجوز . انتهىٰ

أي : ومنه اللعب في الأعياد بالبيض ونحوه .

و(الكَبَر) ؛ بفتحتين : الطبل ذو الرأسين ، وقيل : الطبل الذي له وجه واحد .

و(المعزفة) : واحدة المعازف ، وقد مر تفسيرها .

و(المزامير) : جمع مزمار ؛ وهو الآلة التي يُزْمَرُ بها ، ويقال له بالفارسية : صَرنا .

قوله : (منعتم محاويجكم زكاتكم) : معناه واضح .

قوله : (قتل البريء ليغيظ العامة بقتله) : معناه : أنهم لا يقتلون القاتل ، ويقتلون بريئاً من قبيلته أو قريته ؛ ليغيظهم ذلك ، وهو جَمعٌ بين ذنبين : ترك القَوَد ، وقتل البريء .

قوله : (صار العطاء في العبيد والسقاط) : سقاط الناس : أراذلهم وأدانيهم .

فهو كقوله : « وُسِّدَ الأمر إلىٰ غير أهله » .

قوله : (وطُفِّفَ المكاييل والموازين) : التطفيف هو : بخس الكيل والوزن .

فهٰذه جُملةٌ من الأشراط من القسم الثاني وهي كلها موجودة ، وهي في التزايد يوماً فيوماً ، وقد كادت أن تَبْلُغُ الغاية ، أو قد بَلَغت .

فنسأل الله أن يُجنبنا الفتن ، ويَعصمنا من المحن ، ويُميتنا على السُّنن ، ويغفر لنا الذنوب التي جنيناها في السِّر والعلن ؛ إنه جواد كريم ذو المِنن ، بجاه جَدِّ الحسين والحسن ، آمين يا أرحم الراحمين .

* * *

خَاتِــمَة
في سرد أحاديث تُناسب المقام

عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة في الهرج كهجرة إليَّ » رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه .

وعن الزبير[1] بن عدي قال : شكونا إلىٰ أنس من الحَجاج ، فقال : اصبروا ؛ إنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلاَّ والذي بعده شر منه حتىٰ تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم . رواه البخاري ، والترمذي .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يُرفع إلىٰ يوم القيامة » رواه أبو داود ، وابن ماجه .

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال : « إنَّ من ورائكم أيام الصبر ، المتمسك فيه يومئذ بمثل ما أنتم عليه ؛ له كأجر خمسين منكم » رواه الطبراني .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف بك إذا بقيت في حُثَالةٍ من الناس ، مَرِجت عُهودهم وأماناتهم واختلفوا ، وكانوا هٰكذا ـ وشبك بين أصابعه ـ » . قال : فبم تأمرني ؟ قال : « الزم بيتك وأهلك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر خاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة » رواه أبو داود ، والنسائي .

وهٰذا من قبيل قوله تعالىٰ : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ .

وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه نحوه ، وفي آخره : قالوا : بم تأمرنا ؟ قال : « كونوا أحلاس بيوتكم » رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيُصِيبُ أمتي في آخر الزمان بلاءٌ شديدٌ ، لا ينجو منه إلاَّ رجل عَرفَ دين الله فجاهد عليه بلسانه

---

(١) رواه البزار في « الفتن » (ز) .

وبقلبه ، فذلك الذي سبقت له السوابق ، ورجلٌ عَرفَ دين الله فَصَدّق به » رواه أبو نصر السجزي ، وأبو نُعيم .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! هل بعد هـٰذا الخير شر ؟ قال : « نعم ؛ دُعاةٌ علىٰ أبواب جهنم ، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها » . قُلت : صفهم لنا . قال : « هم من جِلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا » . قُلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين ، وإمامهم » . قُلت : فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام ؟ قال : « فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تَعَضّ بأصل شجرة حتىٰ يُدركك الموت وأنت علىٰ ذلك » .

وفي رواية عنه : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ، ولا يستنون بسُنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس » .

قال حذيفة : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : « تَسمعُ وتُطِيعُ الأمير ، وإن ضُرِبَ ظهرك ، وأُخِذَ مالك » رواه مسلم .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر كيف أنت إذا كنت في حثالة ؟ ـ وشبك بين أصابعه ـ قال : ما تأمرني يا رسول الله ؟ قال : « اصبر ، اصبر ، اصبر ، خَالِقُوا الناس بأخلاقهم ، وخَالفوهم في أعمالهم » رواه الحاكم ، والبيهقي في « الزهد » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقربوا الفتنة إذا حَمِيت ، ولا تَعرّضُوا لها إذا عَرضَت ، واضربوا أهلها إذا أقبلت » .

وعن خالد بن عُرْفُطَةَ رضي الله عنه : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « يا خالد ، إنها ستكون بعدي أحداثٌ ، وفتن ، وفُرقَةٌ ، واختلاف ، فإذا كان ذلك : فإن استطعت أن تكون عبد الله المقتول لا القاتل فافعل » رواه أحمد ، وابن أبي شيبة ، ونُعيم بن حماد، والطبراني، والبغوي، والباوَردي، وابن قانع، وأبو نُعيم، والحاكم .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون في آخر الزمان شُرطة يغدون في غضب الله ، ويروحون في سخط الله ، فإياك أن تكون من بطانتهم » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم في زمان من ترك منكم عُشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم بِعُشر ما أمر به نجا » رواه الترمذي .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه كان يقول كل عشية خميس لأصحابه : سيأتي على الناس زمان تُمَاتُ فيه الصلاة ، ويُشْرفُ فيه البنيان ، ويكثر فيه الحلف والتَّلاعُن ، ويفشو فيه الرشا والزنا ، وتُباع الآخرة بالدنيا ، فإذا رأيت ذلك فالنجا النجا . قيل : وكيف النجا ؟ قال : كن حِلساً من أحلاس بيتك ، وَكُفّ لسانك ويدك » رواه ابن أبي الدنيا .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلاَّ كان له في أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بِسُنّته ويقتدون به ، ثم إنها تَخلُف من بعدهم خُلوف ؛ يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل طيباً ، وعمل في سنّة ، وأمن الناس بوائقه ؛ دخل الجنة » . فقال رجل : يا رسول الله ؛ إنَّ هـٰذا اليوم لكثير في الناس . قال : « وسيكون في قرون بعدي » رواه الترمذي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بُنَيّ ؛ إن قدرت علىٰ أن تُصبح وتُمسي ليس في قلبك غِشٌّ لأحد ؛ فافعل » ، ثم قال : « يا بني ؛ وذلك من سُنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة » رواه الترمذي .

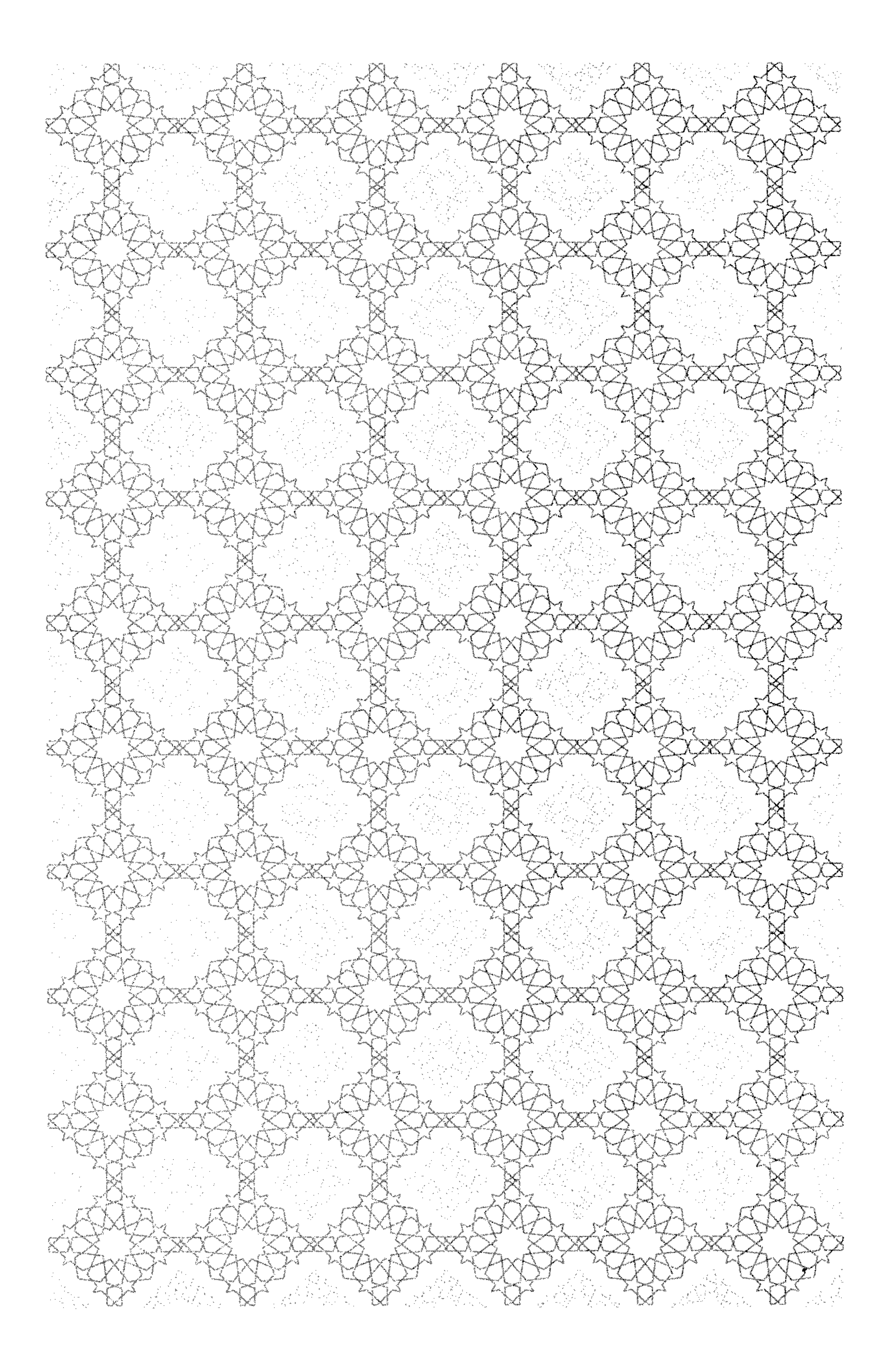
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من تمسّك بِسُنتي عند فساد أُمتي فله أجر مئة شهيد » رواه البيهقي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « المتمسك بِسُنتي عند فساد أُمتي له أجر شهيد » رواه الطبراني في « الأوسط » .



البَابُ الثَّالث

في الأَشْرَاطِ العِظَامِ والأَمَارَاتِ القَريبَةِ الّتي تَعْقُبُهَا السَّاعَةُ



البَابُ الثَّالث

فِي الأَشْرَاطِ العِظَامِ وَالأَمَارَاتِ القَرِيبَةِ الَّتِي تَعْقُبُهَا السَّاعَةُ

وهي أيضاً كثيرة .

فمنها : المهدي(١) :

وهو أولها . واعلم ؛ أن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر .

فقد قال محمد بن الحسن الإسنوي في كتاب « مناقب الشافعي » : «قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر المهدي ، وأنه من أهل بيته صلى الله عليه وسلم» . انتهىٰ

وستأتي الإشارة إليها إجمالاً ، ولو تعرضنا لتفصيلها طال الكتاب ، وخرج عن موضوعه ، ولـٰكن نقتصر علىٰ حاصل الجمع بين الروايات من غير تَعرُّضٍ لمخرَجها ومُخَرِّجيها ، والكلام فيه يأتي في مقامات .

---

(١) وبسط في الروايات في بيانه ابن حجر في « الفتاوى الحديثية » (ص٢٧) ، وللسيوطي فيه رسالةٌ سماها « كتاب المهتدي » أشار إليها في « اللآلي المصنوعة » (ص٥٥١) .

وقال صاحب « عون المعبود » (٤ : ١٧٠) : أحاديثه بين صحيح وحسن وضعيف ، وبالغ ابن خلدون في « تاريخه » في تضعيف رواياته فلم يصب . . . إلخ

ولحضرة مولانا أشرف علي التهانوي رسالة في الرد على ابن خلدون مسماة : « مؤخرة الظنون عن ابن خلدون » معروفةٌ ، وأيضاً له رسالة بالأوردو باسم « تحقيق مهدي » مطبوعة في آخر المجلد الرابع من « إمداد الفتاوى » . (ز) .

المقام الأول

في اسمه ، ونسبه ، ومولده ، ومبايعته ، وَمُهَاجره ، وحليته ، وسيرته

أما اسمه : ففي أكثر الروايات أنه : محمد ، وفي بعضها أنه: أحمد ، واسم أبيه عبد الله ، فقد ورد ، بل صَحَّ عنه صلى الله عليه وسلم ؛ كما عند أبي داود ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح . عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « يُواطىء ـ أي : يُوافق ـ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي » .

وتعسف بعض الشيعة فقالوا : إنَّ هـٰذا تحريف ، والصواب : اسم أبيه اسم ابني ـ بالنون ـ ، يعني : الحسن ، أو أنَّ المراد بأبيه : جده ؛ يعني : الحسين ، والمراد باسمه : كُنْيَتُه ، فإنَّ كُنيةَ الحسين : أبو عبد الله ، فمعناه : أنَّ كُنية جده الحسين توافق اسم ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لاعتقادهم أنه محمد بن الحسن العسكري .

وهو بَاطلٌ من وجوه :

أما أولاً : فلهـٰذه التعسفات .

وأما ثانياً : فلأنَّ محمد بن الحسن هـٰذا مات ، وأخذ عمه جعفر مِيراث أبيه الحسن .

وأما ثالثاً : فلأنَّ المهدي يُبايَعُ وهو ابن أربعين سنة ، أو أقل ، ولو كان هو لزاد عن سبع مئة سنة .

وأما رابعاً : فلأنَّ مولد المهدي المدينة ، بخلافه .

وأما خامساً : فلأنَّ رواية ابن المُنادي عن عليّ عليه السلام : « فيجيء الله بالمهدي محمد بن عبد الله » .

بل وكثيرٌ من الأحاديث صريحةٌ في رَدِّ ما قالوه .

وُوجوهٌ أُخر لا نُطِيل الكلام بذكرها .

تَنبِيه

وقع للشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتاب « اليواقيت والجواهر » : أنه مشىٰ علىٰ هٰذا القول ، ونسبه « للفتوحات المكية » ، وسيأتي كلام « الفتوحات » وليس فيه ذلك ، بل الذي فيه هو أنَّ المهدي من أولاد الحسن ، ولا شك أن العسكري من أولاد الحسين ، فما في « الفتوحات » أعم مما نُسِب إليها .

والظاهر : أن هٰذا مَدسُوسٌ على الشعراني ، ويؤيده أنه في حياته لم يُحرر الكتاب المذكور ، وأنه قال فيه : لا أُحِلُّ لأَحَدٍ أن يروي عني هٰذا الكتاب حتىٰ يَعْرِضَهُ علىٰ علماء المسلمين ويجيزوا ما فيه .

وقد وقع فيما خاف منه ، فَدُسَّ عليه مذهب الشيعة .

ومما دُسَّ عليه في « طبقاته » أنه قال في ترجمة الحسين بن علي : إنَّ العقب منه فقط ، لا من أخيه الحسن .

وهٰذا أيضاً من دسائس الرافضة ، وإلاَّ فكيف يُنكر الشعراني نَسَبَ الحسن وهو أظهر من أن يُشهر ، وأكثر من أن يُحصر ، ومنهم الأعاظم كأئمة اليمن ، وملوك الحجاز ، وملوك الغرب ، وأئمة طبرستان القدماء كالداعي الكبير ، وكتب النسب طَافحةٌ بأنسابهم كـ « عمدة الطالب » وغيرها ، وأئمة علم الأنساب مُجمِعُون علىٰ إثبات نسبه ، لم يختلف فيه منهم اثنان .

ثم كيف يجوز أن يُنسَب ذلك إلى الشعراني وهو مصري ، وأجلاء بني حسن كانوا بمصر كبني طَباطِبا وغيرهم ؟!

فَليتنبه لذلك فإنه زَلةٌ ، وبالله التوفيق .

ولقبه : **المهدي** ؛ لأنَّ الله هداه للحق .

والجابر : لأنه يجبر قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو لأنه يجبر ؛ أي : يقهر الجبارين والظالمين ويقصمهم .

وكُنيته : أبو عبد الله .

وفي « الشفا » للقاضي عياض رحمه الله : أن كنيته أبو القاسم ، وأنه جُمع له بين كُنية النبي صلى الله عليه وسلم واسمه ، ولم يذكر له سنداً سلام الله عليه .

وأما نسبه : فإنه من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم الذي في الروايات الكثيرة الصحيحة الشهيرة : أنه من ولد فاطمة عليها السلام . **وجاء في بعضها** : أنه من ولد العباس رضي الله عنه ، ثم اختلفت الروايات في ولدي فاطمة عليها السلام ؛ **ففي بعضها** : أنه من أولاد الحسن ، **وفي بعضها** : أنه من أولاد الحسين .

ووجه الجمع بينهما أن ولادته العُظمىٰ من الحسين ، أو من الحسن ، وللآخر فيه ولادة من جهة بعض أمهاته ، وكذلك للعباس فيه ولادةٌ أيضاً .

علىٰ أن في أولاد العباس كان من تَسمّىٰ بالمهدي ، وجاءتهم الرايات السود من خراسان كما تجيء للمهدي ، وكان قبله المنصور كما يكون قبل المهدي المنصور .

وأما مولده : فإنه يُولد بالمدينة ، رواه نُعيم بن حماد عن أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه .

وفي « التذكرة » للقرطبي : أنَّ مولده ببلاد المغرب ، وأنه يأتي من هناك ويجوز على البحر ، كما سيأتي نقله .

وأما مبايعته : فإنه يُبايع بمكة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء ؛ كما يأتي .

وأما مهاجره : فإنه يُهاجر إلىٰ بيت المقدس ، وأن المدينة تخرب بعد هجرته ، وتصير مأوىً للوحوش ؛ فقد ورد عن عمر رضي الله عنه : أن عِمرَانَ بيت المقدس خَرَابُ يثرب .

وأما حليته : فإنه آدم ضربٌ من الرجال رَبعةٌ ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، أشمه ، أزج أبلج ، أعين ، أكحل العينين ، براق الثنايا ، أفرقها ، في خَدِّه الأيمن خالٌ أسود ، يُضيءُ وجهه كأنه كوكب دُري ، كث اللحية ، في كتفه علامةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ، أذيل الفخذين ، لونه لون عربي ، وجسمه جسم إسرائيلي ، في لسانه ثقل ، وإذا أبطأ عليه الكلام ضرب فخذه الأيسر بيده اليمنىٰ ، ابن أربعين سنة .

وفي رواية : ما بين الثلاثين إلىٰ أربعين ، خاشعٌ لله خشوع النسر بجناحيه ، عليه عبايتان قِطْوَانيتان ، يشبه النبي صلى الله عليه وسلم في الخُلُق ـ أي : بالضم ـ لا في الخَلْق ـ أي بالفتح ـ .

ولنذكر تفسير بعض كلماته :

قوله : (آدم) : هو الأسمر شديد السُّمرة ، أو هو الذي لونه لون الأرض ، وبه سُمّي آدم عليه السلام .

قوله : (ضرب من الرجال) : هو الخفيف اللحم الممشوق المستدق .

قوله : (رَبعةٌ) : هو بين الطويل والقصير .

قوله : (أجلى الجبهة) : هو الخفيف شعر النزعتين من الصدغين ، والذي انحسر الشعر عن جبهته .

قوله : (أقنى الأنف) : القنا في الأنف : طوله ودقة أرنبته ، يقال : رجل أقنىٰ ، وامرأة قنواء .

قوله : (أشمه) : يقال : فلان أشم الأنف ، إذا كان عرنينه رفيعاً .

قوله : (أزج أبلج) : الزجج : هو تقويس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد ، وفلان أزج حاجبه كذلك .

و(الأبلج) : هو المشرق اللون مسفره ، و(الأبلج) أيضاً : هو الذي وضح ما بين حاجبيه فلم يقترنا ، والاسم : البَلَج ؛ بفتح اللام .

قوله : (أعين أكحل العينين) : الأعين : الواسع العين ، والمرأة العيناء ، والجمع : عِينٌ .

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ .

و(الكَحَل) ـ بفتحتين ـ : سواد في أجفان العين خلقة من غير اكتحال ، والرجل أكحل ، والمرأة كحلاء .

قوله : (بَرّاق الثنايا أفرقها) ؛ أي : لها بريق ولمعان من شدة بياضها .

و(أفرقها) ؛ أي : ثناياه متباعدة ليست مُتلاصقة .

قوله : (أذيل الفخذين) ؛ أي : منفرج الفخذين متباعدهما .

قوله : (عبايتان قِطْوَانيتان) ؛ القطوانية : قال في « النهاية » : عباءة بيضاء قصيرة الخمل والنون زائدة ، يقال : كساء قِطْوَاني ، وعباءة قِطْوانية .

وأما سيرته : فإنه يعمل بسُنّة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يُوقِظُ نائماً ، ولا يهريق دماً ، يقاتل على السُنّة لا يترك سُنّةً إلاَّ أقامها ، ولا بدعةً إلاَّ رفعها ، يقوم بالدين آخر الزمان ؛ كما قام به النبي صلى الله عليه وسلم أوله ، يملك الدنيا كلها ؛ كما ملك ذو القرنين وسليمان .

يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، يَرُدُّ إلى المسلمين أُلفتهم ونعمتهم ، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً ؛ كما مُلِئَت ظُلماً وجوراً ، يحثو المال حثياً ، ولا يَعُدهُ عداً ، يقسم المال صِحاحاً بالسوية ، يَرضىٰ عنه ساكن السماء وساكن الأرض ، والطير في الجو ، والوحش في القفر ، والحيتان في البحر .

يملأ قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم غِنىً حتىٰ إنه يأمر منادياً ينادي : ألا من له حاجة في المال . فلا يأتيه إلاَّ رجل واحد ، فيقول : أنا .

فيقول : ائْتِ السَّادِن ـ يعني : الخازن ـ فقل له : إنَّ المهدي يَأمُرك أن تُعطيني مالاً .

فيقول له : احثُ . حتىٰ إذا جعله في حِجْرِهِ وأبرزه نَدِم ، فيقول : كنت أجشع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ـ أي : أحرصهم . والجشع : أشد الحرص ـ ويقول : أَعْجَز عما وسعهم . قال : فيرده فلا يقبل منه . فيقال له : إنا لا نأخُذُ شيئاً أعطيناه .

تَنْعَمُ الأمة برها وفاجرها في زمنه نعمة لم يُسمع بمثلها قط ، تُرسل السماء عليهم مِدراراً لا تدخر شيئاً من قطرها ، تُؤتي الأرض أُكلها لا تدخر عنهم شيئاً من بذرها ، تجري علىٰ يديه الملاحم ، يستخرج الكنوز ، ويفتح المدائن ما بين الخافقين ، يُؤتىٰ إليه بملوك الهند مَغلولين ، وتُجعل خزائنهم حُلياً لبيت المقدس ، يأوي إليه الناس كما تأوي النحل إلىٰ يَعْسُوبها حتىٰ يكون الناس علىٰ مثل أمرهم الأول .

يُمِدُّه الله بثلاثة آلاف من الملائكة يضربون وُجُوه مخالفيه وأدبارهم ، جبريل علىٰ مقدمته ، وميكائيل علىٰ ساقته .

ترعى الشاة والذئب في زمنه في مكان واحد ، وتلعب الصبيان بالحيات والعقارب لا تضرهم شيئاً ، ويزرع الإنسان مُداً ؛ يخرج له سبع مئة مُدّ .

ويُرفع الربا ، والرياء ، والزنا ، وشرب الخمر ، وتطول الأعمار وتؤدى الأمانة ، وتهلك الأشرار ، ولا يبقىٰ من يُبْغِضُ آل محمد صلى الله عليه وسلم .

محبوب في الخلائق ، يُطفىءُ الله به الفتنة العمياء ، وتأمن الأرض حتىٰ إن المرأة تحج في خمس نسوة ما معهن رجل لا يخفن شيئاً إلاَّ الله .

مكتوب في أسفار الأنبياء : «ما في حكمه ظُلم ولا عيب» .

قال الفقيه ابن حجر في « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » : ولا يُنافي هٰذا أنَّ عيسىٰ عليه السلام يفعل بعض ما ذُكر ؛ من قتل الخنزير ، وكَسْرِ الصليب ؛ إذ لا مانع أن كُلاً منهما يفعله .

أقول : ويحتمل أن يكون الزمان واحداً ، ويُنْسَبُ إلىٰ كُلّ منهما باعتبار ؛ كما سيأتي .

* * *

المقام الثاني

في العلامات التي يُعرف بها ، والأمارات الدالة علىٰ قرب خروجه عليه السلام

أما العلامات :

فمنها : أن معه قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيفه ، ورايته من مِرْطٍ مُخَملَّة مُعلّمة سوداء ، فيها حُجَرٌ لم تُنشر منذ توفي صلى الله عليه وسلم ، ولا تُنشر حتىٰ يخرج المهدي ، مكتوب علىٰ رايته : البيعة لله .

ومنها : أن علىٰ رأسه غَمامةً فيها منادٍ ينادي : هـٰذا المهدي خليفة الله فاتبعوه ، وتخرج منها يَدٌ تشير نحو المهدي بالبيعة .

ومنها : أنه يَغْرِسُ قضيباً يابساً في أَرضٍ يَابسةٍ فيخضرُ ويُورِق .

ومنها : أنه يُطلب منه آية ، فَيُومىء بيده إلىٰ طَيْرٍ في الهواء فيسقط علىٰ يده .

ومنها : أنه يُخسفُ بجيش يقصدونه بالبيداء بين المدينة ومكة ؛ كما سيأتي .

ومنها : أنه ينادي منادٍ من السماء : أيها الناس ؛ إن الله قد قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم ، وولاكم خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالحقوا بمكة ؛ فإنه المهدي ، واسمه : أحمد بن عبد الله .

وفي رواية : وولاكم الجابر خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الحقوه بمكة ؛ فإنه المهدي ، واسمه : محمد بن عبد الله .

ومنها : أن الأرض تُخرج أفلاذ كبدها مثل الأسطوانات من الذهب .

ومنها : غنىٰ قلوب الناس ، وكثرة بركات الأرض ؛ كما مر في سيرته عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنه يُخرج كنز الكعبة المدفون فيها ، فيقسمه في سبيل الله تعالىٰ . رواه نُعيم عن عليّ كرّم الله وجهه .

ومنها : أنه يَستخرِجُ تابوت السكينة من غار أنطاكية ، أو من بحيرة طبرية ، فيُخرج حتىٰ يُحمل فيوضع بين يديه ببيت المقدس ، فإذا نظر إليه اليهود أسلموا إلاَّ قليلاً منهم .

ومنها : أنه يَنْفَلِقُ له البحر كما انفلق لبني إسرائيل ؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : أنه تأتي الرايات السود من خراسان ، فيرسلون إليه بالبيعة .

ومنها : أنه يجتمع بعيسى ابن مريم عليهما السلام ، ويُصلي عيسىٰ خلفه .

ومنها : ما مر في حليته من علامة النبي صلى الله عليه وسلم ، وثقل اللسان ، وغير ذلك .

*** وأما الأمارات الدالة علىٰ قرب خروجه :**

فمنها : أنه ينشق الفرات ، فينحسر عن جبل من ذهب .

ومنها : أنه ينكسف القمر أول ليلة من رمضان ، والشمس ليلة النصف منه ، وهـٰذان لم يكونا منذ خلق الله السماوات والأرض .

ومنها : خُسوف القمر مرتين في شهر رمضان ، وهـٰذا لا يُنافي الأول ؛ كما هو واضح .

ومنها : طُلوع القرن ذي السنين .

ومنها : طُلوع نجم له ذنب يُضيءُ .

ومنها : ظُهور نارٍ عَظيمةٍ من قبل المشرق ثلاث ليال ، أو سبع ليال .

ومنها : ظُهور ظُلمةٍ في السماء .

ومنها : حُمرةٌ في السماء ، وتُنشر في أفقها ، ليست كحمرة الأفق .

ومنها : نِداءٌ يَعُمُّ جميع أهل الأرض ، ويسمع أهل كل لغة بلغتهم .

ومنها : خَسفُ قرية بالشام ؛ يقال لها : حَرَستا .

ومنها : منادٍ يُنادي من السماء باسم المهدي ، فَيسمع من بالمشرق ومن بالمغرب

حتىٰ لا يبقي رَاقداً إلاَّ استيقظ ، ولا قائِماً إلاَّ قعد ، ولا قاعِداً إلا قام علىٰ رجليه .

وهٰذا غير الصوت الآتي بعد خروجه كما مر .

ومنها : عِصَابةٌ في شوال[1] ، ثم مَعْمعةٌ في ذي القعدة ، ثم حَربٌ في ذي الحجة ، ونهب الحاج ، وقتلهم حتىٰ تسيل الدماء علىٰ جمرة العقبة .

وبعض هٰذه المذكورات من نجم ذي ذنب والحُمرة والسواد ، قد وقع .

والمعمعة : صوت الحرب واليوم الشديد الحر ، والمراد منها الفتن .

ومنها : أنه يكون اختلاف ، وزلازل كثيرة .

ومنها : أنه يُنادي مُنادٍ من السماء : ألا إن الحق في آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُنادي مُنادٍ من الأرض : ألا إن الحق في آل عيسىٰ وآل العباس ، وإن الأول نداء المَلك ، وإن الثاني نداء الشيطان .

ومنها : ما يأتي مما نذكره من الفتن الواقعة قبل ظهوره .

* * *

(١) ذكره السيوطي في « اللآلىء » (ص٥٤٠) وفي «الموضوعات» ، وفي « مجمع الزوائد » (٣١٠/٧) . (ز) .

المقام الثالث

في الفتن الواقعة قبل خروجه

ولنسقها مساقاً واحداً تقريباً إلىٰ فهم العوام المقصودين بهـٰذه الرسالة ، وتكميلاً للفائدة ، فنقول :

من الفتن التي قبله : أنه يَنْحَسِرُ الفرات عن جبل من ذهب(1) ، فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، واجتمع ثلاثة كلهم ابن خليفة يقتتلون عنده ، ثم لا يصير إلىٰ واحد منهم ، فيقول مَنْ عنده : والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن بكليته . فيقتتلون عليه حتىٰ يُقتل من كل مئة تسعة وتسعون . وفي رواية : فيقتل تسعة أعشارهم .

وفي رواية : من كل تسعة سبعة ، فيقول رجل : لعلي أكون أنا أنجو .

وفي « الصحيحين » وغيرهما : قال صلى الله عليه وسلم : « فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً » .

ومنها : خروج السفياني ، والأبقع ، والأصهب ، والأعرج الكندي :

أما السفياني(2) : فعن أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ؛ أنه من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان .

ويزيد هـٰذا هو أخو معاوية بن أبي سفيان : صحابي أسلم مع أبيه وأخيه يوم الفتح ، مات في خلافة عمر رضي الله عنه .

والسفياني من ولده ، وهو رجل ضخم الهامة ، بوجهه آثار الجدري ، وبعينه نُكتة بيضاء ، هـٰكذا ورد في حِلْيتهِ عن علي كرّم الله وجهه .

وأنه يخرج من ناحية مدينة دمشق ، في وَادٍ يقال له : وادي اليابس .

---

(1) كذا في « البذل » (١٧/ ٢٣٣) ، وسيأتي أحاديثه (ص٢١٨) . (ز) .

(2) ذكر شيئاً من أحواله ابن حجر في « الفتاوى الحديثية » (ص٢٨ ، ص٣١) . (ز) .

يُؤتىٰ في منامه فيقال له : قُم فاخرج . فيقوم فلا يجد أحداً ، ثم يُؤتى الثانية فيقال له مثل ذلك ، ثم يقال له في الثالثة : قم فاخرج فانظر إلىٰ باب دارك . فينحدر في الثالثة إلىٰ باب داره ، فإذا هو بسبعة نفر أو تسعة ، معهم لواء فيقولون : نحن أصحابك ، مع رجل منهم لواء معقود لا يعرفون في لوائه النصر ، يستفرش يديه علىٰ ثلاثين ميلاً لا يرىٰ ذلك العَلَمَ أَحدٌ إلاَّ انهزم .

فيخرج فيهم ، ويتبعهم نَاسٌ من قريات الوادي ، وبيد السفياني ثلاث قُضبان لا يقرع بها أحداً إلاَّ مات ، فيسمع به الناس ، فيخرج صاحب دمشق فيلقاه ليقاتله ، فإذا نظر إلىٰ رايته انهزم ، فيدخل السفياني في ثلاث مئة وستين راكباً دمشق ، وما يمضي عليه شهر حتىٰ يجتمع عليه ثلاثون ألفاً من كلب ، وهم أخواله .

وعلامة خروجه : أنه يُخسَفُ بقرية من قُرىٰ دمشق ، ولعلها حَرسْتَا ، ويسقط الجانب الغربي من مسجدها .

ثم يخرج الأبقع والأصهب ، فيخرج السفياني من الشام ، والأبقع من مصر ، والأصهب من الجزيرة ؛ أي : جزيرة العرب لا جزيرة ابن عمر ، فإنها داخلة في جزيرة العرب .

ويخرج الأعرج الكندي بالمغرب ، ويدوم القتال بينهم سَنةً ، ويغلب السفياني على الأبقع والأصهب .

ويسير صاحب المغرب فيقتل الرجال ، ويسبي النساء ، ثم يرجع حتىٰ ينزل الجزيرة إلى السفياني علىٰ قيس ، فيظهر السفياني علىٰ قيس ، وَيَحُوزُ ما جمعوا من الأموال ، ويظهر على الرايات الثلاث .

تَنبِـيْه

الأبقع ، والأصهب ، والأعرج ، والمنصور ، والحارث ، والمهدي : صِفَاتٌ وألقاب ، لا أسماء لهم ، فَليُعْلم .

ثم يُقاتل الترك والروم بقرقيسيا فيظهر عليهم ، ويفسد في الأرض ، فيبقر بطون النساء ، ويقتل الصبيان ، ويهرب رجال من قريش إلىٰ قسطنطينية ، فيبعث إلىٰ عظيم

الروم أن يبعث بهم في المجامع ، فيبعث بهم إليه ، فيضرب أعناقهم علىٰ باب المدينة بدمشق ، ثم ينفتق عليهم فَتقٌ من خلفهم ، فيرجع إليهم ويقتل طائفة منهم ، فينهزمون حتىٰ يدخلوا أرض خراسان ، وتُقبل خيل السفياني في طلبهم كالليل والسيل ، فلا تمر بشيء إلاَّ أهلكته وهدمته ، فيهدم الحصون ، وَيُخرّب القلاع حتىٰ يدخل الزوراء ـ وهي : بغداد ـ فيقتل من أهلها مئة ألف ، ثم يسير إلى الكوفة ، فيقتل من أهلها ستين ألفاً ، ويسبي النساء والذراري ، ويبث جنوده في البلاد ، فتبلغ عامة المشرق من أرض خراسان ، ويطلبون أهل خراسان في كل وجه ، ويبعث بعثاً إلى المدينة ، فيأخذون من قدروا عليه من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقتلون من بني هاشم رجالاً ونساء ، ويُؤتىٰ بجماعة منهم إلى الكوفة ، وتفترق بقيتهم في البراري ، فعند ذلك يهرب المهدي والمُبَيَض ـ وفي رواية : والمنصور ـ إلىٰ مكة في سبعة أنفس ، ويستخفون هناك ، فيرسل صاحب المدينة إلىٰ صاحب مكة : إذا قدم عليكم فلان وفلان ـ يكتب أسماءهم ـ فاقتلوهم . فَيُعظِم ذلك صاحب مكة ، ثم يتآمرون بينهم ، فيأتونه ليلاً ويستجيرون به ، فيقول : اخرجوا آمنين . فيخرجون ، ثم يبعث إلىٰ رجلين منهم فيقتل أحدهما والآخر ينظر إليه ، ويقتلون النفس الزكية بين الركن والمقام ، فعند ذلك يَغْضَبُ الله ويَغْضَبُ أهل السماوات ، ثم يرجع الآخر إلىٰ أصحابه فيخبرهم ، فيخرجون حتىٰ ينزلوا جبلاً من جبال الطائف ، فيقيمون فيه ويبعثون إلى الناس ، فينساب إليهم ناسٌ ، فإذا كان كذلك غزاهم أهل مكة ، فيهزمون أهل مكة ، ويدخلون مكة ، ويقتلون أميرهم ، ويكونون بمكة إلىٰ خروج المهدي .

تَنبِـيه

ورد عن أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال لصاحب هٰذا الأمر ـ يعني : المهدي عليه السلام ـ غيبتان ؛ إحداهما تطول حتىٰ يقول بعضهم مات ، وبعضهم : ذهب ، ولا يَطّلِعُ علىٰ موضعه أَحدٌ ؛ من ولي ولا غيره ، إلا المولى الذي يلي أمره .

وهاتان الغيبتان ـ والله أعلم ـ ما مر آنفاً ، أنه يختفي بجبال الطائف ، ثم يَنْسَاب إليه ناسٌ ، ويظهر معهم ، ويهزم أهل مكة ، ثم إنه يختفي بجبال مكة ، ولا يَطّلِعُ عليه أَحدٌ .

ويؤيده : ما رُوي عن أبي جعفر ؛ محمد بن علي الباقر أنه قال : يكون لصاحب هـٰذا الأمر غَيبَةٌ في بعض هـٰذه الشعاب . وأومأ بيده إلىٰ ناحية ذي طوىٰ .

ويُلائمه : قول أبي عبد الله الحسين المار حتىٰ يقول بعضهم : مات. . . إلخ ؛ لأن الاختفاء بعد الظهور هو الذي يُظن فيه الموت .

وأما ما ذهب إليه الإمامية الشيعة من أنه محمد بن الحسن العسكري ، وأنه غاب ثم ظهر لبعض خواص شيعته ، ثم غاب ثانياً ، وأنه يراه خواص شيعته : فيرده أن الظهور لبعض الخواص لا يُسمىٰ ظُهوراً .

وقوله في رواية الحسين : لا يطلع علىٰ موضعه أَحدٌ من ولي ولا غيره . فإن هـٰذا يُنافي قولهم : يعرفه خواص شيعته ، وكونه بناحية ذي طوىٰ ؛ لأنهم يقولون : غاب بسردَابٍ بِسُرَّ من رأىٰ . والله أعلم .

ويحج الناس في هـٰذه السنة ؛ أعني : سنة خروجه من غير أمير ، فيطوفون جميعاً فإذا نزلوا مِنَىٰ أخذ الناس كالكَلِبْ ، فيثور القبائل بعضهم علىٰ بعض فيقتتلون ، ويُنْهبُ الحاج ، وتسيل الدماء علىٰ جمرة العقبة ، ويأتي سبعة رجال علماء من آفاق شتى علىٰ غير ميعاد ، وقد بايع لكل منهم ثلاث مئة وبضعة عشر ، فيجتمعون بمكة ، ويقول بعضهم لبعض : ما جاء بكم ؟ فيقولون : جئنا في طلب هـٰذا الرجل الذي ينبغي أن تَهدَأَ علىٰ يديه الفتن ، ويفتح له قسطنطينية ، قد عرفناه باسمه واسم أبيه وأمه .

تَنبِـيه

لم أقف على اسم أُمِّ المهدي بعد الفحص والتَّتَبُّع ، فلعلهم يعرفون اسمه من طريق الكشف ، لا من طريق النقل ، والله أعلم .

فيتفق السبعة علىٰ ذلك ، فيطلبونه بمكة فيقولون : أنت فلان ابن فلان ؟ فيقول : بل أنا رجلٌ من الأنصار ، فينفلت منهم ، فيصفونه لأهل الخبرة فيه والمعرفة به ، فيقولون : هو صاحبكم الذي تطلبونه وقد لحق بالمدينة . فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم إلىٰ مكة ، وهـٰكذا إلىٰ ثلاث مرات .

ويسمع صاحب المدينة بطلب الناس للمهدي ، فيجهز جيشاً في طلب الهاشميين

بمكة ، ويأتي أولـئك السبعة فيصيبونه بالثالثة بمكة عند الركن ، ويقولون : إِثْمُنا عليك ، ودِماؤُنا في عنقك إن لم تَمُدّ يدك نبايعك ، هـٰذا عسكر السفياني قد توجه في طلبنا عليهم رجلٌ من حزم . ويهددونه بالقتل إن لم يفعل .

فيجلس بين الركن والمقام ويمد يده فيُبايع ، فيظهر عند صلاة العشاء مع راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقميصه وسيفه .

فإذا صَلّى العشاء أتى المقام فصلىٰ ركعتين ، وَصَعِد المنبر ، ونادىٰ بأعلىٰ صوته : أذكركم الله أيها الناس ومقامكم بين يدي ربكم .

ويخطب خطبة طويلة يرغبهم فيها في إحياء السُّنن ، وإماتة البِدَع ، فيظهر في ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً عدد أهل بدر ، وعدد أصحاب طالوت حين جاوزوا معه النهر ، من أبدال الشام ، وعصائب أهل العراق ، ونجائب مصر ، علىٰ غير ميعاد قُزَعاً كَقُزَع الخريف ، رهبان بالليل أُسدٌ بالنهار .

ويأتيهم جيش صاحب المدينة فيقاتلونه ، فيهزمونهم ويتبعونهم حتىٰ يدخلون المدينة ويستنقذونها من أيديهم .

تَنبِيه

لا يشكل إتيانهم المدينة مرتين أو ثلاثاً مع وقوع البيعة ليلة عاشوراء ، وإن المدة بعد انقضاء المناسك إلىٰ ليلة عاشوراء قَريبٌ من عشرين يوماً ، أو خمسة وعشرين يوماً ، ومسافة ما بين الحرمين عشر مراحل أو أكثر بالسير المعتاد ، مع ما يتخلل ذلك من طلبهم له في كل من الحرمين في كل مرة ؛ إذ يمكن الإتيان على الركاب في خمسة أيام ، فيمكن تكرره في خمس وعشرين ، علىٰ أنهم كُلّهم أولياء فيمكن أن تُطوىٰ لهم الأرض ، أو يكونوا من أصحاب الخطوات ، والله أعلم[1] .

ويبلغ السفياني خروجه ، فيبعث إليهم بعثاً من الكوفة ، فيأتون المدينة فيستبيحونها ثلاثاً ، ويقتلون قتلاً في الحرة عنده كضربة سوط ، ويقصدون المهدي ، فإذا خرجوا

(١) منشأ هـٰذا القول من المُصَنِّف عدم تصور التطور في وسائل النقل السريعة وتسهيل الطرقات ، وهـٰذا مشاهدٌ في عصرنا الحاضر ، والله أعلم بما سيستجد مستقبلاً .

من المدينة وكانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بأولهم وآخرهم ، ولم يَنْجُ أوسطهم ، فلا ينجو منهم إلاَّ نَذيرٌ إلى السفياني ، وبشيرٌ إلى المهدي ، فلما سمع المهدي بذلك قال : هـٰذا أوان الخروج . فيخرج ويمر بالمدينة ، فيستنقذ من كان أسيراً من بني هاشم ، وتُفتح له أرض الحجاز كلها .

ولنرجع إلىٰ حكاية أهل خراسان : ثم يخرج رجل من وراء النهر يقال له : الحارث وحراث ، علىٰ مقدمته رجلٌ يقال له : المنصور[1] يمكِّن لآل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما مَكّنت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجب علىٰ كل مؤمن نصره ، فهـٰذا الرجل يَحتَمِل أن يكون هو الهاشمي الآتي ذكره ، ويلقب بـ : الحارث ؛ كما يلقب المهدي بـ: بالجابر ، ويَحتمل أن يكون غيره ، ويثور أهل خراسان بعسكر السفياني ، ويكون بينهم وقعات ، وقعة بتونس ، ووقعة بدولاب الري ، ووقعة بتخوم الدرنيخ .

فإذا طال عليهم قتالهم إياه بايعوا رجلاً من بني هاشم بكفه اليمنىٰ خَالٌ ، سهل الله أمره وطريقه ، هو أخو المهدي من أبيه أو ابن عمه ، وهو حينئذ بآخر المشرق ، فيخرج بأهل خراسان وطَالَقان ومعه الرايات السود الصغار ، وهـٰذه غير رايات بني عباس ، علىٰ مُقَدّمته رَجلٌ من تميم من الموالي ، رَبعَةٌ أصفر قليل اللحية كوسج ، واسمه شعيب بن صالح التميمي ، يخرج إليه في خمسة آلاف ، فإذا بلغه خروجه شايعه وصيره علىٰ مقدمته ، لو استقبلته الجبال الرواسي لهدها ، يمهد الأمر للمهدي ؛ كما مهدت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم براياتٍ سوداء أقبلت من خراسان فَأْتوها ولو حبواً على الثلج »[2] .

---

(١) وحكى القاري (٥/ ١٨٤) : قيل : إن المراد أبو منصور الماتريدي ، وقيل : الخضر . والحديث أخرجه أبو داود (ز) .

(٢) فقد أخرج معناه في « المشكاة » برواية أحمد ، عن ثوبان رضي الله عنه ، قال القاري (٥/ ١٨٥) : « يحتمل أن يكون السواد كناية عن كثرة العساكر ، والظاهر أنها عساكر الحارث والمنصور » . اهـ
وأخرجه الترمذي برواية أبي هريرة رضي الله عنه (٢/ ٥٦) (ز) .

وعن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : لو كنت في صندوق مُقفلٍ فاكسر ذلك القفل والصندوق والحق بها .

وفي رواية : فإنَّ فيها خليفة الله المهدي ـ أي : فيها نصره ـ ، وإلاَّ فهو حينئذ بمكة ، كما مر .

فيلتقي هو وخيل السفياني ، فيقتل منهم مَقتلةٌ عظيمة ببيضاء اصطخر حتىٰ تطأ الخيل الدماء إلىٰ أرساغها ، ثم يأتيه جنود من قبل سجستان عظيمة عليهم رجلٌ من بني عدي ، فيظهر الله أنصاره وجنوده .

تَنبِـيْه

هٰكذا الروايات ، وهٰذه الجنود يَحتَمِل أن تكون مدداً للهاشمي ، فالمعنىٰ : فيظهر الله أنصاره عليهم . والله أعلم .

ثم تكون وقعةٌ بالمدائن بعد وقعة الري ، وفي عاقرقوقا وقعة صلبة يُخبر عنها كل ناج ، وَتُقْبِلُ الرايات السود حتىٰ تنزل على الماء . هٰكذا أطلق في الحديث ، ولعله ماء دجلة .

فيبلغ من في الكوفة من أصحاب السفياني نزولهم هناك فيهربون ، ثم ينزل الكوفة حتىٰ يستنقذ من فيها من بني هاشم ، ثم يخرج قَومٌ من سواد الكوفة يقال لهم : العَصَبْ ، ليس معهم سلاحٌ إلاَّ قليل ، وفيهم بعض أهل البصرة قد تركوا أصحاب السفياني ، فيستنقذون ما في أيديهم من سبي الكوفة ، وتبعث الرايات السود بيعتهم إلى المهدي ، ويُقبِلُ المهدي من الحجاز ، والسفياني من الكوفة ـ بعد أن يبلغه خبر خَسْف جيشه ، ولا يهوله ذلك ـ إلى الشام كأنهما فرسا رهان ، فيسبقه الصخري[1] ، فيقطع بعثاً آخر من الشام إلى المهدي ، فيدركون المهدي بأرض الحجاز ، فيبايعونه بيعة المهدي ، ويُقبلون معه إلى الشام .

---

(١) هو : السفياني ، ولعل سبب تسميته بذلك لأنه يُذبح علىٰ صخرةٍ عند الكنيسة التي ببطن الوادي ؛ كما سيأتي (ص١٩٤) .

تَنبِيه

في بعض الروايات : أنَّ الجيش الذي يُخسف بهم يبعث من الشام ، وفي بعضها من العراق ، ولا منافاة كما قال ابن حجر ؛ لأنَّ البعث من العراق ، لـٰكنهم لما كانوا من أهل الشام نُسِبُوا إليها في الروايات الأخرىٰ .

وفي رواية : أنَّ المهدي يُقاتل هـٰذا الجيش الثاني في عدد أهل بدر ، وأصحاب المهدي يومئذ جُنَّتهم البرادع ، فيسمع يومئذ صوت من السماء : ألا إنَّ أولياء الله أصحاب فلان . يعني : المهدي ، فتكون الدَّبْرَةَ علىٰ أصحاب السفياني ، فيقتلون لا يبقىٰ منهم إلاَّ الشريد ، فيهربون إلى السفياني فيخبرونه .

ويمكن الجمع بأنَّ بعضهم يُبايعه ، وبعضهم يُقاتله ، فينهزمون ، أو أن الذين يقاتلونه هم الذين يبعثهم صاحب المدينة الأمير من قبل السفياني إلىٰ مكة ؛ كما مرت الإشارة إليه .

ويُؤيده: أنه يُقاتلهم في عدد أهل بدر ، وأن جُنّتهم يومئذ البرادع ، فإنَّ هـٰذه الصفات تناسب حالهم عند ابتداء البيعة .

وأما بعد الاستيلاء علىٰ أرض الحجاز فعسكره كثير . والله أعلم .

ثم إن السفياني يُفسد في الأرض ، ويُظهر الكفر حتىٰ إنه يُطاف بالمرأة وتُجامع نهاراً في مسجد دمشق علىٰ مجلس شُربٍ ، حتىٰ تأتي فخذ السفياني فتجلس عليه وهو في المحراب قاعد ، فيقوم إليه رَجُلٌ مُسلمٌ من المسلمين ، فيقول : ويحكم أكفرتم بعد إيمانكم ؟! إن هـٰذا لا يحل . فيقوم إليه فَيَضرب عُنقه في المسجد ، ويقتل كل من شايعه .

فعند ذلك يُنادي مُنادٍ من السماء : أيها الناس ؛ إن الله قد قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم ، وولاكم خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالحقوا بمكة ؛ فإنه المهدي واسمه : أحمد بن عبد الله .

ويسير المهدي بالجيوش حتىٰ يصير بوادي القُرىٰ ، وهو من المدينة علىٰ مرحلتين إلىٰ جهة الشام في هدوء ورفق ، ويلحقه هناك ابن عمه الحسني في اثني عشر ألفاً ،

فيقول له : يا بن عم ؛ أنا أحق بهٰذا الأمر منك ، أنا ابن الحسن ، وأنا المهدي . فيقول له المهدي : بل أنا المهدي . فيقول الحسني : هل لك من آية فأبايعك ؟ فَيومىء المهدي عليه السلام إلى الطير فيسقط علىٰ يديه ، ويغرس قضيباً يابساً في بقعة من الأرض فيخضر ويورق . فيقول الحسني : يا بن عمي ؛ هي لك .

تَنبِيه

في هٰذا الحديث فائدةٌ ، وإشكال :

أما الفائدة : فإنها تدل علىٰ أن المهدي من أولاد الحسين ، وأن ابن عمه هٰذا حسني ، وأنه يظن أن الخلافة في بني الحسن حيث يقول : أنا ابن الحسن .

ومستنده في هٰذه الدعوىٰ ـ والله أعلم ـ أمران :

أحدهما : أن الحسن ٱسْتُخلفَ ؛ فيكون أولاده أحق بها .

الثاني : أنه نزل عنها حقناً لدماء المسلمين ، فعوضه الله الخلافة في أولاده .

وكلا الأمرين مُعارَضٌ :

أما الأول : فلأن بيعة الحسن من بعض الناس ؛ وهم أهل العراق والمشرق واليمن ، دون أهل الشام والمغرب ومصر ، وقد بايع بعضهم للحسين أيضاً .

وأما الثاني : فلأن الحسن قد فَوّتَ حقه بعد ما ناله ، وأما الحسين فلم ينل ما أراد ، فحقه باقٍ ، فأعطاه الله في أولاده .

وأما الإشكال : فهو أن هٰذا الحسني إن كان الذي قدم بالرايات السود فقد مر أنه بعثَ بالبيعة من الكوفة ، وأنه لا يَقدمُ الحجاز ، وإنما يلقاه ببيت المقدس .

وإن كان غيره فكيف ينازعه بعد أن بايعه أهل الحجاز كلها ، وبايعه أهل المشرق والعراق ؟

والجواب : أنه إن قلنا إن القادم بالرايات أخوه ؛ كما في بعض الروايات فهٰذا غيره ، **وحينئذ فوجه دعواه** : أن البيعة للمهدي من أهل البيت كائناً من كان ، فهي بيعةٌ للمتصف بهٰذا الوصف لا لشخصٍ بعينه فيدعي أن البيعة له لأنه المهدي ، لا لأنه ينازعه في الخلافة ، فإذا ظهر له أنه ليس بمهدي بايعه .

وإن قلنا : إنه ابن عمه : فإن كان غير هٰذا الحسني **فالجواب ما مر** . وإن كان هو فمعنىٰ ملاقاته أنه يُرسل إليه جماعة اثني عشر ألفاً إمداداً واحتياطاً أن لا يكون هو المهدي ، فينازعوه على الخلافة ويُؤمر عليهم واحداً ، ويأمره بأن يمتحنه ويوكله في البيعة ، فيقول له : إن كان هو المهدي فبايعه عني ، وإن كنت أنا المهدي فخذ لي منه البيعة ، فيكون بعث البيعة على التردد .

فلما بايعوه صح أن يقال : بعثوا له بالبيعة . وأن يقال : لقيه مجازاً .

هٰذا ما ظهر لي في هٰذا المقام ، والله أعلم .

فيقبل المهدي حتىٰ إذا انتهىٰ إلىٰ حد الشام الذي بين الشام والحجاز فيقيم بها ، ويقال له : انفذ . فيكره المجاز ، ويقول : أنا أكتب إلى ابن عمي - يعني : الصخري - فإن خلع طاعتي فأنا صاحبكم . فإذا أتاه كتاب المهدي قال أصحابه : إن هٰذا المهدي قد ظهر لتبايعنه أو لنقتلنك . فيبايعه ويسير إليه حتىٰ ينزل بيت المقدس ، ولا يترك المهدي بيد رجل من أهل الشام فتراً من الأرض إلاَّ ردها إلىٰ أهل الذمة ، ورد المسلمين جميعاً إلى الجهاد ، ثم يخرج رجل من كلب يقال له : كنانة ، بعينه كوكب ، في رهطٍ من قومه حتىٰ يأتي الصخري فيقول : بايعناك ونصرناك ، حتىٰ إذا مَلكت بايعت هٰذا الرجل . ويعيرونه فيقولون : كساك الله قميصاً فخلعته . فيقول : ما ترون ، أنقض العهد ؟ فيقولون : نعم ، فلنقاتلن ، لا تبقىٰ عامرية أمها أكبر منك إلاَّ لحقتك، لا يتخلف عنك ذات خف ولا ظلف ، فيرتحل وترحل معه عامر بأسرها .

وفي رواية : أنه ينقض العهد ، ويستقيله البيعة بعد مضي ثلاث سنين من بيعته إياه ، ويوجه إليهم المهدي راية ، وأعظم رايةٍ في زمان المهدي مئة رجل .

فتصف كلب خيلها ، ورجلها ، وإبلها ، وغنمها ، فإذا تسامت الخيلان ولت كلب أدبارها فيقتلونهم ويسبونهم حتىٰ تباع العذراء منهم بثمانية دراهم ، ويؤخذ الصخري - أي : السفياني - فيؤتىٰ به أسيراً إلى المهدي ، فَيُذْبح على الصخرة المعترضة علىٰ وجه الأرض عند الكنيسة التي ببطن الوادي علىٰ طرف درج طور زيتا المقنطرة التي على الوادي ؛ كما تُذْبَحُ الشاة .

قال صلى الله عليه وسلم : « الخائب من خاب يومئذ من غنيمة كلب ولو بعقال ، قيل : يا رسول الله ؛ كيف يغنمون أموالهم ويسبون ذراريهم وهم مسلمون ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يكفرون باستحلالهم الخمر والزنا » .

ويأتي الهاشمي بالرايات السود وسيفه علىٰ عاتقه ثمانية أشهر .

وفي رواية : ثمانية عشر شهراً ، يَقتل وَيُمَثّلُ حتىٰ يقول الناس : معاذ الله أن يكون هٰذا من ولد فاطمة ، ولو كان لرحمنا .

يغريه الله ببني عباس وبني أمية ، فيكون لهم وقعةٌ بأرضٍ من أرض نصيبين ، ووقعة بحران وشعارهم : أَمِت أَمِت ـ وفي رواية : بِكُشْ بِكُشْ . والمعنىٰ واحد ـ حتىٰ يُسلموها إلى المهدي .

تَنبِيه

في بعض الروايات : يحمل السيف علىٰ عاتقه ثمانية أشهر ، وفي بعضها : ثمانية عشر شهراً ، وفي رواية : اثنين وسبعين شهراً ؛ وهي مدة ست سنين .

وفي بعض الروايات : أنه يُسَلّمُ الرايات إلى المهدي ببيت المقدس .

وفي رواية : فلا يبلغه حتىٰ يموت .

وفي رواية : فتلتقي بعض رايات الهاشمي مع خيل السفياني ، فيكون بينهم مقتلة عظيمة وتنهزم خيل السفياني ، ثم تكون الغلبة للسفياني فيهرب الهاشمي ، ويأتي التميمي مُستخفياً إلىٰ بيت المقدس يُمَهّد للمهدي إذا خرج للشام .

وطريق الجمع بين الروايات الأُوَل : أن اثنين وسبعين باعتبار جميع مدته .

ويَدُلُّ له ما في بعض الروايات : « إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً حتىٰ يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون ، فينصرون ، فيعطون ما سألوا ، فلا يقبلونه حتىٰ يسلموه إلى المهدي » .

وثمانية عشر باعتبار ما بعد مدة قتاله مع خيل السفياني ، واجتماع شعيب بن صالح به .

وثمانية أشهر باعتبار مدة ما بعد نزوله الكوفة ، وبعثه بالبيعة إلى المهدي .

وهٰذا جمعٌ حسن لا بأس به .

وطريق الجمع بين الروايات الأخيرة : وهو أن يقال ـ علىٰ بعد ـ : إن ضمير « يموت » راجعٌ إلى السفياني ؛ أي : فلا يلقى الهاشمي المهدي حتىٰ يموت السفياني أو يرجع إليه ، ويكون القادم بالرايات التميمي ، ونسبته إلى الهاشمي مجاز للسبب ، أو أنه يُوصل الرايات ويفتح الشام ، ويموت قبل اجتماعه به بقليل .

علىٰ أن روايات قدومه بالرايات ، ووصوله إليه أكثر وأشهر ، فَتُقدّم عند عدم إمكان الجمع ، وإنما تتساقط إذا تعارضت ، وكذلك روايات النصر والغلبة أكثر من روايات الهزيمة ، فَتُقدّم ، **ولو جُمِعَ فوجه الجمع** : أنه ينهزم في بعض الوقعات ، ثم تكون له الغلبة بعد ذلك ، والله أعلم .

ثم تتمهد الأرض للمهدي ، ويلقي الإسلام بجرانه ، ويدخل في طاعته ملوك الأرض كلهم ، ويبعث بعثاً إلى الهند فتفتح ويؤتىٰ بملوك الهند إليه مغلولين ، وتنقل خزائنها إلىٰ بيت المقدس فتجعل حِليةً لبيت المقدس ، ويمكث في ذلك سنين .

ذكر الملحمة الكبرىٰ

وذلك أن بعد هلاك السفياني يُهَادِنون الروم صُلحاً أمناً .

وفي بعض الروايات : أن مدة المهادنة تسع سنين ، حتىٰ يغزو المسلمون وهم عدواً من وراءهم ، فينتصرون ويغنمون وينصرفون حتىٰ ينزلوا بمرج ذي تلوم ، وهو موضع .

فيقول قائلٌ من الروم : غَلَبَ الصليب . ويقول قائل من المسلمين : بل الله غلب . فيتداولانها بينهم ، فيثور المسلم إلىٰ صليبهم وهو منهم غير بعيد ، فيدقه ، وتثور الروم إلىٰ كاسر صليبهم فيقتلونه ، وتثور المسلمون إلىٰ أسلحتهم فيقتتلون ، فيكرم الله تلك العِصَابة من المسلمين بالشهادة ، فَيُقْتَلُونَ عن آخرهم .

فتقول الروم لملكهم : كفيناك شر العرب ، وقتلنا أبطالها ، فما تنتظر ؟ فيجمعون في مدة تسعة أشهر مقدار حمل امرأة ، فيأتون تحت ثمانين غاية .

وفي لفظ : فيسيرون بثمانين بنداً ، والمعنىٰ واحد .

تحت كل غاية أو بند اثنا عشر ألفاً ، فينزلون بالأعماق أو بدابق ، وهما موضعان قرب حلب وأنطاكية .

قال في « القاموس » : العَمْق ويحرك : كُورةٌ بنواحي حلب . قال والأعماق : موضع بين حلب وأنطاكية مصب مياه كثيرة لا يجف إلاَّ صيفاً ، وهو العَمْقُ جُمِعَ بأجزائه . اهـ

فيخرج إليهم جَلَبٌ من أهل المدينة من خيار أهل المدينة يومئذ وهم الذين خرجوا مع المهدي ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم . فيقول المسلمون : لا والله لا نُخَلِّي بينكم وبين إخواننا .

تَنبِيْه

(الغاية) : ـ بالغين المعجمة ، والياء ؛ آخر الحروف ـ : الراية .

ويُروىٰ بالباء الموحدة ، وهي : الأَجمةُ من القصب ، شَبَّه كثرة رماحهم بها .

و(الأعماق) ، بالعين المهملة .

و(الدَّابق) : بوزن الطابع ؛ بكسر الباء وفتحها .

و(سبوا) ، وروي بضم السين والباء علىٰ بناء المجهول ، وبفتحهما علىٰ بناء المعلوم .

والمعنىٰ على الأول : الذين سبيتموهم منا ، وخرجوا عن ديننا ، وصاروا يقاتلوننا .

وعلى الثاني : الذين سبوا أولادنا ونساءنا .

فينهزم من المسلمين ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح ثلث لا يفتنون أبداً .

وفي رواية نُعيم بن حماد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « يكون بين المسلمين وبين الروم هدنة وصلح ، حتىٰ يقاتلوا معهم عدوهم فيقاسمونهم غنائمهم ،

ثم إن الروم يغزون مع المسلمين فارس ، فيقتلون مُقَاتِلهم ، ويسبون ذراريهم ، فتقول الروم : قاسمونا الغنائم كما قاسمناكم . فيقاسمونهم الأموال وذراري الشرك ، فتقول الروم : قاسمونا ما أصبتم من ذراريكم . فيقولون : لا نقاسمكم ذراري المسلمين أبداً . فيقولون : غدرتم بنا . فترجع الروم إلىٰ صاحب القسطنطينية فيقولون : إن العرب غدرت ، ونحن أكثر منهم عدداً ، وأتم منهم عدة ، وأشد منهم قوة ، فأمددنا نقاتلهم . فيقول : ما كُنت لأغدر بهم ، ولقد كانت لهم الغلبة في طول الدهر علينا ، فيأتون صاحب رومية فيخبرونه بذلك ، فيوجه ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً في البحر ، ويقول لهم صاحبهم : إذا أرسيتم بسواحل الشام فاحرقوا المراكب ؛ لتقاتلوا عن أنفسكم . فيفعلون ذلك ، ويأخذون أرض الشام كلها ، برها وبحرها ما خلا مدينة دمشق والمُعْتَق ، ويخربون بيت المقدس » .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فقلت : كم تسع دمشق من المسلمين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لتتسعنَّ علىٰ من يأتيها من المسلمين ؛ كما يتسع الرحم على الولد » ، قلت : وما المُعْتَق يا نبي الله ؟ قال : « جبلٌ بأرض الشام من حمص علىٰ نهر يقال له : الأريط » .

فيكون ذراري المسلمين في أعلى المعتق ، والمسلمون علىٰ نهر الأريط يقاتلونهم صباحاً ومساء ، فإذا أبصر صاحب القسطنطينية ذلك وجه في البر إلىٰ قنسرين ثلاث مئة ألف ، حتىٰ تجيئهم مادة اليمن ألف ألف ، أَلَّفَ الله بين قلوبهم بالإيمان ، معهم أربعون ألفاً من حمير ، حتىٰ يأتوا بيت المقدس ، فيقاتلون الروم فيهزمونهم ، ويخرجونهم من جُنْدٍ إلىٰ جند ، حتىٰ يأتوا قنسرين ، تجيئهم مادة الموالي .

قلت : وما مادة الموالي يا رسول الله ؟

قال : « هم عَتَاقتكُم ، وهم منكم قوم يجيئون من قبل فارس ، فيقولون : تعصبتم يا معشر العرب ، لا يكون معكم أحدٌ من الفريقين ، أتجتمع كلمتكم فنقاتل نزاراً يوماً والموالي يوماً ؟ .

فيخرجون إلى المعتق وينزل المسلمون علىٰ نهر يقال له : كذا وكذا ـ يُعزىٰ ـ ، والمشركون علىٰ نهر يقال له : الرقية ؛ وهو النهر الأسود ، فيقاتلونهم ، فيرفع الله

نصره عن العسكرين ، وينزل الصبر عليهما ، حتىٰ يقتل من المسلمين الثلث ، ويفر الثلث ، ويبقى الثلث .

فأما الذين يقتلون : فشهيدهم ؛ كشهيد عشرة من شهداء بدر ، ويشفع الواحد من شهداء بدر بسبعين شهيداً ، ويفترقون ثلاثة أثلاث :

ثلثٌ يلحقون بالروم ، ويقولون : لو كان لله بهـٰذا الدِّين من حاجة لنصرهم .

ويقول ثلث وهم مُسْلِمةُ العرب : مروا حيث لا ينالنا الروم أبداً ، مروا بنا إلى البدو وهم الأعراب ، سيروا بنا إلى العراق واليمن والحجاز ، حيث لا يُغاثُ الروم .

وأما الثلث : فيمشي بعضهم إلىٰ بعض فيقولون : الله الله فدعوا عنكم العصبية ، ولتجتمع كلمتكم ، وقاتلوا عدوكم ، فإنكم لن تنصروا ما تعصبتم ، فيجتمعون جميعاً يتبايعون علىٰ أن يقاتلوا حتىٰ يلحقوا بإخوانهم الذين قتلوا .

فإذا أبصر الروم إلىٰ من تحول إليهم ومن قتل ، ورأوا قلة المسلمين قام رُوميٌّ بين الصفين ومعه بند في أعلاه صليب ، فينادي : غَلبَ الصليب . فيقوم رجلٌ من المسلمين بين الصفين ومعه بندٌ وينادي : بل غلب أنصار الله ، بل غلب أنصار الله وأولياؤه . فغضب الله على الذين كفروا من قولهم : غَلبَ الصليب .

فينزل جبريل عليه السلام في مئتي ألف من الملائكة ويقول : يا ميكائيل ؛ أغث عبادي . فينزل ميكائيل في مئتي ألف من الملائكة ، ويُنْزِلُ الله نصره على المؤمنين ، ويُنْزِل بأسه على الكافرين ، فَيُقْتَلون ويهزمون .

ويسير المسلمون في أرض الروم حتىٰ يأتوا عمورة وعلىٰ سورها خلقٌ كثير يقولون : ما رأينا شيئاً أكثر من الروم! كم قتلنا وهرقنا دم أكثرهم في هـٰذه المدينة! فيقولون : آمنونا علىٰ أن نُؤَدي إليكم الجزية . فيأخذون الأمان لهم ، وتجتمع الروم علىٰ أداء الجزية ؛ تجتمع إليهم أطرافهم فيقولون : يا معشر العرب ؛ إن الدجال قد خالفكم إلىٰ ذراريكم ـ والخبر باطلٌ ـ فمن كان فيهم منكم فلا يُلقين شيئاً مما معه ، فإنه قوةٌ لكم علىٰ ما بقي .

فيخرجون فيجدون الخبر باطلاً ، وتَثِبُ الروم علىٰ من بقي في بلادهم من العرب ،

فيقتلونهم حتىٰ لا يبقىٰ بأرض الروم عربي ولا عربية ولا ولد عربي إلا قتل ، فيبلغ ذلك المسلمين فيرجعون غَضَباً لله ، فيقتلون مقاتلهم ، ويسبون ذراريهم ، ويجمعون الأموال ، ولا ينزلون علىٰ مدينة ولا حصن فوق ثلاثة أيام حتىٰ يُفتح لهم .

وينزلون على الخليج حتىٰ يفيض ، فيصبح أهل القسطنطينية فيقولون : الصليب مدَّ لنا بحرنا ، والمسيح ناصرنا . فيصبحون والخليج يابس ، فتضرب فيه الأخبية ، ويُحبس البحر عن القسطنطينية ، فيقولون : الصليب مد لنا . ويُحيطُ المسلمون بمدينة الكفر ليلة الجمعة بالتحميد والتكبير والتهليل إلى الصباح ، ليس فيهم نائم ولا جالس ، فإذا طلع الفجر كَبّر المسلمون تكبيرةً واحدة ، فيسقط ما بين البرجين ، فتقول الروم : كنا نقاتل العرب ، فالآن نقاتل ربنا ، وقد هدم لهم مدينتنا ، وخربها لهم . فيملؤون أيديهم ، ويكيلون الذهب بالأترسة ، ويقتسمون الذراري حتىٰ يبلغ سهم الرجل ثلاث مئة عذراء ، ويتمتعون بما في أيديهم ما شاء الله .

ثم يخرج الدجال حقّاً ، ويَفْتَحُ الله القسطنطينية علىٰ يدي أقوام هم أولياء الله ، يرفع الله عنهم الموت والمرض والسقم حتىٰ ينزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام فيقاتلون معه الدجال » .

أورد هـٰذا الحديث بطوله السيوطي في « الجامع الكبير » .

تَنبِيه

قوله : « يكون بين الروم والمسلمين هُدنة حتىٰ يقاتلوا معهم عدوهم » : الضمير للروم ؛ أي : حتىٰ يقاتل المسلمون مع الروم عدو الروم ، بدليل قولهم بعد هـٰذا للمسلمين : قاسمونا الغنائم كما قاسمناكم . وفارس يكونون عدوّاً للمسلمين .

وهـٰذا إما أن يقاتلوا المهدي وهم مسلمون ؛ كما يقاتل بعض المسلمين بعضاً على الملك ، وهو ظاهر قولهم : (لا نقاسمكم ذراري المسلمين) ، أو أنهم يرجعون إلى الكفر ، وهو ظاهر قوله : « فيقاسمونهم الأموال وذراري الشرك » ، وهو المناسب للاستعانة بالروم عليهم ، والروم كفارٌ ؛ لعدم جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وحينئذ فيكونون قد سبوا من أطراف بلاد المسلمين بعض الذراري .

ثم لما استولوا عليهم استردوا ذراريهم ، وطلبت الروم منهم المقاسمة فيهم حيث صاروا في يد الكفار .

واستفيد من هـٰذه الرواية: أن الروم تأتي من البحر ، فلا يلزم من وصولهم دابق أو الأعماق ـ وهما بقرب حلب ـ استيلاؤهم علىٰ جميع بلاد المسلمين حتىٰ يُظَنّ أن القسطنطينية التي الآن دار الإسلام دامت معمورة به إلىٰ ساعة القيام ترجع دار الكفر والعياذ بالله ؛ إذ المراد القسطنطينية الكبرىٰ ، كما سيأتي .

نعم ؛ يُشْكل عليه قوله الآتي : « فإذا أبصر صاحب القسطنطينية ذلك وجه في البر ثلاث مئة ألف إلىٰ قنسرين » ، إلا أن يقال : إن صاحب القسطنطينية يُرسلهم مدداً للمسلمين ، ولا ينافيه قوله الآتي : (فلما رأوا قِلّةَ المسلمين) ؛ لأن ثلاث مئة ألف في جنب ثمانين غاية تحت كل غاية منها اثنا عشر ألفاً قليل ، ولا سيما أن ذلك إنما يُقال بعد قتل من قتل ، وتحول من يتحول إلى الروم منهم ، أو يُقال : إن أهل القسطنطينية لما جاؤوا إلى المهدي تَخْلِفُهم الكفرة في بلادهم ، فيأخذونها كما يأخذون أرض الشام ، وهـٰذا هو الظاهر .

قال في « القاموس » : قسطنطينة ، أو بزيادة ياء مشددة ، وقد تضم الطاء الأولىٰ منهما : دار مُلكِ الروم . وفتحها من أشراط الساعة ، وتسمىٰ بالرومية : بوزنطيا . وارتفاع سورها أحد وعشرون ذراعاً ، وكنيستها مستطيلة ، وبجانبها عمود عالٍ من دور أربعة أبواع تقريباً ، وفي رأسه فرسٌ من نحاس وعليه فارس ، وفي إحدىٰ يديه كورة من ذهب ، وقد فتح أصابع يده الأخرىٰ مشيراً بها وهو صورة قسطنطين ؛ بانيها .

وقوله : « ما خلا دمشق » : يوافقه ما في الرواية الأخرىٰ أن فسطاط المسلمين عند الملحمة الكبرىٰ دمشق ، وعند خروج الدجال بيت المقدس . وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وَالأُرَيط ؛ قال في « القاموس » : كَزُبير ؛ موضع ، وقد ذكر في الحديث أنه عند حمص ، فيحتمل أن يكون النهر نفسه ، أو موضعاً أضيف إليه النهر .

وقوله : « فشهيدهم كشهيد عشرة » . . . إلىٰ قوله : « بسبعين شهيداً » ، معناه :

أن لكل شهيد شفاعة يوم القيامة ، وأن لشهيد بدر شفاعة سبعين شهيداً ، وأن لهـٰؤلاء الشهداء لكل واحد شفاعة عشرة من أهل بدر ، فيكون لكل واحدٍ منهم شفاعة سبع مئة شهيد .

وهـٰذا من قبيل قوله صلى الله عليه وسلم : « للواحد منهم أجر خمسين منكم » ، فلا يلزم منه تفضيلهم علىٰ أهل بدر مُطلقاً ؛ لأن فضيلة الصحبة لا يُعادلها شيء .

وسيأتي أنَّ التحقيق أن جهات التفضيل مختلفة ، فيمكن أن يُفضل هـٰؤلاء من جهة وأولـٰئك من جهة أخرىٰ ، أو لأن بلاء أحدهم كبلاء عشرة من أهل بدر ؛ لكثرة من يقاتلونهم من الروم ، ولبعد زمن النبوة عنهم .

ويُؤيده: أن الملائكة المنزلين مدداً لهم أكثر من البدرية بمئة أمثالهم ، فإن المقاتلين ببدر من الملائكة كانوا ثلاثة آلاف ، وفي ذلك اليوم يكونون ثلاث مئة ألف .

ولا ينافي هـٰذا ما مر في سيرته أنه يُمد بثلاثة آلاف من الملائكة ؛ لأن هـٰذا في خصوص هـٰذه الملحمة ، وذلك في عموم خلافته .

وعَمُّور : وجدناه في ثلاث نُسخ بغير هاء التأنيث وياء النسب ، والذي في « القاموس » وغيره : عَمُّورية بهاء ، فَلعل فيه لغةً أو نقصاً من النسخ .

وقول الروم في المرة الأولى : (الصليب مَدّ لنا) ؛ معناه : مَدّ الخليج لنا حيث فاض ماؤه وزاد . وفي الثانية معناه : إنكار القول الأول وتكذيب من قال ذلك منهم ، فهو بحذف همزة الاستفهام إلى الإنكار .

يدل لذلك قولهم : (كنا نُقاتل العرب فالآن نقاتل ربنا). . . إلخ وتقدير الكلام : أن الله ناصرهم فلا نقدر علىٰ قتالهم ، فيستسلمون للأسر ، والله أعلم .

وقوله : « يابس ويحبس البحر » ؛ أي : يُحبس الخليج .

وقد عبر عن هـٰذه في الرواية الأخرىٰ بفلق البحر ، وهـٰذه مُعجزةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وتأييدٌ ؛ لما قال بعض العلماء : من أنه لم يكن لنبي من الأنبياء مُعجزةٌ إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم مثلها ، والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبقية ألفاظ الحديث معناها واضح .

وفي رواية : يشترط المسلمون شُرطَةً للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتىٰ يَحْجُزَ بينهم الليل ، فيفيء هـٰؤلاء وهـٰؤلاء كُلٌّ غير غالب ، ثم يشترط المسلمون شُرطَةً للموت لا ترجع إلاَّ غالبة ، فيرجعون غير غالبين إلىٰ ثلاثة أيام ، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدَّبرة على الكافرين ، فيقتلون مقتلة لم يُر مثلها ، حتىٰ إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلّفهم حتىٰ يَخر ميتاً ، فيتعاد بنو الأب ؛ كانوا مئة فلا يجدون بقي منهم إلا الرجل الواحد ، فلا يُقسم مِيراث ، ولا يُفرح بغنيمة ، ويكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد .

تَنبِـيْه

(الشُّرطة) ؛ بالضم : طائفة من الجيش تَتَقدّمُ للقتال . و(نَهدَ إليهم) : نهض . و(الدَّبرة) : الهزيمة . و(جنباتهم) ؛ بجيم فنون مفتوحتين ثم موحدة ؛ أي : بنواحيهم . و(لا يخلّفهم) ؛ بتشديد اللام ، لا يجعلهم خلفه ؛ أي : لا يتجاوزهم حتىٰ ينقطع عن الطيران ويموت من بُعْدِ مسافة المقتلة وكثرة القتلىٰ ، ويتبعونهم ضرباً وقتلاً حتىٰ ينتهوا إلىٰ قسطنطينية ؛ أي : الكبرىٰ .

قال في « عقد الدرر » : لها سبعة أسوار ، عرض السور السابع منها المحيط بالستة أحدىٰ وعشرون ذراعاً ، وفيه مئة باب ، وعرض السور الأخير الذي يلي البلد عشرة أذرع ، وهو علىٰ خليج يَصُبُّ في البحر الرومي ، وهي متصلةٌ ببلاد الروم والأندلس[(١)] . انتهىٰ

فيركز المهدي لواءه عند البحر ليتوضأ للفجر ، فيتباعد الماء منه ، فيتبعه حتىٰ يجوز من تلك الناحية ، ثم يركزه وينادي : أيها الناس ؛ اعبروا فإن الله عز وجل فَلَقَ لكم البحر كما فلقه لبني إسرائيل . فيجوزون فيستقبلها ، فيكبرون فتهتز حيطانها ، ثم يكبرون فتهتز ، فيسقط في الثالثة منها ما بين اثني عشر بُرجاً ، فيفتحونها ويقيمون بها سنة حتىٰ يبنون بها المساجد ، ثم يدخلون مدينة أخرىٰ ، فبينما هم يقتسمون بها

---

(١) هـٰذا النقل يوضح أن القسطنطينية الكبرىٰ هي روما عاصمة إيطاليا ، فبلاد رومية هي إيطاليا وبها الفاتيكان مقر البابا مرجع معظم نصارى العالم . وسيأتي ما يوضح ذلك (ص٢٠٤) .

بالأترسة إذا بصارخ : إن الدجال خلفكم في ذراريكم بالشام . فيرجعون فإذا الأمر باطل ، فالتارك نادم ، والآخذ نادم ، ثم ينشئون ألف سفينة ، ويركبون فيها من عكا ، وهم أهل المشرق والمغرب والشام والحجاز علىٰ قلب رجل واحد ، فيسيرون إلىٰ رومية .

وعن عبد الله بن بسر المازني أنه قال : يا بن أخي ؛ لعلك تُدرك فتح القسطنطينية ، فإياك إن أدركت فتحها أن تترك غنيمتك منها ؛ فإن بين فتحها وبين خروج الدجال سبع سنين . رواه نُعيم بن حماد في الفتن .

ويُستخرج كنز بيت المقدس وحليته التي أخذها طاهر بن إسماعيل حين غزا بني إسرائيل فسباهم ، وسبىٰ حلي بيت المقدس ، وأحرقها بالنيران ، وحمل منها في البحر ألفاً وسبع مئة سفينة حتىٰ أوردها رومية .

قال حذيفة رضي الله عنه فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليستخرجن المهدي ذلك حتىٰ يرده إلىٰ بيت المقدس » .

قال في « عقد الدرر » : رومية : أم بلاد الروم ، فكل من ملكها يقال له : الباب[(١)] ، وهو الحاكم علىٰ دين النصرانية ، بمنزلة الخليفة في المسلمين ، وليس في بلاد المسلمين مثلها .

وقد ذكر المؤرخون في صفة رومية من العجائب ما لم يُسمع بأذني ذلك ببلد في العالم .

« وتقرب قسطنطينية منها ، فيكبرون عليها أربع تكبيرات ، فيسقط حائطها ، فيقتلون ست مئة ألف ، ويستخرجون منها حُلي بيت المقدس ، والتابوت الذي فيه السكينة ، ومائدة بني إسرائيل ، ورضاضة الألواح ، وحُلة آدم ، وعصا موسىٰ ، ومنبر سليمان ، وقفيزين من المَنِّ الذي أنزل الله عز وجل علىٰ بني إسرائيل ، أشدُّ بياضاً من اللبن ، ثم يأتون مدينة يقال لها : القاطع ؛ طولها ألف ميل ، وعرضها خمس مئة

---

(١) الظاهر من كلام السُّلَمي في « عقد الدرر » أن المراد برومية هي الفاتيكان ، وأن من يطلق عليه الباب هو ما يسمى الآن : البابا ، فهو الحاكم علىٰ دين معظم نصارى العالم كما هو معروف . والله أعلم .

ميل ، ولها ستون وثلاث مئة باب ، يخرج من كل باب ألف مقاتل ، وهي على البحر ، لا يحمل جارية ـ يعني : سفينة ـ فيه » .

قيل : يا رسول الله ؛ ولِمَ لا يُحمل فيه جارية ؟

قال : « لأنه ليس له قعر ، وإنما يمرون من خلجان من ذلك البحر جعلها الله منافع لبني آدم لها قعور ، فهي تحمل السفن ، فيكبرون عليها أربع تكبيرات فيسقط حائطها ، فيغنمون ما فيها ، ثم يقيمون بها سبع سنين ، ثم ينتقلون منها إلىٰ بيت المقدس ، فيبلغهم أن الدجال قد خرج في يهود أصبهان » .

أخرجه أبو عمرو الداني في « سننه » .

وفي رواية : « ثم يأتي مدينة يقال لها : القاطع ، وهي على البحر الأخضر المحيط بالدنيا ، ليس خلفه إلا أمر الله عز وجل ، طولها ألف ميل ، وعرضها خمس مئة ميل ، فيكبرون ثلاث تكبيرات فتسقط حيطانها ، فيقتلون بها ألف ألف مقاتل ، ثم يتوجه المهدي منها إلىٰ بيت المقدس بألف سفينة ، فينزلون بشام فلسطين بين عكا وصور وعسقلان وغزة ، فيخرجون ما بها معهم من الأموال ، وينزل المهدي ببيت المقدس ويقيم بها حتىٰ يخرج الدجال ؛ أي : وفسطاط المسلمين في الملحمة العظمىٰ دمشق ، وعند خروج الدجال يكون ببيت المقدس ، ويدخل الآفاق كلها فلا تبقىٰ مدينةٌ دخلها ذو القرنين إلا دخلها وأصلحها ، ولا يبقىٰ جبارٌ إلا هلك » .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « مَلكَ الدنيا مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان : فذو القرنين ، وسليمان . وأما الكافران : فنمروذ ، وبخت نصر .

وسيملكها خامسٌ من عترتي وهو المهدي » .

وَروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، قال : « أصحاب الكهف أعوان المهدي » .

قال العلماء : والحكمة في تأخيرهم إلىٰ هـٰذه المدة : ليحوزوا شرف الدخول في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إكراماً لهم .

وورد أنَّ أول لواء يعقده المهدي يبعث به إلى التُّرك .

والظاهر أن هٰذه الفتوح تكون في مدة مهادنة الروم ؛ لأنه بعد اشتغاله بهم لا يفرغ لغيرهم ، أو أنه يَبْعَثُ البُعوث والسرايا ، ونسبة دخول الآفاق إليه يكون مجازاً .

تَنبِيه

جاء من طريق أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الملحمة العُظمىٰ وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر » .

وفي رواية : « سبع سنين » .

قال أبو داود في « سننه » : وهٰذه ؛ يعني : رواية سبع سنين أصح ، يعني : من رواية سبعة أشهر .

تَنبِيه آخَر

وردت في مدة مُلك المهدي رواياتٌ مختلفة ؛ ففي بعض الروايات : يملك خمساً أو سبعاً أو تسعاً بالترديد ، وفي بعضها : سبعاً ، وفي بعضها : تسعاً ، وفي بعضها : إن قَلَّ فخمساً ، وإن كَثُرَ فتسعاً ، وفي بعضها : تسع عشرة سنة وأشهراً ، وفي بعضها : عشرين ، وبعضها : أربعة وعشرين ، وبعضها : ثلاثين ، وبعضها : أربعين منها تسع سنين يُهادن فيها الروم .

قال ابن حجر في « القول المختصر » : ويمكن الجمع علىٰ تقدير صحة الكل ؛ بأن ملكه متفاوت الظهور والقوة ، فيُحمل الأكثر علىٰ أنه باعتبار جَمعِ مُدّة المُلك ، والأقل علىٰ غاية الظهور ، والأوسط على الوسط . انتهىٰ

قُلْتُ : ويدل علىٰ ما قاله وجوه :

الأول : أنه صلى الله عليه وسلم بشر أمته ، وخصوصاً أهل بيته ببشارات ، وأن الله يعوضهم عن الظلم والجور قِسطاً وعَدلاً ، واللائق بكرم الله أن تكون مدة العدل قدر ما ينسون فيه الظلم والفتن ، والسبع والتسع أقل من ذلك .

الثاني : أنه يَفْتَحُ الدنيا كلها كما فتحها ذو القرنين وسليمان عليه السلام ، ويدخل جميع الآفاق كما في بعض الروايات ، ويبني المساجد في سائر البلدان ، ويُحلي بيت المقدس .

ولا شك أن مدة التسع فما دونها لا يمكن أن يُساح فيها ربع أو خمس المعمورة سياحة ، فضلاً عن الجهاد ، وتجهيز العساكر ، وترتيب الجيوش ، وبناء المساجد ، وغير ذلك[1] .

الثالث : أنه ورد أن الأعمار تطول في زمنه كما مر في سيرته ، وطولها فيه مُسْتَلزِمٌ لطوله ، وإلاَّ لا يكون طولها في زمنه ، والتسع وما دونه ليست من الطول في شيء .

الرابع : أنه يُهادن الروم تسع سنين ، ويقيم بقسطنطينية سنة ، وبالقاطع سبعاً ، ومدة المسير إليها مرتين والرجوع في أثنائه يكون سنين ، ومدة قتاله مع السفياني ، وأنه ينقض البيعة بعد ثلاث سنين ، وفتحه للهند وسائر البلدان يكون سنين كثيرة ؛ كما ورد كل ذلك في الروايات . وذلك أزيد من التسع بكثير .

وحينئذ فنقول : التحديد بالسبع باعتبار مدة استيلائه علىٰ جميع المعمورة .

فيكون معنى الحديث : أنه يملك سبعاً مُلكاً كاملاً لجميع الأرض ، وذلك بعد فتحه لمدينة القاطع ، وبالتسع باعتبار مدة فتحه لقسطنطينية ، وبتسعة عشر باعتبار مدة قتله للسفياني ودخول أهل الإسلام كلهم في طاعته .

فإنه يُهادن الروم تسع سنين ، ومدة اشتغاله بحربهم وتملكه لهم يكون نحواً من عشر سنين علىٰ طريقة جبر الكسر ، وبأربع وعشرين باعتبار مدة خروجه إلى الشام ودخول السفياني في بيعته ، وبثلاثين باعتبار خروجه بمكة واستيلائه علىٰ أرض الحجاز ، وبأربعين باعتبار مدة ملكه في الجملة مشتملة علىٰ خروجه أولاً بالطائف وقتله لأمير مكة ، وغيبته بعد ذلك وخروج الهاشمي بخراسان ، وحمله السيف علىٰ عاتقه اثنين وسبعين شهراً ؛ كما في بعض الروايات .

وهٰذا الجمع أولىٰ من إسقاط بعض الروايات ، ولا شك أنه مُقدمٌ على الترجيح مهما أمكن ، والله ورسوله أعلم بمرادهما .

---

(١) عدم الإمكانية في رأي المؤلف نظراً للوسائل المتاحة في عصره ، أما في عصرنا الحالي فوسائل النقل سريعة ، وجهود المختصين في هٰذا المجال مستمرة لإيجاد وسائل أسرع من الصوت ، وهي مشاهدةٌ معروفةٌ . فوقوع سياحة المعمورة في المدة المذكورة ليس مستحيلاً في زماننا وفي المستقبل ، والله أعلم .

علىٰ أنه لا مانع أن يكون التسع وما دونه بعد نزول عيسىٰ عليه السلام وقتله الدجال ؛ فإن عيسىٰ عليه السلام لا يسلب المهدي ملكه ؛ فإن الأئمة من قريش ما دام من الناس اثنان ، وعيسىٰ عليه السلام يكون من أَخَصّ وزرائه وتابعاً له لا أميراً عليه ، ومن ثم يُصلي خلفه ويقتدي به ؛ كما يدل عليه حديث جابر رضي الله عنه عند « مسلم » : أن عيسىٰ عليه السلام يقول له حين يتأخر في الصلاة : إن بعضكم علىٰ بعض أمراء ؛ تكرمة الله لهـٰذه الأمة .

ولا يرد عليه ما ورد في بعض الروايات : أنَّ المهدي يُصلي بهم تلك الصلاة ، ثم يكون عيسىٰ إماماً بعده ؛ لأنه لما ثبتت إمامته وإمارته جاز له أن يعينه إماماً للصلاة لأنه أفضل ، وأفضليته لا تستلزم خلافته ؛ لجواز خلافة المفضول مع وجود الفاضل ، سيما إذا كان الفاضل من غير قريش .

قال الشهاب القسطلاني في « شرح البخاري » قال ابن الجوزي : لو تقدم عيسىٰ عليه السلام إماماً لوقع في نفس الإشكال ، ولقيل : أتراه نائباً أو مبتدئاً شرعياً ؟ فيصلي مأموماً ؛ لئلا يتدنس بغبار الشبهة وجه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نبي بعدي » . انتهىٰ

قال ابن حجر : ومعنىٰ « تُسلب قريش ملكها » ؛ أي : بعد نزول عيسىٰ عليه السلام : أنه لا يبقىٰ لها معه اختصاص بشيء دون مراجعته ، فلا يُعارض ذلك خبر : « لا يزال هـٰذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان » . انتهىٰ

وستأتي الإشارة إلىٰ هـٰذا في كلام الشيخ في « الفتوحات » ، ولا شك أن بهـٰذا الوجه يندفع كثير من الإشكالات من كون زمان كل منهما مَوصُوفاً بالبركة والأمن ، وأنه يملأ الأرض قِسطاً ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ؛ لأن الزمان يكون واحداً ، فينسب إلىٰ هـٰذا تارة ، وإلىٰ هـٰذا أخرىٰ ، وقد يُستأنَسُ له بقوله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم حكماً مُقسطاً وإمامكم منكم » ؛ فإنه لما احتمل أن يُفهم من قوله : « حكماً مُقسطاً » : الإمامة دفعه بقوله : « وإمامكم منكم » ، وظاهر أنه ليس المراد إمامة الصلاة ؛ لأن المراد إثبات اتباع عيسىٰ لشرعه ، وكونه رعية خليفته ورجلاً من آحاد أمته صلى الله عليه وسلم . وبالله التوفيق .

تَكمِلَة

في فوائد تضمنتها الأحاديث ، ودل عليها الكشف الصحيح ، لخصتها من كلام إمام المحققين محيي الملة والدِّين محمد بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي .

قال رحمه الله ورضي عنه في (الباب السادس والستين وثلاث مئة) من « الفتوحات المكية » ما ملخصه :

إن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظُلماً ، فَيملَؤُها قِسطاً وعَدْلاً ، يقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطىء ؛ له مَلَكٌ يسدده من حيث لا يراه ، يحمل الكَلَّ ، ويقوي الضعيف ، ويقري الضيف ، ويعين علىٰ نوائب الحق ، يفعل ما يقول ، ويقول ما يعلم ، ويعلم ما يشهد ، يصلحه الله في ليلة ، يبيد الظلم وأهله ، ويقيم الدين ، وينفخ الروح في الإسلام ، ويعزه بعد ذُلِّهِ ، ويحييه بعد موته ، ويمسي الرجل في زمانه جاهلاً بخيلاً جباناً ، فيصبح أعلم الناس ، أكرم الناس ، أشجع الناس ، يضع الجزية ويدعو إلى الله بالسيف ، فمن أبىٰ قُتل ، ومن نازعه خُذل ، يظهر من الدين ما هو الذي عليه في نفسه ما لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لحكم به ، يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقىٰ إلا الدين الخالص ، أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد ؛ لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت إليه أئمتهم ، فيدخلون كُرهاً تحت حكمه ؛ خوفاً من سيفه وسطوته ، ورغبة فيما لديه ، فليس له عدوٌّ مبين إلا الفقهاء خاصة ؛ فإنهم لا يبقىٰ لهم رئاسة ولا تمييز عن العامة ، بل لا يبقىٰ لهم علمٌ بحكم إلا قليل ، ويرتفع الخلاف عن العالم في الأحكام بوجود هـٰذا الإمام ، ولولا أن السيف بيده لأفتى الفقهاء بقتله ، ولـٰكن الله يُظهرهُ بالسيف والكرم ، فيطمعون ويخافون ، فيقبلون حكمه من غير إيمان ، بل يضمرون خلافه ، يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم ، أسعد الناس به أهل الكوفة ، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف وتعريف إلـٰهي ، له رجال إلـٰهيون يقيمون دعوته وينصرونه ، هم الوزراء ، يحملون أثقال المملكة ، ويعينونه علىٰ ما قلده الله ، وهم تسعة علىٰ أقدام رجال من الصحابة ، قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ ، وهم من الأعاجم ، ما فيهم عربي لـٰكن لا يتكلمون إلا بالعربية ، لهم حافظ ليس من جنسهم

ما عصى الله قط ، هو أخص الوزراء ، وأفضل الأمناء .

أي : وكأن هٰذا إشارةٌ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ؛ إذ لا معصوم إلا الأنبياء فيكون هو وزيره الأخص ، وأما عصمة المهدي ففي حكمه كما يشير إليه كلامه فيما بعد ، أو إشارة إلى الملك الذي يسدده ، ويؤيده قوله : « ليس من جنسهم » ؛ لأن عيسىٰ عليه السلام من جنسهم ؛ لأنه بشر ، لٰكن قد يُطلق الجنس على النوع فيصدق علىٰ عيسىٰ عليه السلام ؛ لأنه من بني إسرائيل والأعاجم ، وإن كان يُطلق علىٰ ما سوى العرب ، لٰكن غلب إطلاقه في فارس ، فحينئذ ليس عيسىٰ عليه السلام من جنسهم ؛ أي نوعهم ، والله أعلم .

وأنشد رضي الله عنه :

أَلا إِنَّ خَتْــمَ ٱلأَوْلِيَــاءِ شَهِيــدُ ... وَعَيْــنَ إِمَــامِ ٱلْعَــالَمِيــنَ فَقِيــدُ
هُــوَ ٱلسَّيِّــدُ ٱلْمَهْــدِيُّ مِــن آلِ أَحْمَــدٍ ... هُــوَ ٱلصَّــارِمُ ٱلْهِنْــدِيُّ حِيــنَ يَبِيــدُ
هُـوَ ٱلشَّمْـسُ يَجْلُـو كُـلَّ غَـمٍّ وَظُلْمَـةٍ ... هُـو ٱلْـوَابِـلُ ٱلْـوَسْمِـيُّ حِيـنَ يَجُـودُ

ومراده بـ(ختم الأولياء) : المهدي . وبـ(إمام العالمين) : النبي صلى الله عليه وسلم . و(الصارم) : السيف . و(الوابل) : المطر الكثير . و(الوسمي) : هو الذي ينزل في أول الشتاء .

قال : وقد جاء زمانه ، وأظلكم أوانه ، وظهر في القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية ، قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قرن الصحابة ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه .

وهو إشارةٌ إلىٰ ما ورد في حديث ثلاث مرات : « ثم الذين يلونهم » بعد قوله صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني » .

وورد في رواية : ثلاثة تَترىٰ وواحد فُرادىٰ ، فيكون قرنه الرابع المفرد الملحق بالثلاثة تترىٰ .

قال : ثم جاء بينها ؛ أي : القرن الثالث والرابع ، فنزلت وحدثت أمور ، وانتشرت أهواء ، وسفكت دماء ، وعاثت الذئاب في البلاد ، وكثر الفساد إلىٰ أن طم

الجور ، وطما سيله ، وأدبر نهار العدل بالظلم حين أقبل ليله ، فشهداؤه خير الشهداء ، وأمناؤه خير الأمناء ، وإن الله يستوزر له طائفةً خبأهم له في مكنون غيبه ، أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق ، وما هو أمر الله عليه في عباده ، فبمشاورتهم يفصل ما يفصل ، فهم العارفون الذين يعرفون ما هناك .

وأما هو في نفسه : فصاحب سيف حق وسياسة مرتبة ، يعرف من الله قدر ما يحتاج إليه مرتبته ومنزلته ؛ لأنه خليفة مُسدد ، يعرف منطق الطير والحيوان ، يسري عدله في الإنس والجان . من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وهم علىٰ أقدام من قال الله فيهم : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ، أعطاهم الله في هـٰذه الآية التي اتخذوها هِجِّيراً ، وفي ليلهم سميراً فضل علم الصدق حالاً وذوقاً ، فعلموا أن الصدق سيف الله في الأرض ما قام بأحد ، ولا اتصف به أَحَدٌ إلا نصره الله تعالىٰ ؛ لأن الصدق صفته تعالىٰ ، والصادق اسمه ، وإذا علم الإمام المهدي هـٰذا عمل به ، فيكون أصدق أهل زمانه ، فوزراؤه الهُداة وهو المهدي ، فهـٰذا القدر من العلم بالله يحصل للمهدي علىٰ أيدي وزرائه .

إِنَّ ٱلإِمَـامَ إِلَـى ٱلْـوَزِيـرِ فَقِيـرُ ... وَعَلَيْهِمَـا فَلَـكُ ٱلْـوُجُـود يَـدُورُ
وَٱلْمُلْـكُ إِنْ لَـمْ تَسْتَقِـمْ أَحْـوَالُـهُ ... بِـوُجُـودِ هَـٰذَيْـنِ فَسَـوفَ يَبُـورُ
إِلاَّ ٱلإِلَـٰـهُ ٱلْحَـقُّ فَهْـوَ مُنَـزَّهٌ ... مَـا عِنْـدَهُ فِيمَـا يُـرِيـدُ وَزِيـرُ
جَـلَّ ٱلإِلَـٰـهُ ٱلْحَـقُّ فِـي مَلَكُـوتِـهِ ... عَـنْ أَنْ يَـرَاهُ ٱلْخَلْـقُ وَهْـوَ فَقِيـرُ

وجميع ما يحتاج إليه المهدي مما يكون قيام وزرائه به تسعة أمور لا عاشر لها ، ولا ينقص عن ذلك ؛ وهي :

الأول : نفوذ البصر ؛ ليكون دعاؤه إلى الله علىٰ بصيرة في المدعو إليه لا في المدعو ، قال تعالىٰ عن نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ، فالمهدي ممن اتبعه ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يخطىء في دعائه إلى الله ، فمتبعه لا يخطىء ؛ فإنه يقفو أثره .

والثاني : معرفة الخطاب الإلـٰهي عند الإلقاء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ

﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا﴾ .

والثالث : علم الترجمة عن الله تعالىٰ ، وذلك لكل من كلمه الله تعالىٰ في الإلقاء والوحي ، فيكون المترجم مُهيأ لصور الحروف اللفظية والمرقومة التي يُوجِدُهَا ، ويكون روح تلك الصورة كلام الله لا غير .

والرابع : تعيين المراتب لولاة الأمر ، وهو العلم بما تستحقه كل مرتبة من المصالح التي خلقت لها ، فينظر صاحب هـٰذا العلم في نفس الشخص الذي يُريد أن يُوليه ويرفع الميزان بينه وبين المرتبة ، فإذا رأى الاعتدال في الوزن من غير ترجيح لكفة المرتبة؛ ولاه ، وإن رجح الوالي؛ فلا يضره ، فإن رجحت كفة المرتبة عليه؛ لم يُولّه .

والخامس : الرحمة في الغضب ، ولا يكون ذلك إلاَّ في الحدود الموضوعة والتعزير ، وما عدا ذلك فَغضَبٌ ليس فيه من الرحمة شيء .

والسادس : علم ما يحتاج إليه الملك من الأرزاق ، وهو أن يعلم أصناف العالم ، وليس إلاَّ اثنان : عالم الصور ، وعالم الأنفس المدبرين لهـٰذه الصور فيما يتصرفون فيه من حركة أو سكون ، وما عدا هـٰذين الصنفين؛ فما له عليهم حكم ، إلاَّ من أراد منهم أن يحكمه علىٰ نفسه كعالم الجان .

والسابع : علم تداخل الأمور بعضها علىٰ بعض ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ ، فالمولج ذكر ، والمولوج فيه أنثىٰ ، وهو في العلوم العلم النظري ، وفي الحس النكاح الحيواني والنباتي ، ولولا السدىٰ واللحام لما ظهر للشقة عين ، وهو سَارٍ في جميع الصنائع العملية والعلمية .

فإذا علم الإمام ذلك لم يدخل عليه شبهة في أحكامه .

هـٰذا هو الميزان الموضوع في العالم في المعاني والمحسوسات ، فالإمام يتعين عليه الجمع بين علم ما يكون بطريق التنزيل الإلـٰهي ، وبين ما يكون بطريق القياس ، ولا يعلم المهدي علم القياس ليحكم به ، وإنما يعلمه ليجتنبه ، فما يحكم المهدي إلا بما يُلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه الله إليه يُسدده ، وذلك هو الشرع الحنيفي

المحمدي الذي لو كان محمد صلى الله عليه وسلم حياً ، ورفعت إليه تلك النازلة ؛ لم يحكم فيها إلا بحكم هـٰذا الإمام ، فيعلمه الله أن ذلك هو الشرع المحمدي ، فَيحْرُمُ عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله تعالىٰ إياها ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته : « يقفو أثري لا يخطىء » .

فعرفنا أنه مُتبعٌ لا مُشرع ، وأنه معصوم ، ولا معنىٰ للمعصوم في الحكم إلا أنه معصومٌ من الخطإِ ؛ فإن حُكم الرسول لا يُنسب إليه خطأ ؛ فإنه لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ ؛ أي : فمعنىٰ عصمته أنه معصوم في حكمه ، وأما في باقي حالاته فمحفوظٌ لا معصوم ؛ إذ لا عصمة إلا للأنبياء وهو ليس بنبي ، وإنما هو ولي ، والأولياء محفوظون لا معصومون .

والثامن : الاستقصاء في قضاء حوائج الناس ، وأنه متعينٌ على الإمام خُصوصاً دون جميع الناس ، فإن الله إنما قدمه علىٰ خلقه ليسعىٰ في مصالحهم ، والذي ينتجه هـٰذا السعي عظيم ، وحركة الأئمة كلهم إنما تكون في حق الغير لا في حق نفوسهم ، فإذا رأيتم السلطانَ يشتغِلُ بغير رعيته وما يحتاجون إليه فاعلم أنه قد عزلته المرتبة لهـٰذا الفعل ، ولا فرق بينه وبين العامة .

والتاسع : الوقوف علىٰ علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون في مدته خاصة ، وهي تاسع مسألةٍ ليس وراءها ما يحتاج إليه الإمام في إمامته ، وذلك أن الله تعالىٰ أخبر عن نفسه أن كل يوم هو في شأن ، وهو ما يكون عليه العالم في ذلك اليوم ، ومَعلومٌ أن ذلك الشأن إذا ظهر في الوجود ووقع أنه معلوم لكل من شاهده فهـٰذا الإمام من هـٰذه المسألة له اطلاع من جانب الحق علىٰ ما يُريد الحق أن يحدثه من الشؤون قبل وقوعها في الوجود ، فيطلع في اليوم الذي قبل وقوع ذلك الشأن علىٰ ذلك الشأن ، فإن كان مما فيه منفعةٌ لرعيته شكر لله وسكت عنه ، وإن كان مما فيه عقوبةٌ بنزول بلاءٍ عام ، أو علىٰ أشخاصٍ معينين سأل الله فيهم وشفع وتضرع ، فصرف الله عنهم ذلك البلاء برحمته وفضله ، وأجاب دعوته وسؤاله ، فلهـٰذا يُطلعه الله عليه قبل وقوعه في الوجود بأصحابه ، ثم يُطلعه الله في تلك الشؤون على النوازل الواقعة من الأشخاص ، ويُعين له الأشخاص بحليتهم حتىٰ إذا رآهم لا يَشُك فيهم أنهم عين ما رآهم .

ثم يُطلعه الله تعالىٰ على الحُكم المشروع في تلك النازلة له التي شرع الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يحكم به فيها ، ولا يحكم إلا بذلك الحكم لا يُخطىء أبداً ، وإن أعمى الله عليه الحكم في بعض النوازل ، ولم يقع له عليها كشف كان غايته أن يلحقها في الحكم بالمباح ، ويعلم بعدم التعريف أن ذلك حكم الشرع فيها ؛ فإنه معصومٌ عن الرأي والقياس في الدين ؛ فإن القياس ممن ليس بنبي حكمٌ على الله في دين الله بما لا يعلم ؛ فإنه طرد علة ، وما يُدريك لعل الله لا يريد طرد تلك العلة ، ولو أرادها لأبان عنها علىٰ لسان رسوله وأمر بطردها .

هـٰذا إذا كانت العلة مما نص الشرع عليها في قضية ، فما ظنك بعلةٍ يستخرجها الفقيه بنفسه ونظره من غير أن يذكرها الشرع ثم يطردها ؟!

فيكون تحكماً علىٰ تحكم بشرع لم يأذن به الله .

هـٰذا يمنع المهدي عليه السلام من القول بالقياس في دين الله ، ولا سيما وهو يعلم أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم التخفيف في التكليف عن هـٰذه الأمة ، ولذلك كان يقول : « اتركوني ما تركتكم » ، وكان يكره السؤال في الدِّين خوفاً من زيادة الحكم ، فكل ما سُكِت له عنه ؛ لم يطلع علىٰ حكم معين فيه جعل عاقبة الأمر فيه الحكم بحكم الأصل ، وكل ما أطلعه الله عليه كشفاً وتعريفاً فذلك حكم الشرع المحمدي في المسألة .

وقد يطلعه الله في أوقات على المباح علىٰ أنه مباح وعافية ، فكل مصلحة تكون في حق رعاياه فإن الله يطلعه عليها ليسأله فيها ، وكل فَسادٍ يريد الله أن يوقعه برعاياه فإن الله يطلعه عليه ليسأل الله في دفع ذلك ؛ لأنه عقوبة .

فالمهدي رَحْمةُ الله كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ، والمهدي يقفو أثره لا يخطىء ، فلا بد أن يكون رحمة .

فهـٰذه تسعة أمور لم تصح بمجموعها لإمامٍ من أئمة الدين خلفاء الله تعالىٰ ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ يوم القيامة ، إلا لهـٰذا الإمام المهدي ، كما أنه ما نص رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ إمامٍ من أئمة الدين الذين يكونون بعده أنه

يرثه ويقفو أثره لا يخطىء إلا المهدي خاصة ؛ فقد شهد بعصمته في أحكامه ؛ كما شهد الدليل العقلي بعصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه من الحكم المشروع له في عباده .

قال رحمه الله تعالىٰ : وينزل عيسىٰ عليه السلام في زمانه بالمنارة البيضاء شرقي مسجد دمشق ، والناس في صلاة العصر ، فيتنحىٰ له الإمام ، فيتقدم فَيُصلي بالناس ، يؤم الناس بسنّة محمد صلى الله عليه وسلم .

تَنبـيْه

لا ينافي هـٰذا ما في الأحاديث الصحيحة أن عيسىٰ عليه السلام يقتدي بالمهدي في صلاة الصبح ويقول : إنها لك أُقيمت . لما يأتي في قصة الدجال في الجمع بين اختلاف الروايات أن المهدي حين نزول عيسىٰ عليه السلام بدمشق يكون ببيت المقدس ، فيكون الذي يتنحىٰ له أمير المهدي علىٰ دمشق ، ويوضحه أن هـٰذا في صلاة العصر ، وأنه يجتمع إليه اليهود والنصارىٰ والمسلمون ، كل يرجوه كما يأتي هناك وإن تقدم المهدي واقتدىٰ عيسىٰ عليه السلام به في صلاة الصبح وليس هناك إلا خالص المسلمين . وبالله التوفيق .

تَنبـيْه آخَر

ما أشرنا إليه سابقاً من أن السبع أو التسع من خلافة المهدي المذكور في الأحاديث يحتمل أن يكون في زمن عيسىٰ عليه السلام لا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم : « لن تهلك أمةٌ أنا في أولها ، والمهدي في أوسطها ، وعيسىٰ في آخرها » ؛ لأن المهدي يسبق نزول عيسىٰ عليه السلام بأكثر من ثلاثين سنة ، وعيسىٰ عليه السلام يتأخر عنه بضعاً وثلاثين ؛ لما ورد في المهدي أنه يمكث أربعين ، وفي عيسىٰ عليه السلام أنه يمكث خمساً وأربعين ، فمدة اجتماعهما سبع أو تسع ، والباقي مدة الافتراق .

تَنبـيْه آخَر

قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان ، وأنه من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة عليها السلام بلغت حد التواتر المعنوي ؛

فلا معنىٰ لإنكارها ، ومن ثم ورد : « من كَذّب بالدجال فقد كفر ، ومن كَذَّب بالمهدي فقد كفر » . رواه أبو بكر الإسكاف في « فوائد الأخبار » ، وأبو القاسم السهيلي في شرح « السير » له .

فما ورد في بعض الأحاديث : أنه « لا مهدي إلا عيسى ابن مريم » مع كونه ضعيفاً عند الحفاظ يجب تأويله بأنه : لا قول للمهدي إلا بمشورة عيسىٰ عليه السلام إن قلنا أنه وزيره ، أو لا مهدي معصوماً مطلقاً إلا عيسىٰ عليه السلام .

فإن المهدي معصوم في الأحكام فقط ، أو لا مهدي بعد عيسىٰ عليه السلام ؛ فإن بعده يكون أمراء مخلطون .

ولا يغتر بما قد يُفهم من كلام العلامة التفتازاني في « شرح العقائد » من نفيه بناءً على الحديث المذكور ؛ لما مر أنه حديثٌ ضعيف خالف أحاديث صحيحة ، والله أعلم .

قال الحافظ ابن القيم في « المنار » : حديث « لا مهدي إلا عيسى ابن مريم » . رواه ابن ماجه من طريق محمد بن خالد الجندي ، عن أبان بن صالح ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مما تفرد به عن محمد بن خالد .

قال محمد بن الحسن الإسنوي في كتاب « مناقب الشافعي » : محمد بن خالد هـٰذا غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم والنقل ، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر المهدي ، وأنه من أهل بيته .

وقال البيهقي : تفرد به محمد بن خالد هـٰذا ، وقد قال الحاكم أبو عبد الله : هو مجهول ، وقد اختلف عليه في إسناده . فَرُوِيَ عنه ، عن أبان بن أبي عياش ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : فرجع الحديث إلىٰ رواية محمد بن خالد وهو مجهول ، عن أبان بن أبي عياش ، وهو متروك ، عن الحسن ، وهو منقطع .

والأحاديث الدالة علىٰ خروج المهدي أصح إسناداً ؛ كحديث ابن مسعود رضي الله عنه : « لو لم يبق على الدنيا إلا يوم لَطَوّل الله ذلك اليوم حتىٰ يُبعث رجل مني ، أو من

أهل بيتي »... الحديث ، رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح .

وفي الباب : عن علي ، وأبي سعيد ، وأم سلمة ، وأبي هريرة رضي الله عنهم ، ثم روىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال : صحيح . اهـ

وقال ابن القيم : وفي الباب : عن حذيفة بن اليمان ، وأبي أمامة الباهلي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وثوبان ، وأنس بن مالك ، وجابر ، وابن عباس رضي الله عنهم ، وغيرهم . اهـ ، والله أعلم .

تَنبيهٌ آخَر

جاء عن ابن سيرين : أن المهدي خَيْرٌ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهم ، قيل : يا أبا بكر ؛ خيرٌ من أبي بكر وعمر ؟! قال : قد كان يُفَضّل علىٰ بعض الأنبياء .

وعنه : لا يَفْضُل عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

قال السيوطي في « العَرف الوردي » : هٰذا إسنادٌ صحيح ، وهو أخف من اللفظ الأول . قال : والأوجه عندي تأويل اللفظين علىٰ ما أُوِّلَ عليه حديث : « بل أجر خمسين منكم » ؛ لشدة الفتن في زمان المهدي .

قُلْتُ : التحقيق أن جهات التفاضل مختلفة ، ولا يجوز لنا التفضيل على الإطلاق في فَرِدٍ من الأفراد إلاَّ إذا فضله النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ فإنه قد وُجِدَ في المفضول مَزيةٌ من جهات أخر ليست في الفاضل .

وتَقدَّم عن الشيخ في « الفتوحات » : أنه مَعصومٌ في حكمه ، مُقتفٍ أثر النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخطىء أبداً ، ولا شك أن هٰذا لم يكن في الشيخين ، وأن الأمور التسعة التي مرت لم تجتمع كلها في إمام من أئمة الدين قبله .

فمن هٰذه الجهات يجوز تفضيله عليهما وإن كان لهما فضل الصحبة ومشاهدة الوحي والسابقة وغير ذلك ، والله أعلم .

قال الشيخ علي القاري في « المشرب الوردي في مذهب المهدي » : ومما يدل علىٰ أفضليته : أن النبي صلى الله عليه وسلم سَمَّاهُ: خليفة الله ، وأبو بكر رضي الله عنه لا يقال له إلا : خليفة رسول الله .

خَاتِـمَة

اشتملت قصة المهدي علىٰ جُملةٍ من أشراط الساعة ، فلنشر إلىٰ عدها وذكر بعض أحاديثها إجمالاً ؛ وفاءً بما وعدناه من حفظ الأحاديث على المسلمين .

فمنها : حسر الفرات عن جبل من الذهب :

كما مر عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، يقتتل عليه الناس فيقتل تسعة أعشارهم » رواه ابن ماجه عنه ، ورواه أحمد ، ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي آخره : « حتىٰ يُقْتَلَ من كلٍّ مئة تسعة وتسعون » وكذا رواه مسلم عن أبي هريرة .

وروىٰ عنه الشيخان ، وأبو داود مختصراً : « يوشك الفرات يحسر عن كنز ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً » .

وفي رواية نُعيم بن حماد عنه : « فيقتل من كل تسعة سبعة ، فإذا أدركتموه فلا تقربوه » .

ومنها : قتل النفس الزكية :

عن مجاهد قال : حدثني رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قتلت النفس الزكية غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض ، فيأتي الناس المهدي فزفَّوْه كما تُزف العروس إلىٰ زوجها ليلة عرسها » رواه ابن أبي شيبة .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه : « إذا قتلت النفس الزكية وأخوه يقتل بمكة ضيعة نادىٰ مناد من السماء : إن أميركم فلان ، وذلك المهدي الذي يملأ الأرض حقاً وعدلاً » رواه نُعيم بن حماد .

تَنبِـيه

النفس الزكية هـٰذا غير النفس الزكية الذي قتل في زمن المنصور العباسي ؛ قتله موسىٰ بن عيسىٰ عم المنصور ، وهو : محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، بايعه أهل

المدينة بالخلافة ، وكان يقال : إنه المهدي ، قتل هو بالمدينة ، وقتل أخوه إبراهيم بن عبد الله بالعراق ، ومات أبوهما في الحبس .

ومنها : طلوع الرايات السود من قبل خراسان :

عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقاتلونكم قِتالاً شديداً لم يقاتله قوم مثله ، فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج ؛ فإنه خليفة الله المهدي » رواه ابن ماجه ، والحاكم وصححه .

ومعنىٰ كونه المهدي : أنَّ الرايات تصير إليه وتنصره .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي قومٌ من قبل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون ، فينصرون ، فيعطون ما سألوا ، فلا يقبلونه حتىٰ يدفعوها إلىٰ رجل من أهل بيتي ، فيملؤها قِسطاً كما ملؤوها جوراً ، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج » . رواه ابن أبي شيبة ، وابن ماجه[1] .

تَنبِيْه

هـٰذه الرايات السود غير الرايات السود التي أتت لنصر بني العباس ، وإن كان كل منهما من قبل المشرق من أهل خراسان وقاتلت بني أمية ؛ لأن هـٰؤلاء قلانسهم سُود وثيابهم بيض ، وأولـٰئك كل ثيابهم سود ، أو لأن هـٰذه الرايات صغار ، وتلك كانت عِظاماً ، ولأن هـٰذه يَقْدمُ بها الهاشمي الذي علىٰ مقدمته شعيب بن صالح التميمي ، وتلك قَدمَ بها أبو مسلم الخراساني ، ولأن هـٰذه تقاتل بني أبي سفيان ، وتلك قاتلت بني مروان .

وقد صرح بذلك في رواية سعيد بن المسيب رضي الله عنه ، مُرسلاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخرج من المشرق رايات سود لبنِي العباس ، ثم

(١) ذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » ، ورد عليه الحافظ ابن حجر في « القول المسدد » (ص٤٥) (ز) .

يمكثون ما شاء الله تعالىٰ ، ثم تخرج رايات سود صغار تقاتل رَجُلاً من ولد أبي سفيان وأصحابه من قبل المشرق ، ويؤدون الطاعة للمهدي » رواه نُعيم بن حماد .

ومنها : قذف الأرض أفلاذ كبدها من الذهب والفضة :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « إن هـٰذا الدين قد تم ، وإنه صائر إلى النقصان ، وإن أمارة ذلك : أن تُقطع الأرحام ، ويُؤخذ المال بغير حقه ، وتُسفك الدماء ويشتكي ذو القرابة قرابته لا يعود عليه بشيء ، ويطوف السائل لا يوضع في يده شيء .

فبينما هم كذلك إذ خارت الأرض خوار البقر ، يحسب كل أناس أنها خارت من قبلهم ، فبينما الناس كذلك إذ قذفت الأرض بأفلاذ كبدها من الذهب والفضة ، لا ينفع بعد شيء منه لا ذهب ولا فضة » رواه ابن أبي شيبة .

ومنها : خسف عند معدن :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « تخرج معادن مختلفة ، معدن منها قريب من الحجاز يأتيه شرار الناس يقال له : فرعون ، فبينما هم يعملون فيه إذ حُسِرَ عن الذهب فأعجبهم معتمله ، فبينما هم كذلك إذ خُسِفَ به وبهم » رواه الحاكم وصححه .

وعن علي كرم الله وجهه أنه قال : « الفتن أربع : فتنة السراء والضراء ، وفتنة كذا ـ فذكر : معدن الذهب ـ ، ثم يخرج رجلٌ من عترة النبي صلى الله عليه وسلم يُصلح الله تعالىٰ علىٰ يديه أمرهم » رواه نُعيم بن حماد بسندٍ صحيح علىٰ شرط مسلم .

ومنها : خسف قرية بالغوطة شرقي دمشق :

عن خالد بن معدان قال : « لا يخرج المهدي حتىٰ يُخسف بقرية بالغوطة تسمىٰ حرستا » ، رواه ابن عساكر .

ومنها : خَسْفٌ بالبيداء :

عن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العجب أن ناساً من أمتي يأتون البيت لرجل من قريش قد لجأ بالبيت ، حتىٰ إذا كانوا بالبيداء

خُسِفَ بهم ، فيهم المنتصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتىٰ ، يبعثهم الله علىٰ نياتهم »[1] رواه البخاري ، ومسلم .

وعن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها ؛ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينتهي الناس عن غزو هـٰذا البيت حتىٰ يغزو جيش ، حتىٰ إذا كانوا بالبيداء ـ أو بيداء من الأرض ـ خُسِفَ بأولهم وآخرهم ، ولم يَنْجُ أوسطهم » .

قيل : فإن كان معهم من يكره ؟ قال : « يبعثهم الله علىٰ ما في أنفسهم » رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، ورواه أحمد ، ومسلم ، والطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها .

ورواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه عن حفصة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : « يقطع الخليفة بالشام بعثاً فيهم ست مئة غريب إلىٰ هاشميين بمكة ، فإذا أتوا البيداء فينزلون في ليلة مقمرة ، إذ أقبل راعٍ ينظر إليهم ويعجب ، ويقول : يا ويح أهل مكة . فينصرف إلىٰ غنمه ، ثم يرجع فلا يرىٰ أحداً ، فإذا هم قد خُسِفَ بهم ، فيقول : سبحان الله! ارتحلوا في ساعةٍ واحدة ، فيأتي فيجد قطيفةً قد خُسِفَ ببعضها وبعضها علىٰ وجه الأرض ، فيعالجها فلا يُطيقها ، فَيعلم أنه قد خُسِفَ بهم ، فينطلق إلىٰ صاحب مكة ، فيبشره فيقول : الحمد لله ؛ هـٰذه العلامة التي كنتم تُخْبَرُونَ بها » رواه نُعيم بن حماد .

وفي رواية : « لا يُفلت منهم أحدٌ إلا بَشِيرٌ ونَذِيرٌ ؛ بشير إلى المهدي ، ونذير إلى السفياني ، وهما رجلان من كلب » .

تَنبِيه

وجه الجمع بين الروايتين أن الرجلين يهربان ، ثم يأتي الراعي فلا يرىٰ أحداً ، فيأتي بالبشارة إلى المهدي أيضاً .

---

(١) هـٰذا لفظ حديث « مسلم » ، وأخرجه « البخاري » مختصراً في «البيوع» .
قال الحافظ (٣/ ٢٩٩) : يعني أن الظاهر أنه يخسف بهم مرة ، ويترك الآخرين فيهدمونهم .
وقال أيضاً (٤/ ٢٣٤) : الظاهر أنه يخسف بهم قبل أن يصلوا إليها ، ومال ابن التين إلىٰ أن المخسوفين هم الهادمون ، خُسفوا بعد الهدم انتقاماً لهم ، وكذا قال العيني . (ز) .

وفي رواية : « فيخسف بثلثهم ، ويمسخ ثلثهم ، فتصير وجوههم إلىٰ أقفيتهم يمشون إلىٰ ورائهم كما يمشون إلىٰ أمامهم ، ويلحق ثلثهم بمكة » .

وهـٰذه إن صحت يُحتاج في الجمع إلىٰ تَمَحُّل وتَعَسُّف ، ويمكن أن يقال بتكرار خسف الجيش ، فمرةً يكون كذا ومرةً كذا .

ويَقربُهُ ما مر أن صاحب المدينة يبعث بعثاً قبل بعث السفياني ، وأنه أمير على المدينة من قبله ، فينسب إليه أيضاً ، والله أعلم .

ومنها : انكساف الشمس والقمر في رمضان(١) :

عن الإمام محمد بن علي الباقر قال : « لمهدينا آيتان لم يكونا منذ خلق الله السماوات والأرض : ينكسف القمر لأول ليلة من رمضان ، وتنكسف الشمس في النصف منه ، ولم تكونا منذ خلق الله السموات والأرض » رواه الدارقطني في « سننه »

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لا يخرج المهدي حتىٰ تطلع الشمس آية » رواه البيهقي ، ونُعيم بن حماد .

ومنها : طلوع القرن ذي السنين :

عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : « إذا بلغ العباسي خراسان طلع بالمشرق القرن ذو السنين ، وكان أول ما طلع بهلاك قوم نوح حين أغرقهم الله ، وطلع في زمن إبراهيم حين ألقوه في النار ، وحين أهلك الله قوم فرعون ومن معه ، وحين قتل يحيىٰ بن زكريا .

---

(١) أما اجتماع الخسوف والكسوف في شهرٍ واحد : فشائع كثير الوقوع ، ذكر بعضها في كتاب « شهادة آسماني » للسيد أبي أحمد رحماني في رد القادياني ، إذ قال : « إنه وقع في رمضان سنة مئة وسبعة هجري ، وسنة مئة وثمانية هجري ، وسنة مئة واثنين وخمسين هجري ، وسنة ثلاث مئة وثمانية هجري ، وسنة تسع مئة وعشرة هجري كلها في رمضان » اهـ

فالمراد بهـٰذه العلامة أول رمضان ووسطه . . . إلخ كما بسطه في هـٰذه الرسالة ، وذكر أنه وقع اجتماعهما من بعد سنة ألف إلىٰ سنة ألف وثلاث مئة واثنتي عشرة ستين مرة ، وكذلك بسط الكلام علىٰ هـٰذا الحديث وَفَصَّل الكسوفات في رسالته الأخرى المسماة : « دوسري شهادة آسماني » (ز) .

فإذا رأيتم ذلك فاستعيذوا بالله من شر الفتن ، ويكون طُلوعه بعد انكساف الشمس والقمر ، ثم لا يلبثون حتىٰ يطلع الأبقع بمصر » رواه نُعيم بن حماد .

ومنها : طلوع النجم ذي الذنب :

عن كعب قال : « يطلع من المشرق قبل خروج المهدي نجمٌ له ذنب يُضيء » أخرجه نعيم .

قلت : وقد ظهر في عام خمس وسبعين في شهر جمادى الثانية نجمٌ ذو ذنب ، وأقام مقدار شهرين ثم غاب .

ومنها : خسوف القمر مرتين في رمضان :

عن شريك قال : بلغني : قبل خروج المهدي ينكسف القمر في شهر رمضان مرتين . رواه نعيم .

ومنها : نار من قبل المشرق :

عن أبي عبد الله الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : إذا رأيتم علامةً من السماء ؛ ناراً عظيمة من قبل المشرق تطلع ليلاً فعندها فرج الناس ، وهي إقدام المهدي .

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنهما قال : إذا رأيتم ناراً من المشرق ثلاثة أيام أو سبعة أيام فتوقعوا فَرجَ آل محمد صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : وقعة بالمدينة عظيمة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « يكون بالمدينة وقعةٌ يَغْرقُ فيها أحجار الزيت ، ما الحرة عندها إلاَّ كضربة سوط ، فيتنحىٰ عن المدينة بريدين ، ثم يبايع المهدي » رواه نعيم .

تنبيه

قال في « سفر السعادة » : أحجار الزيت قريبٌ من باب من أبواب المسجد ، يقال له : باب السلام ، إذا خرج شَخصٌ من باب السلام ، وعطف على الجانب الأيمن ، وصار نحو رمية حجر بلغ المكان المعروف بأحجار الزيت .

وعبارة السيد السمهودي في « الخلاصة » : أن أحجار الزيت كانت عند مشهد مالك بن سنان ، يضع عليها الزَّياتُونَ رواياهم ، فَعلاَ الكَبْسُ عليها فاندفنت .

ولأبي داود ، والترمذي ، وغيرهما : عن مولىٰ آبي اللحم : أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء قائماً يدعو . . . الحديث .

فاقتضىٰ كلام كعب الأحبار أنها موضعٌ من الحرة بمنازل بني عبد الأشهل ، به كانت وقعة الحرة . انتهىٰ كلامه .

ومنها : نداء من السماء :

عن عاصم بن عمر البجلي قال : « لينادين باسم رجل من السماء لا ينكره الدَّليل ، ولا يُمْنَع منه الذَّليل » رواه ابن أبي شيبة .

وعن علي رضي الله عنه قال : « إذا نادىٰ مُنادٍ من السماء : إن الحق في آل محمد صلى الله عليه وسلم فعند ذلك يظهر المهدي علىٰ أفواه الناس ، وَيُشْرَبُونَ حُبَّه ، ولا يكون لهم ذكر غيره » رواه نعيم .

وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : « تكون فتنةٌ كأن أولها لعب الصبيان ، فلا تتناهىٰ حتىٰ يُنادي مُنادٍ من السماء : ألا إنَّ الأمير فلان ذلكم الأمير حقاً . (ثلاث مرات) » رواه نعيم .

وعن أبي جعفر الباقر رضي الله عنه قال : ينادي مُنادٍ من السماء : ألا إنَّ الحق في آل محمد صلى الله عليه وسلم . وينادي مُنادٍ من الأرض : ألا إنَّ الحق في آل عيسىٰ عليه السلام ـ أو قال : العباس ، فَشَكَّ فيه ـ وإنما الأسفل كلمة الشيطان ، والصوت الأعلىٰ كلمة الله العليا » . رواه نعيم .

وعنه رضي الله عنه قال : « إذا كان الصوت في شهر رمضان في ليلة جمعة فاسمعوا وأطيعوا ، وفي آخر النهار صوت اللعين إبليس يُنادي : ألا إنَّ فُلاناً قد قتل مظلوماً . ليُشكِّكَ الناس ويفتنهم ، فكم في اليوم من شَاكٍّ مُتحير ! فإذا سمعتم الصوت في رمضان ـ يعني : الأول ـ فلا تشكّوا أنه صوت جبريل ، وعلامة ذلك أنه يُنادي باسم المهدي واسم أبيه » .

وعن إسحاق بن يحيىٰ ، عن أمه قالت : تكون فتنة تهلك الناس لا يستقيم أمرهم حتىٰ يُنادي مُنادٍ من السماء : عليكم بفلان » رواه نُعيم بن حماد .

عن شهر بن حوشب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في المُحَرَّم يُنادي مُنادٍ من السماء : ألا إن صفوة الله من خلقه فلان . فاسمعوا له وأطيعوا ، في سَنةِ الصوت والمعمعة » رواه نُعيم .

وَمَرَّ عن عمار رضي الله عنه النداء عند قتل النفس الزكية قال في « عقد الدرر » : وهـٰذا النداء يَعُم أهل الأرض ، ويسمعه كل أهل لغة بلغتهم .

وعن الحكم بن نافع قال : (إذا كان الناس بمنىٰ وبعرفات نادىٰ مُنادٍ بعد أن تتحارب القبائل : ألا إنَّ أميركم فلان . ويتبعه صوت آخر : ألا إنه قد صدق) .

تَنبـيـه

لا مانع من تكرر النداء في رمضان ، وفي ذي الحجة ، وفي المحرم ، وغيرها ؛ كما يظهر من اختلاف الروايات .

ومنها : طلوع كَفٍّ من السماء :

عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : (تكون فرقة واختلاف ، حتىٰ يطلع كَفٌّ من السماء ، ويُنادي مُنادٍ من السماء : إن أميركم فلان) .

وعن أسماء بنت عُميس رضي الله عنها : (إن أمارة ذلك اليوم أن كفّاً من السماء مدلاة ينظر الناس إليها) رواه نُعيم بن حماد .

ومنها : إخراج كنز الكعبة وخزائنها :

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أنه قال حين وَلَج هو وعمر رضي الله عنهما البيت ، فقال عمر رضي الله عنه : والله ما أدري ! أأدع خزائن البيت وما فيه من السلاح والأموال ، أو أقسمه في سبيل الله ؟

فقال له علي رضي الله عنه : امض يا أمير المؤمنين فلست بصاحبه ، إنما صاحبه منا شاب من قريش يقسمه في سبيل الله في آخر الزمان » رواه نُعيم بن حماد .

ومنها : الملحمة العظمىٰ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ تنزل الروم بالأعماق أو بدابق ، فيخرج إليهم جلبٌ من المدينة . . . » الحديث . رواه مسلم ، والحاكم وصححه ، وقد مر تفصيله .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرىٰ بالغوطة إلىٰ جانب مدينة يقال لها : دمشق ، من خير مدائن الشام » رواه أبو داود ، والحاكم وصححه .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يُقْسمَ مِيراث ، ولا يُفرح بغنيمة ، ثم قال : يجتمعون لأهل الشام ، ويجمع لهم أهل الإسلام ـ يعني : الروم ـ . . . إلىٰ أن قال : فيجعل الله الدَّبَرة عليهم ، فيقتلون مقتلة عظيمة لم يُر مثلها ، حتىٰ إنَّ الطائر يمر بجانبهم فما يُخلفهم حتىٰ يخر ميتاً ، فيتعادُّ بنو الأب ، كانوا مئة فلا يجدون بقي منهم إلاَّ الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يُفرح ، أو أي مِيراث يُقسم ؟! » رواه مسلم .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سِتٌّ من أشراط الساعة : موتي ، وفتح بيت المقدس » . . . إلىٰ أن قال : « وأن يغدر الروم فيسيرون بثمانين بنداً ، تحت كل بند اثنا عشر ألفاً » رواه أحمد ، وابن أبي شيبة ، والطبراني .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سِتٌّ فيكم أيتها الأمة » . فقال في الخامسة : « وهدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيجمعون لكم تسعة أشهر كقدر حمل المرأة ، ثم يكونون أولىٰ بالغدر منكم » رواه أحمد .

ومنها : أن يكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد .

ومنها : أن لا يفرح بميراث ولا بغنيمة .

وهٰذان كلاهما يقع في الملحمة العظمىٰ حتىٰ يتعادَّ بنو الأب الواحد ؛ كانوا مئة فلا يبقىٰ منهم إلاَّ الرجل الواحد ، ويكون لخمسين امرأة قيم واحد .

ورَوى الستة غير أبي داود : عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن من أشراط الساعة أن يقل الرجال ويكثر النساء ، حتىٰ يكون لخمسين امرأة قيم واحد » .

ومرَّ : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يُقسم مِيراث ، ولا يُفرح بغنيمة » .

تَنبِيه

قيل : كثرة النساء ؛ سببه : كثرة الفتن المُورثة لكثرة القتل في الرجال ؛ لأنهم أهل الحرب دون النساء . انتهىٰ

ويدل له حديث الملحمة ؛ حيث ذكر كثرتهن بعد قتل الرجال .

لٰكن قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » في (باب العلم) : الظاهر أنها علامةٌ محضةٌ لا لسبب آخر ، بل يُقدِّر الله في آخر الزمان أن يقل من يُولد من الذكور ، ويكثر من يُولد من الإناث .

قال : وكون كثرة النساء من العلامات مناسبٌ لظهور الجهل ورفع العلم ؛ أي : فعلىٰ هٰذا ينبغي أن تُذكر عند رفع العلم ، لٰكن استطردناها هنا للمناسبة .

ثم قال الحافظ ابن حجر : قوله : « لخمسين » يحتمل أن يراد به حقيقة هٰذا العدد ، أو يكون مجازاً عن الكثرة .

ويؤيده: أن في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه : « وترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة » انتهىٰ

ومنها : فتح القسطنطينية وورومية[1] :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هل سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب في البحر ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله . قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق. . . » الحديث . رواه مسلم ، والحاكم . وقال الحاكم : يقال هٰذه المدينة هي القسطنطينية .

قال القاضي عياض : كذا هو في أصول مسلم (بني إسحاق) ، والمعروف المحفوظ (بني إسماعيل) ، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه ؛ لأنه إنما أراد العرب .

وقال الحافظ ابن حجر : قيل : صوابه (بني إسماعيل) ؛ كما دلت عليه أحاديث أخر .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سِتٌّ فيكم أيتها الأمة. . . » . وقال في السادسة : « وفتح مدينة » . قلت : يا رسول الله ؛ أي مدينة ؟ قال : « قسطنطينية » .

وعن كثير بن عبد الله المزني ، عن أبيه ، عن جده : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تذهب الدنيا حتىٰ تقاتلوا بني الأصفر ، يخرج إليهم دوقة

(١) وقد فتحت أولاً في زمن معاوية رضي الله عنه في سنة خمسين أو سنة واحد وخمسين ؛ كما في « الخميس » (٢/ ٢٩٤) ، وتوفي فيها أبو أيوب رضي الله عنه ، وهي مصداق آخرى غزوتي في حديث أم حرام بنت ملحان : « كالملوك على الأسرة » وفي « الفتوحات الإسلامية » (٢ : ٧١) للسيد أحمد ابن السيد زيني دحلان مفتي الشافعية بمكة : أنهم افتتحوا في زمن معاوية رضي الله عنه طرفاً منها ، ثم استرجع الروم الطرف الذي افتتح في ذلك الزمن . فالفتح التام حصل في زمن السلطان محمد من آل عثمان نهار الأربعاء لعشرين من جمادى الآخر سنة سبع وخمسين وثمان مئة ، وكانت أيام محاصرتها إحدىٰ وخمسين يوماً فغنم المسلمون من الأموال والدواب ما لم يسمع بمثله. . . إلخ

قلت : وحكىٰ صاحب « المجمع » عن القرطبي فتحها في زمن عثمان رضي الله عنه ، وليس بوجيه ؛ فإنهم قاطبة صرحوا بأنها فتحت قريباً من سنة خمسين هجري ، ولعل القرطبي تجوز باعتبار أن مبدأ غزوة الروم في البحر كان في زمن عثمان رضي الله عنه ، وهي مصداق أولىٰ غزوتي في حديث أم حرام (ز) .

المؤمنين أهل الحجاز الذين يجاهدون في سبيل الله ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، حتىٰ يفتح الله عليهم قسطنطينية وورومية بالتسبيح والتكبير ، فينهدم حصنها. . . » الحديث . رواه ابن ماجه ، والحاكم .

وعن أبي قبيل قال : « تذاكرنا فتح القسطنطينية وورومية ؛ أيهما تُفتح أولاً ؟ قال عبد الله فقيل : يا رسول الله ؛ أي المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « مدينة هرقل تُفتح أولاً » ؛ يريد القسطنطينية رواه أحمد ، والحاكم وصححه .

تفهيم في تتميم

قال الحافظ ابن القيم في «المنار» : قد اختلف الناس في المهدي علىٰ أربعة أقوال :

أحدها : أنه المسيح ابن مريم عليه السلام ، وأنه هو المهدي على الحقيقة ، واحتج أصحاب هـٰذا القول بحديث محمد بن خالد الجُنْدي ؛ أي المتقدم ، وقد بينا حاله وأنه لا يصح ، ولو صح لم يكن فيه حجةٌ ؛ لأن عيسىٰ عليه السلام أعظم مهدي بين يدي الساعة ، فيصح أن يقال : لا مهدي في الحقيقة سواه ، إن كان غيره مهدياً ، يعني : هو المهدي الكامل المعصوم .

ثانيها : أنه المهدي الذي ولي من بني العباس قد انتهىٰ ، واحتج أصحاب هـٰذا القول بما رواه أحمد في « مسنده » عن ثوبان ؛ مرفوعاً : « إذا رأيتم الرايات السود أقبلت من خراسان فأتوها ولو حبواً على الثلج ؛ فإن فيه خليفة الله المهدي » ، وفيه علي بن زيد ضعيفٌ وله مناكير ، فلا يحتج بما ينفرد به .

وَرَوى ابن ماجه من حديث الثوري ، عن ثوبان نحوه ، وتابعه عبد العزيز بن المختار ، عن خالد .

وفي « سنن ابن ماجه » : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً ، حتىٰ يأتي قومٌ من أهل المشرق ومعهم رايات سود ». . . الحديث ، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد ؛ وهو سَيِّىء الحفظ ، اختلط في آخر عمره ، وكان يقبل الفلوس .

قال : وهٰذا والذي قبله لو صح لم يكن فيه دليلٌ علىٰ أن المهدي هو الذي تولىٰ من بني العباس .

أقول : قد مر أن رايات المهدي أيضاً تأتي من خراسان وأنها سود ، وأنها غير رايات بني العباس ، والله أعلم .

ثالثها : أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من ولد الحسن ؛ أي : أو ولد الحسين بن علي ، يخرج في آخر الزمان وقد ملئت الأرض جوراً ، فيملؤها قِسطاً وَعدلاً ، وأكثر الأحاديث علىٰ هٰذا .

وأما الرافضة والإمامية فلهم قول رابع :

وهو : أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر ، من ولد الحسين بن علي ، لا من ولد الحسن بن علي ، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار ، دخل سرداب سامراء طِفلاً صغيراً من أكثر من خمس مئة سنة ، فلم تره بعد ذلك عين ، ولم يُحس عنه بخبر ، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل علىٰ باب السرداب ويصيحون به : أن اخرج يا مولانا ، اخرج يا مولانا . ثم يرجعون بالخيبة والحرمان ، فهٰذا دأبهم .

ولقد أحسن من قال :

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ ٱلَّذِي ... كَلَّمْتُمُوهُ لِجَهْلِكُمْ مَا آنَا
فَعَلَىٰ عُقُولِكُمُ ٱلْعَفَاءُ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُوا ٱلْعَنْقَاءَ وَٱلْغِيلَانَا

ولقد أصبح هٰؤلاء عاراً علىٰ بني آدم ، وَضُحكةً يَسخر منها كل عاقل .

أقول : وقد ادعىٰ قومٌ من السلف في محمد بن عبد الله المحض النفس الزكية أنه المهدي ، وقد مرت الإشارة [إليه] ، والله أعلم .

قال : وأما مهدي المغاربة ؛ محمد بن تومرت فإنه رجلٌ كَذابٌ ظَالمٌ متغلبٌ بالباطل ، ملك بالظلم ، فقتل النفوس ، وأباح حريم المسلمين ، وسبىٰ ذراريهم ، وأخذ أموالهم ، وكان شرّاً على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير ، وكان يُودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء ، ويأمرهم أن يقولوا للناس : إنه المهدي

الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يردم عليهم ؛ لئلا يكذبوه بعد ذلك ، وتسمىٰ بالمهدي المعصوم .

ثم خرج الملحد عبيد الله بن ميمون القداح ، وكان جَدُّهُ يهودياً من بنت مجوسي ، فانتسب بالكذب والزور إلىٰ أهل البيت ، وادعىٰ أنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وملك وتغلب واستفحل أمره ، إلىٰ أن استولت ذريته الملاحدة المنافقون الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ورسوله علىٰ بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام ، واشتدت غُربة الإسلام ومحنته ومصيبته ، وكانوا يدعون الإلـٰهية ويدعون أن للشريعة باطناً يخالف ظاهرها ، وهم ملوك الفاطمية الباطنية أعداء الدين ، فتستروا بالرفض والانتساب إلىٰ أهل البيت ، ودانوا بدين أهل الإلحاد .

ولم يزل أمرهم ظاهراً إلىٰ أن أنقذ الله الأمة ، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم وأبادهم ، وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمنهم .

انتهىٰ ملخصاً بمعناه.

وقد مرت الإشارة إلىٰ بعض قبائحهم ، وبدعهم ، وكفرهم ، وإلحادهم في الباب الأول .

أقول : وقد ذكر الشيخ علي المتقي في رسالةٍ له في أمر المهدي : أن في زمانه خرج رجلٌ بالهند ادعىٰ أنه المهدي المنتظر واتبعه خَلقٌ كثير ، وظهر أمره وطار صيته ، ثم إنه مات بعد مدة ، وأن أتباعه لم يرجعوا عن اعتقادهم .

قُلْتُ : وقد سمعت كثيراً من القادمين من بلاد الهند إلى الحرمين من العلماء والصلحاء ، أن أولـٰئك القوم إلى الآن علىٰ ذلك الاعتقاد الخبيث ، وأنهم يعرفون بالمهدوية ، وربما سموا بالقتالية ؛ لأن كل من قال لهم : إن اعتقادكم باطل . قتلوه ، حتىٰ إن الرجل الواحد منهم يكون بين الجمع الكثير من المسلمين ، فإذا قيل له : إن اعتقادك باطل قتل القائل ، ولا يبالي أيقتل أو يَسلم ، وهم خَلقٌ كثير ، وقد ضموا إلىٰ ذلك الاعتقاد بدعاً أخر خرجوا بها عن سواء الصراط .

أخبرني بهـٰذا جَمعٌ من ثقات أهل الهند .

وظهر بجبال شهرزور وأنا طفل إذ ذاك بقريةٍ يقال لها : أزمك ـ بهمزة مفتوحة

آخرها كاف ـ رجلٌ يسمىٰ محمداً ، وادعىٰ أنه المهدي واتبعه خَلقٌ ، ثم إن أمير تلك البلاد أحمد خان الكردي أغار عليه ، فهرب ، وأخذ أخاه ، وخرب قريته ، وقتل جماعةً من أتباعه ، فزالت شوكته وَذَلَّ ، فاجتمع عليه علماء الأكراد وأفتوه بكفره ، وألزموه بتجديد إيمانه ، وتجديد عقد نكاح أزواجه ، فتاب ورجع عن ذلك ظاهراً ، لـٰكن كان بعض من يخالطه يقول : إنه لم يرجع باطناً .

وقد اجتمعتُ به سنة سبعين وألف فوجدته عابداً كثير الاجتهاد ، متورعاً في مأكله وملبسه عن الحرام ، مُلازماً للأوراد علىٰ طريقة الخلوتية ، وكان أخوه ذاك الذي أُخِذَ وحُبِسَ لأجله شديد الإنكار عليه ، كثير اللوم له ، ثم إنه توفي رحمه الله .

فهـٰؤلاء الذين ادعوا المهدية بالباطل ، واتبعهم بعض السفهاء وحصلت منهم فِتنٌ وفسادٌ كثير في الدين .

وظهر قبل تأليفي لهـٰذا الكتاب بقليل رَجُلٌ بجبال عقر ، أو العمادية من الأكراد يسمىٰ : عبد الله ، ويدعي أنه شريفٌ حُسيني ، وله ولدٌ صغير ابن اثنتي عشرة سنة ، أو أقل أو أكثر ، قد سماه محمداً ، ولقبه المهدي ، فادعىٰ أن ابنه هو المهدي الموعود ، وتبعه جماعةٌ كثيرة من القبائل ، واستولىٰ علىٰ بعض القلاع ، ثم ركب عليه والي الموصل ، ووقع بينهم قتال وسفك دماء ، وقد انهزم المدعي وأُخِذَ هو وابنه إلى استنبول ، ثم إن السلطان عفا عنهما ومنعهما من الرجوع إلىٰ بلادهما ، وماتا جميعاً .

ومنها : الدجال :

ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب حضور الملحمة ، وحضور الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والحاكم وصححه .

وحكى البيهقي عن شيخه الحاكم قال : أول الآيات ظُهوراً ـ أي : بعد المهدي ـ خروج الدجال ، ثم نزول عيسىٰ عليه السلام ، ثم فتح يأجوج ومأجوج ، ثم خروج الدابة ، ثم طلوع الشمس من مغربها .

وسيأتي في كلام الحاكم أن خروج الدابة بعد طلوع الشمس وأنه الأوجه ، فنذكرها بإذن الله علىٰ هـٰذا الترتيب ، وبالله التوفيق وعليه التكلان .

فنقول : ومن الفتن الواقعة في زمن المهدي ، ومن الأشراط العظام القريبة : خروج الدجال ، وأخباره تحتمل مجلداً ، أفردها غير واحد من الأئمة بالتأليف[1] .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما بين خلق آدم إلىٰ قيام الساعة أمر أكبر من الدجال » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « ثلاث إذا خرجن لم ينفع نَفْساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها » رواه الترمذي وصححه .

ومن دعواته صلى الله عليه وسلم : « اللَّهم ؛ إني أعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » .

ووقع في « تفسير البغوي » : أن الدجال مذكور في القرآن في قوله تعالىٰ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وأن المراد بالناس هنا الدجال من إطلاق الكل على البعض .

وفي « صحيح البخاري » : « ما من نبي إلا وقد أنذر قومه » . زاد في رواية معمر : « لقد أنذر نوح قومه » .

وعند أبي داود ، والترمذي وحسنه عن أبي عبيدة رضي الله عنه : « لم يكن نبيٌّ بعد نوح إلا وقد أنذر قومه الدجال » .

وعند أحمد : « لقد أنذر نوح أمته والنبيون من بعده » ، وأخرجه من وجه آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما .

والكلام عليه يأتي في مقامات في اسمه ونسبه ومولده وحليته وسيرته وفتنته ومحل خروجه ووقته ومدته وكيفيته وكيف النجاة منه ومن يقتله .

* * *

---

(١) وبسط روايات خروجه عامة أهل الحديث سيما السيوطي في « الدُّر » (٢/ ٢٤٢) تحت قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ قبيل المائدة . (ز) .

المقام الأول

في اسمه ، ونسبه ، ومولده

هو : صافي بن الصياد ، أو الصائد ، ومولده المدينة هٰذا بناءً علىٰ أن ابن الصياد هو الدجال ، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ أن الأصح أنه غيره .

وعليه : فإما أنه شيطانٌ موثقٌ في بعض الجزائر ، أو هو من أولاد شِقّ ؛ الكاهن المشهور ، أو هو شِقٌّ نفسه ، وكانت أمه جنية عشقت أباه فأولدها شقّاً ، وكانت الشياطين تعمل له العجائب ، فحبسه سليمان النبي عليه السلام ولقبه المسيح .

وصفته : الدجال ؛ مشتقٌّ من الدجل ؛ وهو : الخلط واللبس والخَدعُ ، فمعنى الدجال : الخداع الملبس على الناس ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم حين خطب إليه أبو بكر رضي الله عنه فاطمة عليها السلام : « إني وعدتها لعلي ، ولست بدجال » ؛ أي : لست بخداعٍ له ولا مُلبسٍ عليك أمرك .

وأما تلقبه بالمسيح[1] : فلأن عينه الواحدة ممسوحة ، يقال : رجل مسيح الوجه ، إذا لم يبق علىٰ أحد شقي وجهه عين ولا حاجب إلا استوىٰ . وقيل : لأنه يمسح الأرض ؛ أي : يقطعها .

وقال أبو الهيثم : إنه المِسِّيح ؛ بوزن سكين ؛ وهو : الذي مُسِحَ خلقه وشوه . وقال بعضهم : إنه المسيخ ، بالخاء المعجمة . وعيسىٰ عليه السلام ؛ بالمهملة .

قال في « فتح الباري » : وبالغ القاضي ابن العربي فقال : ضلَّ قومٌ فروه بالخاء المعجمة ، وشدد بعضهم السين ليفرقوا بينه وبين المسيح ابن مريم عليه السلام ، قال : وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم بينهما بقوله في الدجال : « مسيح الضلالة » ، فدل علىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مَسيحُ الهدىٰ ، فأراد هٰؤلاء تعظيم عيسىٰ عليه السلام فحرفوا الحديث .

---

(١) وحكىٰ صاحب « الدرجات » (ص١٧٦) عن القرطبي أن في وجه تسميته بالدجال عشرة أقوال ، وعن صاحب « القاموس » عن وجه تَلقُّبِهِ بالمسيح خمسين قولاً (ز) .

قال المجد في « القاموس » اجتمع لنا في سبب تسميته المسيح خمسون قولاً ، وأما وجه تسمية عيسىٰ عليه السلام مسيحاً ؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برىء ، أو لأنه لا أخمص له ، ومنه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم كان مسيح القدمين ، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن ، أو لأنه يمسح الأرض ويقطعها .

* * *

المقام الثاني
في حليته ، وسيرته ، وفتنته

أما حليته : فإنه رجلٌ شاب ، وفي رواية : شيخ ، ـ وسندهما صحيح ـ جسيم ، أحمر . وفي رواية : أبيض أمهق . وفي حديث عبد الله بن مغفل عند الطبراني : « أنه آدم » .

قال في « فتح الباري » : يمكن أن تكون أدمته صافية ، وقد يوصف ذلك بالحمرة ؛ لأن كثيراً من الأُدْمِ قد تحمر وجنته ، جعد الرأس ، قطط ، أعور العين اليمنىٰ كأنها عنبة طافية . وفي رواية : « أعور العين اليسرىٰ »[1] . ووقع في حديث سمرة عند الطبراني ، وصححه ابن حبان ، والحاكم : « ممسوح العين اليسرىٰ » . وجاء في رواية : « أنه أعور العين مطموسها ، وليست جحراء » ، وهـٰذا معنىٰ (طافئة) ؛ مهموزة .

قال في « فتح الباري » نقلاً عن القاضي عياض : الذي رويناه عن الأكثر وصححه الجمهور ، وجزم به الأخفش : (طافية) ؛ بغير همزة .

قال : وضبطه بعض الشيوخ بالهمزة ، ومعناه : أنها ناتئةٌ نُتوء العنبة ، وأنكره بعضهم ولا وجه لإنكاره .

ثم جمع القاضي عياض بين الروايات بأن عينه اليمنىٰ طافية بغير همز وممسوحة ؛ أي : ذهب ضوءها ، وهو معنىٰ حديث أبي داود : « مطموس العين ليست بناتئة ولا جحراء » ؛ أي : ليست عالية ولا عميقة ؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في « الصحيحين » : « واليسرىٰ طافئة » بالهمز ؛ كما في الرواية الأخرىٰ عنه .

وهي : الجاحظة التي كأنها كوكب ، وكأنها نخاعة في حائط ؛ أي : وهي الخضراء ، كما جاء كل ذلك في الأحاديث .

---

(١) اختلفت الروايات في عيني الدجال ، كما بسطها الحافظ (٦/ ٣٤٣) (١٣/ ٧٨) ، والعيني (ج١ ، ج٢) ، والنووي (١/ ٩٦) . (ز) .

قال : وعلىٰ هـٰذا فهو أعور العينين معاً ، فكل واحدة منهما عوراء ، وذلك أن العور : العيب ، والأعور من كل شيء : المعيب . وكلا عيني الدجال معيبة ؛ إحداهما بذهاب نورها ، والأخرىٰ بنتوئها وخضرتها .

قال النووي : وهو في غاية الحسن ، له علىٰ عينه ظفرة غليظة ، وهي جلدة تغشى العين ، وإذا لم تقطع عميت .

وقال البيضاوي : الظفرة : لحمة تنبت عند المأق .

وقيل : لحمة تخرج في العين في الجانب الذي يلي الأنف ، وهما متقاربان .

قال الحافظ ابن حجر : وقد ورد في كلتا عينيه أن عليها ظفرة .

وفي بعض الروايات : عن أبي سعيد رضي الله عنه عند أحمد : « عينه اليمنىٰ جاحظة لا تخفىٰ ؛ كأنها نخاعة في حائط مجصص ، وعينه اليسرىٰ ؛ كأنها كوكب دري » .

وفي حديث أُبَيّ عند أحمد ، والطبراني : « إحدىٰ عينيه كأنها زجاجة خضراء » .

قال الحافظ : والذي يتحصل من مجموع الأخبار ، أن الصواب في (طافية) أنه بغير همز ، وصرح في حديث عبد الله بن مغفل وسمرة وأبي بكرة بأن عينه اليسرىٰ ممسوحة ، والطافية هي البارزة ، وهي غير الممسوحة ولها الظفرة .

فجائز أن يكون في كل من عينيه ؛ لأنه لا يضاد الطمس ولا النتوء ، ويكون التي ذهب ضوءها هي المطموسة ـ يعني : اليسرىٰ ـ والمعيبة مع بقاء عينها هي البارزة . انتهىٰ

ومن حليته : أنه قصير أفحج ـ بفاء ساكنة ، وجيم آخره ـ من الفحج ؛ وهو : تباعد ما بين الساقين ، وقيل : تداني صدور القدمين مع تباعد العقبين ، وقيل : هو الذي في رجليه اعوجاج .

(جفال الشعر) ؛ بضم الجيم وتخفيف الفاء ؛ أي : كثيره .

(هجان) ؛ بكسر أوله ، وتخفيف الجيم ؛ أي : أبيض .

(أقمر) ؛ أي : شديد البياض . (ضخم فيلماني) ؛ بفتح الفاء ، وسكون

التحتانية ؛ أي : عظيم الجثة كأن رأسه أغصان شجرة ؛ أي : شعر رأسه كثير متفرق قائم .

وفي رواية : أن رأسه من ورائه حبك ؛ أي : شعره متكسر من الجعودة كالماء والرمل إذا ضربته الريح .

قال في « النهاية » : وهٰذا معنىٰ ما مر أنه جعد قطط مكتوب بين عينيه : (ك ف ر) ، بحروف متقطعة ، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ، ولا يقرؤها الكفار ، لا يولد له ، ولا يدخل المدينة ومكة ، تتبعه أقوام كأن في وجوههم المجان المطرقة ، وسبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم الطيالسة .

وفي لفظ : عليهم من السيجان ، وكلهم ذو سيف مُحَلّىٰ .

تَنبِيْه

قال في « النهاية » : السيجان جمع ساج وهو الطيلسان الأخضر ، وقيل : هو الطيلسان المقور ينسج كذلك . ومنهم من يجعل ألفه منقلبة عن الواو ، ومنهم من يجعلها منقلبة عن الياء . انتهىٰ

ومن صفاته أنه تنام عيناه ، ولا ينام قلبه ، أبوه طوال ضرب اللحم كأن أنفه منقاراً . وأمه امرأة فرضاخية ؛ أي : كثيرة اللحم طويلة الثديين . له حمار أهلب ؛ أي : كثير الهلب ، وهو الشعر الغليظ . ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، يضع خطوة عند منتهىٰ طَرْفِهِ .

عن أبي الطفيل ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج الدجال علىٰ حمار ، رجس علىٰ رجس » رواه ابن أبي شيبة .

وعن عليّ كرّم الله وجهه : « يخرج الدجال ، ومعه سبعون ألفاً من الحاكة[1] ؛ وهي موضع ، علىٰ مقدمته أشعر ؛ أي : رجل كثير الشعر يقول : بِرَو بِرَو » رواه الديلمي ؛ أي : وهي كلمة بالفارسية ، ومعناه : اسع اسع .

---

(١) وقد ذكره الحافظ في « اللسان » (١ / ٢٤٢) من رواية ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ : « سبعون ألف حائك » وقال : هٰذا باطلٌ (ز) .

وعن أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه : « أن طول الدجال أربعون ذراعاً بالذراع الأول ، تحته حمار أقمر ؛ أي : شديد البياض ، طول كل أذن من أذنيه ثلاثون ذراعاً ، ما بين حافر حماره إلى الحافر الآخر مسيرة يوم وليلة ، تُطوىٰ له الأرض منهلاً منهلاً ، يتناول السحاب بيمينه ، ويسبق الشمس إلىٰ مغيبها ، يخوض البحر إلىٰ كعبيه. . . » الحديث بطوله .

تَنبِـيْه

لا منافاة بين هـٰذه ورواية أنه قصير ؛ لاحتمال أن قصره بالنظر إلىٰ ضخامته ؛ فإن ضخامته تقضي أن يكون أطول من ذلك ، أو أنه ابتداء قصير وهو خلقته في نفس الأمر ، ثم إذا أظهر الكفر وادعى الإلـٰهية زاد طوله وضخامته ؛ ابتلاءً من الله للعباد ، وفتنة لهم كسائر فتنه ، والله أعلم .

وأما سيرته : فإنه يخرج أولاً فيدعي الإيمان والصلاح ، ويدعو إلى الدين ، فَيُتبع ويظهر ، فلا يزال حتىٰ يقدم الكوفة ، فيظهر الدين ويعمل فيه ، فَيُتَبع ويُحَبُّ علىٰ ذلك ، ثم يدعي أنه نبي فيفزع من ذلك كل ذي لُبّ ويفارقه ، ثم يمكث بعد ذلك أياماً ، ثم يدّعي الإلـٰهية ويقول : أنا الله . فتغشىٰ عينه ، وتقطع أذنه ، ويكتب بين عينيه : ك ف ر ، فلا يخفىٰ علىٰ كل مسلم ، فيفارقه كل أحدٍ من الخلق في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . هـٰكذا رواه الطبراني عن عبد الله بن معتمر رضي الله عنه ، وكان صحابياً .

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : « يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي ـ أي : ابتداءً قبل خروجه ـ ثم يُلتمس فلا يُقدر عليه ، ثم يُرىٰ عند المنارة التي عند نهر الكسوة ، ثم يُطلب فلا يُدرىٰ أين توجه ، فَيُنسىٰ ذكرهُ ، ثم يَظْهَرُ بالمشرق فَيُعْطَى الخلافة ، ثم يُظهر السحر ، ثم يدعي النبوة ، فيتفرق الناس عنه ـ أي : يعني : المسلمين ـ فيأتي النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ، ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يأمره أن ييبس فييبس. . . » الحديث بطوله رواه نُعيم بن حماد .

ويتبعه سبعون ألفاً من يهود أصبهان ، وثلاثة عشر ألف امرأة ، وعامة من يتبعه اليهود ، والترك ، والنساء ، ويبعث الله له شياطين فيقولون : استعن بنا علىٰ ما تريد .

فيقول : نعم ، اذهبوا إلى الناس فقولوا : أنا ربهم . فيبثهم في الآفاق إلىٰ غير ذلك .

وأما فتنه : فكثيرة لا تكاد تنحصر :

منها : « أنه يسير معه جبلان أحدهما فيه أشجار وثمار وماء ، وأحدهما فيه دخان ونار ، فيقول : هـٰذه الجنة ، وهـٰذه النار » رواه الحاكم ، وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ومنها : « أن معه جنة وناراً ، ورجالاً يقتلهم ثم يحييهم ، معه جبل من ثريد ونهر من ماء » رواه نُعيم عن حذيفة رضي الله عنه .

تَنبِيه

لا ينافي هـٰذا ما ورد أنه يُسلط علىٰ نفس واحدة ثم لا يقدر عليه ثانياً ، وأنه يقول : لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس . لأن هـٰؤلاء الرجال هم شياطين ، وقتله إياهم وإحياؤه إنما هو في رأي العين لا على الحقيقة .

وقيل : ذلك حقيقة ؛ أي : وهو الخَضِرُ ؛ كما سيأتي .

وفي رواية : « معه جِبالٌ من خبز ، والناس في جهد إلا من اتبعه ، ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهرٌ يقول له : الجنة ، ونهرٌ يقول له : النار . فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار ، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة » رواه أحمد ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وسعيد بن منصور ، عن جابر رضي الله عنه .

وفي رواية : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ؛ معه نهران يجريان : أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر رأي العين نار تأجج ، فأما إن أدرك ذلك واحد منكم فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ، ثم ليطأطىء رأسه فليشرب ، فإنه ماء بارد » .

وفي رواية البخاري ، عن المغيرة بن شعبة : « معه جبل خبز » .

زاد مسلم في روايته : « معه جبال خبز ، ولحم ، ونهر من ماء » .

وفي رواية إبراهيم : « أن معه الطعام والأنهار » .

وفي رواية يزيد بن هارون : « أنَّ معه الطعام والشراب » .

وفي رواية : « معه مثل الجنة والنار » .

وفي رواية نُعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه : « ومعه جبل من مرق ، وعَرَاقٌ اللحم حار لا يبرد ، ونهر جار ، وجبل من جنان وخضرة ، وجبل من نار ودخان ، يقول : هٰذه جنتي ، وهٰذه ناري ، وهٰذا طعامي ، وهٰذا شرابي » .

تَنبِيه

اختلفوا في هٰذه الجنة والنار ؛ هل هي حقيقة أم تخييل ؟

مال ابن حبان في « صحيحه » إلىٰ أنه تخييل ، واستدل بحديث المغيرة بن شعبة في « الصحيحين » أنه قال : كنت أُكْثِرُ من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال ، فقال لي : « وما يضُرك ؟ » قلت : لأنهم يقولون إن معه جبل خبز . قال : « هو أهون من ذلك » .

معناه : أنه أهون على الله من أن يكون معه ذلك حقيقة ، بل يُرىٰ كذلك وليس بحقيقة ؛ أي : ويدل له الرواية السابقة : « أحدهما في رأي العين ماء أبيض ، والآخر في رأي العين نار تأجج » .

وقال جماعة منهم القاضي ابن العربي : بل هي علىٰ ظاهرها ؛ أي : فيكون ذلك امتحاناً من الله لعباده ، ويكون معنى الحديث : هو أهون من أن يُخَاف ، أو أن يضل الله به من يُحبه .

قُلْتُ : والتحقيق : الأول ؛ كما يدل له قوله : « فليغمض ، ثم ليطأطىء رأسه ، فيشرب ؛ فإنه ماء بارد » ، وما في رواية : « فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه أنها نار ؛ فإنه ماء عذب بارد » ، وما في رواية : « فالنار روضة خضراء ، والجنة غبراء ذات دخان » ، والفرق بينهما وبين غيرهما من الخوارق حيث إن لها حقيقة ، كما يظهر أن الجنة والنار لما كانا داري جزاءٍ وثواب وعقاب ، ينبغي أن لا يكونا لغير الله حقيقة ، بخلاف غيرهما من الخوارق ، والله أعلم .

ومنها : أنه تُطوىٰ له الأرض منهلاً منهلاً طي فروة الكبش ، وأنه يسيح الأرض كلها في أربعين يوماً ، وما من بلد إلا وسيطؤها إلا مكة والمدينة ؛ كما سيأتي .

وسرعته في السير كالغيث استدبرته الريح .

ومنها : « أن له ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق وأهل المغرب ، ويتناول الطير من الجو ، ويشويه في الشمس شياً » رواه الحاكم ، وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ومنها : « أنه يخوض البحر في اليوم ثلاث خوضات لا يبلغ حقويه ، وإحدىٰ يديه أطول من الأخرىٰ ، فيمد الطويلة في البحر فيبلغ قعره ، فَيُخْرِجُ من الحيتان ما يريد » رواه أبو نُعيم عن حذيفة رضي الله عنه .

ومنها : أنه يخرج في خفة من الدين وإدبار من العلم ، فلا يبقىٰ أحد يحاجّه في أكثر الأرض ، ويذهل الناس عن ذكره ، وأن أكثر ما يتبعه الأعراب والنساء ، حتىٰ إن الرجل ليردّ أمه وبنته وأخته وعمته ، فيوثقهن رباطاً مخافة أن يخرجن إليه .

وأنه يأتي فيقول لأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك ، وبعثت لك أمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول له : نعم . فيتمثل له شيطان علىٰ صورة أبيه ، وآخر علىٰ صورة أمه ، فيقولان له : يا بني ؛ اتبعه فإنه ربك . فيتبعه .

ومن ثَمَّ قال حذيفة رضي الله عنه : لو خرج الدجال في زمانكم لرمته الصبيان بالخزف ، ولـٰكنه يخرج في نَقْصٍ من العلم ، وخِفةٍ من الدين .

تَنبِيه

المراد بالأعراب هنا : كل بعيدٍ عن العلماء ساكن في البادية والجبال ، سواء كان من الأعراب أو الأتراك أو الأكراد أو غير ذلك ؛ لأنهم ليس عندهم ما يميزون به بين الحق والباطل ، وأكثر النفوس مائلةٌ إلىٰ تصديق الخوارق .

فائِدَة

قال الحافظ ابن حجر : أخرج أبو نُعيم في ترجمة حسان بن عطية أحد ثقات التابعين من « الحلية » بسندٍ صحيح إليه قال : لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل ، وسبعة آلاف امرأة . قال : وهـٰذا لا يقال من قِبَلِ الرأي ؛ فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله ، أو أخذه عن بعض أهل الكتاب . اهـ

وينبغي أن يُحْمَل علىٰ أن الذين ينجون من الأعراب والنساء هـٰذا القدر ؛ لما مر في

قصة المهدي أن معه في الغزو أكثر من هـٰذا بكثير ، ويمكن أن يقال : إذا رأوه اتبعوه ، لـٰكنه بعيدٌ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد ورد كما مر في قتل عثمان رضي الله عنه : أن كل من في قلبه مثقال حبة من قتل عثمان رضي الله عنه اتبع الدجال إن أدركه ، وإن لم يدركه آمن به في قبره .

فعلىٰ هـٰذا : كل من بقي من الرافضة على اعتقاده اليوم ولم يهتد بالمهدي الحق فإنه يتبعه ؛ لأن كل رافضي يُحب قتل عثمان رضي الله عنه وراضٍ به ، نسأل الله أن يُميتنا علىٰ محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته آمين .

ومنها : أن معه ملكين من الملائكة يشبهان نبيين من الأنبياء ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، فيقول الدجال : ألست ربكم أحيي وأميت ؟! فيقول أحد الملكين : كذبت . فما يسمعه أحدٌ من الناس إلا صاحبه ، فيقول له صاحبه : صدقت . ويسمعه الناس فيحسبون أنه صَدَّق الدجال ، وذلك فتنة .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند نُعيم والحاكم :

فإذا قال : أنا رب العالمين قال له إلياس : كذبت . ويقول اليسع : صدق إلياس . فكأن النبيين الذين يشبههما الملكان هما إلياس واليسع .

ومنها : أن الله يبعث له الشياطين من مشارق الأرض ومغاربها ، فيقولون : استعن بنا علىٰ من شئت . فيقول : نعم ، انطلقوا فأخبروا الناس أني ربهم ، وأني قد جئتهم بجنتي وناري . فتنطلق الشياطين ، فيدخل على الرجل أكثر من مئة شيطان ، فيتمثلون له بصورة والده ، ووالدته ، وإخوته ، ومواليه ، ورفيقه ، فيقولون : يا فلان ؛ أتعرفنا ؟ فيقول لهم الرجل : نعم ، هـٰذا أبي ، وهـٰذه أمي ، وهـٰذه أختي ، وهـٰذا أخي . فيقول الرجل : ما نبأكم ؟ فيقولون : بل أنت أخبرنا ما نبأك ؟ فيقول الرجل : إنّا قد أُخبرنا أن عدو الله الدجال قد خرج . فتقول له الشياطين : مهلاً ، لا تقل هـٰذا ، فإنه ربكم يريد القضاء فيكم ، هـٰذه جنته قد جاء بها وناره ، ومعه الأنهار والطعام ، فلا طعام إلا ما كان قِبَلَهُ إلا ما شاء . فيقول الرجل : كذبتم ، ما أنتم إلا شياطين وهو الكذاب ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدث حديثكم وحذّرنا

وأنبأنا به ، فلا مرحباً بكم ، أنتم الشياطين ، وهو عدو الله ، وليسوقن الله إليه عيسى ابن مريم فيقتله ، فيخسؤوا فينقلبوا خائبين .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أحدثكم هـٰذا لتعقلوه وتفهموه وتفقهوه وتعوه ، فاعملوا عليه ، وحدثوا به من خلفكم ، وليحدث الآخر الآخر ، فإن فتنته أشد الفتن » رواه نُعيم .

ورویٰ هو والحاكم في « المستدرك » : عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ : « وتأتيه المرأة فتقول : يا رب ؛ أحيي ابني وأخي وزوجي . حتىٰ إنها تعانق شيطاناً ، وبيوتهم مملوءة شياطين ، ويأتيه الأعرابي فيقول : يا رب ؛ أحيي لنا إبلنا وغنمنا . فيعطيهم شياطين أمثال إبلهم وغنمهم سواء بالسن والسمة ، فيقولون : لو لم يكن هـٰذا ربنا لم يُحيي لنا موتانا » ؛ أي : وكأن الحديث الأول وارد فيمن يكفر به ، وهـٰذا فيمن يُؤمن ويتبعه .

ومنها : « أنه يتناول السحاب بيمينه ، ويسبق الشمس إلىٰ مغيبها ، يخوض البحر إلىٰ كعبه ، أمامه جبل دخان ، وخلفه جبل أخضر ، يُنادي بصوت له يَسمَعُ ما بين الخافقين : إليَّ أوليائي ، إليَّ أوليائي ، إليَّ أحبابي ، إليَّ أحبابي ، فأنا الذي خلق فسوّىٰ ، والذي قدر فهدىٰ ، وأنا ربكم الأعلىٰ . كذبَ عدو الله ليس ربكم كذلك ، ألا إن الدجال أكثر أتباعه اليهود وأولاد الزنا » . رواه ابن المنادي عن عليّ كرم الله وجهه .

ومنها : « أنه يأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ـ أي : ماشيتهم ـ أطول ما كانت ذُرىٰ ؛ أي : أسنمه ، وأسبغَهُ ؛ أي : أطوله ضروعاً وأمده خواصر ، ثم يأتي على القوم فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون مُمَحّلِين ـ أي : مقحطين ـ ليس بأيديهم شيء من أموالهم » رواه مسلم عن النواس بن سمعان .

ومنها : « أنه يمر بالخَربةِ فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل » رواه مسلم عن النواس .

واليعاسيب : جمع يَعْسُوب ، وهو ذكر النحل . والمراد هنا : جماعة النحل ، لـٰكنه كَنّىٰ عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها ؛ لأنه متىٰ طار تبعته جماعته .

ومنها : « أنه يأتي على النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ، ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يأمره أن ييبس فييبس » رواه نُعيم بن حماد عن كعب الأحبار .

ومنها : « أنه يأمر جبل طور سيناء وجبل زيتا أن ينتطحا فينتطحان ، ويأمر الريح أن تُثير سحاباً من البحر فَتُمطرَ الأرضَ » رواه نُعيم عنه أيضاً .

ومنها : « أنه يقول : أنا رب العالمين ، وهـٰذه الشمس تجري بإذني ، أفتريدون أن أحبسها ؟ فيقولون : نعم . فيحبس الشمس حتىٰ يجعل اليوم كالشهر ، والجمعة كالسنة ، ويقول : أتريدون أن أُسَيِّرهَا ؟ فيقولون : نعم . فيجعل اليوم كالساعة » رواه نُعيم بن حماد ، والحاكم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ومنها : « أن قبل خروجه ثلاث سنوات شدائد يُصيب الناس فيها جُوعٌ شَديدٌ ، يأمر الله السماء في السنة الأولىٰ أن تَحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض أن تَحبس ثلث نباتها ، ثم يأمر الله [السماء] في السنة الثانية فتحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها . ثم يأمر الله عز وجل السماء في السنة الثالثة فلا تُمْطر قطرة ، ويأمر الأرض فلا تُنبت خضراء ، فلا يبقىٰ ذات ظِلْفٍ إلاَّ هلكت إلا ما شاء الله » ، قيل : يا رسول الله ؛ فما يُعيشُ الناس إذا كان ذلك ؟ قال : « التسبيح والتكبير ، يجري ذلك منهم مجرى الطعام » . رواه ابن ماجه ، وابن خزيمة ، والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه .

ومنها : « أنه يُسَلِّطُ علىٰ نفس واحدة فينشرها بالمنشار حتىٰ يَلْقِيها شقين ، فيمر الدجال بينهما ثم يقول : انظروا هـٰذا ، فإني أبعثه الآن ، ثم يزعم أن له رباً غيري . ثم يبعثه الله فيقول له الخبيث : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كُنت قط أَشدَّ بصيرة فيك مني الآن . فيريد أن يقتله ثانياً فلا يُسلّط عليه » رواه ابن ماجه ، وابن خزيمة ، والحاكم ، والضياء ، عن أبي أمامة رضي الله عنه .

تَنبِيه

المنشار ؛ بالنون وبالياء المثناة التحتية : لغتان فصيحتان من النشر والوشر ، وهما بمعنىً .

* * *

المقام الثالث

في مَحلِّ خُروجه ، وَوقتهِ ، وَمُدّتهِ ، وكيفيته ، وطريق النجاة منه ، ومن يقتله

أما محل خروجه : فالمشرق جزماً[1] ، ثم جاء في رواية : أنه يخرج من خراسان ، روىٰ ذلك أحمد ، والحاكم ، من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

وفي أخرىٰ : أنه يخرج من أصبهان . أخرجها مسلم .

وعند الحاكم ، وابن عساكر ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : أنه يخرج من يهودية أصبهان ؛ أي : محلة خارج أصبهان ، ومثله عند أحمد عن عائشة رضي الله عنها .

وعند الطبراني من حديث فاطمة بنت قيس : يخرج من بلدة يقال لها : أصبهان ، من قرية من قراها يقال لها : رستقباد .

وأما وقته : فعند فتح قسطنطينية ؛ أي : بعده ، وعند القحط الشديد ثلاث سنين كما مر في فتنته .

وفي بعض الروايات : أنه بعد فتح القاطع .

ووجه الجمع أن ابتداء خروجه ودعواه الخلافة والنبوة يكون عند فتح القسطنطينية وخروجه الأعظم ، ودعواه الإلـٰهية يكون عند فتح القاطع ، والمقيد بالأربعين يوماً هو هـٰذا الخروج .

وأما مدته[2] : « فأربعون يوماً : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر

---

(١) وبذلك جزم الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٧٣) (ز) .

(٢) قلت : وفيها رواية ثالثة في « المشكاة » عن « شرح السنة » برواية أسماء رضي الله عنها مرفوعاً ، قال : « يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة ، السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كاضطرام السعفة في النار » .

وجمع القاري (٥/ ١٩٥ـ٢١١) بينها بالترجيح واختلاف الأحوال والرجال . (ز) .

أيامه كأيامكم » كذا في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند أحمد ، ومسلم ، والترمذي .

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، والضياء : « إن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة ، والسنة كالشهر ، والسنة كالجمعة ، وآخر أيامه كالشررة ؛ يُصبح أحدكم علىٰ باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتىٰ يمسي » .

تَنبِيه

اختلف العلماء في تأويل هٰذا الحديث ، فمنهم من قال : هو كنايةٌ عن اشتغال الناس بأنفسهم من الفتن حتىٰ لا يدرون كيف يمضي النهار ، فيكون مضي النهار عندهم كمُضي الساعة ، والشهر كاليوم ، والسنة كالشهر .

وقال بعضهم : بل هو علىٰ ظاهره . فقد ورد من حديث أنس رضي الله عنه عند أحمد ، والترمذي في أشراط الساعة : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر ، ويكون الشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كالضرمة بالنار » .

والجواب عن اختلاف الحديثين إما بالترجيح وإما بالجمع ، فإن رجحنا فحديث النواس عند مسلم أقوىٰ ؛ لأنه أصح . وإن كان الثاني أيضاً في « الصحيح » فَيقَدَّمُ . وإن جمعنا فطريق الجمع من وجوه :

الأول : أن أيامه أربعون سنة ، وسمى السنين أياماً مجازاً ، ثم إن أول أيام سنته الأولىٰ كسنة ، وثانيها كشهر ، وثالثها كجمعة ، وباقي أيامها كأيامنا ، ثم تتناقص أيام السنة الثانية حتىٰ تكون السنة كنصف سنة ، وهٰكذا إلىٰ أن تكون السنة كشهر ، والشهر كجمعة ، حتىٰ يكون آخر أيامه كالشررة ؛ يُصبح أحدهم علىٰ باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتىٰ يُمسي ، فتكون السنة الأولىٰ من سنينه مشتملة علىٰ مقدار سنين من سِنينا ، وَسُنُوه الأخيرة مقدار سنة من سِنينا .

ويقربه رواية نُعيم والحاكم المارة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه يقول : أنا رب العالمين ، وهٰذه الشمس تجري بإذني ، أفتريدون أن أحبسها ؟ فيحبس الشمس حتىٰ

يجعل اليوم كالشهر ، والجمعة كالسنة . ويقول : أتريدون أن أسيرها ؟ فيجعل اليوم كالساعة .

فائـدة

سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في اليوم الذي كالسنة : « أيكفينا فيه صلاة يوم واحد ؟ قال : لا ، ولـٰكن اقدروا له » ؛ أي : اقدروا مقدار كل يوم فصلوا فيه خمس صلوات ، وقيس به اليومان الآخران .

وسُئِلَ عن الأيام القصار : فقالوا : كيف نُصلي يا رسول الله في تلك الأيام ؟ قال : « تُقَدِّرون فيها الصلاة كما تُقَدِّرونها في هـٰذه الأيام الطوال » .

والظاهر أن التقدير هنا عكس الأول ؛ بأن تُصلي الخمس في مقدار يوم من هـٰذه الأيام ، ولو اشتمل ذلك علىٰ أيام كثيرة من تلك الأيام ، والله أعلم .

الوجه الثاني : يحتاج إلىٰ مقدمة هي : أن عالم المثال موجود ، وأنه ليس خيالاً محضاً ، بل حقيقة وهو في الخارج محسوس .

قال الإمام السيوطي في : « المنجلي في تطور الولي » نقلاً عن العلاء القونوي شارح « الحاوي » ما نصه : وقد أثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالم الأجساد وعالم الأرواح سمَّوْه عالم المثال ، وقالوا : هو ألطف من عالم الأجساد ، وأكثف من عالم الأرواح ، وبنوا علىٰ ذلك تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة في عالم المثال ، وقد يستأنس لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ . انتهى الغرض منه .

وقال في « الفتوحات المكية » في الباب الثالث والستين : أظهر الله تعالىٰ هـٰذه الحقيقة ـ يعني : حقيقة عالم المثال ـ لعبده ؛ ليعلم أنه إذا عجز وحار في هـٰذا فهو بخالقه أجهل ؛ فإن العقول لا تلحقه بالعدم المحض ، ولا بالوجود المحض ، ولا بالإمكان المحض .

وإلىٰ هـٰذه الحقيقة يصير الإنسان في نومه وبعد موته ، فيرى الأعراض صوراً قائمة مُتجسدة لا يَشُكُّ فيها ، والمكاشف يرىٰ في يقظته ما يراه النائم في حال نومه ، وما يراه الميت بعد موته ، كما يُرىٰ في الآخرة صور الأعمال توزن والموت يذبح ، وكلها أعراض وَنِسب .

قال : ومن الناس من يُدرك هـٰذا المُتَخيَّلَ بعين الحس. . . إلىٰ أن قال : فإن أدركت العين المتخيل ، ولم تغفل عنه لم تختلف عليه التكوينات في الإرادة في مواضع مختلفات والذات واحدة لا يُشَكّ فيها ، ولا انتقلت ولا تحولت في أكوان مختلفة ، فيعلم أنه أدركها ببصره الحسي الذي يُدرك به المحسوسات . انتهى الغرض منه .

فعلم أنه ليس مَحْضَ خيال ، بل هو مثالٌ محسوس ، وقد وقع غير مرة تصديق هـٰذا في الخارج ؛ **منها** : أن رجلاً اغتسل بمصر فغطس في الماء وكان يوم الجمعة ، فلما خرج منه رأىٰ نفسه ببغداد ، وتزوج هناك ، وجاء بأولاد ، وقعد سبع سنين فيها ، ثم اغتسل في دجلة ، فلما خرج منها رأىٰ نفسه بمصر بمحل غسله في ذلك اليوم ، وتلك الساعة ، وأهله وأصحابه في انتظاره حتىٰ يرجع ويلحق الجمعة . ثم بعد مدة قدمت امرأته وأولاده الذين ببغداد عليه ولحقوه بمصر .

إذا تمهد هـٰذا فنقول : يحتمل أن يكون هـٰذا من هـٰذا القبيل ، وأنه لبعض الناس أيام ، ولبعضهم سُنُون ، والكل موجود مُحقق . ولهـٰذا تَرتبت عليه الأحكام ، ووَجبت الصلاة فيها ؛ كما في الحديث المار ، وهنا وجه آخر أبعد من هـٰذين فلا نذكره ، والله أعلم .

وأما كيفية خروجه : فالروايات فيه مختلفة ، وأبسط حَديثٍ فيه حديث النواس رضي الله عنه عند مسلم ، وغيره .

وحديث أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، والضياء.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه عند نُعيم بن حماد ، والحاكم .

وحديث أبي سعيد رضي الله عنه عند مسلم ، وعند البخاري معناه .

وحديث أبي سعيد رضي الله عنه أيضاً عند الحاكم .

فلنسق هـٰذه الأحاديث مساقاً واحداً ، ولنجمع بين اختلافها بحسب الإمكان والتيسير ، ونزيد بعض الزيادات من غيرها ، وبالله التوفيق وعليه التكلان :

قال : خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إنه لم يكن في الأرض منذ ذرأ الله

ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال ، وإن الله لم يبعث نبياً إلاَّ حذّر أمته الدجال ، أنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارجٌ فيكم لا محالة ، فخفض فيه ورفع حتىٰ ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك منا ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وأنا حجيج كل مسلم ، وإن يخرج من بعدي فكلٌّ حجيج نفسه ، والله خليفتي علىٰ كل مسلم ، وإنه يخرج من خَلّةً ـ أي : من طريق ـ بين الشام والعراق ، فيعيث ـ أي : يفسد ـ يبعث السرايا والجنود يميناً وشمالاً ، وإن علىٰ مقدمته سبعين ألفاً من يهود أصبهان ، عليهم رجل أشعر من فيهم يقول : بِرَو ، بِرَو ؛ أي : اِسعَ اِسعَ » .

قال صلى الله عليه وسلم : « يا عباد الله ؛ فاثبتوا ، فإني سأصفه لكم صفة لم يَصِفها إياه نبيٌّ قبلي ، وإنه يبدأ فيقول : أنا نبي . ولا نبي بعدي ، ثم يُثَنّي فيقول : أنا ربكم . ولا ترون ربكم حتىٰ تموتوا ، وإنه أعور ، وربكم ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ـ أي : حروفاً مهجأة هٰكذا : (ك ف ر) ؛ كما صرح به في بعض الروايات ـ ، وأن من فتنته أن معه جنة وناراً ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتليَ بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف ، فتكون عليه برداً وسلاماً ؛ كما كانت النار علىٰ إبراهيم ، وأن من فتنته كذا وكذا ، وقد ذكرناها مُفصلاً ، وأن معه اليسع عليه السلام يُنذر الناس ؛ يقول : هٰذا المسيح الكذاب فاحذروه لعنه الله ، ويعطيه الله من السرعة ما لا يلحقه الدجال .

وفي رواية : « أنَّ بين يديه رجلين يُنذران أهل القرىٰ ، كلما دخلا قرية أنذرا أهلها ، فإذا خرجا منها دخلها أول أصحاب الدجال ، ويدخل القرىٰ كلها غير مكة والمدينة ، فيمر بمكة فإذا هو بخَلْقٍ عظيم ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا ميكائيل بعثني الله لأمنعك من حرمه . ويمر بالمدينة فإذا هو بخَلْقٍ عظيم ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا جبريل بعثني الله لأمنعك من حرم رسوله » .

وفي رواية : « وإنه لا يبقىٰ شيءٌ من الأرض إلاَّ وطئه وظهر عليه ، إلاَّ مكة والمدينة ؛ فإنه لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلاَّ لقيه الملائكة بالسيوف صَلتةً فيمر بمكة ، فإذا رأىٰ ميكائيل ولىٰ هارباً ، ويصيح فيخرج إليه من مكة منافقوها ، ويمر

بالمدينة كذلك حتىٰ ينزل عند الظريب الأحمر ، عند منقطع السبخة » .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند ابن حبان في « صحيحه » في كتاب التوحيد : « فيسير حتىٰ ينزل بناحية المدينة ، وهي يومئذ لها سبعة أبواب ، علىٰ كل باب ملكان ، فيخرج الله شرار أهلها » اهـ

فيتوجه قِبَلَهُ رجل من المؤمنين ويقول لأصحابه : والله لأنطلقن إلىٰ هـٰذا الرجل فلأنظرن : أهو الذي أنذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ فيقول له أصحابه : والله لا ندعك تأتيه ، ولو أنَّا نعلمُ أنه يقتلك إذا أتيته خلينا سبيلك ، ولـٰكنا نخاف أن يفتنك . فيأبىٰ عليهم الرجل المؤمن إلاَّ أن يأتيه ، فينطلق يمشي حتىٰ يأتي مسالح الدجال ـ أي : خفراءه وطلائعه ـ فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلىٰ هـٰذا الرجل الذي خرج . فيقولون له : أو ما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء . فيقولون : اقتلوه . فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ؟! فيرسلون إلى الدجال : إنَّا قد أخذنا من يقول : كذا وكذا ، أفنقتله أو نرسله ؟ قال : أرسلوه إليَّ . فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن عرفه بنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقول : يا أيها الناس ؛ هـٰذا الدجال الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيأمر به الدجال فيشبح ، ثم يقول : لتطيعني فيما أمرتك ، وإلاَّ شققتك شقتين . فينادي المؤمن : أيها الناس ؛ هـٰذا المسيح الكذاب ، من عصاهُ فهو في الجنة ، ومن أطاعه فهو في النار . فيؤمر به فيوسع ظهره وبطنه ضرباً ، فيقول له الدجال : والذي أحلف به ؛ لتطيعني ، أو لأشقنك شقتين . فيقول : أنت المسيح الكذاب . فيؤمر به فيؤشر بالميشار من مفرقه حتىٰ يفرق بين رجليه .

وفي رواية : « فمد برجله فوضع حديدته علىٰ عجب ذنبه ، فشقه شقين ويبعد بينهما قدر رمية الغرض ، ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ويقول لأوليائه : أرأيتم إن أحييته ألستم تعلمون أني ربكم ؟ قالوا : بلىٰ . فيضرب أحد شقيه ، أو الصعيد عنده ويقول له : قم . فيستوي قائماً ، فلما رآه أولياؤه صدقوه ، وأيقنوا أنه ربهم وأجابوه واتبعوه ، وقال للمؤمن : ألا تؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلاَّ بصيرة » .

وفي رواية : « يقول : لأنا الآن أشد فيك بصيرة مني قبل ، ثم نادىٰ في الناس :

ألا إنَّ هـٰذا المسيح الكذاب ، وإنه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس . فيقول الدجال : والذي أحلف به؛ لتطيعني ، أو لأذبحنك ولألقينك في النار . فيقول : والله لا أُطيعك أبداً . فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلىٰ ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلاً » .

وفي رواية : « فيوضع علىٰ جلده صفائح من نحاس ، فلا يحيك فيه سلاحهم ، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به ، فيحسب الناس أنما قذفه في النار ، وإنما ألقي في الجنة » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا أقرب امرئٍ درجة مني ، وأعظم الناس شهادة عند رب العالمين » .

تَنبـيْه

هـٰذا الرجل المؤمن هو الخَضِرُ عليه السلام على الأصح ؛ كما صرح به في بعض الأحاديث الصحيحة ، ودل عليه الكشف الصحيح .

أما الأحاديث فكثيرة :

منها : ما رواه ابن حبان في كتاب التوحيد من « صحيحه » في ذكر الدجال أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ولعله يدركه بعض من رآني ، أو سمع كلامي » .

وهـٰذا البعض هو الخَضِرُ لأمور :

أحدها : أن من عدا الخضر وعيسىٰ عليهما السلام لم يبق أحدٌ ممن رآه صلى الله عليه وسلم بالإجماع ، وليس هـٰذا هو عيسىٰ عليه السلام ؛ لأن عيسىٰ عليه السلام يقتل الدجال ، وهـٰذا الرجل يقتله الدجال .

ثانيها : رَوى الدارقطني في « الأفراد » : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « نُسِيءَ للخضر في أجله حتىٰ يُكذّب الدجال » . وله شاهدٌ صحيح .

ففي « صحيح مسلم » عقب رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ؛ أي : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال أبو إسحاق : هو إبراهيم بن محمد بن سفيان الزاهد راوي « صحيح مسلم » عنه ، يقال : إنَّ هـٰذا الرجل هو الخَضِر عليه السلام .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » بعد نقل ذلك : وقال معمر في « جامعه » بعد ذكر الحديث ـ يعني : أنَّ الذي يقتله الدجال ـ : هو الخَضِر .

قال الحافظ : وقد يتمسك لمن قاله بما أخرجه ابن حبان في « صحيحه » من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في ذكر الدجال رفعه : « لعله أن يدركه بعض من رآني ، أو سمع كلامي . . . » الحديث . اهـ

فدل هٰذا الحديث الصحيح علىٰ أن بعض الصحابة يُدرك الدجال ، ودلت رواية الدارقطني علىٰ أن هٰذا المبهم هو الخَضِر .

قال : فصح بالمجموع أن الخَضِر صحابي ، وأنه مُؤخرٌ ؛ لتكذيب الدجال ، فيصح التمسك بما ذكر في أن الذي يقتله الدجال هو الخَضِر .

ثالثها : في بعض الروايات : أن الذي يقتله الدجال يقول : يا أيها الناس ؛ هٰذا الذي حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . مكان قوله : (ذكر رسول الله) ، والأصل في الكلام الحقيقة ، فيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه بلا واسطة ، ولا شك أن الحمل على التحديث بوسائط مجازٌ .

وأما الكشف : فقد ذكر ذلك محققو الصوفية كالشيخ علاء الدولة السمناني وغيره ، وقيل : هو أحد أصحاب الكهف ؛ لما مر أنهم يكونون من أصحاب المهدي ، وهٰذا القول الثاني ضَعيفٌ ؛ قاله في « الفتوحات » .

« وترجف المدينة يومئذ ثلاث رجفات ، فلا يبقىٰ منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فتنفي المدينة يومئذ خبثها ؛ كما ينفي الكير خبث الحديد ، ويُدعىٰ ذلك اليوم يوم الخلاص ، ويكون آخر من يخرج إليه النساء ، حتىٰ إن الرجل ليرجع إلىٰ أمه وبنته وأخته وعمته ، فيوثقهن رباطاً مخافة أن تخرج إليه » .

وفي رواية : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ؟ قال ثلاث مرات : يجيء الدجال فيصعد أُحُداً فيطلع ، فينظر إلى المدينة ويقول لأصحابه : ألا ترون إلىٰ هٰذا القصر الأبيض ؟ هٰذا مسجد أحمد » .

تَنبـيْه

هـٰذه إحدىٰ معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإخبارٌ منه بأن مسجده يُرفع ويُبيض بالجص ؛ لأنه في زمنه كان مبنياً بالجريد والسعف ، وقد وقع ما أخبر به ، فإن مسجده الشريف يُرىٰ أبيض من مسافة بعيدة ، ومنائره تلمع بياضاً ، ولعل خروجه قريب ، ويرىٰ هـٰذا البناء . والله أعلم .

« ثم يأتي إلى المدينة ، فيجد بكل نَقبٍ من أنقابها مَلكاً مصلتاً ، فيأتي سبخة الجُرف » .

وفي لفظ : « بهـٰذه السبخة ينزل بمر قناة ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقىٰ منافق ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فتخلص المدينة وذلك يوم الخلاص » رواه أحمد ، والحاكم ، عن محجن بن الأدرع .

فقالت أم شريك بنت أبي العكر : يا رسول الله ؛ فأين العرب يومئذ ؟ قال : « هم يومئذ قليل ، وجلهم ببيت المقدس ، وإمامهم المهدي رجلٌ صالح ، فيتوجه إلى الشام ، فيفر المسلمون إلىٰ جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحصرهم ، ويشتد حصارهم ، ويجهدهم جهداً شديداً » .

وفي رواية : « فَيَشُك الناس فيه ـ أي : حين لم يقدر علىٰ قتل ذلك الرجل ثانياً ـ ويبادر إلىٰ بيت المقدس ، فإذا صعد عقبة أَفِيق وقع ظله على المسلمين ، فيوترون قسيهم لقتاله ، فأقواهم من برك أو جلس من الجوع والضعف ، وذلك لأن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شِداد ، يصيب الناس فيها جُوعٌ شَديدٌ كما مر في فتنته ، وإن قوت المؤمن التهليل والتسبيح والتحميد .

حتىٰ إذا طال عليهم الحصار قال رجلٌ : إلىٰ متىٰ هـٰذا الجهد والحصار ؟! اخرجوا إلىٰ هـٰذا العدو حتىٰ يحكم الله بيننا : إما الشهادة ، وإما الفتح ، هل أنتم إلا بين إحدى الحسنيين ؟ بين أن تستشهدوا ، أو يُظْهِركُم الله عليهم ، فيتبايعون على القتال بيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم .

ثم تأخذهم ظُلمةٌ لا يُبصر أحدهم كفه ، فينزل ابن مريم عليه السلام فيحسر عن أبصارهم وبين أظهرهم رجل عليه لأمة ، فيقولون : من أنت ؟ فيقول : أنا عبد الله وكلمته ؛ عيسى ، اختاروا إحدىٰ ثلاث : أن يبعث الله على الدجال وجنوده عذاباً جسيماً ، أو يَخْسِفَ بهم الأرض ، أو يُرسل عليهم سلاحكم ويكف سلاحهم عنكم ؟ فيقولون : هـٰذه يا رسول الله أشفىٰ لصدورنا . فيومئذ يُرى اليهودي العظيم الطويل الأكول الشروب لا تقل يده سيفه من الرعب ، فينزلون إليهم فيسلطون عليهم » .

وفي رواية : « فبينما إمامهم ـ أي : المهدي ـ وقد تقدم يُصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام للصبح ، فرجع المهدي قهقرىٰ ؛ ليتقدم عيسىٰ صلى الله عليه وسلم يُصلي بالناس ، ويقال له : يا روح الله ؛ تقدم ـ أي : يقول له بعض من لم يحرم بالصلاة ـ . فيقول : ليتقدم إمامكم فليُصلِّ بكم . ويضع عيسىٰ عليه السلام يده بين كتفيه ، فيقول له : تقدم فإنها لك أُقِيمت . فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسىٰ عليه السلام : افتح . فيفتح ، ووراء الدجال سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلىً بوساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، وانطلق هارباً ، فيقول له عيسىٰ عليه السلام : إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها . فيدركه عند باب لُدّ الشرقي ، فيقتله ، ويهزم الله اليهود » .

تَنبيه

لُدّ ؛ بضم اللام وتشديد الدال المهملة ، بوزن مُدّ : بلد بناحية بيت المقدس ، بينه وبين الرملة مقدار فرسخ إلىٰ جهة دمشق ، متصلة نخيله بنخيلها .

وفي رواية لمسلم : « فبينما هو ـ أي : الدجال ـ كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهروذتين ـ أي : بالذال المعجمة والمهملة ؛ أي : مصبوغتين بالهرذ ؛ وهو شيء أصفر أو بالزعفران أو الورس ـ واضعاً كفيه علىٰ أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ـ أي : الماء ـ من شعره ، وإذا رفعه تحدر منه مثل الجُمان ـ أي ؛ بضم الجيم وتخفيف الميم : حبات من الفضة تصنع علىٰ هيئة اللؤلؤ الكبار ـ كاللؤلؤ ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد من ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي

حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتىٰ يُدركه بباب لُدّ فيقتله » .

وفي رواية : « ثم ينزل عيسىٰ عليه السلام فينادي من السَّحر فيقول : يا أيها الناس ؛ ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟! ويسمعون النداء : جاءكم الغوث . فيقولون : هٰذا كلام رجل شبعان . وتشرق الأرض بنور ربها ، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول : يا معشر المسلمين ؛ احمدوا ربكم وسبّحوه ـ أي : لأنه قُوتهم كما مر ـ . فيفعلون ، ويريدون ـ أي : أصحاب الدجال ـ الفرار ، فيضيق الله عليهم الأرض ، فإذا أتوا باب لُدّ في نصف ساعة فيوافقون عيسىٰ عليه السلام ، فإذا نظر ـ أي : الدجال ـ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ـ يقول ـ أي : لبعض أصحابه ـ : أقم الصلاة . خوفاً منه ، فيقول الدجال : يا نبي الله ؛ قد أقيمت الصلاة . فيقول : يا عدو الله ؛ زعمت أنك رب العالمين ، فلمن تُصلي ؟! فيضربه بمقرعته فيقتله » .

تنبيه

طريق الجمع[1] بين هٰذه الروايات : أن عيسىٰ صلوات الله عليه ينزل أولاً بدمشق على المنارة البيضاء ـ وهي موجودة اليوم ـ لست ساعات من النهار ، وقد مر عن « الفتوحات » أنه يُصلي بالناس صلاة العصر ، فيحتمل أنه ينزل بعد الظهر ، ثم مع اشتغاله بالقرعة بين اليهود والنصارىٰ يدخل وقت العصر ، فيصلي بهم العصر ؛ كما في رواية ، ثم يأتي إلىٰ بيت المقدس غوثاً للمسلمين ، ويلحقهم في صلاة الصبح وقد أحرم المهدي والناس كلهم ، أو بعضهم لم يحرموا ، فيخرج إليه بعض من لم يُحرم بالصلاة فيأتي والمهدي في الصلاة ، فيتقهقر ويقول لعيسىٰ عليه السلام بعض الناس : تقدم . لما رأىٰ تقهقر المهدي ، فيضع يده علىٰ كتف المهدي أن تقدم ، ويقول

(١) وسيأتي إليه الإشارة مختصراً (ص٢٧١) ، ومال القاري (٥/١٩٧) إلىٰ أرجحية رواية بيت المقدس ، وأوّل الباقي إليها .

واختار مولانا رفيع الدين ابن الشاه ولي الله في « قيامة نامة » نزوله عليه السلام بجامع دمشق عند صلاة العصر ، ورجحه الدِّمنتي في « نور مصباح الزجاجة » (ص٨٤) ، وحكىٰ عن ابن كثير أنه قال : هو الأشهر . (ز) .

للقائل : ليتقدم إمامكم . فيجيب المهدي بالفعل ، والقائل بالقول ؛ ليكون جواب كُلٍّ علىٰ طبق قوله ، ثم إذا أصبحوا شرد أصحاب الدجال ، فتضيق عليهم الأرض ، فيدركهم بباب لُدّ ، فيصادف ذلك صلاة الظهر ، فيتحيل اللعين إلى الخلاص منه بإقامة الصلاة ، فلما عرفَ أنه لا يتخلص منه بذلك ذاب خوفاً منه كما يَذُوبُ الملح ، فأدركه فقتله ، أو لأنه يُنشيء صلاةً في غير وقتها ، وهو أدل علىٰ ضلالته وجهالته بالله .

ويقرب هـٰذا التأويل ، ما في رواية ابن المنادي عن علي رضي الله عنه : « يقتله الله بالشام علىٰ عقبة أَفِيق ، لثلاث ساعات يمضين من النهار علىٰ يد عيسى ابن مريم » .

قال في « القاموس » : أَفِيق كأمير ، ومنه : عقبة أفيق . اهـ

وهنا وجه آخر أقرب إلى التحقيق ، وهو أنه مَرّ أن الصلاة في الأيام القصار التي هي آخر أيام الدجال تُقدر ، فيحتمل أن يُصادف التقدير ذلك الوقت ، وعلىٰ هـٰذا فلا إشكال بين كونه ينزل بدمشق لست ساعات مضين من النهار ، وبين أنه يُصلي بالناس صلاة العصر . وهـٰذا جوابٌ مبنيٌّ على التحقيق ، والله يهدي للحق وهو يهدي السبيل .

ويهزم الله اليهود وأصحاب الدجال ، فلا يبقىٰ شيء مما خلق الله يتوارىٰ به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا شجر ولا حجر ولا حائط ولا دابة إلا قال : يا عبد الله المسلم ؛ هـٰذا يهودي .

وفي رواية : « هـٰذا دجال فتعال فاقتله ، إلاَّ الغرقد ؛ فإنها من شجر اليهود لا ينطق » .

قال صلى الله عليه وسلم : « فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حَكَماً عَدلاً ، وإماماً مُقْسطاً » ، وسيأتي قصته مستوفاة إن شاء الله تعالىٰ .

وأما كيفية النجاة منه : فاعلم أن النجاة منه بالعلم والعمل .

أما العلم : فبأن يُعْلَمَ أنه يأكل ويشرب ، وأنَّ الله منزه عن ذلك ، وأنه أعور ، وأن الله ليس بأعور ، وأن أحداً لا يرىٰ ربه حتىٰ يموت ، وهـٰذا يراه الناس أحياء قبل موتهم ، إلىٰ غير ذلك مما مر .

وأما العمل : فبأن يلتجيء إلىٰ أحد الحرمين ؛ فإنه لا يَدْخُلهما ، أو إلى المسجد الأقصىٰ ، أو إلىٰ مسجد طور سينا ، ففي بعض الروايات لا يدخلهما أيضاً ، وبأن يقرأ عشر آيات من أول سورة الكهف ، وقد مرت أحاديث ما ذكر ؛ فلا نعيدها .

وبأن يهرب منه في الجبال والبراري ؛ فإنه أكثر ما يدخل القرىٰ .

فعن عبيد بن عمر : « ليصحَبنَّ الدجال أقوام يقولون : إنا لنصحبه وإنا لنعلم أنه لكافر ، ولـٰكنا نصحبه نأكل من طعامه ، ونرعىٰ من الشجر . فإذا نزل غضب الله نزل عليهم كلهم » رواه نُعيم بن حماد .

وبأن يُتْفَلُ في وجهه .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « فمن لقيه منكم فَليَتْفُل في وجهه » رواه الطبراني .

وبالتسبيح والتكبير والتهليل ؛ فإنه قُوتُ المؤمن في ذلك القحط .

وأن من ابتلي به فليثبت وليصبر ، وإن رماه في النار فَليُغْمِض عينيه ، وليستعن بالله تكن عليه برداً وسلاماً .

وأما من يقتله : فقد عُلم أنه يقتله عيسىٰ عليه السلام . والحمد لله رب العالمين .

فائِـدَة

قال ابن ماجه : سمعت الطنافسي يقول : سمعت المحاربي يقول : ينبغي أن يُدفع هـٰذا الحديث ـ يعني : حديث الدجال ـ إلى المُؤدب حتىٰ يُعلمه الصبيان في الكُتَّاب . اهـ

وقد ورد أن من علامات قُرب خروجه : نِسيان ذكره على المنابر .

خَاتِـمَة

اختلفت الصحابة فمن بعدهم وهـٰكذا : هَل هو ابن الصياد أو غيره ؟ علىٰ قولين ، ولِكُلٍّ أدلة ، فلنشر إلى الراجح منها بعون الله تعالىٰ وحسن توفيقه :

وأحسن ما جُمع في ذلك كلام الإمام الحافظ قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن

حجر العسقلاني في شرح البخاري المسمىٰ : « فتح الباري » ، فلنذكر مقاصده ؛ ففيه الكفاية إن شاء الله تعالىٰ .

قال رحمه الله تعالىٰ : مما يدل علىٰ أن ابن الصياد هو الدجال حديث جابر رضي الله عنه الذي في البخاري أنه كان يحلف أنَّ ابن الصياد هو الدجال ، ويقول : سمعت عمر رضي الله عنه يَحْلفُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه .

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم ، وعند عبد الرزاق بسندٍ صحيح ، قال : لقيت ابن الصياد مرتين . فذكر المرة الأولىٰ ، ثم قال : ثم لقيته أخرىٰ ، فإذا عينه قد طفئت .

وفي لفظ : قد نفرت عينه ، وهي خارجة مثل عين الجمل ، فقلت : متىٰ فعلت عينك ما أرىٰ ؟ قال : لا أدري . قلت : لا تدري وهي في رأسك . قال : إن شاء الله تعالىٰ جعلها في عصاك هـٰذه . فمسحها ، ونخر ثلاثاً كأشد نخير حمار سمعت ، فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتىٰ تكسرت ، وأنا والله ما شعرت .

وفي لفظ : وكان معه يهودي ، فزعم اليهودي أني ضربت بيدي صدره ، وقلت : اخسأ ، فلن تعدو قدرك . فذكرت ذلك لحفصة قالت : ما تريد إليه ؟ ألم تسمع أن الدجال يخرج عند غضبة يغضبها .

وفي لفظ : إنما يبعثه على الناس غضب يغضبه .

ووقع لابن الصياد مع أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قصة تتعلق بأمر الدجال ، فأخرج مسلم من طُرقٍ عنه قال : صحبني ابن الصياد فقال لي : ألا ترىٰ ما لقيت من الناس ؟

وفي لفظ : لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ، ثم أختنق به مما يقول لي الناس ، يا أبا سعيد ؛ يزعمون أني الدجال ، ألست سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه يهودي ، وقد أسلمت ؟! يقول : لا يدخل مكة ولا المدينة وقد ولدت بالمدينة وها أنا أُريد مكة ؟! ويقول : إنه لا يُولد له وقد وُلد لي ؟!

زاد في رواية : حتىٰ كدت أعذره .

ثم قال : لـٰكني أعرفه وأعرف مولده ، وأين هو الآن .

وفي رواية : لو عرض عَليَّ أن أكون أنا هو لم أكره ، قال : فقلت له : تباً لك سائر اليوم .

قال الحافظ : وهـٰذه الأحاديث كلها ليست نصاً ، ولا صريحاً في أن ابن الصياد هو الدجال ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ردد فيه القول فقال : « إن يكن هو » ؛ أي : وهـٰذا كان عند أول قدومه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم لما أخبره تميم الداري جزم بأن الدجال هو ذلك المحبوس الذي رآه تميم ، وسيأتي حديثه .

وأما حَلفُ عمر رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : فبناءً علىٰ ظنه وسكوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان مُتردداً فيه إذ ذاك .

وأما حَلفُ جابر رضي الله عنه : فبناء علىٰ حَلف عمر رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما حديث أبي سعيد رضي الله عنه : فغايته أن يكون ابن صياد أحد الدجاجلة ، وأحد أتباع الدجال الكبير .

قُلْتُ : أو أنه لم يكن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يُحدث عن تميم ، فقال بناء علىٰ ذلك .

قال الحافظ : وأما ما أخرجه أبو داود[1] من حديث أبي بكرة ؛ مرفوعاً : « يمكثُ أبوا الدجال ثلاثين عاماً لا يُولد لهما ، ثم يولد لهما غلام أعور ، أضر شيء ، وأقله نفعاً إنه تنام عينه ولا ينام قلبه » . ونعت أباه وأمه .

قال : فسمعنا بمولودٍ ولد في اليهود ، فذهبت أنا والزبير بن العوام فدخلنا علىٰ أبويه فإذا النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : هل لكما ولد ؟ قالا : مكثنا ثلاثين عاماً لا يُولد لنا ، ثم وُلد لنا غلام أعور أضر شيء وأقله نفعاً . . . الحديث .

فقال البيهقي في الجواب عنه : تفرد به علي بن زيد بن جُدعان ، وليس بالقوي .

قال الحافظ : وَيُوهي حديثه أن أبا بكرة رضي الله عنه أسلم حين نزل من الطائف لما حُوصرت سنة ثمانية من الهجرة .

---

(١) الظاهر أنه في نسخة ابن داسة ، ولم نجده في « اللؤلؤيِّ » (ز) .

وفي حديث « الصحيحين » : أنه حين اجتمع به النبي صلى الله عليه وسلم في النخل كان كالمُحتلم .

وفي لفظ : وقد قارب الحُلم . فلم يُدرك أبو بكرة زمان مولده بالمدينة ، وهو لم يسكن المدينة إلا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، فكيف يتأتىٰ أن يكون في الزمن النبوي كالمحتلم ؟ فالذي في « الصحيحين » هو المعتمد .

ثم نقل عن البيهقي : أنه ليس في حديث جابر رضي الله عنه أكثر من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ حلف عمر رضي الله عنه ، فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان متوقفاً في أمره ، ثم جاء التثبيت من الله تعالىٰ بأنه غيره علىٰ ما تقتضيه قصة تميم الداري .

قال الحافظ : وقد توهم بعضهم أن حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم فردٌ ، وليس كذلك ؛ فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة ، وعائشة ، وجابر رضي الله عنهم .

أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه : فأخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وأبو يعلىٰ .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها : فهو حديث فاطمة المذكور عن الشعبي ، قال : ثم لقيت القاسم بن محمد فقال : أشهد علىٰ عائشة ؛ حدثتني كما حدثت فاطمة بنت قيس .

وأما حديث جابر رضي الله عنه : فأخرجه أبو داود بسندٍ حسن .

وأما حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها : فأخرجه مسلم وأبو داود بمعناه ، والترمذي وابن ماجه ، قال الترمذي : حسنٌ صحيح .

ولفظ رواية مسلم قال : سمعت مُنادي رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنادي : الصلاة جامعة . فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قضىٰ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : « ليلزم كل إنسان مُصلاه » . ثم قال : « هل تدرون لم جمعتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :

« إني والله ما جمعتكم لرغبةٍ ولا لرهبة ، ولـٰكن جمعتكم ؛ لأنَّ تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً ، فجاء وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كُنت أحدِّثكم به عن المسيح الدجال ، حدثني أنه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، فأرفؤوا ـ أي : بالهمز : لجؤوا ـ إلىٰ جزيرة حين مغرب الشمس ، فجلسوا في أَقرُب السفينة ـ أي : بضم الراء جمع قارب ، بفتح الراء وكسرها ؛ وهو سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة يكون فيها ركاب السفينة لقضاء الحوائج ـ ، فدخلوا الجزيرة فلقيهم دابة أَهلَبُ ـ أي : غليظ الشعر كثيره ـ » ، وفي رواية أبي داود : « فإذا أنا بامرأة تجر شعرها ، قالوا : ويلك ، ما أنت ؟ قالت : أنا الجُسَّاسة » . أي : بضم الجيم وتشديد السين الأولى ، سميت بذلك لتجسسها الأخبار .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن هـٰذه هي دابة الأرض التي تخرج في آخر الزمان فتكلمهم .

« فقالت : انطلقوا إلىٰ هـٰذا الرجل في الدّير ؛ فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق .

قال : لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها ـ أي : خفنا أن تكون شيطانة ـ .

قال : فانطلقنا سِراعاً حتىٰ دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأينا قط خَلقاً ، وأشده وِثاقاً ، مجموعة يداه إلىٰ عنقه ما بين ركبتيه إلىٰ كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ، من أنت ؟

قال : قد قدرتم علىٰ خبري فأخبروني ما أنتم ؟

قالوا : نحن أُناسٌ من العرب ركبنا في سفينة بحرية ، وأخبروه الخبر فقال : أخبروني عن نَخل بَيسان ـ أي : بفتح الموحدة ، ولا يقال بالكسر : قرية بالشام ـ هل تُثمر ؟

قلنا : نعم .

قال : أما إنها يوشك أن لا تُثمر .

قال : أخبروني عن بُحيرة طبرية ؛ هل فيها ماء ؟

قالوا : هي كثيرة الماء .

قال : أما إن ماءها يُوشك أن يذهب .

قال : أخبروني عن عين زُغَر ـ أي : بضم الزاي ، وفتح الغين المعجمة علىٰ وزن صُرَد : بلدة معروفة من الجانب القبلي من الشام ـ ؛ هل في العين ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين ؟

قلنا : نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها .

قال : أخبروني عن نبيّ الأميين ما فعل ؟

قلنا : قد خرج من مكة ونزل يثرب .

قال : أقاتله العرب ؟

قلنا : نعم .

قال : كيف صنع بهم ؟

فأخبرناه أنه قد ظهر علىٰ من يليه من العرب وأطاعوه .

قال : أما إن ذلك خَيْرٌ لهم أن يطيعوه ، وإني مُخبركم : أني أنا المسيح وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، ولا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة هما مُحرمتان عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني مَلكٌ بيده السيف صَلتاً يَصُدني عنها ، وإن علىٰ كل نَقْبٍ من أنقابهما ملائكة يحرسونهما .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعن بمِخصرته ـ أي ؛ بكسر الميم : عصا أو قضيب يكون مع الملك أو الخطيب يشير بها إذا خاطب في المنبر ـ : هٰذه طيبة (ثلاثاً) ـ يعني المدينة ـ ألا هل كنت حدثتكم ؟

فقال الناس : نعم ، أَلاَ إنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو : وأومأ بيده إلى المشرق .

قال القاضي عياض : لفظة « ما » زائدة صلة للكلام ، ليس نافية .

والمراد إثبات أنه من قبل المشرق . وفي بعض طرقه عند البيهقي : أنه شيخ ، وسنده صحيح .

قال البيهقي : فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن الصياد ، وأن ابن الصياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخروجهم ، وَكأنَّ هـٰؤلاء الذين كانوا يقولون : إن ابن صياد هو الدجال . لم يسمعوا بقصة تميم ، وإلا فالجمع بينهما بَعيدٌ جداً ، إذ كيف يلتئم من كان في أثناء الحياة النبوية شبه المُحتلم ويجتمع به النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسأله أن يكون في آخرها شيخاً مسجوناً في جزيرة من جزائر البحر موثقاً بالحديد يستفهم عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم هل خرج أو لا ؟ . فالأولىٰ أن يُحمل علىٰ عدم الاطلاع .

قال : وأما إسلام ابن صياد وحجه وجهاده : فليس فيه تصريحٌ بأنه غير الدجال ؛ لاحتمال أنه يختم له بالشر .

فقد أخرج أبو نُعيم في « تاريخ أصبهان » : عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال : لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهودية فرسخ ، فكنا نأتيها ونمتار منها ، فأتيتها يوماً فإذا اليهود يزفنون ويضربون ، فسألت صديقاً لي منهم ، فقال : مَلِكُنَا الذي نستفتح به على العرب يدخل ، فبت عنده علىٰ سطح ، فصليت ، فلما طلعت الشمس إذا الوهج من قبل العسكر ، فنظرت فإذا رجلٌ عليه قبة من ريحان واليهود يزفنون ، فنظرت فإذا هو ابن الصياد ، فدخل المدينة فلم يَعُد حتى الساعة .

قال الحافظ : وحسان بن عبد الرحمن ما عرفته ، والباقون ثِقات .

قال : وقد أخرج أبو داود بسندٍ صحيح عن جابر رضي الله عنه قال : فقدنا ابن الصياد يوم الحرة . ورواه غيره بسندٍ حسن .

وخبر جابر رضي الله عنه هـٰذا يُضعف خبر أنه مات بالمدينة ، وأنهم صلوا عليه ، وكشفوا عن وجهه ، ولا يلتئم أيضاً مع خبر حسان بن عبد الرحمن المار ؛ لأن فتح أصبهان كان في خلافة عمر رضي الله عنه ؛ كما أخرج أبو نُعيم في « تاريخها » ، وبين

قتل عمر رضي الله عنه ، ووقعة الحرة نحو أربعين سنة ؛ لأن وقعة الحرة كانت في زمن يزيد .

وغاية ما يُعتذر عنه أن القصة إنما شاهدها والد حسان بعد فتح أصبهان هٰذه المدة ، ويكون جواباً لما في قوله : (لما افتتحنا أصبهان) ، محذوفاً تقديره : صرت أتعاهدها وأتردد إليها . فجرت قصة ابن صياد .

وقد أخرج الطبراني في « الأوسط » مرفوعاً من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها : أن الدجال يخرج من أصبهان ، ومن حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

وأخرج أحمد بسندٍ صحيح ، عن أنس رضي الله عنه : أنه يخرج من يهودية أصبهان .

قال أبو نُعيم : كانت اليهودية من جملة قرىٰ أصبهان ، وإنما سميت اليهودية ؛ لأنها كانت تختص بسكنى اليهود ، ولم تزل كذلك إلىٰ أن مصرها أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدي بن المنصور العباسي ، فسكنها المسلمون وبقيت منها لليهود قطعة .

هٰذا ملخص كلام الحافظ ابن حجر .

وحاصله : أن الأصح أن الدجال غير ابن صياد وإن شاركه ابن صياد في كونه أعور ومن اليهود ، وأنه ساكن في يهودية أصبهان. . . إلىٰ غير ذلك . وذلك لأن أحاديث ابن صياد كلها محتملة ، وحديث الجُسَّاسة نَصٌّ ، فيقدم .

قُلْتُ : ومما يرجح أنه غيره أن قصة تميم الداري مُتأخرةٌ عن قصة ابن صياد ، فهو كالناسخ له ، ولأنه حين إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق كان ابن الصياد بالمدينة ، فلو كان هو لقال : بل هو بالمدينة .

لا يقال : إنما لم يقل خوفاً عليه من أن يقتلوه ، فأخبر بما يؤول إليه أمره . لأنا نقول هٰذا ليس بشيء ، إذ كيف يقتلون شخصاً قبل أجله ، والمُقَدّر أنه إنما يقتله نبي الله عيسىٰ عليه السلام ، ولو كان كذلك لما كان بَيّنَ ضئضىء الخوارج بأن له أصحاباً كذا وكذا ، ولما بيّنَ قاتل علي كرّم الله وجهه بأنه يُخضب لحيته من يافوخه ،

ولما بَيّنَ الحكم بن أبي العاصي بأنه يخرج من صلبه من يُغير سُنَّته . . . إلىٰ غير ذلك .

ويؤيده أيضاً : ما أخرجه نُعيم بن حماد من طريق جبير بن نفير ، وشريح بن عبيد ، وعمر بن الأسود وكثير بن مرة ؛ قالوا جميعاً : الدجال ليس هو إنسان ، وإنما هو شيطانٌ موثقٌ بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن ، لا يُعْلَم من أوثقه سليمان النبي عليه السلام أو غيره ، فإذا آن ظهوره فك الله عنه كل عام حلقة ، فإذا برز أتاه أتانٌ عرض ما بين أذنيها أربعون ذراعاً ، فيضع علىٰ ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليه ، وتتبعه قبائل الجن يخرجون له خزائن الأرض .

قال الحافظ : وهٰذا لا يمكن مع كون ابن صياد هو الدجال ، ولعل هٰؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . انتهىٰ

ولا ينافي ذلك قوله : في بعض جزائر اليمن ؛ لأنه يَحتَمِل أن قوله صلى الله عليه وسلم في قصة تميم الداري : من قبل المشرق ، باعتبار آخر وقته حين يخرج .

وذكر ابن وصيف المؤرخ : أنَّ الدجال من ولد شِق الكاهن المشهور ، قال : ويقال : بل هو شِقٌّ نفسه أنظره الله تعالىٰ ، وكانت أمه جنية عشقت أباه ، فأولدها شِقاً ، وكان الشيطان يعمل له العجائب ، فأخذه سليمان عليه السلام فحبسه في جزيرة من الجزائر .

لٰكن قال الحافظ : هٰذا واهٍ جداً . .

قال : وغاية ما يُجمع به وبين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال ، وأن الذي شاهده تميم موثقاً هو الدجال بعينه ، وأن ابن صياد شيطانه ظهر في صورة الدجال في تلك المدة التي قدر الله تعالىٰ خروجه فيها . والله أعلم . اهـ

فإن قيل : كيف يُحكم بكفر ابن الصياد فضلاً عن كونه دجالاً بعد أن ثبت إسلامه وحجه وجهاده ، والأصل بقاؤه على الإسلام إلى الموت ؟

قلْتُ : قوله في حديث أبي سعيد : لا يكره أن يكون دجالاً ، ولو عرض عليه ذلك لقبله . دل علىٰ عدم إسلامه في الباطن ، إذ كيف يرضى المسلم أن يَدّعي الربوبية أو النبوة ؟!! فهٰذا الذي جوز الحكم بذلك ، والله أعلم وبالله التوفيق .

تَـذْنِيبٌ

اشتملت قصة الدجال علىٰ جُملةٍ من الأشراط :

منها : القحط الشديد ثلاث سنين ، وقد مر حديثه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « تكون بين يدي الساعة سنوات خِدَاعات ، يُصدق فيها الكاذب ، ويُكذب الصادق » . . . الحديث .

ومنها : تقارب الزمان ، حتىٰ تكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كالضرمة بالنار .

ومنها : إخراج الأرض كنوزها ، وكان هـٰذا يقع في زمن كل من المهدي وعيسىٰ عليهما السلام والدجال ، فَيُخرَجُ لكل منهم شيء منها ، لـٰكنه في زمنهما رحمة ، وفي زمن الدجال بلاءٌ وامتحان .

ومنها : خروج الشياطين ، وإتيانهم بالأخبار الكاذبة ، وقراءتهم قرآناً على الناس ، وقد مر أحاديث جميع ذلك .

ومنها : كُفر أقوام بعد إيمانهم ورجوعهم إلىٰ عبادة الأوثان .

أخرج الطيالسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ يرجع ناسٌ من أمتي إلىٰ عبادة الأوثان يعبدونها » ، وأحاديثه كثيرة .

ومن الأشراط القريبة : نزول عيسىٰ[1] علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ ، وقُرىء في الشواذ : (لعَلَم) بفتح العين واللام ، بمعنىٰ : العلامة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكماً عَدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية . . . » الحديث . رواه الشيخان .

---

(١) وقد حُكِمَ علىٰ رواياته بالتواتر ؛ كما حكاه مولانا أنور شاه الديوبندي في رسالته في الرد على القادياني المسماة : « عقيدة الإسلام » . (ز) .

وفي رواية مسلم عنه : «والله لينزلن ابن مريم حَكماً عدلاً فليكسرن الصليب» بنحوه .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلىٰ يوم القيامة » ، قال : « فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم : تعال صَلِّ لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم علىٰ بعض أمراء تكرمة الله هـٰذه الأمة » رواه مسلم .

والكلام عليه في مقامات ؛ في حليته وسيرته ، ووقت نزوله ومحله وما يجري علىٰ يديه من الملاحم ، ومدته وموته .

وأما اسمه ونسبه ومولده فكل ذلك معلومٌ مما مر آنفاً .

* * *

المقام الأول

في حليته وسيرته

أما حليته: فعند البخاري من حديث عقيل بن خالد: أنه أحمر جَعْدٌ عريض الصدر.

وفي رواية: « آدم كأحسن ما أنت رَاءٍ من أُدُمِ الرجال، سبط الشعر ينطِفُ ـ أي: بكسر الطاء المهملة؛ أي: يقطر ـ زاد في رواية: له لِمَّة ـ بكسر اللام، وتشديد الميم ـ كأحسن ما أنت رَاءٍ من اللِّمَم، قد رجّلها ». أي؛ بتشديد الجيم: سرحها.

وفي رواية: « لمتُهُ بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء ».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: « ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس ».

زاد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه: « كأنما خرج من دِيماس »؛ يعني: الحمام.

ولا مُنافاة بين الحمرة والأدمة؛ لجواز أن تكون أدمته صافية؛ كما مر في الدجال: « لا يجد ريح نَفَسِه ـ بفتح الفاء ـ كَافرٌ إلاَّ مات، عليه مهروذتان »... إلىٰ غير ذلك؛ كما مر أكثرها.

وأما سيرته: فإنه يَدُقُّ الصليب ويقتل الخنزير والقردة، ويضع الجزية، فلا يَقبل إلاَّ الإسلام، ويتحد الدين فلا يُعبد إلا الله، ويَترك الصدقة ـ أي: الزكاة ـ لعدم من يقبلها، وتَظهر الكنوز في زمنه، ولا يُرغَبُ في اقتناء المال ـ أي: للعلم بقرب الساعة ـ ويرفع الشحناء والتباغض ـ أي: لفقد أسبابهما غالباً ـ، وينزع سُمُّ كل ذي سُمٍّ حتىٰ تلعب الأولاد بالحيات والعقارب فلا تضرهم، ويرعى الذئب مع الشاة فلا يضرها، ويملأ الأرض سِلماً وينعدم القتال، وَتُنبِتُ الأرض نبتها كعهد آدم حتىٰ يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، وكذا الرمانة، وترخص الخيل؛ لعدم القتال، ويغلو الثور؛ لأن الأرض تُحْرث كلها، ويكون مقرراً للشريعة النبوية لا رسولاً إلىٰ هٰذه الأمة، ويكون قد علم بأمر الله في السماء قبل أن ينزل، وهو نبي، ومع ذلك

فهو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وصحابي ؛ لأنه اجتمع به صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وحينئذ فهو أفضل الصحابة .

وقد أَلغَزَ التاج السبكي في ذلك حيث يقول :

مَنْ بِٱتِّفَاقِ جَمِيعِ ٱلْخَلْقِ أَفْضَلُ مِنْ ... خَيْرِ ٱلصِّحَابِ أَبِي بَكْرٍ وَمِنْ عُمَرِ

وَمِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ عُثْمَانَ وَهْوَ فَتىً ... مِنْ أُمَّةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِ

وتُسلب قريش مُلكها ؛ قال ابن حجر الفقيه في « القول المختصر » ، وسبقه إليه السخاوي في « القناعة » : معناه : لا يبقىٰ لقريش اختصاص بشيء دون مراجعته ، فلا يُعارض ذلك خبر : « لا يزال هـٰذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان » . انتهىٰ

قُلْتُ : ويدل لما قاله حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم : « فيقول أميرهم ـ أي : لعيسىٰ : تعال صَلِّ لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم علىٰ بعض أمراء ، تكرمة الله هـٰذه الأمة » .

وعلىٰ هـٰذا ؛ فلا مُنافاة أن يكون المهدي هو الأمير حتىٰ في زمن عيسىٰ عليه السلام ، ويكون مُراجعته في الأمور لعيسىٰ عليهما السلام ، وهـٰذا وجه آخر في الجمع بين اختلاف الروايات في مدة ملك المهدي ؛ بأن التسع ونحوه مَحمولٌ علىٰ ما بعد نزول عيسىٰ عليه السلام ، والأربعين ونحوه باعتبار جميع المدة حتىٰ في زمن عيسىٰ عليه السلام ، وقد مرت الإشارة إلىٰ ذلك ، والله أعلم .

فإن قيل : كيف يصح معنىٰ حديث : « لا يزال هـٰذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان » ، مع أنا نُشاهد أن قريشاً لم تملك منذ قرون ؟

قُلنا : معنىٰ هـٰذا الحديث استحقاق الخلافة لقريش وإن ظَلمها ظَالم ، ولا شك أن عيسىٰ عليه السلام يُظهر كمال العدل ، فلا يجوز أن يأخذ حقهم ، وبالله التوفيق .

* * *

المقام الثاني

في وقت نزوله ، ومحله ، وما يجري علىٰ يديه من الملاحم

وقد سبق اختلاف الروايات في محل نزوله والجمع بين الروايات ، وفي وقته ، ونُشير إلىٰ حاصل الجمع هـٰهنا إجمالاً .

وهو أنه ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، أي : وهي موجودة اليوم ، واضعاً كفيه علىٰ أجنحة ملكين لست ساعات مضين من النهار حتىٰ يأتي مسجد دمشق ، يقعد على المنبر ، فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارىٰ واليهود ، وكلهم يرجونه ، حتىٰ لو ألقيت شيئاً لم يُصب إلا رأس إنسان من كثرتهم ، ويأتي مُؤذن المسلمين ، وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارىٰ ، فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين ، وحينئذ يُؤذن مُؤذنهم ، وتخرج اليهود والنصارىٰ من المسجد ، ويُصلي بالمسلمين صلاة العصر .

ومر الجمع[1] بين نزوله لست ساعات ، وكونه يُصلي العصر . فراجعه .

ثم يخرج عيسىٰ عليه السلام بمن معه من أهل دمشق في طلب الدجال ، ويمشي وعليه السكينة والأرض تقبض له ، وما أدرك نَفَسُهُ من كافرٍ قتله ، ويدرك نَفَسُهُ حيث ما أدرك بصره ، حتىٰ يُدركهم بصره في حصونهم وَقُرَيّاتِهم ، إلىٰ أن يأتي بيت المقدس فيجده مُغلقاً قد حصره الدجال ، فيصادف ذلك صلاة الصبح ؛ كما مر ، ومر قتله للدجال اللعين ، وسيأتي هلاك يأجوج ومأجوج بدعائه ، فهـٰذا المقام الثاني لا نحتاج إلىٰ ذكره .

* * *

---

(١) (ص ٢٥٦) .

المقام الثالث

في مدته ، ووفاته

أما مدته : فقد ورد في حديث عند الطبراني ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل عيسى ابن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة » .

وفي لفظ للطبراني : « يخرج الدجال فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة إماماً عادلاً وحكماً مُقسطاً » .

وعند ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبي داود ، وابن جرير ، وابن حبان ؛ عنه : « أنه يمكث أربعين سنة ثم يُتَوفّىٰ ، ويُصلي عليه المسلمون ، ويدفنونه عند نبينا صلى الله عليه وسلم » .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم في « المستدرك » : عن ابن مسعود رضي الله عنه : « وينزل عيسىٰ فيقتله ـ أي : الدجال لعنه الله ـ ، فيتمتعون أربعين سنة لا يموت أحد ، ويقول الرجل لغنمه ولدوابه : اذهبوا فارعوا ، وتمر الماشية بين الزرع لا تأكل منه سنبلة ، والحيات والعقارب لا تؤذي أحداً ، والسبع علىٰ أبواب الدور لا يؤذي أحداً ، ويأخذ الرجل المُدّ من القمح فيبذره بلا حرث ، فيجيءُ منه سبع مئة مُدّ ، فيمكثون في ذلك حتىٰ يُكسر سد يأجوج ومأجوج . . . » الحديث .

وأخرج أحمد ، وأبو يعلىٰ ، وابن عساكر : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة إماماً عادلاً وحَكماً مُقسطاً » .

وأخرج أحمد في « الزهد » : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يلبث عيسى ابن مريم في الأرض أربعين سنة ، لو يقول للبطحاء : سيلي عسلاً لسالت .

وفي رواية : (خمسة وأربعين سنة) ، والقليل لا ينافي الكثير ، ولعل روايات الأربعين وردت بإلغاء الكسر ، وفي رواية : (سبع سنين) ، وجمع بعضهم بأنه كان

حين رفع ابن ثلاث وثلاثين وينزل سبعاً ؛ فهٰذه أربعون ، وقد علمت أنَّ القليل لا ينافي الكثير فلا حاجة إلىٰ هـٰذا الجمع .

وعند أحمد ، وابن جرير ، وابن عساكر : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ، ويمحي الصليب ، وتجمع له الصلاة ، ويُعطي المال حتىٰ لا يُقبل ، ويضع الخراج ، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر ، أو يجمعهما » .

وفي رواية مسلم ، وابن أبي شيبة عنه : « لَيُهِلَّنَّ عيسى ابن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة ، أو لينشئنهما جميعاً » .

(الفج) : الطريق . و(الروحاء) : مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن عساكر عنه : « ليهبطن ابن مريم حَكَماً عَدلاً وإماماً مُقسطاً ، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً ، وليأتين قبري حتىٰ يُسلم عليَّ ، ولأردن عليه » .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أي بني أخي ؛ إن رأيتموه فقولوا : أبو هريرة يُقرئك السلام .

وأخرج الحاكم عن أنس رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه مني السلام » .

وورد أنه يتزوج بعد ما ينزل ويولد له ، ثم يموت بالمدينة ، ولعل موته عند حجه وزيارته النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلاَّ فهو إنما يكون ببيت المقدس .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وابن عساكر : عن عبد الله بن سلام [عن أبيه ، عن جده] قال : مكتوب في التوارة صفة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى ابن مريم ، يُدفن معه .

وأخرج البخاري في « تاريخه » ، والطبراني ، وابن عساكر : قال : « يُدفن عيسى ابن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فيكون قبره رابعاً » .

وذكر البقاعي في « سر الروح » أنَّ ابن المراغي قال في « تاريخ المدينة » ، وفي « المنتظم » لابن الجوزي : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ مرفوعاً : « ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له ، فيمكث خمساً وأربعين سنة ، ثم يموت فيه ، فيدفن معي في قبري ، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر » .

وعزاه القرطبي في آخر « تذكرته » إلىٰ أبي حفص المَيّانشي . اهـ

تَذْنيبٌ

وقع لبعض جهلة عوام الحنفية أنه ادعىٰ أن كُلاًّ من عيسىٰ عليه السلام والمهدي يقلدان مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وذكره بعض مشايخ الطريقة ببلاد الهند في تصنيفٍ له بالفارسية شاع في تلك الديار ، وكان بعض من يَتوسم بالعلم من الحنفية ويتصدر للتدريس يُشْهِرُ هٰذا القول ويفتخر به ، ويقرره في مجلس درسه بالروضة النبوية .

فَذُكِرَ لي ذلك ، فأنكرته وجهلتُ قائله وناقله ومقرره ، فلما بلغه إنكاري نسبني إلى التنقيص في حق الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وحاشاه من ذلك ، ولو سمعه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه لأفتىٰ بتعزير ، أو تكفير قائله .

ثم بعد مدة وقفت للشيخ علي القاري الهروي نزيل مكة المشرفة رحمه الله علىٰ تأليف سماه : « المشرب الوردي في مذهب المهدي » ، نقل فيه هٰذا القول ، ورد عليه رداً شنيعاً وجهله ، فأرسلت بالكتاب لمجلس درسه ، فقرىء عليه وافتضح بين تلامذته .

فلننقل كلام الشيخ عليٍّ هنا مختصراً ؛ فإنه أعون علىٰ قبول عوام الحنفية ؛ فإنهم جامدون علىٰ نُقُول أهل مذهبهم وإن لم يتعلق بالفقه .

قال رحمه الله : ولقد عارضني في هٰذه القضية ـ يعني : مسألة التقليد المذكورة ـ من هو عارٍ من الفضيلة بالكلية ، وأبرز نقلاً مما كتب في قفا الدفاتر يقطع ببطلانه حتىٰ ذو العقل القاصر ، ومع هٰذا فهو منقولٌ من كتاب مجهول ، وقد صرح الإمام ابن الهمام بعدم جواز النقل من غير الكتب المتداولة ، سواء العلوم الأصلية والفرعية ، ثم

إن ركاكة ألفاظه ومبانيه تدل علىٰ بطلان معانيه ، وها أنا أذكره بلفظه لتحيط به علماً حيث قال ، ولم يخش ما عليه من الوبال وغضب الملك المتعال :

اعلم أن الله قد خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة ، ومن كراماته أن الخَضِر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ، ويتعلم منه أحكام الشريعة إلىٰ خمس سنين ، فلما توفي أبو حنيفة ناجى الخَضِر ربه قال : إلـٰهي ؛ إن كان لي عندك مَنزلةٌ فأذن لأبي حنيفة حتىٰ يعلمني من القبر علىٰ حسب عادته حتىٰ أعلم شرع محمد صلى الله عليه وسلم على الكمال ؛ لتحصل لي الطريقة والحقيقة . فنودي : أن اذهب إلىٰ قبره ، وتعلم منه ما شئت . فجاء الخَضِرُ ، وتعلم منه ما شاء كذلك إلىٰ خمس وعشرين سنة أخرىٰ ، حتىٰ أتم الدلائل والأقاويل ، ثم ناجى الخَضِرُ ربه ، وقال : إلـٰهي ماذا أصنع ؟ فنودي أن اذهب إلىٰ صفائك ، واشتغل بالعبادة إلىٰ أن يأتيك أمري . . . إلىٰ أن قال له : اذهب إلى البقعة الفلانية وعلم فُلاناً علم الشريعة . ففعل الخَضِرُ عليه السلام ما أُمر ، ثم بعد مدة ظهر في مدينة ما وراء النهر شاب وكان اسمه أبا القاسم القشيري ، وكان يخدم أمه ويحترمها ، ثم إنه قال وقتاً من الأوقات لأمه : يا أماه قد حصل لي الحرص علىٰ طلب العلم وقد قال علي كرم الله وجهه : من كان في طلب العلم كانت الجنة في طلبه فأذني لي حتىٰ أذهب إلىٰ بخارىٰ وأتعلم العلم ، فتفكرت والدته ، وقالت : إن لم أعطه الإذن أكون مانعة للخير ، وإن أذِنتُ له لم أصبر علىٰ فِراقه . فلم يكن لها بُدٌّ حتىٰ أذنت له ، فودع القشيري أمه وعزم على السفر مع شاب صاحب له يطلبان العلم ، فقعدت أمه على الباب باكية حزينة ، وقالت : إلـٰهي ؛ اشهد أني حَرَّمتُ علىٰ نفسي الطعام والمنزل ، ولا أقوم من مقامي حتىٰ أرىٰ ولدي . فمضىٰ القشيري وصاحبه حتىٰ نزلا في منزل ليأكلا فيه طعاماً ، فقام القشيري ليقضي حاجته ، فتلوثت ثيابه ببوله ، وقال لصاحبه : اذهب أنت ، فإني أريد أن أرجع إلى المنزل ، وأخاف أن تُصيب النجاسة جسمي في المنزل الثاني ، ويصيب روحي في الثالث ، فقعودي عند والدتي أولىٰ . ورجع إلىٰ أمه وكانت قاعدة علىٰ مكانها الذي ودعت ابنها فيه ، فقامت وتصافحت مع ولدها وقالت : الحمد لله . فأمر الله تعالى الخَضِر : أن اذهب إلى القشيري وعلمه ما تعلمت من أبي حنيفة رضي الله عنه ؛ لأنه

أرضىٰ أمه . فجاء الخَضِرُ إلىٰ أبي القاسم وقال : أنت أردت السفر لأجل طلب العلم وقد تركته لرضا أمك ، وقد أمرني الله تعالىٰ أن أجيء إليك كل يوم على الدوام وأعلمك . فكل يوم يجيء إليه الخَضِر حتىٰ ثلاث سنين ، وعلمه العلم الذي تعلم من أبي حنيفة في ثلاثين سنة ، حتىٰ علمه علم الحقائق والدقائق ودلائل العلم ، وصار مشهور دهره ، وفريد عصره ، حتىٰ صنف ألف كتاب ، وصار صاحب كرامات ، وكثر مريدوه وتلاميذه ، فكان له مُريدٌ كبيرٌ متدين لا يفارق الشيخ ، فعد له الشيخ ألف كتاب من مصنفاته ، ووضعهم في الصندوق وأعطىٰ لذلك المريد وقال : قد بدا لي أمر ، فاذهب وارم هٰذا الصندوق في جيحون . فحمل المريد الصندوق ، وخرج من عند الشيخ ، وقال في نفسه : كيف أرمي مصنفات الشيخ في الماء ؟! لٰكن أذهب ، وأحفظ الكتب ، وأقول للشيخ : رميتها . وحفظ الكتب ، وجاء وقال للشيخ : رميت الصندوق في الماء . قال الشيخ : وما رأيت في تلك الساعة من العلامات ؟ قال : ما رأيت شيئاً . قال الشيخ : اذهب وارم الصندوق . فذهب المريد إلى الصندوق وأراد أن يرميه ، فلم يَهُن عليه ، ورجع إلى الشيخ مثل الأول ، وقال : رميته ؟ قال : نعم . قال وما رأيت ؟ قال : لم أر شيئاً . قال الشيخ : ما رميته ، فاذهب وارمه فإن لي فيها سراً مع الله ، ولا ترد أمري . فذهب المريد ، ورمى الصندوق . فخرج من الماء يَدٌ وأخذ الصندوق ، قال المريد له : من أنت ؟ فنادىٰ في الماء : إني وُكلت أن أحفظ أمانة الشيخ . فرجع المريد وجاء إلى الشيخ ، فقال : رميت ؟ قال : نعم . قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت الماء قد انشق وخرج منه يَدٌ وأخذ الصندوق ، وقد صرتُ مُتحيراً ، وما السر في ذلك ؟

قال الشيخ : السر في ذلك أنه إذا قربت القيامة ، وخرج الدجال ، ونزل عيسىٰ عليه السلام ببيت المقدس فيضع الإنجيل بجنبه ويقول : أين الكتاب المحمدي ؟ وقد أمرني الله أن أحكم بينكم بكتابه ، ولا أحكم بالإنجيل .

فيطلبون الدنيا ، ويطوفون بالبلاد ، فلم يوجد كتابٌ من كتب الشرع المحمدي ، فيتحير عيسىٰ عليه السلام ويقول : إلٰهي ؛ بماذا أحكم بين عبادك ولم يوجد غير الإنجيل ؟ ، فينزل جبريل ويقول : قد أمر الله تعالىٰ أن تذهب إلىٰ نهر جيحون ،

وتُصلّي ركعتين بجنبه ، وتنادي : يا أمير صندوق أبي القاسم القشيري ؛ سلم إليَّ الصندوق وأنا عيسى ابن مريم وقد قتلت الدجال .

فيذهب عيسىٰ عليه السلام إلىٰ جيحون ، ويُصلّي ركعتين ، ويقول مثل ما أمره جبريل ، فينشق الماء ويخرج الصندوق ، ويأخذه ويفتح ويجد فيه ختمة وألف كتاب ، فيحيي الشرع بذلك الكتاب .

ثم سأل عيسىٰ عليه السلام جبريل : بم نال أبو القاسم هـٰذه المرتبة ؟ فقال : برضاء والدته .

نُقل من كتاب « أَنيس الجلساء » اهـ

قال الشيخ علي : « ولا يخفىٰ أن هـٰذا ـ مع ركاكته ولحنه ـ كلام بعض الملحدين الساعين في إفساد الدين إذ حاصله أن الخَضر الذي قال تعالىٰ في حقه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، وقد تعلم منه موسىٰ عليه السلام فيكون من جملة تلاميذ أبي حنيفة ، ثم عيسىٰ عليه السلام وهو من أُولي العزم يأخذ أحكام الإسلام من تلميذ تلميذ أبي حنيفة ، وما أسرع فهم هـٰذا التلميذ حيث أخذ عن الخَضِر في ثلاث سنين ما تعلمه الخضر من أبي حنيفة حياً وميتاً في ثلاثين سنة!! وأعجب منه أن أبا القاسم القشيري ليس معدوداً في طبقات الحنفية!! ثم العجب من الخَضِر أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتعلم منه شرائع الإسلام ، ولا من علماء الصحابة الكرام ؛ كعلي رضي الله عنه باب مدينة العلم وأقضى الصحابة ، وزيد أفرضهم ، وأُبَيّ أقرئهم ، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام . ولا من عظماء التابعين ؛ كالفقهاء السبعة ، وسعيد بن المسيب بالمدينة ، وعطاء بمكة ، والحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام ، وقد رضي بجهله بالشريعة حتىٰ تعلم مسائلها في أواخر عُمر أبي حنيفة!!

قال : فهـٰذا مما لا يخفىٰ بُطلانه حتىٰ علىٰ ذوي العقول السخيفة ، حتىٰ أن علماء المذاهب أخذوا هـٰذه المقالة علىٰ وجه السخرية ، وجعلوها دليلاً علىٰ قلة عقل الطائفة الحنفية ، حيث لم يعلموا أن أحداً منهم لم يرض بهـٰذه القضية بالكلية .

ثم لو تعرضت لما في نقوله من الخطأ في مبانيه ومعانيه الدالة علىٰ نقصان معقوله

لصار كتاباً مُستقلاً ، إلا أني أعرضت عنه صفحاً ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

فبطل قول القائل ، بل وكفر فيما ظهر ، لا سيما فيما أبرز بالنسبة إلىٰ نبي الله عيسىٰ عليه السلام المُجمع علىٰ نبوته سابقاً ولاحقاً ، فمن قال بسلب نبوته كفر حقاً ؛ كما صرح به الإمام السيوطي ؛ فإن النبي لا يَذْهَبُ عنه وصف النبوة ولا بعد موته .

وأما حديث : « لا وحي بعدي » فباطلٌ لا أصل له .

نعم ؛ ورد : « لا نبي بعدي » ، ومعناه عند العلماء : أنه لا يحدث بعده نبي بشرع يَنْسَخُ شرعه .

وقد صرح الإمام السبكي في تصنيفٍ له : أن عيسىٰ عليه السلام يحكم بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم بالقرآن والسُّنَّة[1] ، وحينئذ يترجح أن أخذه للسُّنَّة من النبي صلى الله عليه وسلم بطريق المشافهة من غير واسطة ، أو بطريق الوحي والإلهام .

وقد رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما أكثر الحديث ، وأنكر عليه الناس قال : لئن نزل عيسى ابن مريم قبل أن أموت لأحدثنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصدقني .

فقوله : (فيصدقني) دليلٌ علىٰ أن عيسىٰ عليه السلام عَالِمٌ بجميع سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، من غير احتياج إلىٰ أن يأخذها عن أحدٍ من الأمة ، حتىٰ إن أبا هريرة رضي الله عنه الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم احتاج إلىٰ أن يلجأ إليه ؛ ليُصدقه فيما رواه ويزكيه .

فإن قلت : هل ثبت أن عيسىٰ عليه السلام بعد نزوله يأتيه الوحي ؟

فالجواب : نعم ؛ ثبت في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم وغيره ، فإن فيه : « فيقتل عيسى الدجال عند باب لُدّ الشرقي ، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالىٰ إلىٰ عيسى ابن مريم : أني قد أخرجت عِباداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور . . . » الحديث .

---

(١) وقريباً منه مافي « الفتاوى الحديثية » لابن حجر (ص/ ١٣١ص١٣٢) . (ز) .

ثم الظاهر أن الجائي إليه بالوحي هو جبريل عليه السلام ، بل هو الذي نقطع به ولا نتردد فيه ؛ لأن ذلك وظيفته ، وهو السفير بين الله وبين أنبيائه ، لا يُعْرَفُ ذلك لغيره من الملائكة ، وقد أخرج أبو حاتم في « تفسيره » : أنه وُكِّلَ جبريل عليه السلام بالكتب والوحي إلى الأنبياء .

وأما ما اشتهر علىٰ ألسنة العامة أن جبريل عليه السلام لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فلا أصل له ، وقد ورد في غير ما حديث نزوله إلى الأرض ؛ كحضور موت من يموت علىٰ طهارة ، ونزوله ليلة القدر ، ومنعه الدجال من دخول مكة والمدينة . . . إلىٰ غير ذلك .

ثم وقفت علىٰ سؤالٍ رفع إلىٰ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني : هل ينزل عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان حافظاً للقرآن العظيم ، ولسنّة نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، أو يتلقى الكتاب والسُّنّة عن علماء ذلك الزمان ؟

فأجاب : لم يُنقل في ذلك شيءٌ صريح ، والذي يليق بمقام عيسىٰ عليه السلام أنه يتلقىٰ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحكم في أمته كما تلقاه عنه ؛ لأنه في الحقيقة خليفة عنه » .

انتهىٰ ما أردنا نقله من كلام العلامة الشيخ علي القاري الحنفي عامله الله باللطف الخفي ، وهو في غاية النفاسة .

ثم رد أيضاً قول القائل : إن المهدي يقلد الإمام أبا حنيفة رحمه الله ، بالأدلة الشافية ، لـٰكنه قرر أنه مجتهدٌ مطلق ، وهو يُخالف ما مر عن الشيخ محيي الدين في « الفتوحات » أن المهدي لا يعلم القياس ليحكم به ، وإنما يعلمه ليجتنبه ، فلا يحكم المهدي إلا بما يُلْقِي إليه المَلَكُ من عند الله الذي بعثه الله إليه يُسدده ، وذلك هو الشرع الحنيفي المحمدي الذي لو كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حياً ، ورُفعت إليه تلك النازلة لم يحكم فيها إلا بحكم المهدي ، فيعلم أن ذلك هو الشرع المحمدي ، فيحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته : « يقفو أثري لا يخطىء »، فعرفنا أنه مُتبع لا مُشرع. انتهىٰ كلام « الفتوحات » .

فعلىٰ هـٰذا : المهدي ليس بمجتهد ؛ لأن المجتهد يحكم بالقياس ، وهو يحرم

عليه القياس ، ولأن المجتهد قد يخطىء ، وهو لا يخطىء قط ، فإنه مَعصومٌ في أحكامه لشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له ، وهـٰذا مبنيٌّ علىٰ عدم جواز الاجتهاد في حق الأنبياء ، وهو التحقيق وبالله التوفيق .

ثم نقول : إن كلام القائل المذكور بَاطلٌ وزورٌ وافتراءٌ من وجوه كثيرة :

منها : ما أشار إليه الشيخ علي القاري .

ومنها : أن أبا القاسم القشيري من الفقهاء الشافعية ومشايخه في الفقه والكلام والتصوف معلومةٌ ؛ كما تنطق به رسالته المتداولة في أيدي المسلمين شرقاً وغرباً .

ومنها : أنه لا يُعْرَفُ له من التآليف غير كتاب « الرسالة » ، و« التفسير » ، وكتب أخر معدومة لا تبلغ ألف ورقة ، فضلاً عن ألف كتاب .

ومنها : أن في زمن المهدي النازل عيسى ابن مريم عليه السلام في زمانه الفقهاء في سائر المذاهب باقية ، وأنهم أكبر أعداء المهدي ؛ لذهاب جاههم وعلمهم ، والقرآن باقٍ إذ ذاك لم يُرفع بعد .

ومنها : أنه كيف يجوز أن يتحير عيسىٰ عليه السلام ويُعطل أحكام المسلمين إلىٰ أن يذهب إلىٰ نهر جيحون وَيُخْرِجَ الكتب ، وكم من حدود وخصومات ووقائع تقع في تلك المدة .

ومنها : أن جبريل عليه السلام إذا نزل عليه ، وأمره بأن يذهب إلىٰ جيحون ، فنزوله عليه بالوحي . ما المانع منه أن يعلمه شرع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحوجه إلىٰ كتب أبي القاسم ؟!

ومنها : أن الخَضِر المعلم لأبي القاسم حيٌّ عند نزول عيسىٰ عليه السلام ، فإنه الذي يقتله الدجال ثم يحييه ، فلم لا يُعْلِمُ عيسىٰ عليه السلام كما علم أبا القاسم حتىٰ يكون بين عيسىٰ عليه السلام وبين الإمام أبي حنيفة واسطة واحدة ؟! .

ومنها : أن المسلمين في الصلاة حين نزول عيسىٰ عليه السلام ، وأن المؤذن يُؤذن ، وأنه يقول للمهدي : تقدم فإنها لك أقيمت . فإن لم يكن القرآن باقياً والمذاهب باقية ، كيف يصلون وكيف تصح صلاتهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

في حقهم إنهم ملحقون بالقرون الثلاثة التي هي خير القرون ؟!

ومنها : أن الخَضِر الذي يُخاطب ربه ويُناجيه ، ويُجيبه ربه ويناديه ؛ لم لا يسأل ربه أن يعلمه شرائع الإسلام من غير واسطة أحد حتىٰ يتعلم من قبر أبي حنيفة رضي الله عنه ؟!

ومنها : أن الخَضِر إما أن يكون مأموراً بتعلم شرع النبي صلى الله عليه وسلم أو لا ، فإن كان مأموراً به فتركه التعلم إلىٰ زمن أبي حنيفة رضي الله عنه ، بل إلىٰ بعد موته ، وهو إنما مات في سنة مئة وخمسين تَرْكٌ للواجب .

وكيف يجوز للمعصوم أن يترك الواجب مئة وخمسين سنة ؟! إذ الأصح أنه نبي وإن لم يكن مأموراً بذلك ، وإنما هو زيادة تحصيل للكمال ، فلم لم يأخذه من النبي صلى الله عليه وسلم غضاً طرياً ؟! وإن لم يعلم أنه كمال إلا بعد موت أبي حنيفة رضي الله عنه فقد جوز الجهل بالكمال على الأنبياء .

ومنها : أن عيسىٰ عليه السلام معصومٌ مُطلقاً ، والمهدي معصومٌ في الأحكام ، والإمام أبو حنيفة رضي الله عنه مُجتهدٌ ، والمجتهد قد يُصيب وقد يُخطىء ، ولذا خالفه صاحباه في أكثر من ثلث قوله ، فكيف يُقلد من لا يُخْطِىءُ قط من يُخْطِىءُ ويصيب ؟!

ومنها : أن جميع فقه أبي حنيفة رضي الله عنه يمكن أن تُجمع أصوله وفروعه في كتابٍ واحد ، أو في كتابين ، فما الذي في ألف كتاب ؟! إن كان معرفة الله أو الحقائق أو السلوك أو غير ذلك يلزم أن يكون عيسىٰ عليه السلام ما كان عرف الله قبل ذلك واعتقاد ذلك كُفرٌ ، وإن كان غير ذلك فليبين ما فيها .

ومنها : أن من مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن يقبل الجزية من الكفار ويخرج الزكاة ، ويبقي الصليب والخنزير في يدهم ، وأن لا يجمع بين الصلاتين ، وعيسىٰ عليه السلام لا يقبل الجزية ، ولا يُخْرِجُ الزكاة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وتُجمع له الصلاة. . . إلىٰ غير ذلك .

فإن كانت هـٰذه الأحكام في كتب أبي القاسم القشيري فقد خالف أبا حنيفة رضي الله عنه ، فيلزم أن يكون مُجتهداً مطلقاً ، وحينئذ فيكون الفضل له لا لأبي حنيفة .

وإن لم يكن في كتبه يلزم أن يكون عيسىٰ عليه السلام لم يعمل بما في مذهب أبي حنيفة .

ومنها : مَفاسِدُ كثيرة لا تنحصر ، ولا تسعها هـٰذه الأوراق ، تظهر لمن تتبع الأحاديث المارة في هـٰذا الكتاب .

ثم إن مثل هـٰؤلاء الجهلة لفرط تعصبهم وعنادهم ليس مطمح نظرهم إلا تفضيل أبي حنيفة رضي الله عنه ، ولو بما لا أصل له ، ولو بما يؤدي إلى الكفر ، وليس عندهم عِلْمٌ بفضائله الجمة التي أُلفت فيها الكتب ، فيرضون بالأكاذيب والافتراءات التي لا يرضاها الله ورسوله ولا أبو حنيفة رضي الله عنه نفسه ، ولو سمعها أبو حنيفة رضي الله عنه لأفتىٰ بكفر قائلها .

وفي فضائل أبي حنيفة رضي الله عنه المقررة المحررة كفايةٌ لمحبيه ، ولا يحتاج في إثبات فضله إلى الأقوال الكاذبة المُفتراة المُؤدية إلىٰ تنقيص الأنبياء .

ومن العجائب أنه وقع للقهستاني مع فضله وجلالته شيءٌ من ذلك ، فقال في شرح خطبة « النقاية » أن عيسىٰ عليه السلام إذا نزل عمل بمذهب أبي حنيفة ، كما ذكره في « الفصول الستة » ، وليت شعري ما « الفصول الستة » ، وما الدليل علىٰ هـٰذا القول ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

فعليك باتباع السُّنَّة الغراء ؛ فإنها حِرزٌ وحِصنٌ من الأهواء والآراء ، وَجُنّة من سهام الشيطان المريد لعنه الله . وإياك والاغترار بأمثال هـٰذه الترهات الباطلة ، ودع التعصب ؛ فإنه بابٌ عظيمٌ من أبواب الشيطان الرجيم .

اللَّهم ؛ إنا نعوذ بك من شر الشيطان ونفثه ونفخه ، ونسألك التوفيق لما تحب وترضىٰ ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد الأمين وعلىٰ آله الطيبين وأصحابه أجمعين آمين .

* * *

ومن الأشراط العظيمة القريبة

خروج يأجوج ومأجوج[١] :

وهي من الفتن العظام ، وقد أُشير إليهم في غير آية فقال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكون عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ابن مريم ، وثلاث خسوفات ، ونارٌ تخرج من قعر عدن أبين » . الحديث رواه ابن ماجه عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه .

والأحاديث الواردة فيهم كثيرة ، والكلام عليهم[٢] في مقامات في نسبهم ، وحليتهم وسيرتهم ، وخروجهم وإفسادهم وهلاكهم .

* * *

---

(١) وبوب عليهما البخاري في « صحيحه » ، وبسط الكلام عليهما الحافظ (١٣/٨٦) . (ز) .

(٢) وقد بسطه الدميري في « حياة الحيوان » (٢/٣٣٦) ، والسيوطي في « الدر » (٤/٢٥٠) (ز) .

المقام الأول
في نسبهم

وفي ذلك أقوال :

أحدها : أنهم من بني آدم من بني يافث بن نوح ، وبه جزم وهب وغيره ، واعتمده كثير من المتأخرين .

وقيل : إنهم من الترك ؛ قاله الضحاك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الديلم .

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه : هم ولد آدم من غير حواء ، وذلك أن آدم نام فاحتلم ، فامتزجت نطفته بالتراب ، فخلق الله منها يأجوج ومأجوج ، ورُدَّ بأن النبي لا يحتلم ، وأجيب بأن المنفي أن يرىٰ في منامه أنه يجامع ، فيحتمل أن يكون دفق الماء فقط ، وهو جائزٌ كما يجوز أن يبول .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » : والأول هو المعتمد ، وإلا فأين كانوا حين الطوفان .

وقال النووي في « الفتاوىٰ » : يأجوج ومأجوج من أولاد آدم من غير حواء عند جماهير العلماء ، فيكونون إخوتنا لأب .

قال الحافظ : ولم يرد هٰذا عن أحدٍ من السلف إلا عن كعب الأحبار .

قال : ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح ، ونوح من ذرية حواء قطعاً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رفعه : « ولد لنوح سام ، وحام ، ويافث . فولد لسام : العرب وفارس والروم . وولد لحام : القبط والبربر والسودان . وولد ليافث : يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة » .

قال الحافظ : وفي سنده ضعف .

* * *

المقام الثاني
في حليتهم ، وسيرتهم

أما حليتهم : فأخرج ابن أبي حاتم من طريق شريح بن عبيد ، عن كعب قال : هم ثلاثة أصناف :

صِنْفٌ أجسادهم كالأَرز ؛ وهو بفتح الهمزة وسكون الراء ثم زاي معجمة : وهو شجرٌ كبير جداً .

قال في « النهاية » : هو شجر الأَرز وهو خشب معروف ، وقيل : شجر الصنوبر .

وصِنْفٌ منهم أربعة أذرع في أربعة أذرع .

وصِنْفٌ يفترشون إحدىٰ آذانهم ، ويلتحفون الأخرىٰ .

ووقع في حديث حذيفة نحوه .

وأخرج هو والحاكم من طريق أبي الجوزاء : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « يأجوج ومأجوج شبراً شبراً ، وشبرين شبرين ، وأطولهم ثلاثة أشبار » .

وأخرج عن قتادة قال : « يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة ، بنىٰ ذو القرنين علىٰ إحدىٰ وعشرين ، وكانت منهم قبيلة غائبة في الغزو وهم الأتراك ، فبقوا دون السد » .

وأخرج ابن مردويه من طريق السُدّي قال : « الترك سريةٌ من سرايا يأجوج ومأجوج تغيبت ، فجاء ذو القرنين فبنى السَدّ فبقوا خارجاً » .

وأخرج أحمد والطبراني عن خالد بن عبد الله بن حرملة ، عن خالته ؛ مرفوعاً : « إنكم تقولون لا عدو ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتىٰ تقاتلوا يأجوج ومأجوج ، عراض الوجوه ، صغار العيون ، صُهْب الشعور من كل حدب ينسلون ، كأن وجوههم المجان المطرقة » .

قُلْتُ : وهـٰذا يؤيد أن الترك قبيلة منهم ، والصهبة بين الحمرة والسواد ، ورجل أصهب وامرأة صهباء .

وأما سيرتهم : أخرج ابن حبان في « صحيحه » : عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ رفعه ، قال : « إن يأجوج ومأجوج قل ما يترك أحدهم من صلبه ألفاً من الذرية » .

وللنسائي من رواية عمرو بن أوس ، عن أبيه ؛ رفعه : « إن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاؤوا ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً » .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه : « إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا ، وشجر يلقحون ما شاؤوا. . . » الحديث .

وأخرج الحاكم ، وابن مردويه من طريق عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم ، ووراءهم ثلاث أمم ، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً » .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وعَبدُ بن حُميد : عن ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه ، وزاد : « فَسمّىٰ الأمم الثلاث : تأويل ، وتأريس ، ومنسك » .

وأخرج عَبدُ بن حُميد بسندٍ صحيح عن عبد الله بن سَلاَم ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « الجن والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج ، وجزء سائر الناس » .

وقد جاء في خبرٍ مرفوع : « إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم » ، وهو فيما أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن حبان ، والحاكم وصحّحاه : عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رفعه : في السد : « يحفرونه كل يوم حتىٰ إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم : ارجعوا فتخرقونه غداً ، فيعيده الله كأشد ما كان ، حتىٰ إذا بلغ مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالىٰ ، واستثنىٰ ، قال : فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه ، فيخرقونه فيخرجون على الناس. . . » الحديث .

قال الحافظ ابن حجر : أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وعَبدُ بن حُميد ، وابن حبان ؛ كلهم عن قتادة ، ورجال بعضهم رجال الصحيح .

قال ابن العربي : في هـٰذا الحديث ثلاث آيات :

الأولىٰ : أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلاً ونهاراً .

الثانية : منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بالسلم ، أو الآلة ، فلم يُلْهِمهُم ذلك ، ولا علمهم إياه ؛ أي : مع أنه ورد في خبرهم عند وهب : أن لهم أشجاراً وزُرُوعاً ، وغير ذلك من الآلات .

الثالثة : أنه صَدَّهم أن يقولوا : إن شاء الله تعالىٰ . حتىٰ يجيء الوقت المحدد .

قال الحافظ : وفيه أن فيهم أهل صناعات ، وأهل ولاية وسلاطة ـ لعل الصواب : وسُلْطة . تأمَّل ـ، ورعية تُطيع من فوقها، وأن فيهم من يعرف الله، ويقر بقدرته ومشيئته.

ويحتمل أن تكون تلك الكلمة تجري علىٰ لسان ذلك الوالي من غير أن يعرف معناها ، فيحصل المقصود ببركتها .

ثم روىٰ لكل من الاحتمالين حديثاً .

فقال : وعند عَبد بن حُميد من طريق كعب الأحبار نحو حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال فيه : « فإذا جاء الأمر ألقي علىٰ بعض ألسنتهم : نأتي غداً إن شاء الله تعالىٰ فنفرغ منه » .

وعند ابن مردويه من حديث حذيفة رضي الله عنه نحو حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : « فيصبحون وهو أقوىٰ منه بالأمس ، حتىٰ يُسلم رجل منهم حين يريد الله أن يبلغ أمره فيقول المؤمنُ : غداً نفتحه إن شاء الله تعالىٰ ، فيصبحون ثم يغدون عليه فيفتح . . . » الحديث وسنده ضعيف . انتهىٰ كلام الحافظ .

وحاصله : يحتمل أن يلقىٰ (إن شاء الله تعالىٰ) علىٰ لسان أحدهم ؛ وهو أقوىٰ ، ويحتمل أن يُسلم واحد منهم ؛ كما يدل علىٰ كُلٍّ رواية .

ولا يردّ الأول ما رواه نُعيم بن حماد في « الفتن » عن ابن عباس رضي الله عنه ؛ مرفوعاً قال : « بعثني الله حين أسري بي إلىٰ يأجوج ومأجوج ، فدعوتهم إلىٰ دين الله وعبادته ، فأبوا أن يجيبوني ، فهم في النار مع من عصىٰ من ولد آدم وولد إبليس » ؛ كما هو واضح .

* * *

المقام الثالث

في خروجهم ، وإفسادهم ، وهلاكهم

فقد ورد في حالهم عند خروجهم ، ما أخرجه مسلم من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجال وهلاكه علىٰ يد عيسىٰ عليه السلام وغيره قال : « ثم يأتيه ـ يعني : عيسىٰ عليه السلام ـ قومٌ قد عصمهم الله من الدجال ، فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلىٰ عيسىٰ : أن قد أخرجت عباداً لي لا يَدَان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتىٰ إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه ، حتىٰ يتركوه يبساً ، حتىٰ إن من يمر من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هـٰهنا ماء مرة . حتىٰ إذا لم يبق من الناس أَحَدٌ إلا أخذ في حصن أو مدينة ، ويمرون ببحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم ، فيقول : لقد كان بهـٰذه مرة ماء . ويحصر عيسىٰ نبي الله وأصحابه ، حتىٰ يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيراً من مئة دينار » .

وفي روايةٍ لمسلم وغيره : « فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هَلُمَّ فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء ، فيردها الله عليهم مخضوبة دماً » .

وفي رواية : « ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي إلى السماء ، فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله ، فيرسل عليهم النَّغَف في رقابهم » .

وفي رواية : « دوداً كالنغف في أعناقهم ـ وهو بفتح النون والغين المعجمة : دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم ـ فيصبحون موتىٰ كموت نفسٍ واحدة لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هـٰذا العدو ؟ فيتجرد رجلٌ منهم محتسباً نفسه قد وطنها علىٰ أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتىٰ بعضهم علىٰ بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين ؛ ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم .

فيخرجون من مدائنهم وحصونهم وَيُسرّحُون مواشيهم ، فما يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكَر عنه ـ بفتح الكاف ؛ أي : تسمن ـ بأحسن ما شكَرت عن شيء ، وحتىٰ إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم ، ويهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابهم إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأ زهمهم ـ أي : شحمهم ـ ، ونتنهم ـ أي : ريحهم ـ من الجيف ، فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم ، فيستغيثون بالله فيبعث ريحاً ثمانية غبراء ، فتصير على الناس غماً ودخاناً ، وتقع عليهم الزكمة ويكشف ما بهم بعد ثلاث وقد قذفت جيفهم في البحر » .

وفي رواية : « فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلى الله ، فيرسل طيراً كأعناق البُخت فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله تعالىٰ » .

وفي رواية : « في النار » ، ولا منافاة فإن البحر يسجر فيصير ناراً يوم القيامة .

ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزلقة ـ أي : المرآة ، بحيث يرى الإنسان فيها وجهه من صفائها ـ ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، وردي بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين .

فائدة

اختلفوا في اشتقاق يأجوج ومأجوج ، فقيل : من أجيج النار ؛ وهو التهابها .

وقيل : من الأجة بالتشديد ؛ وهي الاختلاط أو شدة الحر . وقيل : من الأج ؛ وهو سرعة العدو . وقيل : من الأُجاج ؛ وهو الماء الشديد الملوحة .

وعلى التقادير كلها : وزنهما يفعول ومفعول ، وهو ظاهر قراءة عاصم ؛ فإنه وحده قرأه بالهمزة . وكذا قراءة الباقين إن كانت الألف مُسهلة من الهمزة .

وقيل : فاعول ، من يج ومج .

وقيل : مأجوج ؛ من ماج إذا اضطرب ، ووزنه أيضاً مفعول ، قاله أبو حاتم قال : والأصل موجوج .

وجميع ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم ، ويؤيد الاشتقاقَ وقولَ من جعله من ماج قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ ، وذلك حين يخرجون من السد .

خَاتِـمَة

اشتملت قصة عيسىٰ عليه السلام علىٰ جملة من الأشراط ، فلنشر إليها :

منها : قتال اليهود :

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتىٰ يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا عبد الله ؛ هٰذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد ؛ فإنه من شجر اليهود » .

ومنها : قتال يأجوج ومأجوج :

أخرج أحمد ، والطبراني : عن خالة خالد بن حرملة : « إنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتىٰ تقاتلوا يأجوج ومأجوج ، عراض الوجوه ، صغار العيون ، صُهْب الشعور ، من كل حدب ينسلون » .

ومنها : مطرٌ لا يكن منه بيت مدر ولا وبر :

أخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يمطر الناسُ مطراً لا تكن منه بيوت المدر ولا بيوت الوبر » .

ومنها : انقطاع الجهاد ورجوع الناس حراثين :

أخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ ترجعوا حراثين » .

ومنها : نزول الخلافة في الأرض المقدسة :

أخرج أحمد ، وأبو داود ، والحاكم : عن ابن حوالة ؛ مرفوعاً : « يا بن حوالة ؛ إذا رأيت الخلافة نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل ، والبلابل ، والأمور

العظام ، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هـٰذه من رأسك » ، وكان وضع يده علىٰ رأسه .

وهـٰذا : إن أريد مطلق الخلافة فقد وقع في زمن بني أمية ، فيكون من القسم الأول وقد ذكرنا هناك بعض الأمور العظام . وإن أريد الخلافة الكاملة فسيكون في زمن المهدي وعيسىٰ عليهما السلام .

والأمور العظام هي :

الدابة ، والشمس ، والنار ، والريح . . . إلىٰ غير ذلك .

ويدل للثاني آخر الحديث : « الساعة يومئذ أقرب » . . . إلىٰ آخره .

ومنها : كثرة المال :

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يكثر المال ، ويفيض حتىٰ يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتىٰ تعود أرض العرب مُروجاً وأنهاراً » .

وفي رواية : « حتىٰ يكثر المال فيكم » .

وقد ذكر هـٰذا في القسم الأول ، ولا مانع أن تكون الرواية الثانية إشارة إلىٰ ما وقع في زمن عثمان وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ؛ لقرينة قوله : « فيكم » ؛ يعني : الصحابة . والرواية الأولىٰ لما سيقع في زمن المهدي وعيسىٰ عليهما السلام ، ولذا ذكرناه في القسمين .

ومنها : أن يكون رأس الثور بالأوقية :

أخرج ابن أبي شيبة عن قيس : لا تقوم الساعة حتىٰ يُقَوَّمَ رأس البقرة بالأوقية ؛ أي : وذلك في حصار يأجوج ومأجوج لعيسىٰ عليه السلام وأصحابه ؛ كما مر .

ومنها : نُشُوفُ بحيرة طبرية : كما مر أنها يشربها يأجوج ومأجوج .

ومنها : رخص الخيل ، وغلاء الثور :

أخرج ابن ماجه ، وابن خزيمة ، وغيرهما : عن أبي أمامة رضي الله عنه : « إن من

أشراطها : « أن يكون الفرس بالدريهمات ، ويكون الثور بكذا وكذا مئة دينار » ، قيل : وما يُرخِصُ الخيل يا رسول الله ؟ قال : « عدم الجهاد » . قيل : فما يُغلي الثور ؟ قال : « إن الأرض تُحرث كلها » .

ومنها : نزول البركات :

ونَزعُ سُمِّ كل صاحب سُمْ . . . **إلىٰ غير ذلك** .

ومن الأشراط القريبة : خراب المدينة قبل يوم القيامة بأربعين سنة ، وخروج أهلها منها :

أخرج أبو داود عن معاذ رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » .

وَروى الطبراني : « سيبلغ البناء سَلعاً ، ثم يأتي على المدينة زمان يمر السفر علىٰ بعض أقطارها فيقول : قد كانت هٰذه مرة عامرة من طول الزمان وعفو الأثر » ، وروىٰ أحمد نحوه بإسنادٍ حسن .

وروي أيضاً برجال ثقات : « المدينة يتركها أهلها وهي مرطبة ، قالوا : فمن يأكلها ؟ قال : السباع والعوافي » .

وفي « الصحيحين » : « لتتركن المدينة علىٰ خير ما كانت ، مذللة ثمارها لا يغشاها إلا العوافي ـ يريد : عوافي الطير والسباع ـ وآخر من يحشر منها راعيان من مُزينة . . . » الحديث .

وَروىٰ ابن زَبالة ، وتبعه ابن النجار : « لا تقوم الساعة حتىٰ يَغْلِبَ علىٰ مسجدي هٰذا الكلاب والذئاب والضباع ، فيمر الرجل ببابه فيريد أن يُصلي فيه ، فما يقدر عليه » .

وَروىٰ ابن أبي شيبة بسندٍ صحيح حديث : « أما والله لتدعنها مذللة أربعين عاماً للعوافي ، أتدرون ما العوافي ؟ الطير والسباع » . ورواه ابن زَبالة بنحوه .

وَروى الديلمي في « مسند الفردوس » : عن عوف بن مالك قال : « تخرب المدينة قبل يوم القيامة بأربعين سنة » .

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يجيء الثعلب فيربضَ علىٰ منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهضه أحد » .

وَروى ابن شبة حديث : « ليخرجن أهل المدينة منها ، ثم يعودون إليها ، ثم ليخرجن منها ، ثم لا يعودون إليها أبداً ، وليدعنها خير ما تكون مونقة » ، وروي أيضاً عن عمر رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

وقد مر في القسم الأول الترك الأول ، وهـٰذا هو الترك الثاني .

وسبب خرابها ـ والله أعلم ـ أنهم يخرجون مع المهدي إلى الجهاد ، ثم ترجف بمنافقيها وترميهم إلى الدجال ، ثم يبقىٰ فيها المؤمنون الخُلص ، فيهاجرون إلىٰ بيت المقدس .

فقد ورد : « ستكون هجرةٌ بعد هجرة ، وخِيَارُ الناس يومئذ ألزمهم مهاجر إبراهيم . . . » الحديث .

ومن بقي منهم تقبض الريح الطيبة ـ التي يأتي ذكرها ـ أرواحهم ، فتبقىٰ خاوية ، وهـٰذا سر خرابها قبل غيرها .

تَنبِـيه

رَوى المَرجاني في « أخبار المدينة » : عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « ليعودن هـٰذا الأمر ـ أي : الدِّين ـ إلى المدينة كما بدأ منها ، حتىٰ لا يكون إيمان إلاَّ بها . . . » الحديث .

ورَوى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه : « آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة » ، ورواه ابن حبان بلفظ : « آخر قرية في الإسلام خراباً المدينة » .

وصح : « إنَّ الدِّين ليأرز إلى المدينة ؛ كما تأرز الحية إلىٰ جحرها » .

وهـٰذه الروايات بحسب الظاهر تنافي الروايات السابقة ، وطريق الجمع بينها أن

الفتن تَعُمّ الدنيا كلها كما مر في خروج المهدي ، ويبقىٰ أهل المدينة مع المهدي ، فيأرز الدين إلى المدينة حينئذ ؛ لأنهم المؤمنون الكاملون التابعون للخليفة الحق ، فإنه إذا كان الإمام الحق موجوداً فمن لم يعرفه ، ولم يبايعه مات مِيتةً جاهلية ، فهـٰذا محط : « إن الدين ليأرز إلى المدينة » .

ثم إنها تنفي خبثها في زمن الدجال ، وتخرج منافقيها ويبقىٰ فيها الإيمان الخالص ، بخلاف بيت المقدس وغيرها من البلدان ؛ فإنه يبقىٰ فيهم أهل الذمة والمنافقون ؛ لأنهم إنما يؤمنون بعد نزول عيسىٰ عليه السلام ، وهـٰذا محط حديث جابر رضي الله عنه : « حتىٰ لا يكون إيمان إلاَّ بها » ؛ أي : إيمان خالصٌ لا يشوبه نفاق .

ثم إنه تجيء الريح الباردة ـ الآتية فيما بعد ـ ، فتقبض كل مؤمن ومؤمنة ، وإنها تأتي من الشام أو من اليمن ، أو من كليهما ؛ كما جُمِعَ به بين الروايتين ، ولا شك أن التي تأتي من الشام تبدأ بأهل الشام ، وأن التي تأتي من اليمن تبدأ بأهل اليمن ، فلا تنتهيان إلى المدينة إلا بعد هلاك أهل الإقليمين من المؤمنين ، فيكون آخر من يُقبض من المؤمنين أهل المدينة ، وهـٰذا محط حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي عند النسائي ، والترمذي ، وابن حبان المارّ .

ثم إنها حينئذ لا يكون بها غير المؤمنين ؛ لأنها تخلصت في زمن الدجال ، فبمجرد موتهم تخرب ، وتبقىٰ بقية الدنيا عامرة بشرار الناس ، وعليهم تقوم الساعة ، كما يأتي فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

وهـٰذا مما ظهر لي عند كتابتي لهـٰذا المحل ، ولعله ليس بعيداً عن الصواب ، ولم أقف في كلام أحدٍ عليه ، فإن يكن خطأً فهو مني لا من أحد ، ونسأل الله السداد .

وإنما ذكرته هنا وإن كان يصلح أن يذكر بعد طلوع الشمس من مغربها والدابة أيضاً ؛ لأن ابتداء خرابها بالخروج عنها كما دلت عليه الأحاديث ، والخروج يكون في زمن عيسىٰ عليه السلام ، فلهـٰذا ذكرناه هنا ، والله أعلم .

ومنها : بلوغ بناء المدينة سلعاً :

وهـٰذا وقع زمن الصَّحابة ، وهو واقعٌ اليومَ أيضاً ، وقد مرَّ حديثُه .

ومنها : بلوغ بنائها إهاب أو يهاب ؛ بالهمز أو الياء :

فقد ورد : « لا تقوم الساعةُ حتىٰ يبلغ البناء إهاب أو يهاب » وهو موضعٌ قريبٌ بالحرة العربيَّة . وهـٰذا قد كادَ أن يقع .

ومنها : مطرٌ لا تكنُّ منه بيوت الشعر :

فقد وردَ : « لا تقوم السَّاعة حتى يمطر بالمدينة مطر لا تكن منه بيوت المدر ، إنما تكنّ منه بيوت الشعر » .

وفي لفظٍ : « ولا يكنّ منه إلا بيوت الشعر » ، والله أعلم .

ومنها : خروج القحطاني[1] ، والجهجاه ، والهيثم ، والمقعد ، وغيرهم بعد عيسىٰ والمهدي عليهما السلام :

أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله تعالىٰ وسنتي ، ويموت ، فيستخلفون بأمر عيسىٰ رجلاً من بني تميم يقال له : المقعد ، فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتىٰ يُرفع القرآن من صدور الرجال ؛ أي : من صدور

---

(١) اختُلِفَ في أنَّ القحطاني والجهجاه واحدٌ ؛ كما حكى الحافظ (١٣/ ٦٢) عن القرطبي ، أو اثنان ، وأشار صاحب « علامة قيامة » إلى الوحدة ، وميل المُصنِّف إلى الثاني كما سيأتي قريباً .

ثم ظاهر ميل الحافظ إلىٰ أن القحطاني فاسقٌ ، ويظهر مما سيأتي من كلام المصنف أنه علىٰ سيرة المهدي . فتأمل .

وبذلك جزم ابن حجرفي « الفتاوى الحديثية » (ص٣٢) . هـٰذا وقد مضىٰ في سالف الزمان رجلٌ يُسمّىٰ : القحطاني في خلافة يزيد بن عبد الملك ، كان اسمه : يزيد بن المهلب كما في « الخميس » (٢/ ٣١٨) .

والجهجاه أيضاً له ذكر في « الخميس » (١/ ٤٧١) ، وذكر الحافظ في (١٣/ ١٧٠) ما يتعلق بالقحطاني أيضاً . (ز) .

بعضهم ، ويبدو النقص فيهم » ؛ ليوافق ما يأتي من بقاء الدين مدة مديدة بعد عيسىٰ عليه السلام .

وأخرج الطبراني عن علياء السلمي قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ يملك الناس رجل من الموالي يقال له : جهجاه » .

وروىٰ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لا تذهب الأيام والليالي حتىٰ يملك رجل يقال له : الجهجاه » .

وأخرج الشيخان عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » .

وأخرج الطبراني في « الكبير » ، وابن منده ، وأبو نُعيم ، وابن عساكر : عن قيس بن جابر ، عن أبيه ، عن جده : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون من بعدي خلفاء ، ومن بعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جَوراً ، ثم يؤمر القحطاني ، فوالذي بعثني بالحق ما هو دونه » .

وأخرج نُعيم بن حماد ، عن سليمان بن عيسىٰ قال : بلغني أن المهدي يملك أربع عشرة سنة ببيت المقدس ، ثم يموت ، ثم يكون من بعده رجلٌ من قوم تُبع يقال له : المنصور ؛ أي : وهو القحطاني ، يمكث ببيت المقدس إحدىٰ وعشرين سنة ، ثم يقتل ، ثم يملك رجلٌ من الموالي ويمكث ثلاث سنين ، ثم يقتل ، ثم يملك بعده هيثم المهدي ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام .

وأخرج نُعيم بن حماد : عن كعب قال : يموت المهدي ثم يلي الناس بعده رجل من أهل بيته فيه خيرٌ وشَرّ ، وشره أكثر من خيره ، يُغْضِبُ الناس يدعوهم إلى الفرقة بعد الجماعة ، بقاؤه قليل ، يثور به رجلٌ من أهل بيته فيقتله .

وأخرج أيضاً عن الزُّهري قال : يموت المهدي موتاً يصير الناس بعده في فتنة ، ويُقْبِلُ إليهم رجلٌ من بني مخزوم فيبايع له ، فيمكث زماناً ، ثم يُنادي مُنادٍ من السماء ليس بإنس ولا جان : بايعوا فلاناً ، ولا ترجعوا علىٰ أعقابكم بعد الهجرة . فينظرون

فلا يعرفون الرجل ، ثم يُنادي ثلاثاً ، ثم يُبايع المنصور ، فيسير إلى المخزومي فينصره الله عليه فيقتله ومن معه .

وأخرج أيضاً عن كعب قال : يتولىٰ رجل من بني مخزوم ، ثم رجلٌ من الموالي ، ثم يسير رجلٌ من العرب جسيم طويل عريض ما بين المنكبين ، فيقتل من لقيه حتىٰ يدخل بيت المقدس ، فيموت موتاً ، ثم تكون الدنيا شراً مما كانت ، ثم يلي بعده رجل من مضر ، يقتل أهل الصلاح ، ظلوم غشوم ، ثم يلي من بعد المضري اليماني القحطاني ، يسير بسيرة المهدي ، وعلىٰ يديه تفتح مدينة الروم .

وأخرج أيضاً عن الوليد ، عن معمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما القحطاني بدون المهدي ؟! » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « بعد الجبابرة الجابر ، ثم المهدي ، ثم المنصور ، ثم السلام ، ثم أمير العصب » .

وأخرج أيضاً عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : « ثلاثة أمراء يتوالون يفتح اللهُ الأرض كلها عليهم : صالح الجابر ، ثم المفرج ، ثم ذو العصب ، يمكثون أربعين سنة ، ثم لا خير في الدنيا بعدهم » .

وأخرج أيضاً عن كعب قال : « يكون بعد المهدي خليفة من أهل اليمن من قحطان أخو المهدي في دينه ، يعمل بعمله وهو الذي يفتح مدينة الروم ويصيب غنائمها » .

وأخرج أيضاً عن أرطاة قال : بلغني أن المهدي يعيش أربعين عاماً ، ثم يموت علىٰ فراشه ، ثم يخرج رجلٌ من قحطان مثقوب الأذنين علىٰ سيرة المهدي ، بقاؤه عشرين سنة ، ثم يموت قتيلاً بالسلاح ، ثم يخرج من بيت النبي صلى الله عليه وسلم مهديٌّ حسن السيرة يغزو مدينة قيصر ، وهو آخر أمير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يخرج في زمانه الدجال .

تَنبِيه

هٰذه الأحاديث أكثرها متعارضة ، وقد قال الفقيه ابن حجر في « القول المختصر » : الذي يتعين اعتقاده ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي

المنتظر الذي يخرج الدجال ، وعيسىٰ عليه السلام في زمانه ، ويُصلي عيسىٰ خلفه ، وأنه المراد حيث أُطْلِقَ المهدي ، والمذكورون قبله لم يصح فيهم شيء ، والذين بعده أمراء صالحون أيضاً لـٰكن ليسوا مثله ، فهو الأَخْيَر في الحقيقة . انتهىٰ

أقول : غاية ما يمكن في الجمع : أن المهدي الكبير هو الذي يفتح الروم ، ويخرج الدجال في زمنه ، ويُصلي عيسىٰ عليه السلام خلفه ، وأن الخلافة تكون له ولقريش من بعده ، وأن عيسىٰ عليه السلام لا يَسْلبُ قريشاً مُلكها رأساً ، وإنما تكون إليه المشورة وهو الحَكَمُ فيهم يعلمهم الدين ، ومر إشارةٌ إلىٰ ذلك ، ثم يلي بعد المهدي رجلٌ من أهل بيته في سيرته ، ويكون القحطاني مع المهدي في زمانه .

ومعنىٰ فتحه لمدينة الروم كما ورد عن كعب : أنه يكون أميراً على السرية التي يُرسلها المهدي إلىٰ فتح مدينة الروم ، فيفتحها في حال تابعيته لا في حال خلافته ومتبوعيته ، ثم يموت عيسىٰ عليه السلام ، ثم بعد عيسىٰ عليه السلام يتولىٰ باستخلافه المقعد ؛ وهو أيضاً من قريش ، فإذا مات تولىٰ من قريش من لا يحسن سيرته ، فيخرج عليه المخزومي ، ولعله الجهجاه ، ويدعو إلى الفُرقَة ، فيخرج عليه القحطاني بسيرة المهدي ؛ وهو الملقب بالمنصور ، وهو المراد : بـ« رجل من تبع » وبـ« رجل من اليمن » ، ويمكث إحدىٰ وعشرين سنة ، والذي قال : عشرين . ألغى الكسر ، ثم تنتقص الدنيا ويملك الموالي ، ويغلب الشر إلىٰ أن تطلع الشمس من المغرب ، والله أعلم .

ومن الأشراط العظام : هدم الكعبة ، وسَلبُ حُلِيها ، وإخراج كنزها :

أخرج الشيخان والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » .

وأخرج أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما نحوه ، وزاد : « ويَسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أُصَيلع أُفَيدع ، يضرب عليها بمسحاته ومعوله » .

وأخرج الأزرقي عنه : « يجيش البحر بمن فيه من السودان ، ثم يسيلون سيل النمل

حتىٰ ينتهوا إلى الكعبة فيخربونها ، والذي نفسي بيده إني لأنظر إلىٰ صفته في كتاب الله تعالىٰ ؛ أُفَيحج أُصَيلع أُفَيدع ، قائماً يهدمها بمسحاته » .

وأخرج الحاكم عن الحارث بن سويد قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : حجوا قبل أن لا تحجوا ، فكأني أنظر إلىٰ حبشي أصلع وأفدع ، بيده معول يهدمها حجراً حجراً ، فقلت له : شيء تقول برأيك أو سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسمة ، ولٰكني سمعته من نبيكم .

وفي « الصحيحين » : « كأني به أسود أفحج يهدمها حجراً حجراً » .

وفي حديث علي كرم الله وجهه عند أبي عُبيد في « غريب الحديث » : من طريق أبي العالية قال : استكثروا من الطواف بهٰذا البيت قبل أن يُحال بينكم وبينه ، فكأني برجلٍ من الحبشة أصلع ، أو قال : أصمع ، أحمش الساقين ، قاعد عليها وهي تُهدم .

ورواه الفاكهي من هٰذا الوجه ولفظه : « أصعل » بدل « أصلع » ، وقال : قائماً عليها يهدمها بمسحاته . ورواه يحيى الحِمّاني في « مسنده » من وجه آخر عن عليٍّ مرفوعاً ، ورواه الأزرقي عنه بنحوه .

تَنبِيه

(السويقتان) : تصغير الساقين ؛ أي : دقيق الساقين ؛ كما هو غالب في سوق الحبشة .

و(الأصلع) : من ذهب شعر مقدم رأسه ، و(الأُصيلع) : تصغيره .

و(الأفيدع) : تصغير (الأفدع) ؛ وهو من في يديه اعوجاج .

و(الأصعل) : الصغير الرأس ، و(الأصمع) : الصغير الأذنين ، وقيل : الكبير الأذن ، و(الأسود) واضح ، و(الأفحج) : المتباعد الفخذين .

قال في « فتح الباري » : ووقع في هٰذا الحديث عند أحمد من طريق سعيد بن سمعان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه بأتم من هٰذا السياق .

ولفظه : « يبايع لرجل بين الركن والمقام ، ولن يستحل هٰذا البيت إلاَّ أهله ، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ، ثم يجيء الحبشة فيخربونه خراباً لا يَعْمُر بعده أبداً ، وهم الذين يستخرجون كنزه » ، ورواه بهٰذا اللفظ الأزرقي في « تاريخ مكة » ، والحاكم وصححه .

وفي رواية عنه مرفوعاً : « لا يستخرج كنز الكعبة إلاَّ ذو السويقتين من الحبشة » .

تنبيه

قيل : هٰذا مخالفٌ لقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ ، ولأن الله رد عن مكة الفيل ولم يُمكِّن أصحابه من تخريب الكعبة ، ولم تكن إذ ذاك قبلة ، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين ؟

وأجيب : بأن ذلك محمول علىٰ أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة ، حتىٰ لا يبقىٰ في الأرض أحد يقول : الله الله وفيه : أنه يخالف ما يأتي عن كعب أنه يقع في زمن عيسىٰ .

والأولىٰ ما أشار إليه في « فتح الباري » ؛ وهو أن يقال : قد أشار صلى الله عليه وسلم إلى الجواب في الحديث بقوله : « ولن يستحل هٰذا البيت إلا أهله » ، ففي زمن أصحاب الفيل ما كان أهله استحلوه ، فمنعه الله منهم ، وأما الحبشة فلا يهدمونه إلاَّ بعد استحلال أهله له مراراً ، فقد استباحها أهل الشام في زمن يزيد بأمره ، ثم الحجاج في زمن عبد الملك بأمره ، ثم القرامطة بعد الثلاث مئة ، فقتلوا من المسلمين في المطاف ما لا يُحصىٰ ، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم ، وقد مر جميع ذلك في القسم الأول .

فلما وقع استحلاله من أهله مراراً أمكن الله غيرهم من ذلك أيضاً ، علىٰ أنه ليس في الآية استمرار إلا من المذكورين فيه .

خاتمة

اختلفوا في هدم الكعبة : هل هو في زمن عيسى[1] عليه السلام ، أو عند قيام الساعة حين لا يبقىٰ أحد يقول : الله الله ؟

---

(١) وبهٰذا جزم صاحب « الإحياء » كما في هامش « الإتحاف » (٤/٢٧٩) . (ز) .

فعن كعب رضي الله عنه : أنه في زمن عيسىٰ عليه السلام ، وكذا قال الحليمي ، وأن الصريخ يأتي عيسىٰ عليه السلام بذلك ، فيبعث إليه طائفة ما بين الثمانية إلى التسعة .

وقيل : هدمها في زمانه ، وبعد هلاك يأجوج ومأجوج يحج الناس ويعتمرون ؛ كما ثبت ، وأن عيسىٰ عليه السلام يحج أو يعتمر ، أو يجمعهما ، ولا ينافيه ما ورد : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يُحَج البيت » .

وفي لفظ : « استكثروا من الطواف بهٰذا البيت قبل أن يُرفع ؛ فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة » .

قال الحافظ ابن حجر : وجدت في كتاب « التيجان » لابن هشام : أنَّ عمر بن عامر كان ملكاً مُتوجاً ، وكان كاهناً مُعمراً ، وأنه قال لأخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا لما حضرته الوفاة : إن بلادكم ستخرب ، وإن لله في أهل اليمن سخطتين ورحمتين ، فالسخطة الأولىٰ : هدم سد مأرب ، وخراب البلاد بسببه .

والثانية : غلبة الحبشة على اليمن .

والرحمة الأولىٰ : بِعثَةُ نبي من تهامة اسمه محمد يرسل بالرحمة ، ويغلب أهل الشرك .

والثانية : إذا خرب بيت الله يبعث الله رجلاً يقال له : شعيب بن صالح ، فَيُهلك من خَرّبهُ ، ويخرجهم حتىٰ لا يكون في الدنيا إيمان إلا بأرض اليمن .

قال الحافظ : إن ثبت هٰذا عُلم منه اسم القحطاني وسيرته وزمانه . اهـ

قُلْتُ : ليس فيما ذكر أنَّ ذلك هو القحطاني ، ولم لا يجوز أن يكون شعيب بن صالح التميمي القادم بالرايات السود إلى المهدي ، وأنه يُرسله عيسىٰ عليه السلام إليه حين يأتيه الصريخ ؟ ويؤيده كون لقبه : المنصور ، وبتقدير أن يكون هو إياه ، فجائز أن يكون قبل خلافته ، ويكون فيمن أرسله عيسىٰ عليه السلام أميراً عليهم ، وكونه رحمة لأهل اليمن لا يلزم أن يكون منهم ، ويكفي في كونه رحمة لهم كونه يدفع الحبشة عنهم بحيث لا يبقىٰ إيمان إلاَّ باليمن ، ثم إنَّ الحجاز من اليمن ، ولذا يقال للكعبة يمانية ، ومنه يُعلم أن ليس في هٰذا دليلٌ علىٰ تأخر إيمان أهل اليمن عن أهل

المدينة حتىٰ يتعارض الحديثان ، **ويؤيد ذلك** : أن المراد باليمن الحجاز ؛ لأن الخلافة حينئذ تكون بالأرض المقدسة لا باليمن ، والله أعلم .

وأيما كان فهٰذا أيضاً يدل علىٰ تقدم هدمها علىٰ موت المؤمنين .

ولٰكن يبقى احتمال أن يكون بعد الدابة ؛ لما مر أنها تخرج ليلة المزدلفة ، وأنها تطوف على الناس بمنىٰ ، إلا أن يقال إنها تحج بعد خرابها أو هدمها ، وأن مكة تبقىٰ معمورة بعدها .

وقيل : إن هدمها بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة حتىٰ ينقطع الحج ، ولا يبقىٰ في الأرض من يقول : الله الله .

ويؤيد هٰذا : أن زمن عيسىٰ عليه السلام كله زمن سِلْمٍ وخير وبركة وأمن ، وأنها قبلة المسلمين والحج إليها أحد أركان الدين ، فينبغي أن تبقىٰ ببقاء المسلمين ، وأنها تهدم مع رفع القرآن ، وسنشير إليه ثَمَّ أيضاً إن شاء الله تعالىٰ .

فائـِدَة

قال الفقهاء : إذا هدمت الكعبة ـ والعياذ بالله ـ فَعَرصَتُهَا بمنزلتها ، فمن صلىٰ خارجها جاز استقبالها مُطلقاً ولو كان أعلىٰ منها ؛ كمن صلىٰ علىٰ أبي قُبيس ، ومن صلىٰ فيها لا بد وأن يستقبل شاخصاً قدر ثلثي ذراع إلىٰ ذراع من بنائها ، أو ما لحق بذلك ؛ كعصاً مُسَمّرة ، أو شجرة نابتة ولو يابسة ، أو تراب منها مجتمع ، أو حجر منها ، أو حفرة ينزل فيها مقدار ما ذكر ، وإلا فلا تصح صلاته .

وكذا الطواف يجب أن يكون خارجها ، وبالله التوفيق .

تَـذْنيبٌ

يناسب ذكره المقام ، نورده تتميماً للفائدة

في « مسند الروياني » : عن أبي ذر رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيكون رجل من قريش أخنس يلي سُلطاناً ، ثم يُغلب عليه ـ أو : يُنْزَعُ منه ـ فيفر إلى الروم ، فيأتي بهم إلى الإسكندرية ، فيقاتل أهل الإسلام بها ، فذلك أول الملاحم » .

وفي رواية عنه : « سيكون بمصر رجلٌ من بني أمية أخنس » ، بنحوه .

وروىٰ نُعيم بن حماد : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « يقاتلكم أهل الأندلس بوسيم ، فيأتيكم مددكم من الشام فيهزمهم الله » .

وعن عمر رضي الله عنه : أنه قال لرجل من أهل مصر : ليأتينَّكم أهل الأندلس فيقاتلونكم بوسيم حتىٰ تركض الخيل في الدم ؛ يهزمهم الله ، ثم تأتيكم الحبشة في العام الثاني .

وأخرج أيضاً عن أبي قبيل قال : خرج يوماً وردان من عند مسلمة بن مخلد وهو أمير علىٰ مصر ، فمر علىٰ عبد الله بن عمرو مستعجلاً ، فناداه فقال : أين تريد ؟ فقال : أرسلني الأمير إلىٰ مَنَفْ فأحفر له كنز فرعون . قال : فارجع إليه ، وأقرئه مني السلام ، وقل له : إن كنز فرعون ليس لك ، ولا لأصحابك ، إنما هو للحبشة ، يأتون في سفنهم يريدون الفسطاط ، فيسيرون حتىٰ ينزلوا منفاً ، فيظهر الله لهم كنز فرعون ، فيأخذون منه ما شاؤوا ، فيقولون : ما نبغي غنيمة أفضل من هٰذه . فيرجعون ويخرج المسلمون في آثارهم حتىٰ يدركوهم ، فيهزم الله الجيش ، فيقتلهم المسلمون ، ويأسرونهم . أخرجها الحافظ السيوطي في جزءٍ له .

وقال في « أزهار العروش في أخبار الحبوش » : أخرج الحاكم في « المستدرك » من طريق عبد الله بن صالح : حدثني الليث : حدثني أبو قبيل : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن رجلاً من أعداء المسلمين بالأندلس يقال له : ذو العرف ، يجمع من قبائل الشرك جمعاً عظيماً ، يعرف من بالأندلس أن لا طاقة لهم ، فيهرب أهل القوة من المسلمين في السفن فيجيزون إلىٰ طنجة ويبقىٰ ضعفة الناس وجماعتهم ليس لهم سفنٌ يجيزون عليها ، فيبعث الله وَعْلاً وينشره لهم في البحر ، فيجيز الوعل لا يغطي الماء أظلافه ، فيراه الناس فيقولون : الوعل الوعل ؛ اتبعوه . فيجيز الناس علىٰ أثره كلهم ، ثم يصير البحر علىٰ ما كان عليه ، ويجيز العدو في المراكب ، فإذا حستهم أهل إفريقية هربوا كلهم من أفريقية ومعهم من كان بالأندلس من المسلمين حتىٰ يدخلوا الفسطاط ، وَيُقْبِل ذلك العدو حتىٰ ينزلوا فيما بين ترنوط إلى الأهرام مسيرة خمسة بُرُد ، فيملؤون ما هناك شراً ، فتخرج إليهم راية المسلمين على الجسر فينصرهم الله

عليهم ، فيهزمونهم ويقتلونهم إلىٰ لوعة مسيرة عشر ليال ، ويستوقد أهل الفسطاط بعجلهم وأوانيهم سبع سنين ، وينفلت ذو العرف من القتل ومعه كتابٌ لا ينظر فيه إلاَّ وهو منهزم ، فيجد فيه ذكر الإسلام ، وأنه يؤمر فيه بالدخول في السلم ، فيسأل الأمان علىٰ نفسه وعلىٰ من أجابه إلى الإسلام من قومه ، فيسلم .

ثم يأتي في العام الثاني رجلٌ من الحبشة يقال له : أسيس ، وقد جمع جمعاً عظيماً ، فيهرب المسلمون منهم من أسوان حتىٰ لا يبقىٰ فيها ولا فيما دونها أَحدٌ من المسلمين إلا دخل الفسطاط ، فينزل أسيس بجيشه منف ، فتخرج إليهم راية المسلمين على الجسر فينصرهم الله عليهم ، فيقاتلونهم ويأسرونهم حتىٰ يباع الأسود بعباءة . قال الحاكم : موقوفٌ صحيح الإسناد . اهـ

وفي هـٰذا الحديث إشكال ؛ وهو أن واقعة ذي العرف المذكورة لم تقع إلى الآن ، وإلا لكان ذكر في التواريخ ، وإن قلنا إنها ستقع فيما سيأتي يُشكُل عليه أن الأندلس ليس بها إذ ذاك ، بل ولا اليوم مسلم ، فكيف يهربون في السفن وغيرها ؟ وقد يقال : يمكن أن يكون هناك مسلمون قد أقروا على الجزية ، وإذا آن الأوان هربوا .

ويقربه : أن في هـٰذه الأعصر قدمت طائفة من المسلمين من الأندلس في المراكب إلىٰ طنجة ؛ وهي نهرٌ في بلاد الروم عليها مدينة أدرنه . فيسمون : المنجل ، فيمكن أن يكون لهم هناك بقايا ضعفة إذا أراد الله تعالىٰ أجازهم البحر .

ويمكن أن يقال : إن هـٰذا إنما يقع بعد موت المهدي ، وتناكص الدين ، ورجوع الناس إلى الشرك ، وأن مصر إذ ذاك لكون الخلفاء ببيت المقدس تكون عامرة بالإسلام ، فيكون قُبَيل هدم البيت أو بعده علىٰ ما سبق من الخلاف في وقته ، وبالله التوفيق .

لـٰكن في « التذكرة » للقرطبي : أن أولـٰئك أولياء المهدي وأتباعه ، وأن المحل الذي يمشي فيه الوعل جسرٌ بناه ذو القرنين لهـٰذا الأمر ، وأنه إذا جاء أوانه مروا عليه . والله أعلم بحقيقة الحال .

ومن الأشراط العظام : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الأرض :

وهٰذان أيهما سبق الآخر فالآخر علىٰ أثره ، فإن طلعت الشمس قبل خرجت الدابة ضحىٰ يومها أو قريباً من ذلك ، وإن خرجت الدابة قبل طلعت الشمس من الغد .

أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعَبدُ بن حُميد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي ؛ كلهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول الآيات خُروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحىً ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرىٰ علىٰ أثرها .

قال عبد الله ـ وكان يقرأ الكُتُب ـ : وأظن أولهما خروجاً طلوع الشمس من مغربها .

وقال أبو عبد الله الحاكم : والذي يظهر أن طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدابة .

قال الحافظ ابن حجر معتمداً لما قاله الحاكم : ولعل الحكمة في ذلك أن بطلوع الشمس من مغربها ينسد باب التوبة ، فتجيء الدابة ، فتميز بين المؤمن والكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة . اهـ

فلنبدأ بطلوع الشمس من المغرب :

ونقول : أما طلوع الشمس من مغربها : فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ ، أجمع المفسرون أو جمهورهم علىٰ أنه طلوع الشمس من مغربها .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ .

وروى الفريابي ، وعَبدُ بن حُميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ : عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ قال : طلوع الشمس والقمر من مغربهما مقترنين كالبعيرين القرينين ، ثم قرأ : ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ .

وروىٰ عبد الرزاق ، وأحمد ، وعَبدُ بن حُميد ، والستة غير الترمذي ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها » ، ثم قرأ الآية .

وروى ابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال : تَطُول تلك الليلة حتىٰ تكون قدر ليلتين » .

وروىٰ هو ، وابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : « آية تلكم الليلة أن تطول قدر ثلاث ليال » ، والقليل لا ينافي الكثير .

وفي رواية البيهقي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ : « قدر ليلتين أو ثلاث ، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ، ويعملون كما كانوا ولا يرىٰ قد قامت النجوم مكانها ، ثم يرقدون ، ثم يقومون ، ثم يقضون صلاتهم والليل كأنه لم ينقض فيضطجعون ، حتىٰ إذا استيقظوا والليل مكانه حتىٰ يتطاول عليهم الليل ، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم ، ففزع الناس وهاج بعضهم في بعض فقالوا : ما هـٰذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا أصبحوا طال عليهم طلوع الشمس ، فبينما هم ينتظرون طلوعها من المشرق إذا هي طلعت عليهم من مغربها ، فضج الناس ضجةً واحدة ، حتىٰ إذا صارت في وسط السماء رجعت فطلعت من مطلعها » .

وروىٰ أبو الشيخ ، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هـٰذه الأمة قردة وخنازير ، وتطوى الدواوين ، وتجف الأقلام ؛ لا يزاد في حسنة ، ولا ينقص من سيئة ، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » .

وروى البيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « فيذهب الناس فيتصدقون بالذهب الأحمر فلا يُقْبَلُ منهم ويقال : لو كان بالأمس » .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لا تزال الشمس تجري من مطلعها إلىٰ مغربها حتىٰ يأتي الوقت الذي جعل الله لتوبة عباده ، فتستأذن الشمس من أين تطلع ، ويستأذن القمر من أين يطلع ، فلا يُؤذن لهما ، فيحبسان مقدار ثلاث ليال للشمس ، وليلتين للقمر ، فلا يَعْرِفُ مقدار حبسهما إلا قليلٌ من الناس ، وهم بقية أهل الأرض ، وحملة القرآن ، يقرأ كل رجلٍ في تلك الليلة منهم ورده ، حتىٰ إذا فرغ منه نظر ؛ فإذا الليلة علىٰ حالها ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا حملة القرآن فينادي بعضهم بعضاً ، فيجتمعون في مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ، ومقدار تلك الليلة ثلاث ليال ، يرسل الله جبريل إلى الشمس والقمر فيقول : إن الرب تعالىٰ يأمركما أن ترجعا إلىٰ مغاربكما فتطلعا منها ؛ فإنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور . فيبكي الشمس والقمر من خوف يوم القيامة وخوف الموت ، وترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغاربهما ، فبينما الناس كذلك يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل والغافلون في غفلاتهم إذ نادىٰ مُنادٍ : ألا إن باب التوبة قد أُغْلِق ، والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما . فينظر الناس وإذا بهما أسودان كالعكمين ولا ضوء لهما ولا نور ، فذلك قوله : ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾ » .

تَنبِيه

(العكمة) : الغرارة ؛ أي : كالغرارتين العظيمتين ، ومنه يقال لمن يشد الغرائر على الجمل : العكام ، وفي حديث أم زرع : « عكومها رداح » .

« فيرتفعان مثل البعيرين المقرونين ينازع كل منهما صاحبه استباقاً ، ويتصايح أهل الدنيا ، وتذهل الأمهات عن أولادها ، وتضع كل ذات حملٍ حملها .

فأما الصالحون والأبرار : فإنهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة .

وأما الفاسقون والفجار : فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب عليهم حسرة .

فإذا بلغت الشمس والقمر سُرَّةَ السماء ؛ وهو منتصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما فردهما إلى المغرب ، فلا يغربهما في مغاربهما ـ أي : مغارب طلوعهما ذلك اليوم ؛ وهو جهة المشرق ـ ولـٰكن يغربهما في مغاربهما الذي في باب التوبة » .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : وما باب التوبة ؟ فقال : « يا عمر ؛ خلق الله باباً للتوبة خلف المغرب ، فهو من أبواب الجنة ، له مصراعان من ذهب ، مكللان بالدر والجواهر ، ما بين المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرع ، فذلك الباب مفتوحٌ منذ خلق الله خلقه إلىٰ صبيحة تلك الليلة ، عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ، ولم يتب عَبْدٌ من عباد الله توبةً نصوحاً من لدن آدم إلىٰ ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب ، ثم تُرْفَعُ إلى الله » .

فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ وما التوبة النصوح ؟ قال : « أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب ، فيهرب إلى الله منه ، ثم لا يعود إليه حتىٰ يعود اللبن في الضرع » .

قال : « فيغربهما جبريل في ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، فيلتئم ما بينهما ويصيران كأنهما لم يكن فيهما صدع قط ولا خلل ، فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلا ما كان قبل ذلك فإنه يجري لهم وعليهم بعد ذلك ما كان يجري لهم قبل ذلك ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ﴾ . . . الآية » .

فقال أُبي بن كعب : يا رسول الله ؛ فداك أبي وأمي ، فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك ؟ وكيف بالناس والدنيا ؟ قال : « يا أُبيّ ؛ إن الشمس والقمر يكسبان بعد ذلك ضوء النور ، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس : فإنهم حين رأوا ما رأوا من تلك الآية وعظمها ، يلحون على الدنيا فيعمرونها ويجرون فيها الأنهار ، ويغرسون فيها الأشجار ، ويبنون فيها البنيان ، فأما الدنيا : فإنه لو نتج رجلٌ مهراً لم يركبه حتىٰ تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلىٰ يوم ينفخ في الصور » .

فائـدَة

قال الفقهاء : تلك الليلة عن ليلتين ويوم ، فيقضي خمس صلوات ؛ لأن الليلة الأولىٰ ما فيها صلاة ؛ لأن الفرض أنهم ناموا بعد فعل العشاءين ، والليلة الثانية مع

اليوم فيها خمس صلوات ، فتقضىٰ قياساً علىٰ أيام الدجال بجامع الطول ، كما قاسوا يوميه الأخيرين علىٰ يومه الأول .

وعلىٰ هـٰذا : فمن نام عن صلاته فعليه مع قضاء الخمس قضاء ما نام عنه ، وهو واضح ، ويدخل وقت صلاة الصبح يوم طلوعها من مغربها بطلوع الفجر ، وصلاة الظهر برجوعها عن وسط السماء فإنه بمنزلة الزوال ، والعصر والمغرب والعشاء كبقية الأيام ، وبالله التوفيق .

تَنبـيْه

رَوىٰ ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « الأشرار بعد الأخيار عشرين ومئة سنة » ، كذا في الأصل المنقول عنه ، فيحتمل أن الناصب سقط ، وأن يُقدر بدليل الروايتين بعدها ؛ فتمكث ، أو تبقىٰ .

وروى عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومئة سنة » .

ورویٰ عبدُ بن حُميد عنه أيضاً قال : « يبقىٰ شرار الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومئة سنة » .

ورویٰ نُعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد العرب ما كان يَعْبدُ آباؤهم عشرين ومئة عام بعد نزول عيسى ابن مريم وبعد الدجال » .

ورویٰ عَبدُ بن حُميد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتىٰ يلتقي الشيخان الكبيران ، فيقول أحدهما لصاحبه : متىٰ ولدت ؟ فيقول : زمن طلعت الشمس من مغربها » .

ورویٰ هو وابن أبي شيبة ، وابن المنذر عنه قال : « الآيات كلها في ثمانية أشهر » .

وأخرجوا غير ابن أبي شيبة عن أبي العالية ، قال : « الآيات كلها في ستة أشهر » .
ومَرَّ : « لو أن رجلاً نتج مهراً لم يركبه حتىٰ ينفخ في الصور » .

قال في « فتح الباري » وتبعه في « القناعة » : وطريق الجمع بين الروايات أن المدة

كما في الروايات الأول عشرون ومئة سنة ، لـٰكنها تمر مراً سريعاً كمقدار عشرين ومئة شهر ، كما في « صحيح مسلم » : عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه : « لا تقوم الساعة حتىٰ تكون السنة كالشهر » . . . الحديث ، وفيه : « اليوم كالساعة ، والساعة كاحتراق السعفة » . اهـ

وعلىٰ هـٰذا : فيكون تقارب الزمان وتقاصر الأيام مرتين ، مرةً في زمن الدجال ، ثم ترجع بركة الأرض وطول الأيام إلىٰ حالها الأولىٰ ، ثم تتناقص بعد موت عيسىٰ عليه السلام إلىٰ أن تصير في آخر الدنيا إلىٰ ما ذكر .

وهـٰذا تنبيهٌ حسن لم أر من نبه عليه ، وبالله التوفيق .

وأقول : ما قالاه يقتضي أن تكون المدة مقدار اثنتي عشرة سنة من سنينا ، فالإشكال بحاله ؛ لأن المهر قد يركب في سنتين ، وبتسليم ذلك وتمحل أن المراد الركوب للكر والفر في الحرب ، وذلك في الخيل الأصيل لا يكون إلا في العشر وما بعدها ، ولا يمكن الجمع بينها وبين رواية ثمانية وستة أشهر .

وأيضاً ينافيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه المار عند عَبد بن حُميد ؛ مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتىٰ يلتقي الشيخان الكبيران . . . » الحديث ، إلا أن يقال : إن كِبَرَ أهل ذلك الزمان علىٰ حسب سنيهم ، وعليه فَيُقدرُ إنتاج المهر وركوبه في السنين المعتادة ، والأولىٰ أن يُجمع بأن المدة القليلة بالنظر لبقاء المؤمنين ، والمئة والعشرون للكفار والأشرار ؛ كما تصرح به الروايات السابقة : « الأشرار بعد الأخيار » .

مع هـٰذا لا بد من القول بتقاصر الزمان ؛ ليكون أربعون سنة الواقعة في حديث ابن مسعود السابق في بقاء المؤمنين مقدار أربعين شهراً ، فيكون التقدير بإنتاج المهر وركوبه واضحاً .

ومعنىٰ : « تقوم الساعة » علىٰ هـٰذا : أنها تقوم على المؤمنين بموتهم ، ونظيره ما في البخاري : أن رجلاً سأله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فنظر إلىٰ أحدث القوم سناً فقال : « إن يستنفد هـٰذا عمره لم يمت حتىٰ تقوم الساعة » .

قال العلماء : أراد ساعة الحاضرين ، لا ساعة عامة الخلق .

ولـٰكن رواية الثمانية أشهر ، والستة أشهر ، فيجب ـ إن صحتا ـ تأويلهما قطعاً .

تَنبِيهٌ آخَر

اختلفوا : هل إذا كان كذلك ، وامتدت الدنيا بعد ذلك إلىٰ أن يُنسىٰ هـٰذا الأمر ، أو ينقطع تواتره ، ويصير الخبر عنه آحاداً ، فمن أسلم حينئذ وتاب تُقْبَلُ منه أم لا ؟

ذكر أبو الليث السمرقندي في « تفسيره » : عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : إنما لا يقبل الإيمان والتوبة وقت الطلوع ، فمن أسلم أو تاب بعد ذلك قُبِلت توبته .

قال الحافظ في « فتح الباري » ما حاصله : إن الذي دلت عليه الأحاديث الثابتة الصحاح والحسان أن قبول التوبة مَلغِيٌّ بطلوع الشمس من مغربها ، ومفهومها : أن بعد ذلك لا تقبل ، بل وفي بعض الروايات التصريح بعدم القبول .

كما عند أحمد ، والطبراني : عن مالك بن يخامر ، ومعاوية ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمرو ؛ رفعوه : « لا تزال التوبة مقبولة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت طبع علىٰ كل قلب بما فيه ، وَكُفي الناس العمل » .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن مردويه السابق : « فإذا أُغْلِقَ ذلك الباب لم تقبل بعد ذلك توبة ، ولا تنفع حسنة » .

وعند نُعيم بن حماد ، عن ابن عمرو رضي الله عنهما : « فيناديهم مُنادٍ : يا أيها الذين آمنوا ؛ قد قُبِلَ منكم ، ويا أيها الذين كفروا ؛ قد أُغْلِقَ عنكم باب التوبة ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف » .

ومن طريق يزيد بن شريح ، وكثير بن مرة : « إذا طلعت الشمس من المغرب يُطبع على القلوب بما فيها ، وترتفع الحفظة ، وتؤمر الملائكة أن لا يكتبوا عملاً » .

وأخرج عَبدُ بن حُميد ، والطبري بسندٍ صحيح عن عائشة رضي الله عنها : « إذا خرجت أول الآيات ـ يعني : طلوع الشمس من المغرب ـ طُرِحت الأقلام ، وطويت الصحف ، وخلصت الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « الآية التي تختم بها الأعمال : طلوع الشمس من مغربها » .

قال : فهٰذه آثارٌ يَشُدُّ بعضها بعضاً متفقةٌ علىٰ أن الشمس إذا طلعت من المغرب أغلق باب التوبة ولم يُفتح بعد ذلك ، ولا يختص ذلك بيوم طلوعها ، بل يمتد إلىٰ يوم القيامة .

قُلْتُ : ويؤيد هٰذا ما يأتي في الخاتمة : أن إبليس يخر عند طلوعها ساجداً ، وأن الدابة تقتله ؛ فإنه لا يموت إبليس إلا وقد فُرِغ من العمل .

تنبيه آخر

ورد في بعض الروايات : أن أول الآيات[1] خروج الدجال . وفي بعضها : أن أولها طلوع الشمس من مغربها . وفي بعضها : الدابة . وفي بعضها : نارٌ تحشر الناس إلىٰ محشرهم .

قال الحافظ ابن حجر : وطريق الجمع : أن الدجال أول الآيات العظام المُؤذِنة بتغيير أحوال العامة في الأرض ؛ أي : فلا ينافي تقدم المهدي عليه .

قال : وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم عليه السلام ، ومِنْ بَعْدِه القحطاني وغيره ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ؛ أي : والدابة معها ، فهي والشمس كشيء واحد ، وأن النار أول الآيات المؤذنة بقيام الساعة . انتهىٰ

وهٰذا جَمعٌ حسن رحمه الله تعالىٰ .

---

(١) وذكر صاحب « درجات مرقاة الصعود » (ص١٨٤) ترتيبها هٰكذا ، فقال : ذكر القرطبي عن بعض العلماء ترتيبها هٰكذا : أولها : الخسوفات ، فالدجال ، فنزول عيسىٰ عليه السلام ، فخروج يأجوج ومأجوج ، فريح تقبض أرواح المؤمنين ، فتقبض روح عيسىٰ عليه السلام مع من معه ، فتهدم الكعبة ، ورفع القرآن ، واستيلاء الكفر على الخلق ، فتطلع الشمس من مغربها ، فتخرج الدابة .

وذكر البيهقي عن الحاكم مثله ، إلا أنه جعل خروج الدابة قبل طلوع الشمس . ثم ذكر إيراد أهل الهيئة أنه لا يمكن ، وأجاب عنه إلخ .

قلت : ينبغي خروج الدابة قبل الريح القابضة كما لا يخفىٰ أنها هي تَسِمُ المؤمن والكافر ، فإذا لم يبق مؤمن لأجل الريح فمن تَسِمهُ ؟! (ز) .

ويدل علىٰ ذلك ما في بعض الروايات : « وآخر ذلك ـ يعني : الآيات ـ نارٌ تحشر الناس إلىٰ محشرهم » .

ورَوىٰ نُعيم عن وهب بن منبه قال : أول الآيات : الروم ، ثم الدجال ، والثالثة يأجوج ومأجوج ، والرابعة عيسىٰ عليه السلام .

أي : وكون عيسىٰ عليه السلام رابعة باعتبار تأخره عن يأجوج ومأجوج ، وإن كان باعتبار وقت نزوله مُقدّماً عليهما فهو باعتبارٍ ثالث ، وباعتبار آخر رابع .

والخامسة : الدخان ، وسيأتي بيانه وتفصيله .

والسادسة : الدابة ؛ أي : وَعَدُّه هـٰذا باعتبار الآيات الأرضية ، ومن ثم لم يعد طلوع الشمس ، فهو أيضاً يؤيد ما ذكره الحافظ ، لـٰكن لو قال : وينتهي ذلك بخروج الدابة بدل قوله : بموت عيسىٰ عليه السلام لكان أولىٰ وأوضح ، وكون الروم أولاً حقيقي ، وكون الدجال أولاً إضافي ؛ لأنه أعظم من الروم ، وكأن الروم بالنظر إليه ليس بشيء .

تَبْصِرَة

قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ : فيه بحسب الظاهر إشكال .

وتقريره : أن قوله : ﴿ لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ صفة لـ(نفساً) فصل بينها وبين موصوفها بالفاعل .

وقوله : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ ﴾ ، عطف على الصفة .

فيكون المعنىٰ : إذا جاء بعض الآيات لا ينفع الإيمان نفساً ، موصوفةً بأحد الأمرين :

عدم الإيمان ، ويلزمه عدم كسب الخير فيه .

وعدم كسب الخير في الإيمان ولو وجد الإيمان واتصفت به .

وهـٰذا إنما يتأتىٰ علىٰ مذهب الاعتزال ، وأهل السُّنَّة لا يقولون بذلك .

ومن ثم قال صاحب « الكشاف » . لم يفرق كما ترىٰ بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان ، وبين النفس التي آمنت في وقتها ولم تكتسب خيراً ؛ ليعلم أن قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ جَمعٌ بين قرينتين ، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرىٰ حتىٰ يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة والهلاك . انتهىٰ كلام « الكشاف » .

وأشار البيضاوي لظهور دلالة الآية لهٰذا المعنىٰ ؛ فقال : والمعنىٰ أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها ، أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً ، وهو دليل لمن لا يعتبر الإيمان المجرد عن العمل ؛ أي : بل يجعل العمل جزءاً من أصل الإيمان وحقيقته كالمعتزلة ، لا من يجعله جزءاً من كماله ، وزيادته كجمهور أهل السُّنَّة وعامة أهل الحديث وأكثر الأئمة .

ثم أشار البيضاوي إلى الجواب عن ذلك بثلاثة أجوبة اختصاراً ؛ فقال : وللمُعْتبِر ؛ أي : لمن يعتبر الإيمان المجرد عن العمل تخصيص هٰذا الحكم بذلك اليوم ، وحمل الترديد على اشتراط النفع بأحد الأمرين علىٰ معنىٰ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا ﴾ خلت عنها إيمانها ، والعطف علىٰ ﴿ لَمْ تَكُنْ ﴾ بمعنىٰ لا ينفع نفساً إيمانها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً . انتهىٰ

وتقرير كلامه : أنا نُجِيبُ أولاً : بأنا نُسَلِّم أن المعنىٰ كذلك لٰكن نَخُصُّ الحكم بذلك اليوم ، ولا نعممه بجميع الأزمنة ؛ فمن مات مؤمناً قبل ذلك اليوم نفعه إيمانه وإن لم يكن كسب فيه خيراً ولم يعمله ، ومن أدرك ذلك اليوم : إن قدم الإيمان عليه ، وكسب فيه خيراً نفعه ، وإلا ؛ بأن لم يقدمه أو قدمه من غير كسب خير فيه فلا .

هٰذا حاصل الجواب الأول ، وفيه أن العمومات دلت علىٰ أن الإيمان المجرد نافعٌ في جميع الأحوال والأوقات .

وحاصل الجواب الثاني : أن (أو) تكون تارة لعموم النفي ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ؛ أي : واحداً منهم ، وأخرىٰ لنفي العموم وذلك إذا قدر عطف النفي على النفي ، ثم جيء بـ(أو) والآية من الأول ، فالمعنىٰ : لا ينفع نفساً لم تقدم

إيماناً ولا كسبت فيه خيراً ؛ أي : نفساً خالية من الأمرين جميعاً ، عارية عنهما ، وعليه اقتصر أبو السعود في « تفسيره » .

واعترض هـٰذا الوجه بأن انتفاء الإيمان مُستلزمٌ لانتفاء كسب الخير فيه ، فلا وجه للترديد بينهما .

وأجاب عنه أبو السعود بأجوبة ، وأطال فيها الكلام ، وكلها مخدوشة ، وهي بالنكات البيانية الخطابية أشبه منها بالأجوبة .

وأقربها : قوله : ولك أن تقول المقصود من وصف نفساً بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة في تمردهم وتفريطهم في كل واحدٍ من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوب أحدهما منوطاً بالآخر ؛ كما في قوله عز وجل : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ تسجيلاً علىٰ كمال طغيانهم ، وإيذاناً بتضاعف عقابهم ؛ لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذة ؛ كما يُنبيء عنه قوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ اهـ

وهـٰذا الذي قاله قريبٌ ، لـٰكنه خلاف مذهبه ، فإن الكفار عندهم غير مكلفين بالفروع ، والله أعلم .

وحاصل الجواب الثالث من **أجوبة البيضاوي** : أنَّا لا نعطف ﴿ أَوْ كَسَبَتْ ﴾ علىٰ ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ كما في الوجهين الأولين حتىٰ يلزم دخول الأمرين في حيز النفي ، بل نعطفه على النفي نفسه ، أعني : ﴿ لَمْ تَكُنْ ﴾ ، فيكون الترديد بين النفي والإثبات لا بين المنفيين

فالمعنىٰ : لا ينفع نفساً لم تقدم إيماناً علىٰ ذلك اليوم إيمانها ، سواء لم تؤمن أصلاً ؛ لأنه يصدق علىٰ من لا يؤمن أنه لا ينفعه الإيمان ؛ لأن النفع فرع الوجود ، فإذا انتفىٰ انتفىٰ نفعه أيضاً . أو أحدثته ذلك اليوم وكسبت فيه خيراً أيضاً ؛ لأن الإيمان شرطه أن يكون بالغيب ، فإذا صار الأمر معاينة لم ينفعها . وهـٰذا هو معنىٰ قول البيضاوي : بمعنىٰ لا ينفع نفساً إيمانها الذي أحدثته وإن كسبت فيه خيراً .

فانظر إلىٰ هـٰذا السحر الحلال : كيف أدرج رحمه الله ثلاثة أجوبة في مقدار

سطرين ، وغيره سود وجه ورقة كاملة بجوابٍ واحد ولم يقدر علىٰ بيانه حق البيان!! قال صلى الله عليه وسلم : « إنّ من البيان لسحراً ، وإنَّ من الشعر لحكمة » . ولا شك أن التأييد والهداية من الرحمن ؛ فإنه الذي : ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ .

ثم لما كان كلٌّ من الجوابين الأولين فيه ما مر ، والثالث فيه خَفاءٌ وفي دلالة الكلام عليه بعد اختيار جَمْعٍ من المحققين ـ كالعلامة التفتازاني ، وابن الحاجب ، وصاحب « الانتصاف » ، وابن هشام ، وعليه اقتصر المحقق الكوراني في « تفسيره » ـ جواباً آخر غير الثلاثة ، وهو أن الآية من قبيل اللف التقديري ؛ أي : لا ينفع نفساً إيمانها ، ولا كسبها في الإيمان لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً .

والمعنىٰ : أن الناس في التوبة قسمان ؛ قسمٌ تائب عن الكفر ، وقسمٌ عن المعاصي ، فالكافر إن قدم الإيمان علىٰ ذلك اليوم قُبل منه ونفعه إيمانه بعد ذلك اليوم أيضاً ، وإلا فلا ، والعاصي إن تاب عن المعصية قبل ذلك قُبِلت منه ونفعته بعد ذلك اليوم أيضاً ، وإلا فلا قبول ولا نفع .

وهـٰذا هو معنىٰ ما مر في الحديث : أنهم يجري لهم وعليهم بعد ذلك اليوم ما كانوا يعملون قبل ذلك اليوم .

قال صاحب « الانتصاف » : هـٰذا الفن من الكلام في البلاغة يُلقب باللف التقديري ، وأصله : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن مؤمنة من قبل إيمانها بعد ، ولا نفساً لم تكتسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد ، فلف الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً ؛ اختصاراً وإيجازاً وبلاغة .

قال : فظهر بذلك أنه لا يُخالف مذهب أهل الحق ، ولا ينقطع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ؛ أي : في النوع الذي كان يعمله قبل ، لا في مطلق الخير ؛ لئلا يُخالف ما مر ، وأن نفع الإيمان المتقدم باقٍ في السلامة من الخلود في النار .

وقال : فهو بالرد علىٰ مذهب الاعتزال أولىٰ من أن يدل له .

وقال ابن هشام : بهـٰذا التقدير تندفع هـٰذه الشبهة .

قال : وقد ذكر هـٰذا التأويل ابن عطية ، وابن الحاجب . اهـ

واعترض أبو السعود هـٰذا الجواب : بأن مبنى اللف التقديري أن يكون المقدر من مُتممات الكلام ومُقتضيات المقام ، وقد ترك ذكره تعويلاً علىٰ دلالة الملفوظ عليه ، واقتضائه إياه ، ولا ريب في أن ما هنا ليس مما يستدعيه قوله : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ ، ولا هو من مقتضيات المقام . اهـ

أقول : إنكار دلالة الكلام عليه واقتضاء المقام يُشبه مكابرة المحسوس في المرام أمام دلالة الكلام ؛ فلأنه بدون التقدير يؤدي لاختلال النظام أو لتناقض الأحكام ، وأما اقتضاء المقام فلأنه في بيان حكم عام لكافة الأيام ، فيعم الكفر والإسلام والطاعة والآثام ، وبالله التوفيق ؛ وليِّ الإنعام .

وقد أجابوا بأجوبةٍ أُخر فلنشر إليها :

أحدها : أن الآية من قبيل القلب ؛ أي : لم تكن كسبت خيراً أو آمنت من قبل ، وذِكر نفي الإيمان بعد نفي الكسب مُفيدٌ ؛ لأنه ترقٍّ ، وليس كعكسه السابق في عدم إفادة الترديد ، ونكتة القلب التنبيه بتقديم الإيمان في أنه الأصل الذي نيط به النجاة .

ثانيها : حمل الإيمان على اللغوي السابق علىٰ نزول القرآن وهو المعرفة ؛ أي : وهو من قبيل التصور لا من قبيل التصديق ، وقد فسر به الإيمان في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ .

قال البيضاوي : معناه منهم من يُصدق به ويعلم أنه حَقٌّ ولـٰكن يُعاند ، وسبقه إليه « الكشاف » ، ويُحمل الكسب على الإذعان والقبول .

ثالثها : أن يُحمل الإيمان على التصديق القلبي ، والكسب على الإقرار اللساني ؛ أي : وهو كسبٌ ؛ لأنه بالجارحة .

وهـٰذا ظاهرٌ ؛ لأن الإسلام غير الإيمان ، فيصح أن يقال : إن الإيمان النافع في الدارين ما يكون جامعاً بينهما ، فيكون الظاهر معنا لا مع المخالف .

أشار إلى الجوابين الأخيرين شيخ مشايخنا العلامة المحقق الشريف صبغة الله الحسيني رحمه الله فيما كتب علىٰ هامش « تفسير الكوراني » بخطه ، لـٰكن قوله : (إن

الإيمان النافع في الدارين ما يكون جامعاً بينهما) مبنيٌّ على القول بأن الشهادتين شطرٌ من الإيمان لا شرط ، والأصح خلافه كما هو مُبينٌ في محله .

ولبعض متأخري مُحققي العجم علىٰ هـٰذه الآية رسالة مبسوطة بلسان المناطقة ، أتىٰ فيه بالعجب العجاب ، وكشف عن وجه المقصود الحجاب ، لـٰكن لبعدها عن أفهام العامة سيما المبتدئين لم ننقل منها شيئاً هنا ، ولبعض المحشين على البيضاوي هنا خَبطٌ واضطراب ، فاجتنبه ؛ فإنه جعل الأجوبة الثلاثة واحداً ، وإنما نبهنا عليه ؛ لئلا يُغتر به فيظن أن كلام البيضاوي متناقض ، والله أعلم .

خَاتِـمَة

أخرج نُعيم بن حماد في « الفتن » ، والحاكم في « المستدرك » : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « لا يلبثون ـ يعني : الناس ـ بعد يأجوج ومأجوج حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، ولا يقبل من أحدٍ توبةٌ ويخر إبليس ساجداً يُنادي : إلـٰهي ؛ مُرني أن أسجد لمن شئت ، وتجتمع إليه الشياطين فتقول : يا سيدنا ؛ إلىٰ من تفزع ؟ فيقول : إنما سألت ربي أن ينظرني إلىٰ يوم البعث ، فأنظرني إلىٰ يوم الوقت المعلوم ، وقد طلعت الشمس من مغربها ، وهـٰذا يوم الوقت المعلوم ، وتصير الشياطين ظاهرة في الأرض حتىٰ يقول الرجل : هـٰذا قريني الذي كان يغويني ، فالحمد لله الذي أخزاه ، ولا يزال إبليس ساجداً باكياً حتىٰ تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد » .

قُلْتُ : وهـٰذا يدل علىٰ تأخر الدابة عن الشمس ، ويتمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيئاً إلا أعطوه ، حتىٰ يتم أربعون سنة بعد الدابة ، ثم يعود فيهم الموت ويسرع فلا يبقىٰ مؤمن ، ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم ، حتىٰ ينكح الرجل أمه في وسط الطريق ، يقوم واحد عنها ، وينزل واحد ، وأفضلهم من يقول : لو تنحيتم عن الطريق كان أحسن . فيكونون علىٰ مثل ذلك حتىٰ لا يُولد أحدٌ من نكاح ، ثم يُعْقِمُ الله النساء ثلاثين سنة ، ويكونون كلهم أولاد زنا ؛ شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه : عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً يُنادي ويجهر : إلـٰهي ؛ مُرني أسجد لمن شئت ، فتجتمع إليه زبانيته فيقولون : يا سيدنا ؛ ما هـٰذا التضرع ؟ فيقول : إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم ، وهـٰذا الوقت المعلوم .

قال : « وتخرج دابة الأرض من صدعٍ في الصفا ، فأول خطوة تضعها بأنطاكية ، فتأتي إبليس فتخطمه » .

تَنبِيه

في طلوعها من المغرب ردٌّ علىٰ أهل الهيئة ومن وافقهم أن الشمس وغيرها من الفلكيات بسيطة لا تختلف مقتضياتها ، ولا يتطرق إليها تغيير عما هي عليه .

قال الكرماني : وقواعدهم منقوضة ، ومقدماتهم ممنوعة ، وعلىٰ تقدير تسليمها فلا امتناع من انطباق منطقة البروج على المعدل بحيث يصير المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً . اهـ

وأما دابة الأرض(١) : فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ الآية .

قال أهل التفسير : إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر .

وقال البيضاوي : إذا دنا وقوع معناه ؛ وهو ما وعدوا من البعث والعذاب .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : إذا مات العلماء ، وذهب العلم ، ورُفِعَ القرآن ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ ؛ من الكلام ، ويؤيده : أنه قُرِىء : (تنبئهم) وقُرِىء : (تحدثهم) ، وقُرِىء وحمل على التفسير : (تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام) .

وقيل : من الكلم الجرح ، والتفعيل للتكثير ، ويؤيده أنه قُرِىء (تَكْلمهم) بفتح فسكون ، وقرىء : (تجرحهم) .

---

(١) وهي المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾ . . . الآية في آخر النمل . وذكر رواياتها السيوطي في « الدر » (٥/ ١١٥) وبسطها .
وفي « حاشية ابن ماجه » (ص٣١٤) عن ابن عمرو بن العاص أنها : الجساسة (ز) .

وسأل أبو الحواري ابن عباس رضي الله عنهما : تُكَلِّمُهم أو تَكْلَمُ ؟ فقال : كِلا ذلك تفعل ؛ تُكَلِّمُ المؤمن وتَكْلُمُ الكافر ، وقد مر أنه قيل : إنها الجساسة ، وجزم به البيضاوي وغيره .

وقرأ الكوفيون ويعقوب : ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها علىٰ أنه حكاية معنىٰ قولها وحكايتها لقول الله .

ويؤيدهما ما يأتي أنها تُنادي بأعلىٰ صوتها : (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) ، أو استئناف علة لخروجها ، أو علة لتكلمها علىٰ قراءة الكسرة ، أو علة فحذف الجار علىٰ قراءة الفتح ؛ أي : إنما أخرجناها ؛ لأن الناس كانوا ، أو إنما تكلمهم ؛ لأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

وعن أبي العالية : أن وقوع القول ؛ سَدُّ باب الإيمان والتوبة .

قُلْتُ : وعلىٰ هـٰذا التفسير يكون في القرآن أيضاً الإشارة إلىٰ تأخرها عن طلوع الشمس من مغربها ؛ لأنه به يقع القول .

والكلام في حليتها ، وسيرتها ، وخروجها :

أما حليتها : فعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن لها عُنقاً مُشرفاً ؛ أي : طويلاً ، يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ، ولها وجه الإنسان ومنقار كمنقار الطير ، ذات وبر وزغب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنها ذات عصب وريش .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها ذات وبر وريش مؤلفة ، وفيها من كل لون لها أربع قوائم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : زغباء ذات وبر وريش .

وعن حذيفة رضي الله عنه : أنها ملمعة ذات وبر وريش ، لن يدركها طالب ، ولن يفوتها هارب .

وعن علي[1] بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد قيل له : إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض . فقال : والله إن لدابة الأرض ريشاً وزغباً ، وما لي ريشٌ ولا زغب ، وإن لها حافراً وما لي حافر ، وإنها لتخرج حُضْرُ الفرس الجواد ثلاثاً ، وما أخرج ثلثاها .

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن رأسها يمس السماء ، وما خرجت رجلاها من الأرض .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما : أنها تخرج كجري الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها ، وهٰذا يقرب من رواية علي كرم الله وجهه المارة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن فيها من كل لون ، ما بين قرنيها فرسخ للراكب .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها مؤلفة ذات زغب وريش ، فيها من ألوان الدواب كلها ، وفيها من كل أمة سيما ، وسيماها من هٰذه الأمة أنها تكلم الناس بلسان عربي مبين ، تكلمهم بكلامهم .

تَنبيه

الزغب : صغار الريش أول ما يطلع ، قاله في « النهاية » .

وعن أبي الزبير أنه وصف الدابة ؛ فقال : رأسها رأس ثور ، وعيناها عينا خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير .

أي : وقد مر عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن وجهها وجه إنسان ، ومنقارها منقار طير ، بين كل مفصلين منها اثنا عشر ذراعاً .

(الأيل) ؛ بفتح الهمزة وكسر التحتانية مشددة ، وبالعكس ، وبضم وفتح : الوعل ، وهو تيس الجبل .

وعن عاصم بن حبيب بن أصبهان قال : سمعت علياً رضي الله عنه على المنبر

---

(١) حكاه السيوطي في « الدر » (ز) .

يقول : إن دابة الأرض تأكل بفيها ، وتكلم من استها .

وعن الحسن رضي الله عنه : أن موسىٰ سأل ربه أن يريه الدابة ؟ فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء لا يُرىٰ واحدٌ من طرفيها .

قال : فرأىٰ منظراً فظيعاً ، فقال : رَبِّ ؛ ردها . فردَّها .

وأما سيرتها : فإن معها عصا موسىٰ ، وخاتم سليمان بن داود ، تُنادي بأعلىٰ **صوتها** : ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وإنها تسم الناس المؤمن والكافر ، فأما المؤمِن فَيُرَىٰ وجهه كأنه كوكب دُري ، وَيُكتَب بين عينيه مؤمن ، وأما الكافر فَيُكْتَبُ بين عينيه نكتةٌ سوداء : كافر .

تَنبِيه

يجوز في إعراب هـٰذا أن يكون « نكتة » مرفوعاً علىٰ أنه نائب فاعل (يكتب) ، و(سوداء) صفتها ، و(كافر) بدلاً منه ، وأن يكون (كافر) نائب الفاعل ، و(نكتة) منصوباً علىٰ أنه حال منه تقدمت عليه ، و(سوداء) نعتها .

وفي رواية : « فتلقى المؤمن لتسمه في وجهه ، ولـٰكنه يبيض له وجهه ، وتسم الكافر ولـٰكنه يسود وجهه » .

وفي رواية : « فارفضَّ ـ أي : تفرق ـ الناس عنها شتى ومعاً ، وثبت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله ، فبدأت بهم ؛ حلت وجوههم حتىٰ جعلتها كأنها الكوكب الدُري ، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتىٰ إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه ، فتقول : يا فلان ؛ الآن تُصلي! فيقبل عليها فتسمه في وجهه ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار يصرف المؤمن الكافر وبالعكس ، حتىٰ إن المؤمن يقول : يا كافر ؛ اقضني حقي ، وحتىٰ إن الكافر ليقول : يا مؤمن ؛ اقضني حقي » .

وفي رواية : « تخرج فتصرخ ثلاث صرخات ، فيسمعها مَنْ بين الخافقين » .

وفي لفظ : « تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذها ، ثم تستقبل الشام فتصرخ

صرخة تنفذها ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذها ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذها » .

وفي رواية : « لا يبقىٰ مؤمن إلاَّ نكتت في مسجده[1] بعصا موسىٰ نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتىٰ يَبْيَضَّ لها وجهه ، ولا يبقىٰ كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشو تلك النكتة حتىٰ يسود لها وجهه ، حتىٰ إن الناس ليتبايعون في الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ؟ وبكم ذا يا كافر ؟ ويقول هـٰذا : خذ يامؤمن . ويقول هـٰذا : خذ يا كافر » .

وفي رواية : « تأتي الرجل وهو يُصلي في المسجد ، فتقول : ما الصلاة من حاجتك ، ما هـٰذا إلا تعوذٌ ورياء . فتخطمه وتكتب بين عينيه كذاب » .

وقد مر أنها تقتل إبليس أو تخطمه .

وأما خروجها : فقد ورد أن لها ثلاث خرجات في الدهر ، فتخرج خرجةً من أقصى البادية .

وفي رواية : « من أقصى اليمن ، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني : مكة ـ ، ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرىٰ دون تلك ، فيعلو ذكرها في أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية ـ يعني : مكة ـ » .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم ترعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب ، فارفض الناس عنها شتى » .

هـٰكذا ورد عن ابن عباس ، وحذيفة رضي الله عنهم ، وبعض طرق حديث حذيفة صحيح .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : أنها تخرج من بعض أودية تهامة ـ أي : وهـٰذا في بعض خرجاتها ـ ، والأول في خرجاتها الأخيرة .

---

(١) أي : موضع سجود جبهته .

وعن أبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وعائشة رضي الله عنهم : أنها تخرج بأجياد .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه المكان الذي تخرج منه الدابة ، وأنه من قبل الشق الذي في الصفا .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : يكون خروجها من الصفا ليلة مِنىٰ ، فيصبحون بين ذنبها ورأسها ، لا يدحض داحضٌ ، ولا يخرج خارجٌ ، حتىٰ إذا فرغت مما أمر الله ، فهلك من هلك ونجىٰ من نجىٰ كان أول خطوة تضعها بأنطاكية .

وفي بعضها : أنها تخرج من المروة . وفي بعضها : من مدينة قوم لوط . وفي بعضها : من وراء مكة .

تَنْبِيه

وجه الجمع بين هـٰذه الروايات من وجهين :

أحدهما : أن لها ثلاث خرجات ، ففي بعضها تخرج من مدينة قوم لوط ، ويصدق عليها أنها من أقصى البادية ، وفي بعضها تخرج من بعض أودية تهامة ، ويصدق عليها أنها من وراء مكة ، ومن اليمن ؛ لأن الحجاز يمانية ، ومن ثم قيل : الكعبة يمانية . وفي المرة الأخيرة تخرج من مكة ، وهي من عظم جثتها وطولها يمكن أن تخرج من بين المروة والصفا وأجياد ، فإنها تمسك مقدار ثلاثة أيام وأكثر ، وحينئذ يصدق عليها أنها خرجت من المروة ، ومن الصفا ، ومن أجياد ، ومن المسجد ، وبالله التوفيق .

والوجه الثاني : أنها تخرج من جميع تلك الأماكن في آنٍ واحد خرقاً للعادة في صور مثالية ، وهـٰذا أيضاً مبنيٌّ علىٰ تحقق المثال المحسوس .

وقد أفتى السيوطي في رجلين حلفا بالطلاق كُلٌّ حلف علىٰ أن الشيخ عبد القادر الطحطوحي بات عنده في ليلةٍ واحدةٍ معينة ، بأنه لا يقع طلاق واحد منهما بناءً علىٰ هـٰذا .

قال : وقد وقعت هـٰذه المسألة قديماً ، وأفتىٰ فيه العلماء بعدم الحنث . انتهىٰ

ثم رأيت ابن عَلاَّن قال في تفسيره « ضياء السبيل » ما لفظه : وقيل : تخرج في كل بلدٍ دابةٌ مما هو مثبوت نوعها في الأرض وليست واحدة ، فدابة علىٰ هـٰذا القول اسم جنس . انتهىٰ

وإذا قلنا بتعدد الصور المثالية أغنىٰ عن القول بالجنسية ، وبالله التوفيق .

ومن الأشراط : الدخان :

عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : « اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : الساعة يا رسول الله . قال : إنها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات . . . » فذكر الدخان والدجال . الحديث رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، ورواه حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : وأنه يمكث في الأرض أربعين عاماً .

وفي رواية : « أنه يأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام » .

وقد مر أنه يكون دُخانٌ عند هلاك يأجوج ومأجوج ، وأنه يمكث ثلاثاً ، فيحتمل أن يكون هـٰذا هو ويحتمل غيره ، لـٰكنه لا بد أن يكون قبل الريح الآتية ؛ لأن بعد الريح لا يبقىٰ مؤمنٌ ، وعند الدخان يُوجد المؤمنون ؛ كما هو صريح العبارة .

ومنها : ريح طيبة تقبض روح كل مؤمن ، ورجوع الناس إلىٰ عبادة الأوثان ودين آبائهم :

أخرج مسلم وغيره : عن عائشة رضي الله عنها : « لا تذهب الأيام والليالي حتىٰ تُعبد اللات والعزىٰ من دون الله . . . » الحديث .

وفيه : « فيبعث الله ريحاً طيبة فيتوفىٰ بها كل مؤمن في قلبه مثقال حبة من إيمان ، فيبقىٰ من لا خير فيه ، فيرجعون إلىٰ دين آبائهم » .

وله شاهدٌ من حديث حذيفة بن أسيد .

وأخرج أحمد ومسلم : عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : « ثم يُرسل الله ـ يعني : بعد موت عيسىٰ ـ ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض أَحَدٌ

في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتىٰ لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتىٰ تقبضه ، فيبقىٰ شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدونها : وهم في ذلك دَارٌّ رزقهم ، حسنٌ عيشهم ، ثم ينفخ في الصور » .

تَنبِيه

هـٰذا ينافي ما مر من قتل الدابة إبليس بحسب الظاهر ، ويمكن أن يُقال علىٰ بُعْدٍ : إن هـٰذا الشيطان غير إبليس .

وروىٰ أحمد ، ومسلم ، والترمذي : عن النواس بن سمعان : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقىٰ شرار الناس يتهارجون فيها ـ أي : يتسافدون ـ تهارج الحُمُر ، فعليهم تقوم الساعة » .

وقد مر عن ابن مسعود رضي الله عنه : « أن المؤمنين يتمتعون بعد الدابة أربعين سنة ، ثم يعود فيهم الموت ويُسرع ، فلا يبقىٰ مؤمن ، ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم . . . » الحديث .

وفيه : « فيكونون علىٰ مثل ذلك حتىٰ لا يُولد أحدٌ من نكاح ، ثم يُعقم الله النساء ثلاثين سنة ، ويكونون كلهم أولاد زنا ؛ شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة » .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته » .

تَنبِيه

قال المناوي في « تخريج أحاديث المصابيح » : ويُجاب عن اختلاف الروايتين ـ يعني : كون الريح من قبل الشام ومن اليمن ـ بأنهما ريحان شامية ويمانية .

وأخرج ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : يَدْرُسُ الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتىٰ لا يُدرىٰ ما صيام ، ولا صلاة ، ولا نُسك ، ولا صدقة ،

ويبقىٰ طوائف من الناس الشيخ الكبير ، والعجوز الكبيرة يقولون : أدركنا آباءنا علىٰ هٰذه الكلمة فنحن نقولها .

فقال رجلٌ لحذيفة : فما تغني عنهم الكلمة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، فأعاد عليه السؤال ثانياً وثالثاً ، فقال في الثالثة : تُنْجِيهم من النار .

وأخرج أحمد بسندٍ قوي عن أنس رضي الله عنه قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يُقال في الأرض : لا إلـٰه إلا الله » .

وهو عند مسلم ، لـٰكن بلفظ : « الله الله » .

فدلت الأحاديث المذكورة علىٰ أن المراد بالشرار في الحديث : هم الذين لا يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) ، و(الله الله) ، وأنه ما دام في النوع الإنساني من يقول هٰذه الكلمة لا تقوم الساعة ، وإنما تقوم على الكفار الذين لا يعرفون نكاحاً ولا يولدون من نكاح ، فيكونون بهائم في صورة الإنسان وليسوا بإنسان حقيقة ، أولـٰئك كالأنعام بل هم أضل .

تَكمِلَة

في فائدةٍ ذكرها الشيخ الكبير محيي الدين بن عربي رحمه الله في « الفصوص » في (الفص الشيثي) ، فلنذكر كلامه مع شرحه للعلامة المحقق نور الدين عبد الرحمن الجامي قدس الله أسرارهما .

قال رحمه الله : (وعلىٰ قدم شيث عليه السلام) بل علىٰ قلبه في التهيؤ للتجليات الذاتية ، والعطايا الوهبية (يكون آخر مولود يولد في النوع الإنساني) ؛ لأن مراتب الوجود دورية ، فكما أن شيثَ عليه السلام كان أول مولود من سلسلة أولاد آدم المنتهية إلينا ينبغي أن يكون آخر مولود أيضاً كذلك ؛ ليتم الدائرة بانطباق آخرها علىٰ أولها (وهو حامل أسراره) من علومه وتجلياته ؛ لما ذكرنا (وليس يولد بعده) ولدٌ آخر (في هـٰذا النوع الإنساني ، فهو خاتم الأولاد يولد معه) في بَطنٍ واحد (أخت له) كما أن شيثَ عليه السلام أيضاً كان كذلك ؛ فإن حواء كانت تلد لآدم في كل بَطنٍ ذكراً وأنثىٰ (فتخرج أخته) قبله (ويخرج) هو بعدها ؛ لأنه لو لم يتأخر عنها في الولادة لم

يكن خاتم الأولاد ، ويشبه أن يكون شيث عليه السلام مع أخته بعكس ذلك ، ليكون أول مولود (يكون رأسه عند رجليها ، ويكون مولده بالصين) أقصى البلاد (ولغته لغة بلده ، ويسري بعد ولادته العقم في الرجال والنساء ، فيكثر النكاح من غير ولادة ، ويدعوهم إلى الله ، فلا يُجاب في هٰذه الدعوة ، (فإذا قبضه الله) ، وقبض مؤمني زمانه (بقي من بقي مثل البهائم) ، فهم حيوانات في صور الإنسان ؛ لإظهار كمال الحقائق الحيوانية الطبيعية البهيمية السبعية في الصورة الإنسانية تماماً علىٰ ما تقتضيه الطبيعة من حيث هي هي ، من غير وازعٍ عقلي أو مانعٍ شرعي ، (لا يحلون حلالاً ، ولا يحرمون حراماً ، ويتصرفون) بحكم الطبيعة (بشهوة مجردة عن) العقل والشرع ، (فعليهم تقوم الساعة ، وتخرب الدنيا ، وانتقل الأمر إلى الآخرة) . انتهىٰ

تَنبيه

مراد الشيخ رضي الله عنه بقوله : (ليس يُولد بعده ولدٌ في هٰذا النوع الإنساني فهو خاتم الأولاد) . انتهىٰ

الإنساني الحقيقي ، فهو خاتم أولاد المؤمنين ، أو خاتم أولاد النكاح ، فيكون العقم مرتين مرةً في المنكوحات ، ومرةً في مطلق النساء ؛ كما يشير له قول الشارح : (فيكثر النكاح من غير ولادة) ، فإن النكاح يُطلق على العقد كما يطلق على الجِمَاع ، فلا يُنافي أن يُولد بعده بهائم في صورة الإنسان كما يشير إليه كلامه ، أو من الزنا كما صرح به حديث ابن مسعود رضي الله عنه المار : « فيكونون علىٰ مثل ذلك حتىٰ لا يُولد أحدٌ من نكاح ، ثم يعقم الله النساء ثلاثين سنة ، ويكونون كلهم أولاد زنا ، شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة » .

فلا منافاة بين الحديث وكلام الشيخ ، والحديث وإن ضعفه الحاكم فالكشف الصحيح يدل علىٰ صحة هٰذا المقدار منه ، ولبقيته ، بل ولمجموعه شواهد ، وقد مرت .

تَنبيه آخَر

حكمة عقم النساء ثلاثين سنة ـ والعلم عند الله تعالىٰ ـ أنهم لو توالدوا لزم تعذيب الصبيان قبل البلوغ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رفع القلم عن ثلاثة » ، ومنهم :

« الصبي حتىٰ يبلغ » ، والبلوغ وإن كان يحصل بخمسة عشر لـٰكنه تعالىٰ يُمهلهم حتىٰ يبلغوا أشدهم إلزاماً للحُجة .

لا يُقال هم أهل الفترة فكيف يعذبهم ؛ لأنه قد مر عن « شرح الفصوص » أن المولود المذكور يدعوهم إلى الله فلا يُجاب ، ولا مانع أن يُبْقِي الله ذلك المولود بعد هلاك جميع المؤمنين إلزاماً للحجة ، وبالله التوفيق .

وهـٰذا إنما يوافق القول بأن الشيطان لا تقتله الدابة ، وأن الأعمال تكتب بعد طلوع الشمس من مغربها .

تنبيه آخر

ينافي ما ذكر بحسب الظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين . . . » الحديث .

فإن ظاهر الروايات السابقة : أنه لا يبقىٰ أحدٌ من المؤمنين فضلاً عن القائم بالحق ، وظاهر هـٰذا البقاء .

قال الحافظ في « فتح الباري » : يمكن أن يكون المراد بقوله : أمرُ الله هبوب تلك الريح ، فيكون ظهور تلك الطائفة قبل هبوبها .

قال : فبهـٰذا الجمع يزول الإشكال بتوفيق الله تعالىٰ . انتهىٰ

ولا يأبىٰ هـٰذا كل الإباء ما ورد في بعض الروايات مكان « أمر الله » : « يوم القيامة » ؛ لأن ما قارب الشيء يُعطىٰ حكمه ، فهـٰذا الوقت لقربه من القيامة يطلق عليه القيامة ، وجمعه هـٰذا أحسن من جمع غيره بأن يَكفر بعض الناس ويبقىٰ بعضهم ؛ لمنافاته للكليات الواردة كما لا يخفىٰ .

ويوضحه : ما رواه الحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال عِصَابةٌ من أمتي يقاتلون علىٰ أمر الله قاهرين على العدو ، لا يضرهم من خالفهم حتىٰ تأتيهم الساعة » .

فقال عبد الله بن عمرو : أجل ويبعث ريحاً ريحها المسك ، ومسها مس الحرير ،

فلا تترك نفساً في قلبه من مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ، ثم يبقىٰ شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة .

فإن قول ابن عمرو رضي الله عنهما هٰذا في مقابلة ما رواه عقبة كالصريح فيما قلناه ، والله أعلم .

ومنها : رفع القرآن من المصاحف ومن الصدور :

رَوى الديلمي عن حذيفة ، وأبي هريرة رضي الله عنهما معاً ؛ قالا : « يُسرىٰ علىٰ كتاب الله ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوف إلا نسخت » .

وروىٰ عن ابن عمر رضي الله عنهما : « لا تقوم الساعة حتىٰ يرجع القرآن من حيث جاء ، فيكون له دويٌّ حول العرش كدوي النحل ، فيقول الرب عز وجل : مالك ؟ فيقول : منك خرجت وإليك عُدت ، أتلىٰ فلا يُعمل بي . فعند ذلك رفع القرآن » .

وأخرج السجزي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ يرفع الركن والقرآن » .

وَروى الأزرقي في « تاريخ مكة » : « أول ما يرفع الركن ، والقرآن ، ورُؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام » .

وروى ابن ماجه بسندٍ صحيح قوي ، والحاكم ، والبيهقي ، والضياء : عن حذيفة رضي الله عنه : « يدرس الإسلام كما يدرس وشْي الثوب ، حتىٰ لا يدرىٰ ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويُسرىٰ علىٰ كتاب الله في ليلة ، فلا يبقىٰ في الأرض منه آية ، وتبقىٰ طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا علىٰ هٰذه الكلمة (لا إلـٰه إلا الله) فنحن نقولها » .

ومنها : هدم الكعبة :

وقد مر بأحاديثه وتوجيهها ، وإنما ذكرته هنا ؛ لأن بعضهم قال : ذلك بعد موت المؤمنين قرب القيامة عند انقطاع الحج .

ومنها : رجوع الناس إلىٰ عبادة الأوثان :

وقد مرت أحاديثها وأن بعضهم يُؤمن بالدجال ، فهٰذا مَحطُ حديث : « تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ويكفرون جميعاً قبل يوم القيامة » وهٰذا محطُّ الأحاديث المصرحة بالعموم ، وكلاهما من الأشراط ، والله أعلم .

ومنها : رِيحٌ تُلقي الناس في البحر :

أخرج الستة إلا البخاري عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنهما ؛ مرفوعاً : « لن تقوم الساعة حتىٰ تروا قبلها عشر آيات . . . » ، وقال في العاشرة : « ورِيحٌ تلقي الناس في البحر » .

وفي لفظ الترمذي : « والعاشرة : إما ريحٌ تطرحهم في البحر ، وإما نزول عيسى ابن مريم » ؛ بالشك من الراوي .

والمراد بكون عيسىٰ عليه السلام عاشراً في العَدِّ لا في الوقوع .

وظاهره[1] أن هٰذه غير الريح التي تلقي يأجوج ومأجوج في البحر كما مر ، وأن هٰذه تكون عند خروج النار الآتي ذكرها ، ويحتمل أن تكون إياها ، والله أعلم .

ومنها : تقارب الزمان ، وقصر الأيام :

أخرج مسلمٌ عن أبي هريرة ، والترمذيُّ عن أنس : « لا تقوم الساعة حتىٰ يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ، ويكون الشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كالضرمة بالنار . واللفظ للترمذي .

وقد مر في بحث الدجال أن هٰذا يصير في زمانه أيضاً ، ولا مانع من تكرره مرتين : مرة في زمنه ، ومرة في آخر الزمان ، فالقدرة صالحةٌ لكل شيء .

---

(١) وقال القاري (٥/١٨٨) : لعل المراد من الناس الكفار ، وأن نارهم تكون منضمة إلىٰ ريحٍ شديدة الجري ، سريعة التأثير في إلقائها البحر ، وهو موضع شر الكفار . . . إلخ .

قلت : والظاهر أنه ليس إذ ذاك إلا الكفار ؛ لتقدم الريح القابضة علىٰ ذلك ، لـٰكن يخالفه ما سيأتي (ص٣٣٥) : « يحشر الناس علىٰ ثلاثة طوائف طاعمين كاسين » الحديث ، إلا أن يقال : إن المراد أن الفرق كلهم من الكفرة . فتأمل . (ز) .

ومن الأشراط العظام وهي آخرها : نارٌ تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلىٰ محشرهم .

أخرج أحمد ، والبخاري : عن أنس رضي الله عنه : « أما أول أشراط الساعة فنارٌ تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب ، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. . . » الحديث .

وأخرج الستة غير البخاري : عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنهما مرفوعاً : « لن تقوم الساعة حتىٰ تروا قبلها عشر آيات. . . » الحديث .

وفيه : « وآخر ذلك نارٌ تَخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم » .

ويُروىٰ : « نارٌ تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر » .

وفي لفظ : « من قعر عدن أبين » .

و(أبين) ؛ بوزن أحمر : اسم الملك الذي بناها . قال في « النهاية » : وقد مَرَّ وَجْهُ الجمع بين أوليتها وآخريتها .

وأخرج أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو وأبو داود والحاكم وأبو نُعيم عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقىٰ في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم نفس الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تُخَلّف » .

تَنَبيْه

قوله : « تقذرهم نفس الله » من المتشابهات ، فيجب الإيمان بها علىٰ مراد الله ومراد رسوله ، ولا حاجة إلىٰ تأويله ، فإن الحديث كالقرآن لا يَعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ؛ لأنهم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، فينتج لهم إيمانهم به العلمَ بتأويله .

وأخرج أحمد والترمذي وقال : حسنٌ صحيح ، عن ابن عمر رضي الله عنهما :

« ستخرج نارٌ من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس ، قالوا : يا رسول الله ؛ فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام » ، وهـٰذا هو المراد بمهاجر إبراهيم عليه السلام في الرواية السابقة .

وأخرج الطبراني وابن عساكر ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : « لتقصدنكم نارٌ هي اليوم خامدةٌ في وادٍ يقال له : برهوت . تغشى الناس فيها عذاب أليم تأكل الأنفس والأموال ، وتدور الدنيا كلها في ثمانية أيام ، تطير طير الريح والسحاب ، حرها بالليل أشد من حرها بالنهار ، ولها بين السماء والأرض دويٌّ كدوي الرعد القاصف ، وهي من رؤوس الخلائق أدنىٰ من العرش ، قيل : يا رسول الله ؛ أسليمةٌ يومئذ على المؤمنين والمؤمنات ؟ قال : وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ ؟! هم شَرٌّ من الحُمُر ، يتسافدون كما يتسافد البهائم وليس فيهم رجلٌ يقول : مه مه » .

وأخرج أحمد ، والبغوي ، والباوَردي ، وابن قانع ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم ، وأبو نُعيم : عن رافع بن بشر السلمي قال : « يوشك أن تخرج نارٌ من حبس سيل ، تسير سير بطيئة الإبل ، تسير بالنهار وتقيم بالليل ، تغدو وتروح ، يقال : غدت النار أيها الناس ؛ فاغدوا ، قالت النار أيها الناس ؛ فقيلوا ، راحت النار أيها الناس ؛ فروحوا . من أدركته أكلته » .

تَنبِيه

هـٰذه النار المذكورة في هـٰذه الأحاديث الخارجة من قعر عدن غير نار المدينة المار ذكرها في القسم الأول ، ولا ينافي هـٰذه الرواية أن هـٰذه تخرج من حبس سيل أيضاً ؛ لأن أصل خروجها من برهوت ، ويقال له : وادي النار . وهو في قعر عدن ، وعدن بناحية حضرموت وعلىٰ ساحل البحر ، فالعبارات مآلُها واحد ، وتمر بحبس سيل أيضاً ، والخطاب مع أهل المدينة .

وحبس سيل شرقي المدينة ، فوصول النار إليها يكون قبل وصولها المدينة ، فيصح أن يقال لهم : تخرج نارٌ من حبس سيل .

فائـدة

نقل الحافظ ابن حجر عن القرطبي : إن الحشر أربعة : حشران في الدنيا ، وحشران في الآخرة ، فالذي في الدنيا المذكور في سورة الحشر ، وهو حشر اليهود إلى الشام ، والثاني : الحشر المذكور في أشراط الساعة(1) .

وفي حديث أنس رضي الله عنه في مسألة عبد الله بن سلام لما أسلم : « أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند الحاكم ؛ رفعه : « تُبعَثُ علىٰ أهل المشرق نارٌ فتحشرهم إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، ويكون لها ما سقط منهم وتخلّف ، وتسوقهم سَوْقَ الجمل الكبير » .

قال الحافظ ابن حجر : وكونها تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلى المغرب ؛ لأن ابتداء خروجها من عدن ، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها ؛ أي : كما في رواية الطبراني ، وابن عساكر عن حذيفة رضي الله عنه المارة أنها تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام .

أو أن المراد تعميم الحشر ، لا خصوص المشرق والمغرب ؛ أي : يكون المعنىٰ : تحشر من بين المشرق والمغرب ، أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق .

تنبيه

يجمع بين قوله : (تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام) ، وبين (أنها تسير سير بطيئة الإبل والجمل الكبير ، وتبيت وتقيل) بأن انتشارها في ثمانية أيام ، ثم تسير علىٰ سير الناس بعد ذلك .

والثالث : حشر الأموات من قبورهم بعد البعث جميعاً :

قال تعالىٰ : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

---

(1) وبسط الحافظ (١١/ ٣٠٠) في باب « المحشر » من البخاري الكلام علىٰ روايات الباب ، والجمع بينها وذكر الأقوال فيها أشد البسط . فارجع إليها (ز) .

والرابع : حشرهم إلى الجنة أو النار :

قال الحافظ : الحشر الأول ليس حشراً مُستقلاً ، فإن المراد حشر كل موجودٍ يومئذ ، والأول إنما وقع لفرقةٍ مخصوصة ، وهٰذا وقع كثيراً كما وقع لبني أمية أن ابن الزبير رضي الله عنه أخرجهم من المدينة إلىٰ جهة الشام . اهـ

قُلْتُ : المراد ما سُمي حشراً علىٰ لسان الشارع ، وقد سَمَّى الله الأول حشراً بخلاف غيره ، فظهر الفرق .

خَاتِـمَة

اختلف الناس : هل هٰذا الحشر قبل يوم القيامة ، أو هو يوم القيامة ؟

وعلى الأول : هل النار حقيقةٌ أو مجاز ، أو المراد بها الفتن ؟ مال إلى الثاني الحليمي ، وجزم به الغزالي .

قالوا : ويدل له حديث أبي هريرة رضي الله عنه في « الصحيحين » وغيرهما : « يحشر الناس علىٰ ثلاث طرائق راغبين راهبين ، واثنان علىٰ بعير وثلاثة علىٰ بعير ، وعشرة علىٰ بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا » ؛ أي : فالحديث كالتفسير لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . . . ﴾ الآية .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده حديث أبي ذر رضي الله عنه عند أحمد ، والنسائي ، والبيهقي : « حدثني الصادق المصدوق أن الناس يحشرون يوم القيامة علىٰ ثلاثة أفواج : فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ، وفوج تسحبهم الملائكة علىٰ وجوههم . . . » الحديث .

ثم اختلفوا علىٰ هٰذا القول في الجمع بين حديث أبي هريرة رضي الله عنه هٰذا وحديث ابن عباس رضي الله عنهما في « الصحيحين » وغيرهما مرفوعاً : « إنكم تحشرون حُفاةً عُراةً غُرلاً . . . » الحديث .

فقال الإسماعيلي : الحشر يُعبر به عن النشر أيضاً ؛ لاتصاله به ؛ وهو إخراج

الخلق من القبور ، فيخرجون من القبور حُفاة عُراةً ، فيساقون ويجمعون إلى الموقف للحساب ، ثم يحشر المتقون رُكباناً على الإبل ؛ أي : والمجرمون علىٰ وجوههم .

وقال غيره : يخرجون من القبور علىٰ ما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم يحشرون إلى الموقف علىٰ ما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال بعض شراح « المصابيح » ـ أي : وهو التُّوربشتي ـ : حَملُ الحشر علىٰ هـٰذا أقوىٰ من وجوه :

أحدها : إذا أطلق الحشر يُراد به شرعاً : الحشر من القبور ، ما لم يُخصصه دليل .

ثانيها : أن التقسيم المذكور في الخبر لا يستقيم في الحشر إلىٰ أرض الشام ؛ لأن المُهَاجِر لا بد أن يكون راغباً أو راهباً ، أو جامعاً بين الصفتين ، فأما أن يكون راغباً راهباً فقط ، وتكون هـٰذه طريقة واحدة لا ثاني لها من جنسها فلا .

ثالثها : حشر البقية علىٰ ما ذكر ، وإلجاء النار لهم إلىٰ تلك الجهة وملازمتها حتىٰ لا تفارقهم قَولٌ لم يرد به التوقيف ، وليس لنا أن نحكم بتسليط النار في الدنيا علىٰ أهل الشقوة من غير توقيف .

رابعها : أن الحديث يُفسر بعضه بعضاً ، وقد وقع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « ثلثاً على الدواب ، وثلثاً ينسلون علىٰ أقدامهم ، وثلثاً علىٰ وجوههم » .

قال : ونرىٰ أن هـٰذا التقسيم نظير التقسيم الذي في سورة الواقعة : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴾ . . . الآيات .

فقوله في الحديث : « راغبين راهبين » : يُريد عموم المؤمنين المخلطين عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهم أصحاب الميمنة .

وقوله : « اثنان علىٰ بعير » . . . إلىٰ آخره : يُريد السابقين وهم أفاضل المؤمنين ركباناً .

وقوله : « وتحشر بقيتهم النار » : يُريد أصحاب المشأمة .

فيحتمل أن البعير يحمل عشرة دفعة واحدة ؛ لأنه يكون من بديع قدرة الله ، فيقوىٰ

علىٰ ما لا يقدر عليه عشرة من بُعران الدنيا ، ويحتمل أن يتعاقبوه . انتهىٰ ملخصاً .

وقال الخطابي والقرطبي ، وصوبه القاضي عياض وقواه بحديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه : إن هـٰذا الحشر يكون قبل يوم القيامة ، يُحشر الناس أحياء إلى الشام ، وأما الحشر من القبور فهو علىٰ ما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

قال : وقوله : « اثنان علىٰ بعير إلىٰ عشرة » يريد : أنهم يعتقبون أنهم يتعاقبون البعير الواحد يركب بعض ويمشي بعض ؛ أي : وذلك لقلة الظهر كما في بعض الأحاديث .

قال القاضي عياض : ويقويه آخر حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « تقيل معهم وتبيت ، وتصبح وتُمسي » ، وأن هـٰذه الأوصاف مُختصةٌ بالدنيا .

ورجحه الطيبي وتعقب على الشارح المذكور ، وأجاب عن أول وجوه ترجيحه بأن الدليل المخصص ثابت ، فقد ورد في عدة أحاديث وقوع الحشر في الدنيا إلىٰ جهة الشام ، وذكر حديث حذيفة بن أسيد السابق ذكره ، وحديث معاوية بن حيدة رفعه : « إنكم محشورون ـ ونحىٰ بيده نحو الشام ـ رجالاً ورُكباناً وتخرون علىٰ وجوهكم » ، أخرجه الترمذي ، والنسائي ، وسنده قوي .

وحديث : « ستكون هجرة بعد هجرة ، وينحاز الناس إلىٰ مهاجر إبراهيم ، ولا يبقىٰ في الأرض إلا شرارها ، تلفظهم أرضوهم ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا » أخرجه أحمد بسندٍ لا بأس به .

وحديث : « ستخرج نارٌ من حضرموت تحشر الناس . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : عليكم بالشام » .

قال : فليس المراد بالنار في هـٰذه الأحاديث نَارَ الآخرة كما زعمه المعترض ، وإلا لقيل : تحشر بقيتهم إلى النار ، وقد قال : « تحشر بقيتهم النار » فأضاف الحشر إليها .

قال : والجواب عن الثاني أن التقسيم المذكور في سورة الواقعة لا يستلزم أن يكون

هو التقسيم المذكور في الحديث ، فإن الذي في الحديث ورد على القصد من الخلاص من الفتنة ، فمن اغتنم الفرصة سار علىٰ فسحة من الظّهر ، ويُسرة في الزاد ، راغباً فيما يستقبله ، راهباً مما يستدبره ، وهـٰؤلاء هم الصنف الأول في الحديث .

فمن توانىٰ حتىٰ قل الظهر ، وضاق أن يسعهم لركوبهم اشتركوا أو ركبوا عقبة ، فيحصل اشتراك الاثنين في البعير الواحد ، وكذا الثلاثة يمكنهم كل من الأمرين .

وأما الأربعة فالظاهر من حالهم التعاقب ، وقد يمكن الاشتراك إذا كانوا خِفَافاً أو أطفالاً .

وأما العشرة فبالتعاقب لا غير .

وسكت عما فوقها إشارةً إلىٰ أنها المنتهىٰ في ذلك ، وعما بينها وبين الأربعة إيجازاً واختصاراً ، وهـٰؤلاء هم الصنف الثاني في الحديث .

وأما الصنف الثالث : فعبر عنه بقوله : « تحشر بقيتهم النار » ؛ إشارةً إلىٰ أنهم عجزوا عن تحصيل ما يركبونه ، ولم يقع في الحديث بيان حالهم ، بل يحتمل أنهم يمشون أو يسحبون فراراً من النار .

ويؤيد ذلك : ما وقع في آخر حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي تقدمت الإشارة إليه في كلام المعترض ، وفيه أنهم سألوا عن السبب في مشي المذكورين ، فقال : تُلقى الآفة على الظهر حتىٰ لا يبقىٰ ذات ظهر ، حتىٰ إن الرجل ليعطى الحديقة المعجبة بالشارف ـ أي : الناقة ـ المسن ذات القتب ؛ أي : يشتريها بالبستان الكريم ؛ لهوان العقار الذي عزم على الرحيل عنه ، وعزة الظهر الذي يوصله إلىٰ مقصوده ، وهـٰذا لائِقٌ بحال الدنيا دون الآخرة ، مُؤكدٌ لما ذهب إليه الخطابي وغيره .

ويتنزل علىٰ وفق حديث الباب ؛ يعني : حديث « المصابيح » ، وهو أن قوله : « فوج طاعمين كاسين راكبين » مُوافقٌ لقوله : « راغبين راهبين » .

وقوله : « وفوج يمشون » ، مُوافقٌ للصنف الذين يتعاقبون على البعير ؛ فإن صفة المشي لازمة لهم .

وأما الصنف الذين تحشرهم النار فهم الذين تسحبهم الملائكة .

قال : والجواب عن الثالث : أنه تبين بشواهد الحديث أنه ليس المراد بالنار نار الآخرة ، وإنما هي نارٌ تخرج من الدنيا أنذر النبي صلى الله عليه وسلم بخروجها ، وذكر كيفية ما تفعل في الأحاديث المذكورة .

والجواب عن الرابع : أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه من رواية علي بن زيد ـ أي : الذي استدل به المعترض ـ مع ضعفه لا يُخالف حديث الباب ؛ لأنه مُوافقٌ لحديث أبي ذر رضي الله عنه في لفظه ، وقد تبين من حديث أبي ذر رضي الله عنه ما دل علىٰ أنه في الدنيا ، لا بعد البعث في الحشر إلى الموقف ، إذ لا حديقة هناك ولا آفة تلقىٰ على الظهر .

ووقع في حديث علي بن زيد المذكور عند أحمد : أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك ، وأرض الموقف مستوية لا عوج فيها ولا أمتاً ، ولا حدب ولا شوك .

قال : هـٰذا ما سنح لي علىٰ سبيل الاجتهاد ، ثم رأيت في « صحيح البخاري » في باب المحشر : « يحشر الناس يوم القيامة علىٰ ثلاث طرائق » ، فعلمت من ذلك أن الذي ذهب إليه الإمام التُّوربشتي هو الحق الذي لا محيد عنه . انتهىٰ كلام الطيبي مع التلخيص .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » بعدما نقل ذلك عنه ما نصه : قلت : ولم أقف في شيءٍ من طرق الحديث الذي أخرجه البخاري علىٰ لفظ : « يوم القيامة » ، لا في « صحيحه » ، ولا في غيره ، وكذا هو عند مسلم ، والإسماعيلي ، وغيرهما ليس فيه : « يوم القيامة » .

نعم ؛ ثبت لفظ : « يوم القيامة » في حديث أبي ذر رضي الله عنه المنبه عليه قبل ، وهو مُؤولٌ بأن المراد بذلك : أن يوم القيامة يعقب ذلك فيكون من مجاز المجاورة ، ويتعين ذلك لما وقع فيه أن الظهر يقل بما يلقىٰ عليه من الآفة ، وأن الرجل يشتري الشارف الواحد بالحديقة المعجبة ، فإن ذلك ظاهرٌ جداً في أنه من أحوال الدنيا لا بعد البعث . انتهىٰ كلام الحافظ بلفظه

وحاصله : أن حمل لفظة من الحديث على المجاز أهون من إلغاء جملة من ألفاظه وإبطال معنى الحديث ، فيتعين .

وعلىٰ هـٰذا : فلو ثبت لفظ : « يوم القيامة » في « البخاري » أيضاً لوجب تأويله بذلك كذلك ؛ لذلك .

وأقول : قد مر في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند أحمد ، والترمذي وقال : حسنٌ صحيح : « ستخرج نار من حضرموت ، أو من بحر حضرموت ، قبل يوم القيامة تحشر الناس . . . » الحديث .

فقد صرح بكونه قبل يوم القيامة ، وحديث حذيفة بن أسيد عند غير البخاري : « لن تقوم الساعة حتىٰ تروا قبلها . . . » الحديث ، فقد تعارض مع حديث البخاري المذكور علىٰ تقدير ثبوت لفظة : « يوم القيامة » ، ولا يمكن تأويلهما بخلافه ، فوجب المصير إليه دفعاً للتعارض ، فثبت أن الحق أن النار قبل يوم القيامة ، وبالله التوفيق .

فإن قلت : كون النار آخر الآيات يستلزم أن لا يكون في الأرض خيار ، وقد صُرح بذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه عند الطبراني ، وابن عساكر المار ؛ فإن فيه : « قيل : يا رسول الله ؛ أهي سليمة على المؤمنين والمؤمنات ؟ قال : وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ ؟! . . . » الحديث .

وفي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما عند أحمد ، وأبي عبيدة ، وعند أبي داود ، والحاكم ، وأبي نُعيم : « فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم » .

وفي بعض الأحاديث : « راغبين راهبين وطاعمين كاسين » ، فيلزم أن يوجد الخيار يومئذ ، وهـٰذا تناقض أو كالتناقض .

قُلْتُ : ليس في الحديث إلا أن خير الناس يهاجرون باختيارهم إلى الشام في رفاهية ورخاء ، ولا يلزم من ذلك أن يبقوا إلىٰ خروج النار ، بل الثابت أن الريح تقبضهم ولا يبقىٰ إلا الشرار ، وأن المراد خيارهم في حال حياة الدنيا من يذهب بنفسه ، وهم الطاعمون الكاسون الذين يجدون الظهر والسعة ، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا خياراً عند الله ، وكونهم راغبين في الوصول إلى السلامة ، راهبين من النار كما فسره به الطيبي لا يلزم منه أن يكونوا مؤمنين .

وهـٰذا واضح ، وبالله التوفيق لسلوك أوضح طريق ، إنه بالإجابة حقيق ، وبعباده رفيق .

تَـذْنيبٌ

ورد في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه : « إن آخر من يحشر راعيان من مُزينة يريدان المدينة ، ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشاً ، حتىٰ إذا بلغا ثنية الوداع خرا علىٰ وجوههما » .

وثنية الوداع : قرب المدينة إلىٰ جهة الشام على الأصح(١) .

وفي رواية ابن أبي شيبة عنه : « رجلان : رجلٌ من جهينة ، وآخر من مزينة ، فيقولان : أين الناس ؟ فيأتيان المدينة فلا يجدان إلا الثعلب ، فينزل إليهما ملكان فيسحبانهما علىٰ وجوههما حتىٰ يلحقانهما بالناس » .

وَروى ابن أبي شيبة أيضاً عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : « آخر الناس محشراً رجلان من مزينة يفقدان الناس ، فيقول أحدهما لصاحبه : قد فقدنا الناس منذ حين ، انطلق بنا إلىٰ شخصٍ من بني فلان ، فينطلقان فلا يجدان أحداً ، ثم يقول : انطلق بنا إلى المدينة ، فينطلقان فلا يجدان بها أحداً ، فيقول : انطلق بنا إلىٰ منزل قريش ببقيع الغرقد ، فينطلقان فلا يريان إلا السباع والثعالب ، فيتوجهان نحو البيت الحرام » .

قال السمهودي في الجمع بينهما : وكأنه إذا توجها نحو البيت الحرام ينزل إليهما الملكان قبل ذهابهما ، فلا يُخالف ما تقدم . انتهىٰ

قُلْتُ : وكونهما من مزينة تغليب ؛ لأن أحدهما من جهينة ؛ كما في رواية ابن أبي شيبة ، والله أعلم .

---

(١) للمدينة أكثر من ثنية ، فمن جهة الشمال تقع الثنية المشهورة ، ومن جهة الجنوب توجد ثنايا أيضاً معروفة الآن ، فتحديد ثنية الوداع بالشامية ؛ بناءً على الشهرة ، أو لموقع قبيلة مزينة من قبل المُصَنِّف ، أمَّا الحكم بأنه لا ثنية إلاَّ الثنية الشامية ؛ فهـٰذا محل نظر ، وليس هـٰذا محل بسطه .

وهٰذا الحشر لهما من نفخ الصور ، فإن بعد النار المذكورة يُنفخ في الصور وتقوم الساعة .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما يتبايعانه ، فلا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ؛ أي : يلطخه بالطين » .

يقال : لاط حوضه ، يليطه ، ويلوطه ؛ إذا لطخه بالطين وأصلحه .

فلا يَسقي فيه ـ أي : إبله ودوابه ـ ولتقومن الساعة وقد رفع أُكْلَتَهُ ـ أي ؛ بضم الهمزة ؛ يعني : لقمته ـ إلىٰ فِيه فلا يطعمها ـ أي : لا يأكلها ـ .

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم والنسائي : « يخرج الدجال فيمكث أربعين . لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو عاماً . . . » الحديث .

وفيه : « يبقىٰ شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع » . . . إلىٰ أن قال : « ثم يُنفخ في الصُّور فلا يسمع أحدٌ إلا أصغىٰ لِيتا ـ ورفع لِيتا ـ قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، فَيَصعق ويَصعق الناس » .

قال في « النهاية » : (اللِّيت) ـ أي : بكسر اللام ـ صفحة العنق ، وهما ليتان . و(أصغىٰ) : أمال . انتهىٰ

والمعنىٰ : أنه يرفع إحدىٰ أذنيه نحو السماء ، كمن يستمع النداء من فوق .

وفي « الصحيحين » : عن أبي هريرة رضي الله عنه : « ما بين النفختين أربعون عاماً » ، ونحوه عند أبي داود وابن مردويه عنه . وروى ابن المبارك عن الحسن مثله .

وعند مسلم والنسائي : « ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد بني آدم ، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس ؛ هَلمَّ إلىٰ ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ . . . » الحديث .

ونسأل الله العفو ، والعافية التامة ، والمغفرة العامة في الدارين لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، ولمشايخنا في الدين ولإخواننا ديناً وطيناً ، ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين ؛ إنه أرحم الراحمين . آمين .

خَاتِـمَة

نختم بها الكتاب إن شاء الله تعالىٰ تتميماً للفائدة

فنقول : قال الإمام الحافظ الحجة جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في رسالته المسماة بـ « الكشف في مجاوزة هٰذه الأمة الألف » : الذي دلت عليه الآثار أن مدة هٰذه الأمة تزيد علىٰ ألف سنة ، ولا تبلغ الزيادة عليها خمس مئة سنة ، وذلك لأنه ورد من طُرقٍ أن مدة الدنيا ـ أي : من لدن آدم عليه السلام إلىٰ قيام الساعة ـ سبعة آلاف سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث في آخر الألف السادسة .

قال : ورد أن الدجال يخرج علىٰ رأس مئة سنة ، وينزل عيسىٰ عليه السلام فيقتله ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة ، وأن بين النفختين أربعين سنة ، فهٰذه مئتا سنة لا بد منها .

قال : ولا يمكن أن تكون المدة ألفاً وخمس مئة سنة أصلاً ، ثم ساق بسنده الأحاديث الدالة علىٰ ما ذكره مُستوفياً لطرقها .

أقول : الذي فُهم مما مر من الأحاديث التي ذكرناها في القسم الثالث أن المهدي يمكث في الأرض أربعين سنة ، وأن عيسىٰ عليه السلام يمكث بعد الدجال أربعين سنة ، كما رواه الحاكم في « المستدرك » عن ابن مسعود رضي الله عنه : « أن عيسىٰ عليه السلام ينزل فيقتل الدجال ، فيتمتعون أربعين سنة ، لا يموت أحدٌ ، ولا يمرض أحد ، ويقول الرجل لغنمه ولدابته : اذهبوا فارعوا ، وتمر الماشية بين الزرعين لا تأكل منه سنبلة ، والحيات والعقارب لا تؤذي أحداً ، والسبع علىٰ أبواب الدور ، ويأخذ الرجل المُدّ من القمح فيبذره بلا حرث فيجيءُ منه سبع مئة مُدٍّ . . . » الحديث .

فإنه ظاهرٌ في أن الأربعين بعد الدجال ، وأن بعد عيسىٰ عليه السلام يتولىٰ أمراء ؛ منهم القحطاني يتولىٰ إحدىٰ وعشرين سنة ، ولنفرض لبقيتهم إلىٰ طلوع الشمس من المغرب عشرين سنة أيضاً إن لم تكن أكثر ، فهٰذه مئة وعشرون سنة ، ومر أن الدجال يمكث أربعين سنة ، فإن لم تكن سنين فلا أقل من مقدار سنتين ؛ لأن أيامه طوال ،

وأن بعد طلوع الشمس من مغربها يمكث الناس مئة وعشرين سنة .

وفي رواية : أن الشرار بعد الخيار عشرون ومئة سنة .

ومر أيضاً : أن المؤمنين يتمتعون بعد طلوعها أربعين سنة ، ثم يُسرع فيهم الموت .

فهـٰذه ثلاث مئة وعشرون سنة ، وقد مضىٰ بعد الألف قريبٌ من ثمانين ، فهـٰذه أربع مئة ، وإلىٰ تمام هـٰذه المئة تبلغ أربع مئة وثلاثين ، وقد مر عن السيوطي أنه لا تبلغ خمس مئة ، بل أخذ بعضهم من قوله تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ، وقوله : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أن الساعة تقوم سنة سبع بعد أربع مئة ، فإن عدد حروف ﴿ بَغْتَةً ﴾ : ألف وأربع مئة وسبع والعلم عند الله تعالىٰ .

فيحتمل خروج المهدي علىٰ رأس هـٰذه المئة احتمالاً قوياً بل قبل المئة ، إذ الدجال يخرج في خلافته ، وهو كما مر يخرج علىٰ رأس المئة .

ويحتمل أن يتأخر للمئة الثانية ، ولا يفوتها قطعاً[1] ، وإذا تأخر فلا بد أن يبعث الله علىٰ رأس هـٰذه المئة من يحيي للأمة أمر دينها ؛ كما ورد في حديث مشهور .

قال الحافظ السيوطي في منظومته :

وَٱلشَّـرْطُ فِـي ذَلِـكَ أَنْ تَمْضِـي ٱلْمِئَـهْ　　وَهْـوَ عَلَـىٰ حَيَـاتِـهِ بَيْـنَ ٱلْفِئَـهْ
يُشَـارُ بِـٱلْعِلْـمِ إِلَـىٰ مَقَـامِـهِ　　وَيَنْصُـرُ ٱلسُّنَّـةَ فِـي كَـلَامِـهِ
وَأَنْ يَكُـونَ فِـي حَـدِيـثٍ قَـدْ رُوِي　　مِـنْ أَهْـلِ بَيْـتِ ٱلْمُصْطَفَـىٰ وَهْـوَ قَـوِي

---

(١) وهـٰكذا قال في الصفحة (١٣٩) بظهور المهدي في المئة الثانية بعد الألف قطعاً ، وهـٰذا مُشْكلٌ ؛ فإنه قد مرت المئة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، وها نحن قد دخلنا في الخامسة ، اللهم ؛ إلاَّ أن يُقال : لما تظاهرت العلامات علىٰ خروج المهدي فأحدث ذلك يقيناً قطعياً في رأي المؤلف ، فقال ذلك الكلام ، والحال أن دلالة العلامة على المعلم لها ظنية دائماً ، فخروج المهدي وظهوره ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة المتواترة ، وأما وقت ظهوره فلا يعلمه قطعاً إلاَّ الله تعالىٰ ، وقد أشار المُصَنِّف إلىٰ ذلك بقوله (ص ٣٤٥) : « وهـٰذه كلها مظنونات » ، وقد وقع مثل هـٰذا لكثير من الأئمة مثل الحافظ السيوطي كما تقدم النقل عنه ، والإمام محمد عمر بحرق تلميذ الحافظ السخاوي في « حدائق الأنوار » ، وغيرهم من الأئمة حسبما ظهر لهم من فهمٍ للنصوص .

ويرجح الاحتمال الثاني : ما أخرج نُعيم بن حماد عن محمد ابن الحنفية قال : يقوم المهدي سنة مئتين .

وأخرج عن جعفر الصادق قال : يقوم المهدي سنة مئتين .

وأخرج أيضاً عن أبي قبيل قال : اجتماع الناس على المهدي سنة أربع ومئتين .

تَنبيه

وجه الجمع بين الروايات : أن كمال ظهوره وذلك إنما يكون بفتح القسطنطينية يكون سنة مئتين ، وتجتمع عليه الناس أجمعون سنة أربع ومئتين وذلك بعد فتح الرومية والقاطع ، وهٰذا لا ينافي خروج الدجال علىٰ رأس مئة ؛ لأنه باعتبار أول خروجه بالمشرق وادعائه الخلافة ، أو لأن الأربع والخمس بل والعشر من أول المئة يعد من رأس المئة عُرفاً .

وعلىٰ هٰذا : فيكون خروج المهدي بسبع أو بتسع أو بثلاثين أو بأربعين قبل المئة ، لا يخرجه عن كونه يخرج علىٰ رأس المئة ، وكذلك إن تأخر آخر مدته عن رأس المئة .

وهٰذه كلها مظنونات وردت بأخبار الآحاد ، بعضها صحاح وبعضها حسان ، وبعضها ضعاف مع شواهد ، وبعضها بغير شواهد .

وغاية ما ثبت بالأخبار الصحيحة الصريحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي منها بل أولها خروج المهدي ، وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة رضي الله عنها يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظُلماً ، وأنه يقاتل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية ، ويخرج الدجال في زمنه وينزل عيسىٰ عليه السلام ويُصلي خلفه ، وما سوىٰ ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكة ، والله أعلم بحقيقة الحال .

ونعوذ بالله من الزيغ والضلال ، والغلو في المقال ، والحمد لله علىٰ كل حال ، والصلاة علىٰ حائز قصبة الكمال ، في الغدو والآصال ، وعلىٰ آله وصحبه خير صحب وآل ، وغفر الله لنا ولوالدينا وآبائنا وإخواننا طيناً وديناً وصلباً وقلباً ولجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم آمين .

قال مؤلفه الفقير إلى الله تعالىٰ محمد بن رسول بن عبد السيد العلوي الحسيني الموسوي الشهرزوري البرزنجي ثم المدني عفا الله عنه : ختمتُها يوم الأربعاء بين الصلاتين حادي عشر شهر الله الحرام ذي القعدة من شهور سنة (١٠٧٦هـ) بالمدينة النبوية ، بمنزلي بالزقاق المعروف بالسويقة ، حامداً ومُصلياً ، مُستغفراً مُحسبلاً ومُحوقلاً داعياً بالمغفرة للمسلمين والمسلمات .

جعلها الله ذريعة ليوم المعاد بجاه سيد العباد آمين . وصلى الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين آمين .

آخر ما ورد بالمخطوطة « أ » :

وكان الفراغ من تعليق هٰذه النسخة المباركة بين الصلاتين سابع عشر شهر رجب الفرد المبارك سنة مئة بعد الألف يوم الإثنين ، بين الصلاتين ، علىٰ يد الفقير إليه تعالىٰ محمد بن إبراهيم بن محمد بن ياسين غفر الله له ولوالديه ولمن قرأ لهم الفاتحة ولكافة المسلمين أجمعين ، آمين ، آمين ، آمين[1] .

* * *

آخر ما ورد بالمخطوطة (ب) :

نجز تحرير زبرها بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه ، يوم الجمعة قبيل الزوال ، خامس عشرين رمضان المعظم من شهور سنة ثمان وأربعين ومئتين وألف ، بقلم العبد الضعيف الراجي من الخبير اللطيف الوصول إلىٰ كل مقام شريف : منصور بن أبي مدين . والحمد لله رب العالمين . آمين .

* * *

آخر ما ورد بالمخطوطة (ج) :

قال مؤلفه الفقير إلى الله تعالى : محمد بن رسول بن عبد السيد العلوي الحسيني الموسوي الشهرزوري البرزنجي ثم المدني عفي عنه : ختمتها يوم الأربعاء بين

---

(١) وعلى هامشها : بلغ قراءة ومقابلة .

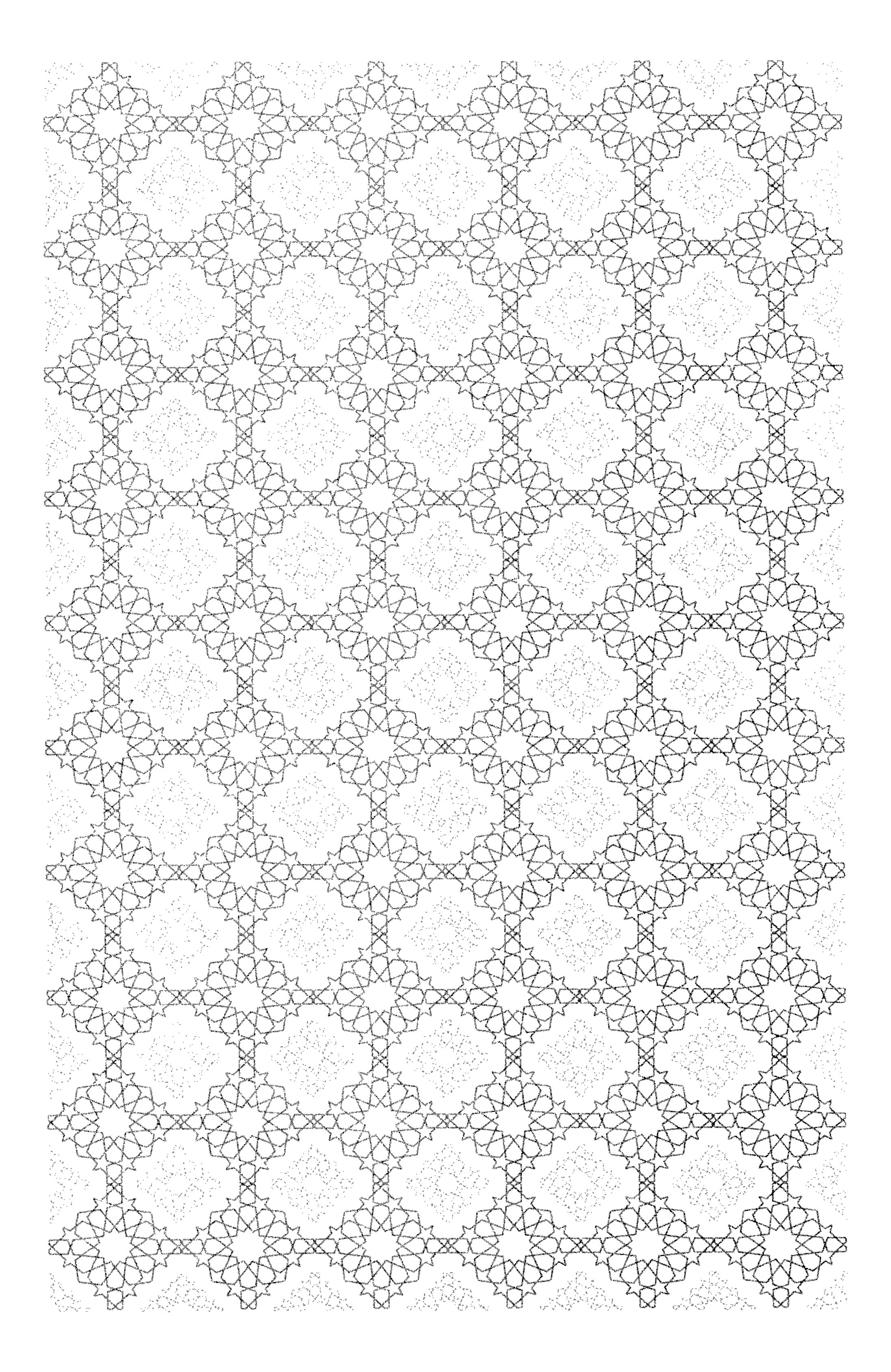
الصلاتين حادي عشر شهر الله الحرام ذي القعدة من سنة (١٠٧٦هـ) بالمدينة النبوية بمنزلي بالزقاق المعروف بسويقة ، حامداً ومصلياً ، مستغفراً محسبلاً ، محوقلاً داعياً بالمغفرة للمسلمين والمسلمات ، جعلها الله ذريعة ليوم المعاد بجاه سيد العباد . آمين .

وصلى الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين . آمين ، آمين ، آمين .

* * *



ذيل الإشاعة في الفتن الباقية



أسئلة الدجال « جمع الفوائد » (٢ ص ٢٩٣)

١ـ عن نخل بيسان قال : هل يثمر ؟ قالوا : نعم . قال : يوشك أن لا يثمر .

٢ـ وعن بحيرة طبرية . هل فيها ماء ؟ قالوا : نعم . قال : يوشك أن يذهب .

٣ـ عين زغر . قالوا : يزرع ، وفيها ماء كثيرة(١) .

---

(١) أشار شيخنا رحمه الله تعالىٰ إلىٰ حديث معروف بين طلاب العلم بحديث الجسّاسة ، رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصحابي تميم الداري رضي الله تعالىٰ عنه ، قد رواه الإمام مسلم ، والإمام أبو داود ، والإمام الترمذي رحمهم الله تعالىٰ ، وفي الحديث لطيفةٌ إسنادية حديثية ؛ وهي رواية النبي صلى الله عليه وسلم عن الصحابي .

عن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالىٰ عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر فنودي الصلاة جامعة ، فلما قضى الصلاة جلس على المنبر وهو يضحك فقال : ليلزم كل إنسان مصلاه . قال : هل تدرون لم جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولـٰكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً ، فجاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال :

حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْم وجُذَام ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أرفؤوا إلىٰ جزيرةٍ في البحر حيث مغرب الشمس ، فجلسوا إلىٰ أَقْرُبِ السفينة ، فلقيتهم دابةٌ أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قُبله من دُبره ، فقالوا : ويلك! ما أنت ؟ قالت : أنا الجسّاسة . قالوا : وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم ؛ انطلقوا إلىٰ هـٰذا الرجل الذي في الدير ؛ فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق . قال : لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة ، فانطلقنا سراعاً حتىٰ دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه إلىٰ عنقه ما بين ركبتيه إلىٰ كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك! ما أنت ؟ قال : قد قدرتم علىٰ خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قال : نحن ناسٌ من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم ، فلعب بنا الموج شهراً ثم أَرْفأنا إلىٰ جزيرتك هـٰذه ، فجلسنا في أَقْرُبِها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقينا دابة أهلب كثير الشعر لا ندري ما قُبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا : ويلك! ما أنت ؟ فقالت : الجساسة . قلنا : وما الجساسة ؟ قالت اعمدوا إلىٰ هـٰذا الرجل الذي في الدير ؛ فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعاً ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة . قال : أخبروني عن نخل بيسان . قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ فقلنا له : نعم . قال : أما إنها توشك أن لا تثمر . قال : أخبروني عن بحيرة طبرية . قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء ، قال : أما إنها يوشك أن يذهب ، قال : أخبروني عن عين زغر . قالوا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها ، =

= قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل . قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم . قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر علىٰ من يليه من العرب ، وأطاعوه . قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم . قال : أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني : أنا المسيح ، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ؛ فإنهما محرمتان عَلَيَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها ، وإن علىٰ كل نقب من أنقابها ملائكة يحرسونها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطعن بمخصرته في المنبر هٰذه طيبة ، هٰذه طيبة ، هٰذه طيبة ، ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم . قال : فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، إلا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق وما هو من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ، ما هو . وأومأ بيده إلى المشرق ، قالت : فحفظت هٰذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن رواياته قالت : فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يخطب ، فقال : إن بني عم لتميم الداري ركبوا في البحر . . . وساق الحديث .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخرج تميماً إلى الناس فحدثهم .

ومنها : قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس حدثني تميم الداري أن أناساً من قومه كانوا في البحر في سفينة لهم ، فانكسرت بهم السفينة ، فركب بعضهم علىٰ لوح من ألواح السفينة ، فخرجوا إلىٰ جزيرة . . . وساق الحديث .

ومنها : قالت : صلّى الظهر ، ثم صعد المنبر .

ومنها : أنه أَخَّر العشاء الآخرة ذات ليلة ، ثم خرج فقال : إنه حبسني حديث كان يحدثنيه تميم الداري عن رجل كان في جزيرة . . . بنحوه .

وفيه أن الجساسة قالت له : اذهب إلىٰ ذلك القصر ، فأتيته فإذا رجل يجر شعره ، مسلسل في الأغلال ، ينزو فيما بين السماء والأرض .

ومنها : أن ناساً من أهل فلسطين ركبوا سفينة في البحر ، فجالت بهم . . . نحوه . وفيه : قالت : أنا الجساسة . قالوا : فأخبرينا . قالت : لا أخبركم ، ولا أستخبركم ، ولٰكن ائتوا أقصى القرية فإن ثَمَّ من يخبركم ويستخبركم . فأتينا أقصى القرية فإذا رجل موثق . . . بنحوه . وفيه قال : أخبروني عن نخل بيسان الذي بين الأردن وفلسطين ؛ هل أطعم ؟ قلنا : نعم .

لمسلم ، والترمذي ، وأبي داود ، وله عن جابر نحوه . وفيه : شهد جابر أنه ابن صياد ، قلت : فإنه قد مات . قال : وإن مات . قلت : فإنه أسلم . قال : وإن أسلم . قلت : فإنه دخل المدينة . قال : وإن دخل المدينة .

« جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٩٣) (كتاب الملاحم وأشراط الساعة) .

٤ـ عن أبي ذرّ رضي الله عنه : قال عليه الصلاة والسلام له : « كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت ؟ »[١] .

وحمله القاري (ج ٥ ص ١٣٥) علىٰ وقعة يزيد . قال : وكان الأمير علىٰ تلك الجيوش مسلم بن عقبة المُرّي .

٥ـ حذيفة مرفوعاً : « يكون بعد هٰذا الخير شر ؟[٢] قال : نعم . [قال] فما العصمة ؟ قال : السيف » . « البذل » (ج ٥ ص ٩٠) ، حمله الشيخ علىٰ مقتل

---

(١) إشارة إلىٰ حديث طويل رواه أبو داود عن أبي ذر رضي الله تعالىٰ عنه ؛ رفعه : يا أبا ذر . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم ؟ قلت : ما خار الله لي ورسوله . قال : عليك بمن أنت منه . قلت : يا رسول الله ؛ أفلا آخذ سيفي فأضعه علىٰ عاتقي ؟ قال : شاركت القوم إذاً . قلت : فما تأمرني ؟ قال : تلزم بيتك . قلت : فإن دَخَل عَليَّ بيتي ؟ قال : فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك علىٰ وجهك يبوء بإثمك وإثمه . لأبي داود مطولاً .

« جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٣ كتاب الفتن ـ أعاذنا الله منها ـ) .

(٢) أشار الشيخ رحمه الله تعالىٰ إلىٰ ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالىٰ بسنده عن سبيع بن خالد قال : أتيت الكوفة في زمن فتحت تُستر أجلب منها بغالاً ، فدخلت المسجد فإذا صدعٌ من الرجال ، وإذا رجل جالس تعرف إذا رأيته أنه من رجال أهل الحجاز ، قال : قلت : من هٰذا ؟ فتجهمني القوم وقالوا : أما تعرف هٰذا ؟! هٰذا حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال حذيفة : إن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر . فأحدقه القوم بأبصارهم ، فقال : إني قد أرى الذي تنكرون ، إني قلت : يا رسول الله ؛ أرأيت هٰذا الخير الذي أعطانا الله تعالىٰ ، أيكون بعده شر كما كان قبله ؟ قال : نعم . قلت : فما العصمة من ذلك ؟ قال : السيف . قلت : يا رسول الله ؛ ثم ماذا يكون ؟ قال : إن كان لله تعالىٰ خليفة في الأرض ، فضرب ظهرك ، وأخذ مالك فأطعه ، وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم يخرج الدجّال معه نهر ونار ، فمن وقع في ناره وجب أجره ، وَحُطَّ وزره ، ومن وقع في نهره وجب وزره ، وَحُطّ أجره . قال : قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم هي قيام الساعة .

حدثنا محمد بن يحيى بن فارس قال : حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن نصر بن عاصم عن خالد بن خالد اليشكري بهٰذا الحديث قال : قلت : بعد السيف قال : بقية علىٰ أقذاء ، وهدنة علىٰ دخن . ثم ساق الحديث .

قال : وكان قتادة يضعه على الردّة التي في زمن أبي بكر ، علىٰ أقذاء يقول : قذي ، وهدنة يقول : صلح علىٰ دخن علىٰ ضغائن .

« بذل المجهود » (ج ١٢ ص ١٣٦ كتاب الفتن) .

عثمان رضي الله تعالىٰ عنه ، وعندي الردّة .

٦ـ « وبعد السيف قال : بقيةٌ علىٰ أقذاءٍ ، وصلحٌ علىٰ دخن »(١) « البذل » (ج ٥)

حملهُ قتادة على الردّة ، وأوّله الوالد كما حكاه الشيخ في « البذل » ، وحمله من عند نفسه علىٰ صلح معاوية وعليّ رضي الله عنهما في التحكيم ، وعندي صُلْحُ الحسن[1] .

٧ـ عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه ؛ رفعه : « ستكون فتنة تستنظف العرب ، قتلاها في النار[2] . « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٢) عن الترمذي ، وأبي داود ، وحمله في حاشية كليهما علىٰ وقعة الصفين ، وكذا القاري (ج ٥ ص ١٤٧) مع الاحتمال .

٨ـ فتنة الأحلاس[3] « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٦) حمله الشيخ الشاه ولي الله

---

(١) قال الإمام الشاه ولي الله رحمه الله تعالىٰ : الفتنة التي يكون العصمة فيها السيف ارتداد العرب في أيام أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه ، وأما إمارة علىٰ أقذاء : فالمشاجرات التي وقعت في أيام عثمان وعلي رضي الله عنهما . وهدنة علىٰ دخن : الصلح الذي وقع بين معاوية والحسن بن علي رضي الله عنهما . ودعاة الضلال : يزيد بالشام ، ومختار بالعراق ، ونحو ذلك ، حتى استقر الأمر علىٰ عبد الملك .

« حجة الله البالغة » (ج ٣ ص ١٩٦ باب الفتن) .

(٢) أشار إلىٰ ما رواه أبو داود ، والترمذي : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها ستكون فتنة تستنظف العرب قتلاها في النار ، اللسان فيها أشد من وقوع السيف » .

« بذل المجهود » (ج ١٢ ص ١٢١ باب في كف اللسان) .

ولٰكن قال شيخنا رحمه الله تعالىٰ في « حاشية البذل » : حملها عامة المحشّين علىٰ أبي داود والترمذي [على] القتال بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وسكت عنه محشي ابن ماجة ، وكذا حكاها القاري وقال : لا يجوز حمله علىٰ هٰذه الفتنة . وهٰكذا في الكوكب الدرّي أن الأسلم أنها لم تعلم أيّها هي .

(٣) إشارة إلىٰ ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالىٰ في حديث طويل وفيه ذكر فتنٍ عديدةٍ ، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله تعالىٰ عنهما ، يقول : كنا قعوداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر الفتن فأكثر في ذكرها ، حتىٰ ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل : يا رسول الله ؛ وما فتنة الأحلاس ؟ قال : « هرب وحرب ، ثم فتنة السرّاء ، دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني وليس مني ، وإنما أوليائي المتقون ، ثم يصطلح الناس علىٰ رجل كورك علىٰ ضلع ، ثم فتنة الدهيماء لا تدع =

الدهلوي في « حجة الله » (ج ٣ ص ١٥٩)[١] علىٰ قتال أهل الشام ابن الزبير رضي الله عنه ، وفي « البذل » (ج ٥ ص ٨٨) علىٰ مقتل عثمان رضي الله عنه .

٩ـ « ثم فتنة السراء ، دخنها تحت قدمي رجل مني »[٢] . قال : وفي « حجة الله » (ج ٣ ص ١٥٩) : هو تغلّب المختار ، أو خروج أبي مسلم الخراساني لبني العباس[٣] .

وفي « البذل » (ج ٥ ص ٨٩) : علىٰ فتنة شريف مكة سنة ١٣٣٤هـ[٤] .

= أحداً من هٰذه الأمة إلا لطمته لطمة ، فإذا قيل : انقضت تمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويمسي كافراً حتىٰ يصير الناس إلىٰ فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإن كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده » .

« بذل المجهود » (ج ١٧ ص ١٣٢ كتاب الفتن والملاحم) .

(١) قال الإمام الشاه ولي الله رحمه الله : يشبه والله أعلم أن تكون فتنة الأحلاس قتال أهل الشام عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بعد هربه من المدينة .

« حجة الله البالغة » (ج ٣ ص ١٩٦) .

(٢) إشارة إلىٰ ما ورد من حديث أبي داود الطويل الذي ذكرناه من قبل .

(٣) قال الإمام الشاه ولي الله رحمه الله : وفتنة السراء : إما تغلب المختار وإفراطه في القتل والنهب يدعو ثأر أهل البيت .

فقوله عليه السلام : « يزعم أنه مني » ؛ معناه : من حزب أهل البيت وناصريهم ، ثم اصطلحوا علىٰ مروان وأولاده .

أو خروج أبي مسلم الخراساني لبني العباس ، يزعم أنه يسعىٰ في خلافة أهل البيت ، ثم اصطلحوا على السفاح .

« حجة الله البالغة » (ج ٣ ص ١٩٦) .

(٤) قال الإمام السهارنفوري رحمه الله تعالىٰ : والذي يظهر لي : أنها هي الفتنة التي حدثت في رمضان سنة ألف وثلاث مئة وأربع وثلاثين ، ومنشأها أن الشريف حسين بن علي كان في زمن حكومة الأتراك شريفاً تابعاً لحكومتهم ، ثم راسل إحدىٰ سلطنة من النصارىٰ في زمان الحرب الكبير ، وكان الحرب بين سلطنة الأتراك وحكومة النصرانية ، فلحق بالحكومة النصرانية سراً ، ووافق معهم علىٰ حرب الأتراك ، فقتل الأتراك الذين كانوا في مكة المكرمة من جند الأتراك ، وسبىٰ نساءهم ، ثم تولى الحكومة بنفسه ، وسمىٰ نفسه : ملك الحجاز . وبقيت حكومته قريباً من عشر سنين ، ثم اضمحل أمره ، واصطلح الناس علىٰ حكومة ابنه علي بن الحسين ، ولم ينتظم له أمر فبقي كورك علىٰ ضلع .

وإنما سمىٰ هٰذه الفتنة فتنة السرّاء ؛ لأن مبناه وأسباب حديثها كانت في السرّ ، فإن الحكومة =

١٠ـ « ثم يصطلح الناس علىٰ رجل كورك »[١] ، وفي « حجة الله » ص[٢] .

١١ـ « ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هـٰذه الأمة إلا لطمته حتىٰ يصير الناس فسطاطين »[٣] « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٦) حمله في « البذل » (ج ٥ ص ٨٩) علىٰ فتنة تمتد إلىٰ خروج المهدي[٤] .

١٢ـ « حتىٰ يصير الناس فسطاطين : إيمان لا نفاق فيه ، ونفاق لا إيمان فيه فانتظروا الدجال من يومه أو غده »[٥] « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٦) .

١٣ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتتل فئتان عظيمتان ، دعوتهما واحدة » « البخاري » .

= النصرانية ، أمَالته إليها ، وأرسلت إليه من الجنيهات ألوفاً في السر ؛ ليبغي علىٰ حكومة الإسلام وينحرف عنها ، فقسم من هـٰذه الجنيهات في أهل البدو ، وتوافق معهم علىٰ قتال الأتراك المسلمين ، وكل ذلك في السر . واتفق أن قائد الأتراك الذي كان بمكة أخبر بشيء من هـٰذه الفتنة ، فسأل الشريف عنها ، فحلف عند الكعبة أنه لا أصل لها حتى اطمأن قائد الأتراك ، ثم وقع ما وقع من قتل المسلمين ، وسبي نسائهم ، وإرسالهم إلى الكفار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ويحتمل أن يكون السراء من السرور ؛ لأن في ذاك الزمان بعد الحصار والمضايقة الشديدة نثرت على العرب الجنيهات ، والحبوب ، وسائر الأطعمة بعد الفقر الشديد حتىٰ أن أحدهم من أفقر العربان لا يملك جنيهين مَلَكَ ثمانية وأربعين ألف جنيهاً ، وهو عبيد الله بن هويمل الحازمي ، وكذلك غيره ، سمعت هـٰذا من أحد علماء المدينة كان موصوفاً بالثقة والإتقان .

« بذل المجهود » (ص ١٣٤ ج ٧ كتاب الفتن) .

(١) انظر الحديث الذي فيه ذكر الأحلاس .

(٢) هـٰكذا ترك الشيخ البياض في الأصل ، وانظر الحاشية التي كتبناها علىٰ لفظة السرّاء ، ومحصل كلام الإمام الشاه ولي الله رحمه الله : أنه إن كان المراد بفتنة السراء تغلّب المختار ، فمعنىٰ : « يصطلح الناس علىٰ رجل كورك » : اصطلاحهم علىٰ مروان ، وإن كان المراد خروج أبي مسلم الخراساني لبني العباس فالمراد اصطلاحهم على السفاح .

(٣) انظر الحديث الذي ذكرنا في فتنة الأحلاس .

(٤) فيه اختصار مُخلٌ كأنّه حمله علىٰ فتنة تكون من قبيل خروج المهدي ، وتمتد إلىٰ نزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، قال في « البذل » (ج ١٧ ص ١٣٦) ـ بعد ذكر الفسطاطين ـ : وهـٰذه الفتنة بعدُ ، وسيكون قبيل ظهور المهدي ويمتد إلىٰ نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . اهـ

(٥) انظر الحديث في حاشية فتنة الأحلاس (ص ٣٥٤) .

المراد بهما : علي رضي الله عنه ومن معه ، ومعاوية رضي الله عنه ومن معه[1] ، « فتح الباري » (ج ١٣ ص ٦٩) « الإشاعة » ص ٥٢ .

١٤ـ « فتنة عمياء[2] صمّاء عليها دعاة علىٰ أبواب النار » . من رواية حذيفة رضي الله عنه .

قال في « البذل » (ج ٥ ص ٩١) : ولا يبعد أن يحمل هـٰذا علىٰ ما وقع في أيّام يزيد بن معاوية ؛ من قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما وجماعته ، أو علىٰ ما وقع في أيام الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك ، حيث قتل ابن الزبير رضي الله عنه .

١٥ـ أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتلوا إمامكم ، ويرث دنياكم شِراركم » : حمله في « إزالة الخفاء » (ص ١٨٣) علىٰ شهادة عثمان رضي الله عنه ، وتقدّم .

١٦ـ أبو بكر رضي الله عنه رفعه قال : « ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة ، عند نهر يقال له : دجلة ، يكون عليه جسر يكثر أهلها ، ويكون من أمصار المهاجرين ، قال ابن يحيىٰ : قال أبو معمر : ويكون من أمصار المسلمين ، فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عِراضُ الوجوه صغار الأعين حتىٰ ينزلوا علىٰ شط النهر ، فيتفرق أهلها ثلاث فرق ، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية ، وهلكوا ، وفرقة

---

(١) تقدم ص (٥٢) وانظر رأي شيخنا رحمه الله تعالىٰ في مصداق « فتنتان عظيمتان » في الحاشية هناك .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالىٰ من حديث حذيفة رضي الله عنه عن نصر بن عاصم الليثي قال : أتينا اليشكري في رهط من بني ليث ، فقال : من القوم ؟ فقلنا : أتيناك نسألك عن حديث حذيفة ، فذكر الحديث : قال : « يا رسول الله ؛ هل بعد هـٰذا الخير شر ؟ قال : فتنة وشر . قال : قلت : يا رسول الله ؛ بعد هـٰذا الشر خير ؟ قال : يا حذيفة ؛ تعلم كتاب الله ، واتبع ما فيه . ثلاث مرات . قال : قلت : يا رسول الله ؛ هل بعد هـٰذا الشر خير ؟ قال : هدنة علىٰ دخن ، وجماعة علىٰ أقذاء فيها أو فيهم . قلت : يا رسول الله ؛ الهدنة على الدخن ما هي ؟ قال : لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه . قال : قلت : يا رسول الله ؛ هل بعد هـٰذا الخير شر ؟ قال : فتنة عمياء صمّاء ، عليها دعاة علىٰ أبواب النار ، فإن تمت يا حذيفة وأنت عاض علىٰ جذل خير لك من أن تتبع أحداً منهم » .

« بذل المجهود » (ج ١٧ ص ١٤١) .

يأخذون لأنفسهم ؛ وكفروا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم ؛ وهم الشهداء » .

في « البذل » (ج ٤ ص ١٠٨) عن « فتح الودود » : قيل : المراد بالبصرة بغداد . وفيه باب يسمىٰ : باب البصرة ، فسماه صلى الله عليه وسلم باسم البصرة ، ويؤيده : أن دجلة جريها في بغداد . ولم يقع مثل هٰذه الواقعة بالبصرة قط ، وإنما وقع في بغداد زمان المعتصم بالله العباسي ، فالظاهر أن في الحديث إشارة إلىٰ ذلك ، وفي بين سطور أبي داود (ج ٣ ص ٢٣٥) عن « مرقاة الصعود » : وقع كما قال في صفر سنة ٦٥٦هـ .

١٧ـ حارثة بن وهب مرفوعاً : « سيأتي على الناس زمان يمشي الرجل بصدقته ، فلا يجد من يقبلها » « البخاري » .

يحتمل أن يراد به ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز ، ويحتمل ما سيقع في زمن عيسىٰ عليه السلام ، « فتح الباري » (ج ١٣ ص ٦٦) تقدم في « الإشاعة » ص ١٠٤ .

١٨ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ مرفوعاً : « ستكون فتنة واختلاف ـ أو اختلاف وفتنة ـ فعليكم بالأمير وأصحابه » ، وأشار إلىٰ عثمان رضي الله عنه . « إزالة الخفاء » (ص ١٧١ وص ٢٦٦) « الإشاعة » ص ٤٠ .

١٩ـ ابن عمر رضي الله عنهما ؛ رفعه : « يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة حتىٰ يكون أبعد مسالحهم سُلاح »

قال الزهري : « سلاح » قريبٌ من خيبر « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٣٨٩) عن « أبي داود » (ج ٣ ص ٣٣٧) ، وفي هامشه : لعله في زمن الدجال ، أو زمن آخر : وسكت في « البذل » .

٢٠ـ « لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ » « البخاري » .

ووقع في جمادى الأخرىٰ سنة ٦٥٤هـ تقدم في « الإشاعة » ص ٨٦ .

٢١ـ « ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب » « فتح الباري »[١] (ج ١٣ ص ٨٧) تقدم في « الإشاعة » ص ٦٨ .

٢٢ـ أبو مالك ؛ رفعه : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِرَ والحرير ، والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلىٰ جنب علم ، تروح عليهم سارحة لهم ؛ فيأتيهم رجل لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله ، ويضع العَلَم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلىٰ يوم القيامة » « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٢٨٦) .

٢٣ـ أبو هريرة رضي الله عنه ؛ رفعه : « لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أَليات نساء دوس علىٰ ذي الخَلَصة » « جمع الفوائد » (ج ٣ ص ٣٩١) .

٢٤ـ عوف بن مالك ؛ رفعه : « تكون هدنة بينكم وبين بني الأصفر ، ثم يغدرون ، فيأتون تحت ثمانين راية ، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً » « جمع الفوائد » (ص ٣٩٣ عن البخاري) وَتقدّم .

٢٥ـ بريدة بن الحصيب مرفوعاً في حديث : « يقاتلكم قوم صغار الأعين » ؛ يعني : التُّرك ، تسوقونهم ثلاث مرار حتىٰ تلحقوهم بجزيرة العرب ، فأما في السياقة الأولىٰ فينجو من هرب منهم ، وأما في الثانية فينجو بعض ويهلك بعض ، وأمّا في الثالثة فيصطلحون أو كما قال . « بذل المجهود » (ج ١٧ ص ٣١٨) .

وحمل الشاه ولي الله رحمه الله في « حجة الله » (ج ٣ ص ١٥٩) أنَّ السياقة الأولىٰ بقتال جنكيز خان ، والثانية بوطء تيمور ، والثالثة بغلبة العثمانية[٢] .

* * *

---

(١) كأنه أشار إلىٰ ما قال الحافظ في « الفتح » في تخصيص العرب بالذكر ؛ حيث قال : إنما خص العرب بالذكر ؛ لأنهم أول من دخل في الإسلام ، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم . « الفتح » (ج ١٣ ص ١٤) .

(٢) هـٰذا مختصر من كلام الإمام الدهلوي رحمه الله ، وتمام كلامه : قال بعد ذكر الحديث مختصراً : معناه أن العرب يجاهدونهم ويغلبونهم ، فيصير ذلك سبباً لأحقاد وضغائن حتىٰ يؤول الأمر إلىٰ أن يذب العرب من بلادهم ، ثم لا يقتصرون علىٰ ذلك ، بل يدخلون بلاد العرب ، وهـٰذا هو المراد من قوله : « حتىٰ تلحقوهم بجزيرة العرب » ، أما في السياقة الأولىٰ فينجو من العرب من هرب من قتالهم ؛ بأن يفرّ من بين أيديهم ، وذلك صادق بقتال الجنكيزية ، فهلك العباسية الذين كانوا ببغداد ، ونجا العباسية=

مُلتقط أبواب الفتن من إزالة الخفاء

(للإمام ولي الله الدهلوي)

حديث : « تدور رَحى الإسلام بخمس وثلاثين ـ أو ست وثلاثين . . . أو سبع وثلاثين ـ فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً » . . . الحديث .

فإنَّ مقتل عثمان رضي الله عنه كان لخمس وثلاثين ، ثم انتشر أمر الجهاد حتى استقر في زمن معاوية رضي الله عنه ، ومن هٰذا اليوم إلى انتشار أمر بني أمية سبعون سنة ، وإلىٰ مقتل عثمان رضي الله عنه يشير حديث : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتلوا إمامكم ، وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم » .

حديث ابن مسعود رفعه : « أحذِّركم سبع فتن تكون من بعدي : أولها فتنة تُقْبِل من المدينة » ، الحديث ، وفتنة المدينة من قبل طلحة والزبير .

ثم النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالقعود في هٰذه الفتنة (أي : الفتنة بعد عثمان) فقال : « القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير . . . إلخ » .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خيرية الرجال بقبل الفتنة، وشريتهم بعدها بوجوه :

الأول : بحديث : « تدور رَحى الإسلام » . . . إلخ ، فإن رَحى الإسلام عبارة عن غلبة الحق ووجود الجهاد ، والهلاك جامع لجميع أنواع الشرور أهمها انقطاع الجهاد .

والثاني : بأحاديث الخلافة في المدينة والملك بالشام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل » . . . إلخ .

والثالث : بنزوع الأمانة ؛ فقد روىٰ حذيفة رضي الله عنه : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين . رأيت أحدهما ، وأنتظر الآخر ، الحديث . فيه نزول

= الذين فرّوا إلىٰ مصر . وأما في السياقة الثانية فينجو بعض ، ويهلك بعض ، وذلك صادق بوطء تيمور ديار الشام ، وإهلاك أمر العباسية ، وأما في الثالثة فيصطلحون ، وذلك صادق بغلبة العثمانية علىٰ جميع العمل ، والله أعلم . « حجة الله » (ج ٣ ص ١٩٧) .

الأمانة ورفعها ، ولا شك أن حذيفة رضي الله عنه رأى اختلال الأمانة بعد هـٰذه الفتنة ، ولذا قال : أما اليوم فلم أكن أبايع إلا فلاناً وفلاناً .

والرابع : بأحاديث ظهور الكذب ؛ كما في قوله عليه الصلاة والسلام : « أوصيكم بأصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذي يلونهم ، ثم يفشو الكذب ». . . إلخ .

وأخرج مسلم قال : « جاء بُشَير بن كعب إلى ابن عباس رضي الله عنهما فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يا بن عباس ؛ مالي لا أراك تسمع لحديثي؟! أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع .

فقال ابن عباس : إنّا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف » .

ولا شك أن أول زمان ابن عباس كان زمان أمانة ، وبعد الفتنة كان زمان ركب الصعب والذلول .

والخامس : تعمقهم في تجويد ألفاظ القرآن ، وذهولهم عن معانيه ، كما وردت الروايات بهـٰذا المعنىٰ .

السادس : تعمقهم في تأويل متشابهات القرآن ، وقد ورد النهي عنه .

والسابع : تعمقهم في الصور الفرضية الفقهية ، وقد تحاشا عنه السلف .

والثامن : ظهور الأسئلة في الإلهيات .

والتاسع : ظهور الروايات عن بني إسرائيل ، وأهل الكتاب .

والعاشر : ظهور الأوراد والوظائف تقرباً إلى الله تعالىٰ .

والحادي عشر : جرأتهم على الوعظ والفتوىٰ ويتحاشا عنه السلف .

والثاني عشر : وقوع القتال بين المسلمين ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « إن بين يدي الساعة لهرجاً ». . . الحديث ، وما في معناه .

الثالث عشر : سب السلف ؛ ففي أحاديث علامات القيامة : « سَبَّ آخر هٰذه الأمة أوّلها » ، وقد ظهر بعد مقتل عثمان رضي الله عنه .

والرابع عشر : افتراق المسلمين ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « تفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين » .

والخامس عشر : ظهور الخوارج ، وقد ورد حديثٌ متواتراً معنىٰ . وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ينشأ نشأ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج قرن قطع » ؛ يقول عليه السلام : كلما خرج قرن قطع عشرين مرة حتىٰ يخرج في عراضهم الدجال » .

السادس عشر ، إلى الثامن عشر : ظهور القدرية ، والمرجئة ، والروافض .

التاسع عشر : استحلال الفروج بتأويل المتعة ، واستحلال الخمر بتأويل النبيذ ، واستحلال المعازف .

العشرون : ارتفاع الأمن عن المسلمين .

الحادي والعشرون : استخلاف من ليس بأهل ، قال عليه الصلاة والسلام : « يرث دنياكم شراركم » ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا مشت أمتي المطيطاء ، وخدمتهم أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارها علىٰ خيارها » ، وقد وقع هٰذا المعنىٰ في زمن عثمان رضي الله عنه .

الثاني والعشرون : الفتور في أركان الإسلام من إماتة الصلاة ، وَيُعْلَم من التاريخ أن بعد عثمان رضي الله عنه لم يُقِمْ الحج أميرٌ بنفسه ، بل كانوا يرسلون نوابهم حتىٰ أن علياً رضي الله تعالىٰ عنه لم يستطع في بعض السنين على النائب أيضاً ، ومعاوية رضي الله تعالىٰ عنه جعل أباناً أمير الحج ، والسابقون من الخلفاء كانوا يقيمون الحج بأنفسهم .

والثالث والعشرون : التشديد في العبادات وعدم قبول الرخص ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الدين يسرٌ ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه » ، ووردت الآثار في قبول الرخص ، وعلم منه أن التقاط الرخص من أقوال الأئمة الأربعة ما لم يعارضه نص

حسن ، بخلاف قول المتأخرين ، حتىٰ إنهم عدوه من الفسق .

الرابع والعشرون : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بفتنتين ، فقال حذيفة رضي الله عنه : « أيكون بعد هـٰذا الخير شر ؟ قال نعم ، قلت : فما العصمة ؟ قال : السيف . قلت : وهل بعد السيف بقية ؟ قال : نعم ؛ إمارة علىٰ أقذاء ، وهدنة علىٰ دخن . قلت : ثم ماذا ؟ قال ينشأ دعاة الضلالة » .

وفي لفظ : « قلت يا رسول الله ؛ كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بالخير ، فهل بعد هـٰذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ فقال : نعم ، وفيه دخن . قلت : ما دخنه ؟ قال : قوم يَهِدُّونَ بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعده من شر ؟ قال : نعم ؛ دعاة علىٰ أبواب جهنم . قلت : صفهم لنا . قال : هم من جِلدتنا » . . . الحديث .

وَفسّر سعيد بن المسيب رضي الله عنه هاتين الفتنتين ؛ فقال : ثارت الفتنة الأولىٰ ؛ فلم يبق ممن شهد بدراً أحدٌ ، ثم كانت الثانية ؛ فلم يبق ممن شهد الحديبية أحد ، وأظن لو كانت الثالثة لم ترتفع وفي الناس طباخ .

قال البغوي : أراد بالفتنة الأولىٰ مقتل عثمان رضي الله عنه ، وبالثانية الحرة .

فالفتنة الأولىٰ بدأت من مقتل عثمان رضي الله عنه ، حتى استقر أمر معاوية رضي الله عنه . والفتنة الثانية من موت معاوية رضي الله تعالىٰ عنه ، حتى استقر أمر عبد الملك .

ففي الحديث الأول عُدّت الردة من الفتنة ؛ لشدتها على المسلمين ، ولم تُعَدّ في الحديث الثاني لأنها كانت بين المسلمين والكفار ، لا بين المسلمين في أنفسهم .

الخامس والعشرون : عيّن عليه الصلاة والسلام صورة علو الإسلام ورفعته إلىٰ آخر عهد عثمان رضي الله عنه ، ثم أنذر الفتن .

فقال أعرابي : هل للإسلام منتهىً يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، أيما أهل بيت من العرب والعجم أراد الله بهم خيراً أدخل الله عليهم الإسلام ، ثم تقع الفتن كأنها الظُّلل » . الحديث أخرجه البغوي .

السادس والعشرون : عَدّ النبي صلى الله عليه وسلم الفتن ، فقد أخرج البغوي عن عوف رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام : « اعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مُوتان ، ثم استفاضة المال ، ثم فتنة لا يبقىٰ بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً » .

فاستفاضة المال في زمن عثمان رضي الله عنه ، وبعدها فتنة مستطيرة بسبب شهادة عثمان رضي الله عنه .

السابع والعشرون : أخرج البغوي عن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروجها فتح القسطنطينية » . . . الحديث .

والمراد ببيت المقدس : مُلْكُ الشام ، وعمرانه كان في زمن عثمان بإمارة معاوية رضي الله تعالىٰ عنهما ، وخراب يثرب بمقتل عثمان رضي الله عنه . والملحمة حرب الجمل والصّفين ، وفتح القسطنطينية في زمن معاوية رضي الله عنه .

وَيُشْكِلُ هاهنا ترتّبُ خروج الدجال بفتح القسطنطينية ، وكذا في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتىٰ تقتلوا إمامكم ، وتجتلدوا بأسيافكم » ، ولم يظهر أثر الدجال ، ولا أثر الساعة ، وقد مضىٰ أكثر من ألف سنة ، وكذا في أكثر الأحاديث .

والجواب : أن خروج الدجال ، وكذا قيام الساعة ، وكذا كل فتنة لها خصيصة وارتباط خاصٌّ بالقيامة ، كارتباط غرس الشجر ببدُوِّ ثمارها ، وبهـٰذا المعنىٰ أنذر نوح عليه السلام قومه الدجال مع بُعْدِ زمانه أشد البعد ، وهـٰهنا سرٌّ عظيم لا يسعه المقام .

الثامن والعشرون : قال عليه الصلاة والسلام : « بدأ هـٰذا الأمر نبوة ورحمة ، ثم خلافة ورحمة ، ثم ملكاً عَضُوضاً ، ثم عتواً وجبرية » الحديث .

التاسع والعشرون : أخرج ابن ماجه من حديث زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن قال : انتهيت إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . . . فذكر حديثاً طويلاً في الفتن .

الثلاثون : أخرج البغوي عن مرداس الأسلمي رضي الله تعالىٰ عنه مرفوعاً : « يذهب الصالحون ؛ الأول فالأول ، ويبقىٰ حفالة كحفالة الشعير لا يباليهم الله » . ومر تفسيره من قول سعيد بن المسيب رضي الله عنه .

وغير ذلك من الروايات الكثيرة في الفتن ، وتغير الناس ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأحكام خاصة عند ذلك من عدم الخروج ما لم يكن كفراً بواحاً ، ومن السمع والطاعة ولو عبداً حبشياً ، ومن قوله : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وهي أيضاً كثيرة :

الأول : وجوب الطاعة فيما وافق الشرع .

والثاني : عدم الخروج ما لم يكن كفراً بواحاً .

والثالث : إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر ؛ يعني : سواء كان فاضلاً ، أو مفضولاً .

والرابع : إذا أمات الصلاة فليصلِّ الصلوات لوقتها .

والخامس : إذا تعدَّوا في أخذ الزكاة ، فقال عليه الصلاة السلام : « سيأتيكم ركب مبغضون فرحّبوا بهم ، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون » .

والسادس : التخلي للعبادة كان ممنوعاً أولاً ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية في الإسلام » ، وما في معناه ، ومندوب .

* * *

الفهرس الموضوعي للكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ذكر الكلام على حلية الدابة وما ورد في ذلك من أخبار	٣٢٠
تنبيه: معنى: (الزغب، الأيل)	٣٢١
ذكر سيرة الدابة	٣٢٢
تنبيه: في ذكر إعراب «نكتة»	٣٢٢
ذكر بقية روايات سيرة الدابة	٣٢٢
ذكر خروج الدابة وما روي في ذلك	٣٢٣
تنبيه: في ذكر أوجه الجمع بين روايات خروج الدابة	٣٢٤
ذكر بقية الأشراط القريبة	٣٢٥
تنبيه: في ذكر قتل الدابة لإبليس	٣٢٦
تنبيه: نقل المصنف قول المناوي في اختلاف الروايتين اللتين ذكر فيهما الريح وبيان ذلك	٣٢٦
تكملة: ذكر فائدة نقلها المصنف عن ابن عربي وشرحها للعلامة الجامي	٣٢٧
تنبيه: في بيان مراد ابن عربي فيما نقله عنه المصنف	٣٢٨
تنبيه آخر: في ذكر الحكمة من عقم النساء ثلاثين سنة	٣٢٨
تنبيهٌ آخر: في ذكر عدم منافاة ظاهر بعض الروايات	٣٢٩
ذكر بقية الأشراط القريبة	٣٣٠
ذكر النار التي تخرج من قعر عدن وأنها من الأشراط العظام	٣٣٢
تنبيه: بيان أن قوله ﷺ: «تقذرهم نفس الله» أنه من المتشابهات فيجب الإيمان بها على مراد الله ومراد رسوله ﷺ	٣٣٢
تنبيه: في بيان أن النار التي تحشر الناس غير الناس التي ظهرت بالمدينة	٣٣٣
فائدة: ذكر ما نقله الحافظ ابن حجر عن القرطبي في أنواع الحشر	٣٣٤
تنبيه: ذكر الجمع بين روايات أن النار تدور الدنيا في ثمانية أيام وبين أنها تسير سير بطيئة الإبل	٣٣٤

الموضوع **الصفحة**

* * *

هٰذا الكتاب

إنَّه من نفائس ما كُتب عن أشراط ٱلسَّاعة من بدايتها إلىٰ أن تطوىٰ صفحة ٱلدُّنيا ، معتمداً في سردها علىٰ تبيان من لا ينطق عن ٱلهوىٰ صلى ٱلله عليه وآله وسلم .

ومن ٱلمعلوم أن فقه أشراط ٱلساعة . . من ٱلأمور ٱلمهمة في ٱلدين ، ويدل لذلك آخر حديث جبريل ٱلمشهور ؛ حيث سأل ٱلنبي صلى ٱلله عليه وآله وسلم عن ٱلساعة ، ثم علاماتها .

وما ذكر ذلك مع ٱلإسلام وٱلإيمان وٱلإحسان . . إلا ليُشعر بٱلأهمية ٱلبالغة لهٰذا ٱلموضوع .

إنَّ لهٰذا ٱلكتاب مميِّزات يرتفع بها عمَّا سواه ، ويختصُّ بها عمَّا عداه ؛ فهو ليس من ٱلكتب ٱلَّتي ٱبتدعت تفسيرات للنُّصوص ، وقصرت علامات من أشراط ٱلسَّاعة علىٰ أحداث خاصَّةٍ بظنون ٱجتهادية ، فكبا بأربابها جواد ٱلاجتهاد ، ولم تصب كبد ٱلحقيقة .

كما أنَّه لم يسطر ترهاتٍ هذىٰ بها بعض ٱلكُتَّاب فيما يتعلَّق ببعض ٱلأشراط ، فكانت أشبه بتنميق ٱلخرَّاصين وٱلكُهَّان ؛ لِما يزعمون من شقِّ ستار ٱلغيب ، وٱستكشاف ٱلأحداث من لَوْحِهِ .

ومع كثرة ما كُتب وما سيكتب في هٰذا ٱلموضوع . . يبقىٰ هٰذا ٱلكتاب ٱلمبارك مرجعاً علمياً ، ومصدراً هاماً لمن أراد ٱلمعرفة وٱلاطلاع ، وٱلإحاطة بأحداث آخر ٱلزمان .

نعم ؛ إنَّ ميزة هٰذا ٱلكتاب أنَّه أثريٌّ خالص ، وكاتبه محدِّث بأرع مشهور ، جرىٰ في تأليفه علىٰ سَنَن ٱلأسلاف ، وأودع فيه من ٱلفوائد ٱلحديثية وٱلأشراط ما لا يوجد في سواه ، كما أُلحق به تعليقات للعلامة ٱلمحدث محمد زكريا ٱلكاندهلوي رحمه ٱلله ، زادت من أهمية ٱلكتاب .

فهو حقّاً من ٱلكتب ٱلَّتي ينبغي أن تقرأ وتقتنىٰ ، ومثله يعض ٱلفطن عليه بٱلنَّواجذ ؛ لِما تميَّز به من أصالة وعمق وٱستقصاء ، وبعدٍ عن ٱلانحراف وٱلتَّخمين .

باختصار : هٰذا ٱلكتاب فيه :

ٱلرؤية ٱلمستقبلية للأحداث . . من ٱلمنظار ٱلنبوي ٱلصادق